

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ وَفَقْسِيرَةُ الْقُرْآنِ

تَأليف
أَمِيرِ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلِ بْنِ الْحُسَيْنِ
الطَّبْرَسِيِّ

طبعة جديدة مُنقَّحة

الطبعة والنشر والتوزيع
للطبع والنشر
بيروت - لبنان

jabir.abbas@yahoo.com

مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



مَجْمَعُ الْبَيِّنَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

أَمِيرُ الْإِسْلَامِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحُسَيْنِ الطَّبْرَسِيُّ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ

الجزء التاسع

دار المرتضى
بيروت

DAR AL-MORTADA

Printing –Publishing –Distributing
Lebanon –Beirut

P O Box: 155/25 Ghobiery

Tel –Fax: 009611840392

E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان بيروت , ص.ب : ٢٥/١٥٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

سُورَةُ فَصَّلَتْ

مكية/آياتها (٥٤)

- عدد آياتها: أربع وخمسون آية كوفي، ثلاث حجازي، آيتان بصري شامي.
- اختلافها: آيتان ﴿حَمْدٌ﴾ كوفي، ﴿عَادٍ وَنَمُودٌ﴾ حجازي كوفي.
- فضلها: أَبِي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ حم السجدة، أُعْطِيَ^(١) بعدد كل حرف منها عشر حسنات». وروى ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ حم السجدة، كانت له نوراً يوم القيامة مَدَّ بصره، وسروراً، وعاش في هذه الدنيا مغبوطاً محموداً».
- تفسيرها: ختم الله سورة المؤمن بذكر المنكرين لآيات الله، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ ١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي إِذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ٥﴾.

● الإعراب: قال الزجاج: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ﴾، هذا مذهب البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون ﴿تَنْزِيلٌ﴾ يرتفع بـ ﴿حَمْدٌ﴾ ويجوز أن يرتفع بإضمار: هذا، والمعنى: هذا تنزيل، أو هو تنزيل. وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: نصب ﴿قُرْآنًا﴾ على الحال بمعنى: بُيِّنَتْ آياته في حال جمعه، و﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ من صفته.

● المعنى: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدّم القول فيه، وقيل: في وجه الاشتراك في افتتاح هذه السور السبع بـ ﴿حَمْدٌ﴾ أنه للمشاكلة التي بينها بما يختص به وليس لغيرها، وذلك أن كل واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب، مع تقاربها في الطول، ومع شدة تشاكل الكلام في النظم. ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نزل به جبرائيل على محمد ﷺ. ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وصف الكتاب بالتفصيل دون الإجمال، لأن التفصيل يأتي على وجوه البيان، أي: الذي بينت آياته بياناً تاماً، والتبيين فيه على وجوه، منها: تبين الواجب مما ليس بواجب، وتبيين الأولى في الحكمة مما

سورة فصلت

ليس بأولى، وتبيين الجائز مما ليس بجائز، وتبيين الحق من الباطل، وتبيين الدليل عن الحق مما ليس بدليل، وتبيين ما يرغب فيه مما لا يرغب فيه، وتبيين ما يحذر منه مما لا يحذر منه، إلى غير ذلك من الوجوه.

وقيل: فَصَّلْتَ آياته بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والحلال والحرام، والمواظع والأمثال.

وقيل: فَصَّلْتَ، أي: نظمت آياته على أحسن نظام وأوضح بيان.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: وصفه بأنه قرآن لأنه جمع بعضه إلى بعض، وبأنه عربي لأنه يخالف جميع اللغات التي ليست بعربية، وكل ذلك يدل على حدوث القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللسان العربي ويعجزون عن مثله فيعرفون إعجازه. وقيل: يعلمون أن القرآن من عند الله نزل، عن الضحاك. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يبشر المؤمن بما فيه من الوعد، وينذر الكافر بما فيه من الوعيد. ﴿فَاعْرِضْ أَعْيُنَهُمْ﴾ يعني أهل مكة عدلوا عن الإيمان بالله والتدبر فيه، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعون سَمْعَ تَفَكُّرٍ وقبول، فكانهم لا يسمعون حقيقة. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَثٍ﴾ أي: في أغشية، عن مجاهد والسدي. ﴿وَمَا نَدْعُونَ إِلَّا إِلَهَ﴾ فلا نفقه ما تقول، وإنما قالوا ذلك ليؤيسوا النبي ﷺ من قبولهم دينه، فكانهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل إليه شيء مما وراءه. ﴿وَفِيْءًا ذَاتِنَا وَقُرْ﴾ أي: ثقل عن استماع القرآن وصمم، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ أي: بيننا وبينك فرقة في الدين، وحاجز في النحلة، فلا نوافقك على ما تقول، عن الزجاج. وقيل: إنه تمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الإجابة، عن علي بن عيسى. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ قيل: إن أبا جهل رفع ثوباً بينه وبين النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنت من ذلك الجانب، ونحن من هذا الجانب، فاعمل أنت على دينك ومذهبك، إنا عاملون على ديننا ومذهبنا، عن مقاتل. وقيل معناه: فاعمل في هلاكنا إنا عاملون في هلاكك، عن الفراء. وقيل: فاعمل به في إبطال أمرنا إنا عاملون في إبطال أمرك، وهذا غاية في العناد.



قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ﴾ ﴿٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾ ﴿قُلْ أَنتُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۥ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَأْكُلُوا﴾ ﴿١١﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «سواء» بالرفع، وقرأ يعقوب: «سواء» بالجر، والباقون:

«سواء» بالنصب.

● **الحجة:** من قرأ: «سواء» بالرفع جعله خبر محذوف، أي: هو سواء، ومن قرأ: «سواء» بالجر جعله صفة «يَأْتِرُ»، التقدير: في أربعة أيام مستويات تامات، وأما النصب فعلى المصدر على معنى: استوت سواء واستواء.

● **المعنى:** ثم قال لنبية ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من ولد آدم، لحم ودم، وإنما خصني الله تعالى بنبوته، وميزني منكم بأن أوحى إلي، ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في العبادة. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: لا تميلوا عن سبيله، وتوجهوا إليه بالطاعة، كما يقال: استقم إلى منزلك، أي: لا تعدل عنه إلى غيره، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ من الشرك واطلبوا المغفرة لذنوبكم من جهته. ثم أوعدهم فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: لا يعطون الزكاة المفروضة، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالشرائع، وهذا هو الظاهر. وقيل معناه: لا يطهرون أنفسهم من الشرك، بقول: لا إله إلا الله، فإنها زكاة الأنفس، عن عطاء، عن ابن عباس. وهذا كما يقال: أعطى فلان من نفسه الطاعة، أي: ألزمها نفسه. وقد وصف سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةٌ﴾. وقيل معناه: لا يُقَرُّونَ بالزكاة، ولا يَزَوُّونَ إيتاءها، ولا يؤمنون بها، عن الحسن وقتادة. وعن الكلبي: عابهم الله بها وقد كانوا يَحْجُّونَ ويعتَمرون. وقيل: لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون، عن الضحاك ومقاتل، وكان يقول: الزكاة قنطرة الإسلام. وقال الفراء: الزكاة في هذا الموضع أن قريشاً كانت تطعم الحاج وتسقيهم، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم مع ذلك يجحدون بما أخبر الله تعالى به من أحوال الآخرة. ثم عَقَّبَ سبحانه ما ذكره من وعيد الكافرين، بذكر الوعد للمؤمنين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدّقوا بأمر الآخرة من الثواب والعقاب، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لهم جزاء على ذلك غير مقطوع، بل هو متصل دائم. ويجوز أن يكون معناه: إنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة.

ثم ويخبرهم سبحانه على كفرهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم على وجه الإنكار عليهم ﴿أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام تعجيب، أي: كيف تستجيزون أن تكفروا وتجحدوا نعمة من خلق الأرض ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، أي: في مقدار يومين، ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ أي: أمثالاً وأشباهاً تعبدونهم، وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إنما يستدل على إثبات ذاته وصفاته بأفعاله، فهي دالة على إثبات صفاته إما بنفسها كما يدل صحة الفعل على كونه قادراً، وإحكامه على كونه عالماً، وإما بواسطة كما يدل كونه قادراً عالماً على كونه حياً موجوداً سمياً بصيراً. ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ذلك الذي خلق الأرض في يومين خالق العالمين، ومالك التصرف فيهم. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿رَوَّاسٍ﴾ أي: جبلاً راسيات ثابتات ﴿مِّنْ فَوْقِهَا﴾ أي: من فوق الأرض، ﴿وَنَزَّلْنَا فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. وقيل: بأن أنبت شجرها من غير غرس، وأخرج نبتها من غير زرع وبذر، وأودعها مما ينتفع به العباد، عن السدي. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا﴾

سورة فصلت

أَفَوَيْتَ ۖ أَي: قَدَّرَ فِي الْأَرْضِ أَرْزَاقَ أَهْلِهَا عَلَى حَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي قَوَامِ أَبْدَانِ النَّاسِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ. وَقِيلَ: قَدَّرَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ مِنْهَا مَا لَمْ يَجْعَلْهُ فِي أُخْرَى لِيَعِيشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِالتَّجَارَةِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أَي: فِي تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ حِينَ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ، فَالْيَوْمَانِ الْأَوَّلَانِ دَاخِلَانِ فِيهَا، كَمَا تَقُولُ: خَرَجْتُ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى بَغْدَادٍ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَإِلَى الْكُوفَةِ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا، أَي: فِي تَتِمَّةِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا. ﴿سَوَاءٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ أَي: مُسْتَوِيَةٌ كَامِلَةٌ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، لِلْسَائِلِينَ عَنْ مَدَّةِ خَلْقِ الْأَرْضِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَرْزَاقَهُمْ وَيَطْلُبُونَ أَقْوَاتَهُمْ، فَإِنْ كَلَّا يَطْلُبُ الْقَوْتَ وَيَسْأَلُهُ، عَنْ قِتَادَةِ وَالسَّيْدِ.

وَاخْتَلَفَ فِي عِلَّةِ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ. فَقِيلَ: إِنَّمَا خَلَقَ ذَلِكَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ، لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ مِنَ الصَّوَابِ التَّأْنِي فِي الْأُمُورِ وَتَرْكُ الْإِسْتِعْجَالِ فِيهَا، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، عَنْ الزَّجَاجِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا خَلَقَ ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ لِيَعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ قَادِرٍ مُخْتَارٍ، عَالِمٍ بِالصَّالِحِ وَبِوُجُوهِ الْأَحْكَامِ، إِذْ لَوْ صَدَرَتْ عَنْ مَطْبُوعٍ أَوْ مُوجِبٍ لَحَصَلَتْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَرَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمٍ الْأَحَدِ وَالْإِنْسَانَ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ وَالْمَاءَ وَالْعِمْرَانَ وَالْخَرَابَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَتِلْكَ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْمَلَائِكَةَ وَآدَمَ.



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ۖ

● **الإعراب:** ﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾ مصدران وضعاً موضع الحال، التقدير: ﴿ائْتِيَا﴾ تطيعان إطاعة أو تُكْرَهان كرهاً، و﴿طَائِعِينَ﴾ يدل على ذلك، وهو منصوب على الحال. ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أيضاً منصوب على الحال بعد الفراغ من الفعل.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه خلق السماوات، فقال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أَي: ثُمَّ قَصَدَ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ دُخَانًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ بِخَارِ الْأَرْضِ، وَأَصْلُ الْإِسْتَوَاءِ: الْإِسْتِقَامَةُ وَالْقَصْدُ لِلتَّدْبِيرِ الْمُسْتَقِيمِ تَسْوِيَةً لَهُ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: ثُمَّ اسْتَوَىٰ أَمْرُهُ إِلَى

السماء، عن الحسن. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: قال ابن عباس: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار، وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، بل أخبر الله سبحانه عن اختراعه السماوات والأرض، وإنشائه لهما من غير تعذر ولا كلفة ولا مشقة، بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل فيفعل من غير تلبث ولا توقف، فعبر عن ذلك بالأمر والطاعة، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإنما قال: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ولم يقل: أتينا طائعتين، لأن المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء^(١)، فغلب حكم العقلاء، عن قطرب. وقيل: إنه لما خُوِّطِبَ خطاب من يعقل جُمِعَ جمع من يعقل، كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ومثله كثير في كلامهم، قال:

فَأَجْهَشْتُ لِلْبَرْبِ^(٢) حِينَ رَأَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتِي
فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ الدِّينَ رَأَيْتُهُمْ بِجَنِّبِكَ فِي خَفْضِ وَطِيبِ زَمَانٍ؟
فَقَالَ: مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ؟
وقال آخر:

أَلَا أُنْعِمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الرُّسْمُ وَأَنْطِقْ وَحَدَّثَ حَدِيثَ الْحَيِّ إِنْ شِئْتَ وَاضْطَقْ

وقد ذكرنا فيما تقدم من أمثال ذلك ما فيه كفاية. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ﴾ يفيد أنه خلق السماء بعد الأرض، وخلق الأقوات فيها. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. وعلى هذا فتكون الفائدة فيه أن الأرض كانت مخلوقة غير مدحوة، فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض ويسطها، وإنما جعل الله السماء أولاً دخاناً، ثم سماوات أطباقاً، ثم زينها بالمصابيح ليدل ذلك على أنه سبحانه قادر لنفسه لا يعجزه شيء، عالم لذاته لا يخفى عليه شيء، غني لا يحتاج، وكل ما سواه محتاج إليه سبحانه وتعالى.

﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾ أي: صنعهن وأحكمهن وفرغ من خلقهن، ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم الخميس والجمعة. قال السدي: إنما سمي جمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: خلق فيها ما أَرَادَهُ من ملك وغيره، عن السدي وقتادة. وقيل: معناه وأمر في كل سماء بما أَرَادَ، عن مقاتل. وقيل: وأوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة، عن علي بن عيسى.

﴿وَرَبَّانَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ﴾ سَمَى الكواكب مصابيح، لأنه يقع الاهتداء بها، كقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. ﴿وَحَفَظًا﴾ أي: وحفظناها من استماع الشياطين قيل^(٣): بالكواكب

(١) «وغير العقلاء».

(٢) جهش وأجهش إليه: فزع إليه هاتماً بالبكاء، ومتهيناً له، كالطفل يفزع إلى أمه. والبوابة الفلاة، والضمير في رأيتيه راجع إلى المكان.

(٣) ليس في بعض النسخ لفظة (قيل) وهو الصواب.

سورة فصلت

حفظاً، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره ﴿تَقْدِيرُ الرَّزِيزِ﴾ في ملكه لا يمتنع عليه شيء، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمصالح خلقه لا يخفى عليه شيء.

ثم عَقَّب سبحانه دلائل التوحيد بذكر الوعيد لأهل الشرك والجحود من العبيد، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بك بعد هذا البيان، ﴿نَقُلْ﴾ يا محمد لهم مُخَوِّفًا يَا هُمْ ﴿أَنْذَرْتَكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: استعدوا للعذاب، فقد خَوَّفْتُمْ عَذَاباً مِثْلَ عَذَابِ عَادٍ وَثَمُودَ لما أَعْرَضُوا عن الإيمان. والصاعقة: المهلكة من كل شيء، وهي في العرف اسم للنار التي تنزل من السماء فتحرق. ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: إذ متعلقة بقوله: ﴿صَعِقَةً﴾، والتقدير: نزلت بهم حين أتتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم، عن ابن عباس. يعني به الرسل الذين جاءوا آباءهم، والرسل الذين جاؤوهم في أنفسهم لأنهم كانوا خلف من جاء آباءهم من الرسل، فيكون الهاء والميم في ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ للرسل. وقيل معناه: إن منهم من تقدم زمانهم، ومنهم من تأخر. قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد: أتاها أخبار الرسل من هاهنا ومن هاهنا. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: أرسلناهم بألا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا بعبادته غيره، ﴿قَالُوا﴾ أي: فقال المشركون عند ذلك ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ أن نؤمن ونخلع الأنناد ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ تدعونا إلى ذلك، ولم يبعث بشراً مثلنا، وكأنهم أنفوا من الانقياد لبشر مثلهم، وجعلوا أن الله تعالى يبعث الأنبياء على حسب ما يعلمه من مصالح عباده، ويعلم من يصلح للقيام بأعباء النبوة. ﴿فَإِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: أظهروا الكفر بهم والجحود. ثم فَصَّلَ سبحانه أخبارهم، فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تجبروا وعتوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وتكبروا على أهلها ﴿يَغْيِرُ الْخَلْقَ﴾ أي: بغير حق جعله الله لهم بل للكفر المحض والظلم الصراح. ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بقوتهم لما هَدَّاهُمْ هود بالعذاب، فقالوا: نحن نقدر على دفعه بفضل قوتنا، إذ لا أحد أشد منا قوة، فقال الله سبحانه رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وخلق فيهم هذه القوة أعظم اقتداراً منهم، فلو شاء أهلكهم، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بدلائلنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونها ولا يعترفون بها.



قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (١١) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر وأهل الكوفة: «نَحْسَاتٍ» بكسر الحاء والباقون: «نَحْسَاتٍ» بسكونها. وقرأ نافع ويعقوب: «نَحْشَرُ» بالنون «أَعْدَاءُ اللَّهِ» بالنصب، والباقون: «يُخْشَرُ» بالياء على ما لم يسم فاعله، «أَعْدَاءُ اللَّهِ» بالرفع.

● الحجة: قال أبو علي: النحس: كلمة يكون على ضريين:

أحدهما: أن يكون اسماً.

والآخر: أن يكون وصفاً. فمما جاء فيه اسماً مصدراً قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ مُسْتَمِرٍّ﴾، فالإضافة إليه تدل على أنه اسم ليس بوصف^(١) لا يضاف إليه الموصوف. وقال المفسرون في «نحسات» قولين:

أحدهما: الشديدة البرد.

والآخر: إنها المشؤومة عليهم. فتقدير قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ﴾: في يوم مشؤوم. وقالوا: يوم نحس، ويوم نحس، فمن أضافه كان مثل ما في التنزيل، ومن أجراه على الأول احتمل أمرين: أحدهما: أن يكون وصفاً مثل: فسل^(٢) ورذل.

والآخر: أن يكون مصدراً وصف به نحو: رجل عدل.

فمن قرأ: «في أيام نحسات» فأسكن الحاء، أسكنها لأنه صفة، مثل عِبَلَات^(٣) وصَغَبَات. ويجوز أن يكون جمع المصدر وتركه على إسكانه في الجمع كما قالوا: زُورَة وعدلة. قال أبو الحسن: لم أسمع في النحس إلا الإسكان. وقال أبو عبيدة: نحسات ذوات نحس، فيمكن أن يكون من كسر العين جعله صفة من باب فَرِقَ ونَزَق^(٤)، وجمع على ذلك.

ومن قرأ: «نحشر أعداء الله» فحجته أنه معطوف على قوله: ﴿وَبَجَيْنَا﴾، ويقويه قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾. ومن قرأ: «يُحْشَرُ» فبني الفعل للمفعول به، يقويه قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وكلا الأمرين حسن.

● اللغة: اشتقاق الصَّرَصَر من الصَّرِير، ضعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى، يقال: صرَّ صريراً، وصرصر يصرصر صرصرة، وريح صرصر: شديدة الصوت، وأصله: صرَّر، ثم قلبت الراء صاداً كما يقال: نَهْه ونهْنهه، وكَفَكفه وكَفَفه، قال النابغة:

أَكْفَكْفُ عِبْرَةٍ غَلِبْتُ عَزَائِي إِذَا نَهْنَهْتُهَا عَادَتْ دُبَاحًا^(٥)

الخزي: الهون الذي يستحي من مثله خوفاً من الفضيحة. والهون: الهوان. والوَزَع: المنع والكف، ومنه قول الحسن:

(١) [لان الوصف].

(٢) الفسل: الضعيف الرذل.

(٣) العِبَلَة: الضخمة. وامرأة عِبَلَة أي تامة الخلق.

(٤) فرق فَرَقًا: فزع فهو فَرِقَ ونزق نَزَقًا ونَزُوقًا: طاش وخَفَّ عند القلب، ونشط فهو نزق.

(٥) كفكف الدمع: مسحه مرة بعد مرة ليرده. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض. وقيل: تردد البكاء في الصدر. والعزاء: الصبر. والذباح بالضم والكسر: وجع في الحلق. مقصوده: أ منع عِبْرَة غلبت صبري عن ظهورها ولكن إذا دفعتها صارت وجعاً، وشجى في الحلق.

لا بد للناس من وزعة

● الإعراب: قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ انتصب الظرف بمدلول قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، لأن يوماً بمنزلة إذا. ولا ينتصب بقوله: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنه ماض، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ مستقبل فلا يعمل فيه الماضي.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن إهلاكهم بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: عاصفاً شديدة الصوت، من الصرّة: وهي الصيحة. وقيل: هي الباردة من الصّر: وهو البرد، عن ابن عباس وقتادة. وقال الفراء: هي الباردة تحرق كما تحرق النار. ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ أي: نكدات مشؤومات ذوات نحوس، عن مجاهد وقتادة والسّدي. والنحس: سبب الشر، والسعد: سبب الخير، وبذلك سميت سعود النجوم ونحوسها. وقيل: نحسات ذوات غبار وتراب، حتى لا يكاد يبصر بعضهم بعضاً، عن الجبائي. وقيل: نحسات باردات، والعرب تسمي البرد نحساً، عن أبي مسلم. ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فعلنا ذلك بهم لنذيقهم عذاب الهون والذل، وهو عذاب الذين يُجَزَوْنَ في الدنيا فيوقنوا بقوة مُعَذِّبِهِمْ، وبقدرته عليهم، ويظهر ذلك لمن رأى حالهم. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ وأفضح من ذلك ﴿وَهُمْ لَا يُصَرُّونَ﴾ أي: لا يدفع عنهم العذاب الذي ينزل بهم.

ثم ذكر قصة ثمود فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بَيَّنَّا لهم سبيل الخير والشر، عن قتادة. وقيل: دللناهم وبيّنا لهم الحق، عن ابن عباس والسّدي وابن زيد، ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا العمى في الدين على قبول الهدى، وبش الاختيار ذلك، عن الحسن. وقيل: اختاروا الكفر على الإيمان، عن ابن زيد والفراء. ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ أَلْوَنَ﴾ أي: ذي الهون، وهو الذي يهينهم ويُخزيهم. وقد قيل: إنّ كل عذاب صاعقة، لأن كل من يسمعها يصعق لها. ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً، وعقرهم الناقة. ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك، أي: ونَجِّنَا صالحاً ومن آمن به من العذاب.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال الكفار يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا. والمعنى: إذا حشروا وقفوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: جاءوا النار التي حشروا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: شهد عليهم سمعهم بما قرعه من الدعاء إلى الحق فأعرضوا عنه ولم يقبلوه، وأبصارهم بما رأوا من الآيات الدالة على وحدانية الله فلم يؤمنوا، وسائر جلودهم بما باشروه من المعاصي والأفعال القبيحة. وقيل في شهادة الجوارح قولان:

أحدهما: إن الله تعالى بينها بُنية الحي^(١)، ويلجئها إلى الاعتراف والشهادة بما فعله أصحابها.

والآخر: إن الله يفعل فيها الشهادة، وإنما أضاف الشهادة إليها مجازاً.

وقيل في ذلك أيضاً وجه ثالث، وهو أنه يظهر فيها أمارات دالة على كون أصحابها مستحقين للنار، فسمى ذلك شهادة مجازاً، كما يقال: عينك تشهدان بسهرك. وقيل: إن المراد بالجلود هنا الفروج على طريق الكناية، عن ابن عباس والمفسرين.



قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا فَاَلَوْ اَنْطَقْنَا اَللهُ الَّذِى اَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ اَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا اَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ اَنَّ اَللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيْرًا مِّمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٧﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ اَرَدْتُمْ فَاَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿١٨﴾ فَاِنْ يَصْبِرُوْا فَالنَّارُ مَثْوٰى لَهُمْ وَاِنْ يَسْتَغْنِبُوْا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِيْنَ ﴿١٩﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوْا لَهُمْ مَا بَيْنَ اَيْدِيْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِيْ اَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغِيْرِ وَالْاِنْسِ اِنَّهُمْ كَانُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن وعمر بن عبيد: «وإن يُستَغْنِبُوا» بضم الباء وفتح التاء، «فما هم من المعتبين» بكسر التاء.

● **الحجة:** قال ابن جني: معناه: لو استعطفوا لما عطفوا، لأنه لا غناء عندهم ولا خير فيهم فيجيئوا إلى جميل.

● **اللغة:** الإنطاق: جعل القادر على الكلام ينطق، إما بالإلجاء إلى النطق، أو الدعاء إليه، والنطق: إدارة اللسان في الفم بالكلام، ولذلك لا يوصف سبحانه أنه ناطق وإن وصف بأنه متكلم. والإرداء: الإهلاك، يقال: أراده فردي يردى فهو رد، قال الأعشى:

أفني الطُوفَ خِفَتَ عَلَيَّ الرَّدَى وكم من رَدٍ أَهْلَهُ لَمْ يَرِمْ^(١)
والاستعتاب: طلب العتبي، وهي الرضا. وهو الاسترضاء، والإعتاب: الإرضاء، وأصل الإعتاب عند العرب: استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ، ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضاً لإعادته إلى ما كان من الألفة. وأصل التقييض: التبديل، ومنه المقايضة، وهي مبادلة مال بمال، قال الشماخ:

تذكرت لما أثقل الدين كاهلي وعاب يزيّد ما أردت تعذراً
رجالاً مضوا مني فلست مقايضاً بهم أبداً من سائر الناس معشراً^(٢)

- (١) رام بالمكان: أقام وثبت. يقول: أتخاف عليّ الردى في الطوف، وعدم القرار في مكان، مع أن كثيراً ممن هلك أهله لم يبق بالمكان، وسار معه ولم ينفعه المنية، ولم تمنعه عن الردى.
- (٢) رجالاً: مفعول تذكرت. ومعشراً: مفعول مقايضاً. يتأسف على فوت رجال أجواد كان يرجوهم لرفع ثقل الدين عنه ويقول: لا أبادل بهم معشراً من سائر الناس.

سورة فصلت

● الإعراب: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾: ذلكم مبتدأ وظنكم خبره. و﴿أَزْدَنْكُمُ﴾ خبر بعد خبر، وإن أضممت قد فجعلته حالاً جاز، أي: ذلكم ظنكم مردياً إياكم، ويجوز أن يكون ﴿ذَلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً منه، و﴿أَزْدَنْكُمُ﴾ خبر المبتدأ.

● المعنى: ثم حكي سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي: يعاتبون أعضاءهم فيقولون لها: لم شهدتم علينا، ﴿قَالُوا﴾ أي: فتقول لجلودهم في جوابهم: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: مما ينطق، والمعنى: أعطانا الله آلة النطق والقدرة على النطق، وتم الكلام. ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، أي: إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي سواه تعالى، وليس هذا من جواب الجلود. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ﴾ أي: أن يشهد ﴿عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ معناه: وما كنتم تستخفون أي: لم يكن يتهاى لكم أن تستروا أعمالكم عن هذه الأعضاء، لأنكم كنتم بها تعملون، فجعلها الله شاهدة عليكم في القيامة. وقيل معناه: وما كنتم تتركون المعاصي حذراً أن تشهد عليكم جوارحكم بها، لأنكم ما كنتم تظنون ذلك. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لجهلكم بالله تعالى فهان عليكم ارتكاب المعاصي لذلك. وروي عن ابن مسعود أنها نزلت في ثلاثة نفر تساروا، وقالوا: أترى الله يسمع سِرارنا؟ ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عملتم عمل من ظن أن عمله يخفى على الله، كما يقال: أهلك نفسي، أي: عملت عمل من أهلك النفس. وقيل: إن الكفار كانوا يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكنه يعلم ما يظهر، عن ابن عباس. ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَزْدَنْكُمُ﴾: ﴿ذَلِكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبره، و﴿أَزْدَنْكُمُ﴾ خبر ثان، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً من ﴿ذَلِكُمْ﴾، ويكون المعنى: وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم إذ هوّن عليكم أمر المعاصي، وأدى بكم إلى الكفر. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فظللتم من جملة من خسرت تجارته، لأنكم خسرت الجنة وحصلتم في النار، قال الصادق عليه السلام: ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار. ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة، إن الله تعالى يقول: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية. ثم قال: إن الله عند ظن عبده به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أخبر سبحانه عن حالهم، فقال: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: فإن يصبر هؤلاء على النار وآلامها، وليس المراد به الصبر المحمود، ولكنه الإمساك عن إظهار الشكوى، وعن الاستغاثة، فالنار مسكن لهم. ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا العتبي ويسألوا الله تعالى أن يرضى عنهم، فليس لهم طريق إلى الإعتاب، فما هم من يقبل عذرهم ويرضى عنهم. وتقدير الآية: إنهم إن صبروا وسكتوا وجزعوا فالنار مأواهم، كما قال سبحانه: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَكُمْ﴾. والمعتب: هو الذي يقبل عتابه ويجاب إلى ما سأل. وقيل معناه: وإن يستغيثوا فما هم من المغاثين.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي: هيأنا لهم قرناء من الشياطين، عن مقاتل. ومعناه: بدلناهم قرناء سوء من الجن والإنس، مكان قرناء الصدق الذين أمروا بمقارنتهم، فلم يفعلوا. بين الله سبحانه أنه إنما فعل ذلك عقوبة لهم على مخالفتهم، ونظيره: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾. وقيل معناه: خيلنا بينهم وبين قرناء السوء بما استوجبوه من الخذلان، عن الحسن. ﴿فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَبِينُ أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: زينوا لهم ما بين أيديهم ما أمرنا من أمر الدنيا حتى آثروه وعملوا له، وما خلفهم من أمر الآخرة بدعائهم إلى أنه لا بعث ولا جزاء، عن الحسن والسدي. وقيل: فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة، فقالوا: لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، وما خلفهم من أمر الدنيا من جمع الأموال وترك النفقة في وجوه البر، عن الفراء. وقيل: ما بين أيديهم: ما قدموه من أفعالهم السيئة حتى ارتكبوها، وما خلفهم: ما سنوه لغيرهم ممن يأتي بعدهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم الوعيد والعذاب ﴿فِي أَمْرِ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: صاروا في أمم أمثالهم كذبوا لتكذبيهم، قد مضوا قبلهم، وجب عليهم العذاب بعصيانهم. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ خسروا الجنة ونعيمها.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكِ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٧٠﴾.

● **اللغة:** اللغو: الكلام الذي لا معنى له يستفاد، وإلغاء الكلمة: إسقاط عملها، يقال: لغى يلغى ويلغو لغواً، ولغى يلغى لغاً، قال:

عن اللفاء ورَفَثِ التَّكَلِّمِ

● **الإعراب:** ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ. و﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره. و﴿النَّارُ﴾ بدل من قوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، ويجوز أن تكون ﴿النَّارُ﴾ تفسيراً، كأنه قيل: ما هي؟ فقيل: ﴿هو النار﴾. قال الزجاج: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: لهم في النار دار الخلد، والنار هي الدار، كما تقول: لك في هذه الدار دار سرور، وأنت تعني الدار بعينها، كما قال الشاعر:

سورة فصلت

أخو رغائب يُعطيها ويسألها يابى الظلّامة منه النّوفل الزّفر^(١)

فيكون ذلك من باب التجريد. وموضع ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ نصب، تقديره: تنزل عليهم الملائكة بألا يخافوا، فلما حذف الباء وصل الفعل فنصبه.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من ذكر الكفار، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قال رؤساؤهم لأتباعهم، أو قال بعضهم لبعض، يعني كفار قريش ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي يقرأه محمد ولا تصغوا إليه، ﴿وَالْقَوْمَ فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللغو الباطل، وبما لا يعتد به من الكلام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لتغلبوه باللغو والباطل، ولا يتمكن أصحابه من الاستماع. وقيل: الغوا فيه بالتخليط في القول والمكاء والصفير، عن مجاهد. وقيل معناه: ارفعوا أصواتكم في وجهه بالشعر والرجز، عن ابن عباس والسدي. لما عجزوا عن معارضة القرآن احتالوا في اللبس على غيرهم، وتواصوا بترك استماعه والإلغاء فيه عند قراءته. ثم أوعدهم الله سبحانه فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بالأسر والقتل يوم بدر، وقيل: في الآخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: نجازيهم بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم، وهو الكفر والشرك، وخص الأسوأ بالذكر للمبالغة في الزجر. وقيل معناه: لنجزّيهم بأسوأ أعمالهم، وهي المعاصي دون غيرها مما لا يستحق به العذاب. ﴿ذَلِكَ﴾ يعني ما تقدم الوعيد به ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين عادّوه بالعصيان والكفر، وعادّوا أولياءه من الأنبياء والمؤمنين ﴿النَّارُ﴾ وهي النار، والكون فيها ﴿هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: منزل الدوام والتأبيد ﴿جَزَاءُ﴾ وعقوبة ﴿بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ يعني القرآن، يجحدون بأنه من عند الله، عن مقاتل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وسيقول الكفار في النار: ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِن الْغِيَرِ وَالْإِنْسِ﴾ يعنون إبليس الأبالسة، وقابيل بن آدم أول من أبدع المعصية، روي ذلك عن علي عليه السلام. وقيل: المراد بذلك كل من أبدع الكفر والضلالة من الجن والإنس، والمراد باللذين: جنس الجن والإنس، كما في قوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾. و﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ تمنوا الشدة لشدة عداوتهم لهم وبغضهم إياهم بما أضلّوهم وأغوّوهم أن يجعلوهم تحت أقدامهم في الدرك الأسفل من النار. وقيل: إن المراد به: ندوسهما ونطوئهما بأقدامنا إذ لا لهما ليكونا من الأسفلين الأذلين. قال ابن عباس: ليكونا أشد عذاباً منا.

ولما ذكر سبحانه وعيد الكفار عقبه بذكر الوعد للمؤمنين الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: وحدوا الله تعالى بلسانهم، واعترفوا به، وصدقوا أنبياءه ﴿ثُمَّ أَسْتَفْتُمُوا﴾ أي:

(١) الرغائب: العطايا ويحتمل قوياً كون يسألها بضم الياء ليناسب المدح. والظلّامة: ما تظلمه الرجل كالظليمة. والنوفل: الرجل المعطاء. والزفر: السيد الذي يحمل الأثقال، ومنه للتجريد نحو: لقيت منه أسداً، والمراد التشبيه بالأسد. وكذا هنا مقصوده أن السيد المعطاء ينشأ أباء الظلّامة في أفعاله من هذا الممدوح، فكانه جعله عين إياه الظلّامة، وجزّد منه إياه الظلّامة الذي هو في النوفل الزفر. وقد مر البيت في ج ٢ بلفظ (يسلها) بدل (يسألها). وقال في السان: قوله منه مؤكدة للكلام كما قال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ لَكُم دُونُكُمْ وَيُجْلَىٰ﴾ والمعنى: يابى الظلّامة لأنه النوفل الزفر.

استمروا على أن الله ربهم وحده لم يشركوا به شيئاً، عن مجاهد. وقيل معناه: ثم استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، عن ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد. وقيل: ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم. وقيل: ثم استقاموا على ما توجبه الربوبية من عبادته، عن ابن مسلم. وروي عن أنس قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها». وروى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة فقال: هي والله ما أنتم عليه. ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني عند الموت، عن مجاهد والسدي. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله، عن الحسن وثابت وقتادة. وقيل: في القيامة، عن الجبائي وأبي مسلم. وقيل: إن البشري تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت وفي القبر، وعند البعث، عن وكيع بن الجراح. ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: تقول لهم: لا تخافوا عقاب الله، ولا تحزنوا لفوات الثواب. وقيل: لا تخافوا مما أمامكم من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما وراءكم وعلى ما خلفتم من أهل وولد، عن عكرمة ومجاهد. وقيل: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم، فإني أغفرها لكم، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: إن الخوف يتناول المستقبل، والحزن يتناول الماضي، وكأن المعنى: لا تخافوا فيما يستقبل من الأوقات، ولا تحزنوا على ما مضى، وهذا نهاية المطلوب. ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في دار الدنيا على السنة الأنبياء.



قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنفُسُكُمْ وَلَكُم فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ لَا مَنَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾.

● **الإعراب:** ﴿ثُمَّ لَا﴾ نصب على المصدر، وتقديره: أنزلكم ربكم فيما تشتهون نزلاً، ويجوز أن يكون نصباً على الحال، وتقديره: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم منزلاً نزلاً، كما يقال: جاء زيد مشياً، أو ماشياً، والقولان جميعاً يرجعان إلى كونه مصدرًا. وقال أبو علي: ﴿ثُمَّ لَا﴾ يحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون جمع نازل، كقوله:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

ويكون حالاً من الضمير في ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تدعون من غفور رحيم نازلين.

والآخر: أن يراد به القوت الذي يقام للنازل أو الضيف، ويكون حالاً من ﴿مَا تَدْعُونَ﴾

سورة فصلت

أي: لكم ما تدعون نزلًا من غفور رحيم صفة نزل، وفيه ضمير يعود إليه. و﴿قَوْلًا﴾ نصب على التفسير، وقوله: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾: لا هاهنا زائدة مؤكدة لتباعد المساواة.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه أن الملائكة تقول للمؤمنين الذين استقاموا بعد البشارة: ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ﴾ أي: نحن معاشر الملائكة أنصاركم وأجباؤكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، نتولى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله تعالى ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة، عن مجاهد. وقيل: كنا نتولى حفظكم في الدنيا بأنواع المعونة، وفي الآخرة نتولاكم بأنواع الإكرام والمثوبة. وقيل: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، أي: نحرسكم في الدنيا وعند الموت، وفي الآخرة، عن أبي جعفر عليه السلام. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ من الملائد وتتمنونه من المنافع ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أنه لكم، فإن الله سبحانه يحكم لكم بذلك. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ البقاء، لأنهم كانوا يشتهون البقاء في الدنيا، أي: لكم فيها ما كنتم تشتهون من البقاء، ولكم فيها ما كنتم تتمنونه من النعيم، عن أبي زيد.

﴿نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ معناه: إن هذا الموعود به، مع جلالته في نفسه، له جلالة بمعطيه، إذ هو عطاء لكم ورزق يجري عليكم ممن يغفر الذنوب ويستر العيوب رحمة منه لعباده، فهو أهنا لكم وأكمل لسروركم. قال الحسن: أرادوا أن جميع ذلك من الله وليس منا. وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين بمودة الملائكة لهم، وفيها بشارة بنيل مشيئاتهم في الجنة، وفيها دلالة على أن الملائكة تتردد إلى من كان مستقيماً على الطاعات، وعلى شرف الاستقامة أيضاً تتولى الملائكة صاحبها من أجلها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ صورته صورة الاستفهام، والمراد به النفي، تقديره: وليس أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى طاعة الله، وأضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحة ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: ويقول مع ذلك: إني من المسلمين لأمر الله المنقادين إلى طاعته. وقيل معناه: ويقول: إني من جملة المسلمين، كما قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. وهذا الداعي هو رسول الله ﷺ، عن الحسن وابن زيد والسدي: هو وجميع الأئمة الدعاة الهداة إلى الحق، عن مقاتل وجماعة من المفسرين. وقيل: هم المؤذنون، عن عائشة وعكرمة. وفي هذه الآية رد على من قال: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنه مدح من قال: إني من المسلمين من غير أن يقرنه بالمشيئة. وفي هذه الآية دلالة على أن الدعاء إلى الدين من أعظم الطاعات وأجل الواجبات، وفيها دلالة على أن الداعي يجب أن يكون عاملاً بعلمه ليكون الناس إلى القبول منه أقرب، وإليه أسكن. ثم قال سبحانه:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قيل معناه: لا تستوي الملة الحسنة التي هي الإسلام، والملة السيئة التي هي الكفر. وقيل: لا تستوي الأعمال الحسنة ولا الأعمال القبيحة. وقيل: لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، فلا يستوي الصبر والغضب، والحلم والجهل، والمداورة والغلظة، والعفو والإساءة ثم بيّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الفرق بالمدعو، فقال: ﴿ادْفَعْ

يَا أَيُّهَا أَحْسَنُ ﴿١﴾ [خاطب النبي ﷺ] ، فقال للنبي ﷺ : ادفع بالتي هي أحسن ﴿١﴾ ، خاطب النبي ﷺ فقال : ادفع بحقك باطلهم ، وبحلمك جهلهم ، وبغفوك إساءتهم ﴿٢﴾ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣﴾ معناه : فإنك إذا دفعت خصومك بلين ورفق ومدارة ، صار عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك القريب ، فكأنه وليك في الدين وحميمك في النسب . وروي عن أبي عبد الله عليه السلام إن الحسنه التقية ، والسيئة الإذاعة . ﴿وَمَا يُقْلَهُهَا﴾ أي : وما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة التي هي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كظم الغيظ واحتمال المكروه . وقيل : إلا الذين صبروا في الدنيا على الأذى عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَمَا يُقْلَهُهَا﴾ أي وما يلقى هذه الخصلة المذكورة ولا يؤتاها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي : ذو نصيب وافر من الرأي والعقل . وقيل : إلا ذو نصيب عظيم من الثواب والخير . وقيل : الحظ العظيم : الجنة ، عن قتادة . وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة . وروي عن أبي عبد الله عليه السلام : وما يلقاها إلا كل ذي حظ عظيم .

● النظم : اتصل قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ الآية . بما قبله من قوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ﴾ الآية . فكأنه قال : ألا تتعجبون من إعراض الكفار عن استماع القرآن وتواصيهم فيما بينهم باللغو في قراءته ، ولا قائل أحسن قولاً من محمد ﷺ ، يدعوكم إلى من تقرون أنه خالفكم ، ثم إنه قد عمل في دينه بما دعاكم إليه ، فانتفت عنه التهمة من جميع الوجوه .



قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ .

● اللغة : النزغ : النخس (٢) بما يدعو إلى الفساد ، يقال : نزغ فلان ، وفلان ينزغ فلاناً :

(١) ما بين المعقفتين زائد .

(٢) نَخَسَ الدابة نَخْسًا : غَرَزَ مؤخرها ، أو جنبها بغود ونحوه ، فهاجت . ونخس فلان : هيجه وأزعجه .

سورة فصلت

كأنه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب. وألحد: مال عن الحق، ويقال: لحد يلحد أيضاً بمعناه، ويسمى القرآن ذكراً لأنه ذكر فيه الدلائل والأحكام.

● الإعراب: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ هي إن التي للجزاء، زيد عليها ما تأكيداً، فأشبه لذلك القسم، فلذلك دخل الفعل نون التأكيد. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ لم يذكر لإن خبراً، والتقدير: إن الذين كفروا بالذكر مبتدأ، والخبر معذبون، فحذف الخبر. ويجوز أن يكون الخبر ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

● المعنى: ثم أمر نبيه ﷺ أن يستعيز بالله إذا صرفه الشيطان عن الاحتمال، فقال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾^(١) إما يدعوك نزغ من الشيطان بالسوسة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: فاطلب الاعتصام من شره بالله، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الآية مفسرة في آخر سورة الأعراف. ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد، فقال: ﴿وَمَنْ ءَايَنِي﴾ أي: حججه الدالة على وحدانيته، وأدلته على صفاته التي باين بها جميع خلقه ﴿أَيُّلُ﴾ بذهاب الشمس عن بسيط الأرض ﴿وَالنَّهَارُ﴾ بطلوعها على وجهها، وتقديرهما على وجه مستقر، وتديرهما على نظام مستمر. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وما اختصا به من النور وظهر فيهما من التدبير في المسير، والتعريف في فلك التدوير ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وإن كان فيهما منافع كثيرة، لأنهما ليسا بخالقين، ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وأنشأهن، وإنما قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لوجهين:

أحدهما: إن ضمير غير ما يعقل على لفظ التأنيث، تقول: هذه كباشك^(٢) فسقها، وإن شئت قلت: فسفهن.

والآخر: إن الضمير يرجع إلى معنى الآيات، لأنه قال: ﴿وَمَنْ ءَايَنِي﴾ هذه الأشياء، واسجدوا لله الذي خلقهن. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَسْبُوتُونَ﴾ إن كنتم تقصدون بعبادتكم لله كما ترعمون، فاسجدوا لله دون غيره. ثم قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ عن توجيه العبادة إلى الله وحده ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يفترون، وهو مفسر في سورة الأعراف. والمروى عن ابن عباس وقتادة وابن المسيب أن موضع السجود عند قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْخُونَ﴾. وعن ابن مسعود والحسن أنه عند قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَسْبُوتُونَ﴾ وهو اختيار أبي عمرو بن العلاء، وهو المروى عن أئمتنا عليهم السلام.

﴿وَمَنْ ءَايَنِي﴾ أي: ومن أدلته الدالة على ربوبيته ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: غبراء دارسة متهشمة، عن قتادة والسدي، أي: كان حالها حال الخاضع المتواضع. وقيل: ميتة يابسة لا نبات فيها. قال الأزهري: إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل: قد خشعت. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: انتفخت وارتفعت قبل أن تنبت. وقيل: اهتزت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ بكثرة ريعها، عن الكلبي. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرض بما

(١) [معناه].

(٢) جمع كبش: وهو الحمل إذا دخل في السنة الثانية.

أنزله من المطر ﴿لَمْ يَكُنِ الْمَوْتُ﴾ في الآخرة مثل ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ظاهر المعنى. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي: إن الذين يميلون عن الإيمان بآياتنا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ بأشخاصهم وأقوالهم وأفعالهم، وهذا وعيد، عن قتادة وابن زيد والسدي. وقد قيل: إن معنى الإلحاد في آيات الله هو ما كانوا يفعلونه من المكاء والصفير، عن مجاهد. وقيل: وأقوالهم وأفعالهم، وهذا وعيد، عن قتادة وابن زيد والسدي. وقيل: هو تبديلهم ذلك ووضعه في غير موضعه، عن ابن عباس. وقال بعض المفسرين: إن المراد بالآيات هنا: دلالات التوحيد، والإلحاد فيها: الانحراف عنها وترك الاستدلال بها. ثم قال سبحانه على وجه الإنكار عليهم، والتهمجين لفعلهم، والتهديد لهم: ﴿أَفَنُتَقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ وهم الملحدون ﴿أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ من عذاب الله، وهم المؤمنون المطيعون، وهذا استفهام تقرير معناه: إنهما لا يستويان. وقيل: إن الذي يلقي في النار أبو جهل، والذي يأتي آمناً يوم القيامة رسول الله ﷺ، عن مقاتل. وقيل: هو عمار بن ياسر، عن عكرمة. والصحيح أن الآية على العموم، والمراد بهما المؤمن والكافر. ثم قال سبحانه: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الوعيد والتهديد، أي: فإذا علمتم أنهما لا يستويان فليختر كل واحد منكم لنفسه ما شاء من الأمرين، فإن العاقل لا يختار الإلقاء في النار، فإذا لم يختَر ذلك فلا بد أن يؤمن بالآيات فلا يلحد فيها. ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالكم ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء منها.

ثم أخبر سبحانه عنهم مهجناً لهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ الذي هو القرآن وجحدوه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم. ثم أخذ سبحانه في وصف الذكر وترك خبر «إن» على تقدير أن الذين كفروا بالذكر يجازون بكفرهم، ونحو ذلك. وقيل: إن خبره ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، عن أبي عمرو بن العلاء. وقيل: إن قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكُنُوبٌ عَرِيزٌ﴾ في موضع الخبر، والتقدير: الكتاب الذي جاءهم عزيز. وأما قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ فالهاء يعود في القرآن الذي هو الذكر. والمعنى: إن الذكر لكتاب عزيز بأنه لا يقدر أحد من العباد على أن يأتي بمثله. وقيل: إنه عزيز بإعزاز الله - عز وجل - إياه، إذ حفظه من التغيير والتبديل. وقيل: هو عزيز إذ جعله الله على أتم صفات الأحكام. وقيل: عزيز بأنه يجب أن يعز ويجل بالانتهاه إلى ما فيه، وترك الإعراض عنه. وقيل: عزيز أي: كريم على الله عز وجل، عن ابن عباس. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إن الباطل الشيطان، ومعناه: لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً أو يزيد فيه باطلاً، عن قتادة والسدي.

وثانيها: إنه لا يأتيه ما يبطله من بين يديه، أي: من الكتب التي قبله، ولا من خلفه، أي: لا يجيء من بعده كتاب يبطله، أي: ينسخه، عن ابن عباس والكلبي ومقاتل.

وثالثها: معناه: إنه ليس في إخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل إخباره كلها موافقة لمخبراتها، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام.

سورة فصلت

ورابعها: لا يأتيه الباطل من أول تنزيله، ولا من آخره، عن الحسن.

وخامسها: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات، فلا تناقض في ألفاظه، ولا كذب في أخباره، ولا يعارض، ولا يزداد فيه، ولا يغير، بل هو محفوظ حجة على المكلفين إلى يوم القيامة، ويؤيده قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أي: هو تنزيل من عالم بوجوه الحكمة، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد على خلقه بالإنعام عليهم، والقرآن هو من أعظم نعمه، فاستحق به الحمد والشكر.



قوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ .

● القراءة: قرأ أهل الكوفة غير حفص: «أعجمي» بهزتين، وقرأ هشام عن ابن عامر بهزمة واحدة، وقرأ الباقون بهزمة واحدة ممدودة.

● الحجة: قال أبو علي: الأعجمي: الذي لا يفصح. من العرب كان أو من العجم، قالوا: زياد الأعجم لآفة كانت في لسانه، وكان عربياً، وقالوا: صلاة النهار عجماء، أي: تخفى فيها القراءة ولا تبين، ويجمع الأعجم على عجم، أنشد أبو زيد:

يقول الخنا وأبغضُ العُجمِ ناطقاً إلى ربنا صوتُ الحمارِ المُجَدِّعِ^(١)

أي: أبغض صوت العجم صوت الحمار. وتسمي العرب من لم يبين كلامه من أي صنف كان من الناس أعجم، ومنه قول ابن الأخرز:

سَلُومُ^(٢) لو أَصْبَحْتَ وَسَطَ الْأَعْجَمِ بِالرُّومِ أَوْ بِالثُّرَكِ أَوْ بِالذَّيْلَمِ

فقال: لو كنت وسط الأعجم، ولم يقل: وسط العجم، لأنه جعل كل من لم يبين كرمه أعجم، فكأنه قال: وسط القبيل الأعجم. والعجم خلاف العرب، والعجمي خلاف العربي منسوب إلى العجم، وإنما قول الأعجمي بالعربي في الآية وخلاف العربي، لأن الأعجمي، في

(١) الخنا: الفحش في الكلام. وجده: قطع أنفه. والمراد من قوله أبغض... الخ: تهجين المهجوت بشبيهه في قول

الخنا بالحمار المجدع. وتوصيف الحمار بجذع الأنف، لأنه إذا قطع أنفه صار صوته أنكر.

(٢) سلوم: منادى.

أنه لا يُبين، مثل العجمي عندهم، فمن حيث اجتماعهما في أنهما لا يبينان قبول به العربي في قوله: ﴿ءَانْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾. وينبغي أن يكون الأعجمي الياء فيه للنسب، نُسب إلى الأعجم الذي لا يفصح، وهو في المعنى كالعجمي، وإن كانا يختلفان في النسبة، فيكون الأعجمي عربياً، ويجوز أن يقال للرجل: أعجمي، ويراد به ما يراد بأعجم بغير ياء النسب، كما يقال: أحمر وأحمري، ودوَّار ودوَّاري، وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ مما جمع على إرادة ياء النسب فيه، مثل قولهم: الثُمَيرون. ولولا ذلك لم يجز جمعه بالواو والنون، ألا ترى أنك لا تقول في الأحمر إذا كان صفة: أحمر، وإنما جاز الأعجمون لما ذكرنا. فأما الأعاجم فينبغي أن تكون تكسير أعجمي، كما كان المسامعة تكسير مسمعي. وقد استعمل هذا الوصف استعمال الأسماء، فمن ذلك قوله:

حَزَقُ يَمَانِيَّةٍ لِأَعْجَمٍ طَمْطَمٍ^(١)

فينبغي أن يكون من باب الأجارع^(٢) والأباطح. وأما قوله تعالى: ﴿ءَانْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ فالمعنى: المنزل أعجمي، والمنزل عليه عربي، فقوله: ﴿ءَانْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ يرتفع كل منهما على أنه خبر مبتدأ محذوف. وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾.

● **المعنى:** ثم عزى سبحانه نبيه ﷺ على تكذيبهم فقال: ﴿ثَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: ما يقول هؤلاء الكفار لك إلا ما قد قيل للأنبياء قبلك، من التكذيب والجحد لنبوتهم، عن قتادة والسدي والجبائي. وقيل معناه: ما يقول الله لك إلا ما قد قاله للرسول من قبلك، وهو الأمر بالدعاء إلى الحق في عبادة الله ولزوم طاعته، فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب. وقيل معناه: ما حكاه تعالى بعده من ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيكون على جهة الوعد والوعيد، أي: إنه لذو مغفرة لمن آمن بك، وذو عقاب أليم لمن كذب بك. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: لو جعلنا هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: هلا بينت بلسان العرب حتى نفهمه ﴿ءَانْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ أي: أكتاب أعجمي، ونبي عربي، وهذا استفهام على وجه الإنكار، والمعنى أنهم كانوا يقولون: المنزل عليه عربي والمنزل أعجمي، وكان ذلك أشد لتكذيبهم، فبين الله سبحانه أنه أنزل الكتاب بلغتهم، وأرسل الرسول من عشيرتهم، ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للمعذرة. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَاءٌ﴾ من الأوجاع. وقيل: وشفاء للقلوب من كل شك ورب وشبهة. وسمى اليقين شفاء كما سمي الشك مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: ثقل وصمم عن سماعه من حيث يثقل عليهم استماعه فلا يتفغون به، فكانهم صم عنه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ عميت قلوبهم

(١) الحَزَقُ جمع حزقة أي: الجماعات. وطمطم من في نطقه عجمة أي: تأوي أفراس النعام إلى الظليم، وهو الذكر من النعام، كما تأوي الإبل اليمانية إلى راع أعجم عي لا يفصح. وجه الشبه شدة سواد الظليم والراعي، وشدة سواد القلوص والإبل اليمانية.

(٢) جمع الأجرع أي: رملة مستوية لا تنبت شيئاً.

سورة فصلت

عنه، عن السدي، يعني أنهم لما ضلوا عنه وحاروا عن تدبره فكأنه عمى لهم، ﴿أَوَلَيْكَ يَتَذَكَّرُونَ مِنْ مَّكَانٍ يَعْبُدُونَ﴾ أي: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دُعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم. وإنما قال ذلك لبعد أفهامهم، وشدة إعراضهم عنه. وقيل: لبعده عن قلوبهم، عن مجاهد. وقيل: ينادى الرجل منهم في الآخرة بأشنع اسمه، عن الضحاك. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ لأنه آمن به قوم وكذب به آخرون، وهذه تسليية للنبي ﷺ عن جحود قومه له وإنكارهم لنبوته. ﴿وَكُلُوا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن قومك، وأنه لا يعذبهم وأنت فيهم ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لفرغ من عذابهم واستتصلهم. وقيل معناه: لولا حكم سبق من ربك بتأخير العذاب^(١) إلى وقت انقضاء آجالهم، لقضي بينهم قبل انقضاء آجالهم، فيظهر المحق من المبطل. ﴿وَلَهُمْ لَفِي شَرِّ مَثَرٍ﴾ أي: وإن قومك لفي شك مما ذكرناه موقّع لهم الريبة، وهو أقطع الشك.



قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسُ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٥٠﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والشام وحفص: «من ثمرات» على الجمع، والباقون: «من ثمرة» على التوحيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: «من ثمرة» إذا أفرد يدل على الكثرة واستغني به عن الجمع، ويقوي الأفراد قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾. وحجة من جمع أن الجمع صحيح، وأن المعنى على ذلك.

● **اللغة:** الأكمام: جمع كُم، وكُم جمع كُمَّة، عن ابن خالويه. وقيل: هي جمع كُمَّة، عن أبي عبيدة. وهي الكفري^(٢)، وتكُم الرجل في ثوبه: إذا تلفّف به. والإيدان: الإعلام.

● **المعنى:** ثم احتج سبحانه عليهم بأن قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: من عمل طاعة فلنفسه، لأن ثواب ذلك واصل إليه، ومنفعته تكون له دون غيره، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي:

(٢) بتثنية الكاف والفاء: وعاء طلع النخل.

(١) ليس في بعض النسخ لفظة «العذاب».

من عمل معصية فعلى نفسه وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما قال ذلك مع أنه لا يظلم مثقال ذرة لأمرين:

أحدهما: إن من فعل الظلم - وإن قلَّ - وهو عالم بقبحه، وبأنه غني عنه، لكان ظلاماً.

والآخر: إنه على طريق الجواب لمن زعم أنه يظلم العباد، فيأخذ أحداً بذنب غيره، ويصيبه بطاعة غيره.

ثم بيّن سبحانه أنه العالم بوقت القيامة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التي يقع فيها الجزاء للمطيع والعاصي، وهو يوم القيامة، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا﴾ أي: وما تخرج ثمرة من أوعيتها وغلفها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: ولا تحمل أنثى من حمل ذكرأ كان أو أنثى، ولا تضع أنثى إلا في الوقت الذي علم سبحانه أنها تحمل فيه وتضع فيه، فيعلم سبحانه قدر الثمار وكيفيتها وأجزاءها وطعومها وروائحها، ويعلم ما في بطون الحبالى وكيفية انتقالها حالاً بعد حال حتى يصير بشراً سوياً. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله المشركين ﴿إِنَّ شُرَكَّاءَكُمُ﴾ أي: في قولكم وزعمكم، كما قال: ﴿إِنَّ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. ﴿قَالُوا ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: يقولون: أعلمناك ما منا شاهد بأن لك شريكاً، يتبرأون يومئذ من أن يكون مع الله شريك. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بطل عنهم وذهب ما كانوا أملوه من أصنامهم، ﴿وَوُضُّوا﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَّجِيسٍ﴾ أي: من مهرب وملجأ، ودخل الظن على ﴿مَا﴾ التي للنفي كما تدخل على لام الابتداء، وكلاهما له صدر الكلام، والمعنى: إنهم علموا ألا مُخْلِصَ لهم من عذاب الله، وقد يعبر بالظن عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان.

ثم بيّن سبحانه طريقتهم في الدنيا، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ قال الكلبي: الإنسان هاهنا يراد به الكافر، أي: لا يمل الكافر من دعائه الخير، ولا يزال يسأل ربه الخير الذي هو المال والغنى والصحة والولد. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: البلاء والشدة والفقر ﴿فَيَتُوسُّ﴾ أي: فهو يؤوس شديد اليأس من الخير ﴿فَتَنُوطٌ﴾ من الرحمة. وقيل: يؤوس من إجابة الدعاء، قنوط سيئ الظن بربه، ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: خيراً وعافية وغنى ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: هذا بعلمي وأنا محقوق به، عن مجاهد قال: وكل هذا من أخلاق الكافر. وقيل معناه: هذا لي دائماً أبداً. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة على ما يقوله المسلمون ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لست على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي إن لي عنده الحالة الحسنى، والمنزلة الحسنى وهي الجنة، سيعطيني في الآخرة مثل ما أعطاني في الدنيا. ثم هدّد سبحانه من هذه صفته بأن قال: ﴿فَلَنَلَقِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: لنلقفهم يوم القيامة على مساوئ أعمالهم، عن ابن عباس ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: متراكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن جهل الإنسان الذي تقدّم وصفه بمواقع نعم الله سبحانه، فقال: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَا بِجَانِبِهِ﴾ أي: بُعد بجانبه تكبراً وتجبيراً عن الاعتراف بنعم الله تعالى. ومن قرأ: «ناء» فإنه مقلوب من «نأى»، كما في قول الشاعر:
أقول وقد ناءت بها غربة النوى نوى خيتعور لا تشيط ديارك^(١)

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الضر أو الفقر أو المرض ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: فهو ذو دعاء كثير عند ذلك، عن السدي. وإنما قال: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ولم يقل: طويل، لأنه أبلغ، فإن العرض يدل على الطول، والطول لا يدل على العرض، إذ قد يصح طويل ولا عرض له، ولا يصح عريض ولا طول له. فإن العرض الانبساط في خلاف جهة الطول، والطول الامتداد في أي جهة كان.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر القائلين بأنه ليس لله على الكافر نعمة، فإن الله سبحانه أخبر بأنه ينعم على الكافر، وأنه يعرض عن موجبها من الشكر. والمراد بالآية أن الكافر يسأل ربه بالتضرع والدعاء أن يكشف ما به من الضر والبلاء، ويعرض عن الدعاء في الرخاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وقيل: إن كان هذا الإنعام من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وجحدتموه، ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف للحق بعيد عنه وهو أنتم. والشقاق والمشقة: الميل إلى شق العداوة، أي: فلا أحد أضل منكم. ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إن المعنى: سنريهم حججنا ودلائلنا على التوحيد في آفاق العالم، وأقطار السماء والأرض، من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والبحار والجبال، وفي أنفسهم وما فيها من لطائف الصنعة وبدائع الحكمة، ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: يظهر لهم ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: أن الله الحق، عن عطاء وابن زيد.

وثانيهما: إن معناه: سنريهم آياتنا ودلائلنا على صدق محمد ﷺ وصحة نبوته في الآفاق،

(١) الخيتعور: كل شيء لا يدوم على حالة واحدة، ويضمحل كالسراب، وبمعنى الغول... وشطّ يشطّ شطّاً وشطوطاً: بُعد. ولا تشطّ ديارك محكى أقول في صدر البيت. ونوى خيتعور: مفعول مطلق نوعي لقوله: ناءت، وهو محل الاستشهاد.

أي: بما يفتح من القرى عليه، وعلى المسلمين في أقطار الأرض. وفي أنفسهم، يعني فتح مكة، عن السدي والحسن ومجاهد. وقالوا: هو ظهور محمد ﷺ على الآفاق وعلى مكة، حتى يعرفوا أن ما أتى به من القرآن حق ومن عند الله، لأنهم بذلك يعرفون أنه مؤيد من قبل الله تعالى بعد أن كان واحداً لا ناصر له.

وثالثها: إن المراد بقوله: ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ وقائع الله في الأمم ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقعة يوم بدر، عن قتادة.

وابعها: إن معناه: نريهم آياتنا في الآفاق بصدق ما كان يخبرهم به النبي ﷺ من الحوادث فيها، وفي أنفسهم، يعني ما كان بمكة من انشقاق القمر حتى يعلموا أن خبره حق من قبل الله سبحانه.

وخامسها: إن المراد: سنريهم آثار من مضى من قبلهم، ممن كذب الرسل من الأمم، وآثار خلق الله في كل البلاد، وفي أنفسهم من أنهم كانوا نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم عظاماً، ثم كسيت لحماً، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل، وذلك كله دليل على أن الذي فعله واحد ليس كمثله شيء، عن الزجاج.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ موضع قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ رفع، والمعنى: أولم يكف ربك، و﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ في موضع رفع أيضاً على البدل، وإن حملته على اللفظ فهو في موضع جر، والمفعول محذوف، وتقديره: أولم يكف شهادة ربك على كل شيء، ومعنى الكفاية هنا: إنه سبحانه بين للناس ما فيه كفاية من الدلالة على توحيده وتصحيح نبوة رسله. قال مقاتل: معناه: أولم يكف ربك شاهداً أن القرآن من عند الله. وقيل معناه: أولم يكف ربك لأنه على كل شيء شهيد، أي: عليم بالأشياء شاهد لجميعها لا يغيب عنه شيء. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: ﴿أَلَا﴾ كلمة تنبيه وتأکید أن الكفار في شك من لقاء ثواب ربهم وعقابه، أي: في شك من مجازاة ربهم، وفي هذا تسفيه لهم في إضافة العبث إلى الله. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء فلا يخفى عليه شيء.

سُورَةُ الشُّرُورِ

مكية/آياتها (٥٢)

وتسمى: سورة حم عسق أيضاً، وهي مكية، عن الحسن، إلا قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. وعن ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها نزلن في المدينة: ﴿قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرٌ إِلَّا أَلَمَدَهُ فِي الْقُرْآنِ﴾. قال ابن عباس: ولما نزلت هذه الآية، قال رجل: والله ما أنزل الله هذه الآية، فأنزل الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، ثم إن الرجل تاب وندم، فنزل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

● عدد آياتها: ثلاث وخمسون آية كوفي، وخمسون في الباقي.

● اختلافها: ثلاث آيات: ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾ ﴿كَأَلَعَلِّمٍ﴾ ثلاثهن كوفي.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة حم عسق، كان ممن يصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون» وروى سيف بن عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ حم عسق، بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقول: عبدي أدمت قراءة «حم عسق» ولم تدر ما ثوابها، أما لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة. وله فيها قصر من ياقوتة حمراء، أبوابها وشرفها ودرجها منها، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وله فيها حورأوان من الحور العين، وألف جارية وألف غلام من الولدان المخلدين الذين وصفهم الله.

● تفسيرها: ختم الله سورة «حم السجدة» بذكر القرآن، وافتتح هذه السورة بذكره أيضاً،

فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ نَكَادُ السَّمٰوٰتِ يَنْقَطِرُ مِنْ قُوٰفِهِنَّ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

● القراءة: قرأ ابن كثير: «كذلك يوحى إليك» بفتح الحاء، والباقون: «يوحى» بكسر الحاء. وفي الشواذ رواية الأعمش عن ابن مسعود: «حم سق» بغير عين.

● الحجة: قال أبو علي: من قرأ «يوحى» فبنى الفعل للمفعول به احتمال أمرين:

أحدهما: إن المعنى: يُوحى إليك السورة كما أوحى إلى الذين من قبلك، زعموا أن هذه السورة قد أوحى إلى الأنبياء قبل.

والآخر: أن يكون الجار والمجرور يقومان مقام الفاعل، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ تبييناً للفاعل، كقوله: ﴿يَسْتَحْ لَهْ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿رِجَالٌ﴾ كأنه قيل: من يسبح؟ فقال: رجال.

ومن قرأ: «يُوحى إليك» على بناء الفعل للفاعل، فإنه اسم الله يرتفع بفعله. وأما اختلاف القراء في «يتفطرن، وينفطرن»، والوجه في ذلك قد مر ذكره في سورة مريم.

وقال ابن جني: قراءة ابن مسعود «حم سق» مما يؤكد أن الغرض في هذه الفواتح إنما هو لكونها فواصل بين السور، ولو كان في أسماء الله سبحانه لما جاز تحريف شيء منها، بل كانت مؤداة بأعيانها، وقد كان ابن عباس قد قرأها بلا عين أيضاً، وكان يقول: السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون.

● **المعنى:** ﴿حَمْدٌ﴾ قد مضى تفسيره ﴿عَسَقٌ﴾ قيل: إنما فُضِّلَت هذه السورة من بين سائر الحواميم بـ ﴿عَسَقٌ﴾، لأن جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه، فذكر ﴿عَسَقٌ﴾ ليكون دلالة على الكتاب دلالة التضمنين، وإن لم يدل عليه دلالة التصريح، وهو معنى قول قتادة، فإنه قال: هو اسم من أسماء القرآن. وقيل: لأن هذه السورة انفردت بأن معانيها أُوحيَت إلى سائر الأنبياء، فلذلك خُصَّت بهذه التسمية. وقال عطاء: هي حروف مقطعة من حوادث آتية، فالحاء من حرب، والميم من تحويل ملك، والعين من عدو مقهور، والسين من الاستئصال بسنين كسني يوسف، والقاف من قدرة الله في ملوك الأرض، وسائر الأقوال في ذلك مذكورة في أول البقرة ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: كالوحي الذي تقدم، يوحى إليك أخبار الغيب، وما يكون قبل أن يكون، وإلى الذين من قبلك من الأنبياء. عن عطاء عن ابن عباس قال: وما من نبي أنزل الله عليه الكتاب إلا أنزل عليه معاني هذه السورة بلغاتهم. وقيل معناه: كهذا الوحي الذي يأتي في هذه السورة يوحى إليك، لأن ما لم يكن حاضراً أتراه صلح فيه «هذا» لقرب وقته، و«ذلك» لبعده في نفسه. ومعنى التشبيه في «كذلك» أن بعضه كبعض في أنه حكمة وصواب بما تضمنه من الحجج والمواعظ والفوائد. ﴿اللَّهُ﴾ الذي تحقق له العبادة ﴿الْغَزِيرُ﴾ القادر الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم لأفعاله.

﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المستعلي على كل قادر ﴿الْعَظِيمُ﴾ شأنه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: تكاد كل واحدة من السماوات تنشق من فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، استعظاماً لذلك، عن ابن عباس والحسن. وقيل معناه: تكاد السماوات يتشققن فرقا من عظمة الله وجلاله من فوقهن، تقديره: ممن فوقهن، أي: من عظمة من فوقهن، عن الضحاك وقتادة والزجاج. وقيل: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من فوق الأرضين، وهذا على طريق التمثيل، والمعنى: لو كانت السماوات تنفطر لشيء لانفطرت لهذا. ﴿وَالْمَلَكُوتُ﴾

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ أَي: يُنْزَهُونَهُ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي صِفَاتِهِ، وَيُعْظَمُونَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ. وروى عن أبي عبد الله عليه السلام: والملائكة وَمَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ لَا يَفْتَرُونَ. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من المؤمنين ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والمعنى ظاهر.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩) وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠).

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن إمهاله الكفار بعد تقديم الإنذار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: آلهة عبدوها من دون الله، يعني كفار مكة ﴿اللَّهُ حَفِظْتُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حافظ عليهم أعمالهم لا يعزب شيء منها عنه، ليجازيهم على ذلك كله، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنت بمسلط عليهم لتدخلهم في الإيمان قهراً. وقيل معناه: إنك لم تוכל بحفظ أعمالهم، وإنما بعثت نذيراً لهم داعياً إلى الله، مبيّناً سبيل الرشd، أي: فلا يضيّق صدرك بتكذيبهم إياك، وفيه تسليّة للنبي صلى الله عليه وآله. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم بلغة قومهم، أوحينا إليك قرآنًا بلغة العرب ليفقهوا ما فيه ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: لتنذر أهل أم القرى، وهي مكة ومن حولها من سائر الناس، وقرى الأرض كلها ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: وتنذرهم يوم الجمع وهو يوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السماوات والأرضين، ف﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ مفعول ثانٍ ﴿لِنُنْذِرَ﴾ وليس بظرف. ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك في كونه. ثم قسم سبحانه أهل يوم الجمع فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: فريق منهم في الجنة بطاعتهم، وفريق منهم في النار بمعصيتهم، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ولو شاء الله أن يحملهم على دين واحد وهو الإسلام بأن يلجنهم إليه ليفعله، ولكنه لم يفعله لأنه يؤدي إلى إبطال التكليف، والتكليف إنما يثبت مع الاختيار، عن الجبائي. وقيل أن معناه: ولو شاء الله لسوّى بين الناس في المنزلة بأن يخلقهم في الجنة، ولكنه اختار لهم أعلى الدرجتين وهو استحقاق الثواب. ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهم المؤمنون، ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنع عنهم عذاب الله.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام

والأوثان يوالونهم ﴿قَالَ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ معناه: إن المستحق للولاية في الحقيقة هو الله تعالى دون غيره، لأنه المالك للنفع والضرر ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ﴾ أي: يبعثهم للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ معناه: إن الذي تختلفون فيه من أمور دينكم ودنياكم وتتنازعون فيه فحكمه إلى الله، فإنه الفاصل بين المحق والمبطل فيه، فيحكم للمحق بالثواب والمدح، وللمبطل بالعقاب والذم. فبيان الصواب إلى الله بنصب الأدلة. وقيل: فحكمه إلى الله يوم القيامة فيجازي كل أحد بما يستحقه. ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ﴾ الذي يحكم بين المختلفين ﴿رَبِّي﴾ أي: هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مهماتي ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: إليه أرجع في جميع أموري.



قوله تعالى: ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ الْأُنثَىٰ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

● **اللغة:** الذرأ: إظهار الخلق بإيجاده، يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم، ومنه: ملخ ذرأني لظهور بياضه. ويقال: أنمى الله ذراك وذرك، أي: ذرأتك، عن الأزهري. وشرع الله الدين أي: بين وأظهر، ومنه: المشرعة والشرعة، لأنهما في مكان معلوم ظاهر من الأنهار، فالشرعة والشرعة: الظاهر المستقيم من المذاهب التي شرعها الله.

● **الإعراب:** ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ يجوز أن يكون موضعه رفعاً ونصباً وجراً، فالرفع على معنى: هو أن أقيموا الدين، والنصب على معنى: شرع لكم أن أقيموا الدين، والجر على البدل من الهاء في ﴿بِهِ﴾. وجائز أيضاً أن يكون ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ تفسيراً لـ ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ ولقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيكون المعنى: شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة فيه.

سورة الشورى

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه نفسه بما يوجب ألا يعبد غيره، فقال: ﴿فَإِطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما ابتداء ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أشكالا مع كل ذكر أنثى يسكن إليها ويألفها ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكورا وإناثا لتكمل منافعكم بها، كما قال: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا أَزْوَاجَ مِنْ أَنْصَانٍ أَنْثَىٰ﴾ إلى آخره. ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعل الأزواج، فالهاء في ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى الجعل المراد بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾. وقيل معناه: يذركم في التزاوج لتكثروا به، للدلالة الكلام عليه، وهو ذكر الأزواج. ومثله قول ذي الرمة:

وَمِثْلُهُ أَحْسَنَ الثَّقَلَيْنِ جِيدًا وَسَلَافَةً وَأَحْسَنَهُ قَذَالًا^(١)

أي: وأحسن من ذكر، يعني الثقلين. وقال الزجاج والفراء: معناه: يذركم به، أي: يكثركم بأن جعل من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً. وأنشد الأزهري في ذلك:

وأرغب فيها عن لقيط وأهله ولكنني عن سنبس لست أرغب
أي: أرغب بها عن لقيط. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس مثله شيء، والكاف زائدة مؤكدة لمعنى النفي، قال أوس بن حجر:

وقتلى كمثل جُدُوعِ النخيل يغشاهم سَبَلُ مِنْهُمْ^(٢)
وقال آخر:

سعد بن زيد إذا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمْ ما إن كمثلهم في الناس من أحد

وقيل معناه: إنه لو قُدِّرَ الله تعالى مثل، لم يكن لذلك المثل مثل، لما تقرر في القول: إن الله تعالى منفرد بصفات لا يشاركه فيها غيره. فلو كان له مثل لتفرد بصفات لا يشاركه فيها غيره، فكان هو الله، وقد دل الدليل على أنه ليس مع الله إله آخر.

وقيل: فيه حذف مضاف، و«مثل» بمعنى الصفة، تقديره: ليس كصاحب صفته شيء، وصاحب صفته هو، أي: ليس كهو شيء، والوجه هو الأول. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لما نفى أن يكون له نظير وشبيه على وجه من الوجوه، بيّن أنه مع ذلك سميع بصير، فإنما المدحة في أنه لا مثل له مع كونه سميعاً بصيراً لجميع المسموعات والمبصرات.

﴿لَمْ يَمَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح أرزاق السماوات والأرض وأسبابها، فتمطر السماء بأمره، وتنبت الأرض بإذنه، عن مجاهد. وقيل معناه: خزائن السماوات والأرض، عن السدي. ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء ويضيّق على من يشاء على ما يعلمه من المصالح للعباد، ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ فيفعل ذلك بحسب المصالح.

(١) مية معشوقته. السالفة: صفحة العنق. وقيل: ناحية مقدّمة من لدن معلق القرط إلى فقرة الرقوة. والقذال: جماع مؤخر الرأس. وقيل: ما بين فقرة القفا إلى الأذن.

(٢) السَبَلُ: المطر النازل من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض.

ثم خاطب سبحانه خلقه، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أي: بين لكم ونهج وأوضح من الدين والتوحيد، والبراءة من الشرك ما وصى به نوحاً ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وهو^(١) الذي أوحينا إليك يا محمد وهو ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ثم بين ذلك بقوله: ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وإقامة الدين التمسك به، والعمل بموجبه، والدوام عليه، والدعاء إليه. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ أي: ولا تختلفوا فيه واثقلوا فيه واتفقوا، وكونوا عباد الله إخواناً. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من توحيد الله والإخلاص له ورفض الأوثان وترك دين الآباء، لأنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ آلَهُةَ إِلَهاً وَجِداً﴾ ومعناه: ثقل عليهم وعظم اختيارنا لك بما تدعوهم إليه، وتخصيصك بالوحي والنبوة دونهم. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: ليس إليهم الاختيار، لأن الله يصطفي لرسالته من يشاء، على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة وتحمله لها، فاجتباك الله لها كما اجتبي من قبلك من الأنبياء. وقيل معناه: الله يصطفي من عباده لدينه من يشاء ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: ويرشد إلى دينه من يقبل إلى طاعته، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾. وقيل: يهدي إلى جنته وثوابه من يرجع إليه بالنية والإخلاص.

ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ معناه: وإن هؤلاء الكفار لم يختلفوا عليك بعد أن أتاهم طريق العلم بصحة نبوتك، فعدلوا عن النظر فيه ﴿بَقِيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك للظلم والحسد والعداوة، والحرص على طلب الدنيا. وقيل معناه: وما تفرقوا عنه، أي: عن محمد ﷺ إلا بعد أن علموا أنه حق، ولكنهم تفرقوا عنه حسداً له، وخوفاً أن تذهب رئاستهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَهُ أَجَلِ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: ولولا وعد الله تعالى وإخباره بتبقيتهم إلى وقت معلوم، وتأخر العذاب عنهم في الحال، لفصل بينهم الحكم وأنزل عليهم العذاب الذي استحقوه عاجلاً. وقيل معناه: ولولا وعد الله بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهو الأجل المسمى، لفضي بينهم بإهلاك المبطل وإثابة المحق. ﴿وَالَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ شَكَّ مِنْهُ رَبِّي﴾ معناه: وإن اليهود والنصارى الذين أورثوا الكتاب من بعد قوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ومن بعد أحبارهم، لفي شك من القرآن أو من محمد ﷺ مؤد إلى الريبة، عن السدي. بين بذلك أن أحبارهم أنكروا الحق عن معرفته، وأن عوامهم كانوا شاكين فيه، يدل عليه قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكِتَابَ يَقْرَأُونَهُ﴾. وقيل معناه: وإن الذين أورثوا الكتاب - أي: القرآن - وهم العرب من بعدهم، أي: من بعد اليهود والنصارى، لفي شك منه بليغ، ولو استقصوا في النظر أدنى بهم إلى اليقين والرشد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فإلى ذلك فادع، عن الفراء والزجاج. يقال: دعوت لفلان وإلى فلان، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد، ومعناه: فإلى الذي شرعه الله تعالى، ووصى له أنبياء فادع الخلق يا محمد. وقيل: إن اللام للتعليل، أي: فلأجل الشك الذي هم عليه فادعهم إلى الحق حتى تزيل شكهم. ﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أي: فاثبت على أمر الله وتمسك له

(١) لا يخفى أن قوله تعالى: الذي... وما وصينا مفعول لشرع كما في سائر التفاسير، وهو رحمه الله تبع (التيبان) وأرجع ضمير هو إلى «المشروع» المستفاد من ذيل الآية ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ﴾. ولا يخفى ما فيه.

سورة الشورى

واعمل بموجبه. وقيل: واستقم على تبليغ الرسالة. ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَقْوَامَهُمْ﴾ يعني أهواء المشركين في ترك التبليغ ﴿وَقُلْ ءَآمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ كِتَابِ﴾ أي: آمنت بكتب الله التي أنزلها على الأنبياء قبلي كلها. ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كي أعدل بينكم، أي: أسوي بينكم في الدين والدعاء إلى الحق ولا أحابي أحداً، وقيل معناه: أمرت بالعدل بينكم في جميع الأشياء. وفي الحديث: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فالمنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية. والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه». ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: قل لهم أيضاً: الله مدبرنا ومدبركم، ومصرفنا ومصرفكم، والمنعم علينا وعليكم، وإنما قال ذلك لأن المشركين قد اعترفوا بأن الله هو الخالق. ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: لا يضرنا إصراركم على الكفر، فإن جزاء أعمالنا لنا، وجزاء أعمالكم لكم، لا يواخذ أحداً بذنب غيره. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا خصومة بيننا وبينكم، عن مجاهد وابن زيد. والمعنى: إن الحق قد ظهر فسقط الجدل والخصومة. وكفى بالحجة عن الخصومة لاحتجاج أحد الخصمين على الآخر، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، وإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة، لم تكن بينه وبين من لا يجيب خصومة. وقيل معناه: لا حجة بيننا وبينكم لظهور أمركم في البغي علينا والعداوة لنا، والمعادنة لا على طريق الشبهة، وليس ذلك تحريماً لإقامة الحجة، لأنه لا يلزم قبول الدعوة إلا بالحجة التي يظهر بها المحق من المبطل، فإذا صار الإنسان إلى البغي والعداوة سقط الججاج بينه وبين أهل الحق. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿وَالِئِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يحكم بيننا بالحق، وفي هذا غاية التهديد.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠).

● **المعنى:** لما تقدّم ظهور الحجة، وانقطاع المحاجة، عقبه بذكر من يحاج بالباطل، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يخاصمون النبي ﷺ والمسلمين في دين الله وتوحيده، وهم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم وأولى بالحق، عن مجاهد وقتادة. وإنما قصدوا بما قالوا ليدفعوا ما أتى به محمد ﷺ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: من بعد ما دخل الناس في الإسلام، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه.

﴿مَجْنَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خصومتهم باطلة، حيث زعموا أن دينهم أفضل من الإسلام، ولأن ما ذكروه لا يمنع من صحة نبوة نبيّنا، بأن ينسخ الله كتابهم وشريعة نبيهم. وقيل معناه: والذين يجادلون في الله بنصرة مذهبهم من بعد ما استجيب للنبي ﷺ دعاؤه في كفار بدر، حتى قتلهم الله بأيدي المؤمنين، واستجيب دعاؤه على أهل مكة، وعلى مضر، حتى قحطوا، ودعاؤه للمستضعفين حتى خلّصهم الله من أيدي قريش، وغير ذلك مما يطول تعداده، عن الجبائي. وقيل: من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ دعاؤه في إظهار المعجزات وإقامتها. وقيل: من بعد ما استجيب له بأن أقروا به قبل مبعته، فلما بُعِثَ جحدوه، كما قال: ﴿وَكَاثُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْخِرُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإنما سمي سبحانه شبهتهم حجة على اعتقادهم، ولشبهها بالحجة أجرى عليها اسمها من غير إطلاق الصفة بها. ﴿وَعَلَيْتُمْ غَضَبٌ﴾ أي: غضب الله عليهم لأجل كفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ دائم يوم القيامة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿يُحَقِّقُ﴾ أي: بالصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل. وقيل: ﴿يُحَقِّقُ﴾ أي: بالأمر والنهي والفرائض والأحكام، وكله حق من الله، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: وأنزل الله العدل، والميزان: عبارة عن العدل كنى به عنه، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد ومقاتل. وإنما سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق، وقيل: أراد به الميزان المعروف، وأنزله الله من السماء وعرفهم كيف يعملون بالحق، وكيف يزنون به، عن الجبائي. وقيل: الميزان محمد ﷺ يقضي بينهم بالكتاب، عن علقمة. ويكون على التوسع والتشبيه. ولما ذكر العدل أتبعه بذكر الساعة، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يدريك يا محمد ولا غيرك لعل مجيء الساعة قريب، وإنما أخفى الله الساعة ووقت مجيئها على العباد، ليكونوا على خوف وليبادروا إلى التوبة، ولو عرفهم مجيئها لكانوا مُغرّرين بالقبائح قبل ذلك تعويلاً على التلافي بالتوبة. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لجهلهم بأحوالها وأهوالها فلا يخافون ما فيها إذا لم يؤمنوا بها، فهم يطلبون قيامها إيعاداً لكونها. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون من مجيئها وهم غير متأمنين لها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا آتِيَةٌ﴾ أي: إن مجيئها الحق الذي لا خلف فيه. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أي: تدخلهم المرية والشك ﴿فِي السَّاعَةِ﴾ فيخاصمون في مجيئها على وجه الإنكار لها، ﴿لَفِي ضَلَالٍ عَن الصَّوَابِ﴾ حين لم يذكروا فيعلموا أن الذي خلقهم أولاً قادر على بعثهم.

ثم قال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي: حفيّ بارٌّ بهم رفيق، عن ابن عباس وعكرمة والسدي. وقيل: اللطيف العالم بخفيات الأمور والغيوب، والمراد به هنا الموصل للمنافع إلى العباد من وجه يدق إدراكه، وذلك في الأرزاق التي قسمها الله لعباده، وصرف الآفات عنهم، وإيصال السرور والملاذ إليهم، وتمكينهم بالقدر والآلات، إلى غير ذلك من أطافه التي لا يوقف على كنهها لغموضها. ثم قال سبحانه: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء، يقال: فلان مرزوق إذا وصف بسعة الرزق. وقيل معناه: يرزق من يشاء في خفض ودعة، ومن يشاء في كد ومشقة ومتعبة، وكلٌّ من رزقه الله من ذي روح فهو ممن شاء الله أن يرزقه. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر الذي لا يعجز ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب.

سورة الشورى

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ معنى الحرث في اللغة: الكسب، وفلان يحرث لعياله ويحترث: أي: يكتسب، أي: من كان يريد بعمله نفع الآخرة ويعمل له، نُجَازَه بعمله ونضاعف له ثواب عمله، فنعطيه على الواحد عشرة ونزيد على ذلك ما نشاء. و﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يريد بعمله نفع الدنيا نعطه نصيباً من الدنيا لا جميع ما يريده، بل على حسب ما تقتضيه الحكمة، كما قال سبحانه: ﴿عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وقيل معناه: من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة، ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك، وحصل له سهمه من الغنيمة، ولكن لا نصيب له من الثواب في الآخرة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن كانت نيته الدنيا، فرّق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». وقيل: من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة، ومن عمل للدنيا فلا حظ له في ثواب الآخرة، لأن الأعلى لا يجعل تبعاً للأدنى، عن الحسن.



قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٧٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقَرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٧٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبِمَتَّ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: «يُبَشِّرُ الله» بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين، والباقون: «يُبَشِّرُ الله» بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «ويعلم ما تفعلون» بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء.

● **الإعراب:** ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ تقديره: الذي يبشر الله به عباده، فحذف الباء، ثم حذف الهاء، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِي﴾ حكمه حكم «ما» التي تكون مصدرية، أي: ذلك تبشير الله عباده. و﴿وَبِمَتَّ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ لأن محو الباطل واجب، فلا يكون معلقاً بالشرط.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه أن من يطلب الدنيا بأعماله فلا حظ له في الآخرة، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: بل لهؤلاء الكفار شركاء فيما كانوا يفعلونه، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ أي: بينوا لهم ونهجوا لهم ﴿يَنْ أَلَيْبَ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: ما لم يأمر به الله ولا أذن فيه، أي: شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام، عن ابن عباس، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا أن الله حكم في كلمة الفصل بين الخلق بتأخير العذاب لهذه الأمة إلى الآخرة لفرغ من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُواكَ﴾ الذين يكذبونك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿وَمَا كَسَبُوا﴾ أي: من جزاء ما كسبوا من المعاصي، وهو العقاب الذي استحقوه ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لا محالة لا ينفعهم منه خوفهم من وقوعه، والإشفاق: الخوف من جهة الرقة على المخوف عليه من وقوع الأمر. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ فالروضة: الأرض الخضرة بحسن النبات، والجنة: الأرض التي يحفها الشجر، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم فيها ما يتمنون ويشتهون يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غير ربهم، ولا يريد بـ ﴿عِنْدَ﴾ قرب المسافة، لأن ذلك من صفات الأجسام. وقيل: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في حكم ربهم. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الثواب هو الفضل العظيم من الله، إذ نالوا نعيماً لا ينقطع بعمل قليل منقطع. ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ الفضل الكبير ﴿الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا. من شدد الشين أراد به التكثير، ومن خفف فلائنه يدل على القليل والكثير.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التواؤم والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى، من العمل الصالح، عن الحسن والجبائي وأبي مسلم. قالوا: هو التقرب إلى الله تعالى، والتودد إليه بالطفاه.

وثانيها: إن معناه: إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة قالوا: وكل قرشي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة، وهذا لقريش خاصة. والمعنى: إن لم تودوني لأجل النبوة فودوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم.

وثالثها: إن معناه: إلا أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم، عن علي بن الحسين عليه السلام وسعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب وجماعة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وأخبرنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني، قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني، قال: حدثني القاضي أبو بكر الحميري، قال: أخبرنا أبو العباس الضبعي، قال: أخبرنا الحسن بن علي بن زياد السري، قال: أخبرنا يحيى بن عبد الحميد الحماني^(١)،

سورة الشورى

قال: حدثنا حسين الأشتر، قال: أخبرنا قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا﴾ الآية، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وولدهما». وأخبرنا السيد أبو الحمد، قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم بالإسناد المذكور في كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل»، مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، وخُلقت أنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها. فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاع عنها هوى، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتى يصير كالشن البالي، ثم لم يدرك محبتنا، كبه الله على مُنْخَرِيهِ في النار». ثم تلا: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. وروى زاذان عن علي عليه السلام قال: فينا في آل حَمَ آية، لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن، ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَمَ آيَةً تَأُولُهَا مَنَّا تَقِيٌّ وَمُغْرِبٌ^(١)

وعلى الأقوال الثلاثة فقد قيل في ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ قولان:

أحدهما: إنه استثناء منقطع، لأن هذا مما يجب بالإسلام فلا يكون أجراً للنبوة.

والآخر: إنه استثناء متصل، والمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، فقد رضيت به أجراً، كما أنك تسأل غيرك حاجة، فيعرض المسؤول عليك برأ فتقول له: اجعل بري قضاء حاجتي. وعلى هذا يجوز أن يكون المعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، ونفعه أيضاً عائد عليكم، فكأنني لم أسألكم أجراً، كما مرّ بيانه في قوله: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ﴾.

وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره، حدثني عثمان بن عمير، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الإسلام، قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله ﷺ فنقول له: إن تعرك أمور فهذه أموالنا تحكّم فيها غير حرج ولا محذور عليك. فأتوه في ذلك، فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقرأها عليهم، وقال: «تودّون قرابتي من بعدي»، فخرجوا من عنده مسلمين لقوله، فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراء في مجلسه أراد بذلك أن يذلّنا لقرابته من بعده. فنزلت: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فأرسل إليهم فتلاها عليهم، فبكوا واشتد عليهم، فأنزل الله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية. فأرسل في أثرهم فبشّروهم وقال: ﴿وَسَيَجِئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم الذين سلّموا لقوله.

ثم قال سبحانه ﴿وَمَنْ يَقَرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَّهٗ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً، بأن يوجب له الثواب. وذكر أبو حمزة الثمالي عن السدي قال: إن اقتراف الحسنة المودة لآل محمد ﷺ. وصح عن الحسن بن علي عليه السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ﴾

(١) تقي أي: صاحب التقية. والمغرب أي: من يظهر مذهبه علانية.

أَجْرًا إِلَّا أَلَمَدَدَةً فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴿١﴾ فاقتِراف الحسنه مودتنا أهل البيت. وروى إسماعيل بن عبد الخالق: عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنها نزلت فينا أهل البيت، أصحاب الكساء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور للسيئات شكور للطاعات، يعامل عباده معامله الشاكر في توفية الحق، حتى كأنه ممن وصل إليه النفع فشكره.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: بل يقولون افترى محمد على الله كذباً، في ادّعائه الرسالة عن الله ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لو حدثت نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبع الله على قلبك، ولأنسك القرآن، فكيف تقدر أن تفتري على الله. وهذا كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وقيل معناه: فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر وساحر، عن مجاهد^(١) ومقاتل. فعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار وحذف. ثم أخبر سبحانه أنه يذهب ما يقولونه باطلاً، فقال: ﴿وَيَمَسُّ اللَّهُ الطَّيْلَ﴾ أي: يزيله ويرفعه بإقامة الدلائل على بطلانه، وحذف الواو من «يمحو» في المصاحف كما حذف من قوله: ﴿سَنَنْتِ الزَّانِيَةَ﴾ على اللفظ في ذهابها للقاء الساكنين، وليس بعطف على قوله: ﴿يَخَيَّرُ﴾، لأنه مرفوع يدل عليه قوله: ﴿وَيُخَيِّرُ الْقَوْمَ بَيْنَ كَيْفَتَيْنِ﴾ أي: ويثبت الحق بأقواله التي ينزلها على نبيه ﷺ، وهو هذا القرآن المعجز. ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِ بِذَاتِ الْقُصُودِ﴾ أي: بضمائر القلوب ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وإن جلت معاصيهم، فكأنه قال: من نسب محمداً ﷺ إلى الافتراء ثم تاب قبلت توبته، وإن جلت معصيته. ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيهم على ذلك.



قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّل بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم» بغير فاء، والباقون بالفاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: القول في ذلك أن «أصاب» في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ يحتمل أمرين: يجوز أن يكون صلة «ما»، ويجوز أن يكون شرطاً في موضع جزم. فمن قدره شرطاً لم

سورة الشورى

يجز حذف الفاء منه على قول سيويه. وقد تأول أبو الحسن بعض الآي على حذف الفاء في جواب الشرط. وقال بعض البغداديين: حذف الفاء من الجواب جائز، واستدل على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وإذا كان صلة فالإثبات والحذف جائزان على معنيين مختلفين. أما إذا ثبت الفاء ففيه دليل على أن الأمر الثاني وجب بالأول، وإذا لم يذكر الفاء جاز أن يكون الثاني وجب للأول، وجاز أن يكون لغيره.

● **المعنى:** لما تقدّم وعيد أهل العصيان عقّبه سبحانه بالوعد لأهل الطاعة، فقال: ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يجيبهم إلى ما يسألونه. وقيل معناه: يجيبهم في دعاء بعضهم لبعض، عن معاذ بن جبل. وقيل معناه: يقبل طاعتهم وعبادتهم ويزيدهم من فضله على ما يستحقونه من الثواب. وقيل معناه: ويستجيب الذين آمنوا بأن يشفعهم في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويشفعهم في إخوان إخوانهم، عن ابن عباس. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم في الدنيا». ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ظاهر المعنى. ولما بين سبحانه أنه يزيد المؤمنين من فضله، أخبر عقبيه أن الزيادة في الأرزاق في الدنيا تكون على حسب المصالح، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو وسّع الرزق على عباده على حسب ما يطلبونه لبطروا النعمة، وتنافسوا وتغالبا، وظلموا في الأرض، وتغلب بعضهم على بعض، وخرجوا عن الطاعة. قال ابن عباس: بغيهم في الأرض: طلبهم منزلة بعد منزلة، ودابة بعد دابة، وملبساً بعد ملابس. ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ولكنه ينزل من الرزق قدر صلاحهم ما يشاء، نظراً منه لهم، عن قتادة. والمعنى: إنه يوسع الرزق على من تكون مصلحته فيه، ويضيق على من يكون مصلحته فيه، ويؤيده الحديث الذي رواه أنس عن النبي ﷺ عن جبرائيل عليه السلام عن الله: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم، ولو صححته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده، وذلك أني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم». والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة. ومتى قيل: نحن نرى كثيراً ممن يوسع عليه الرزق يبغي في الأرض، قلنا: إنا إذا علمنا على الجملة أنه سبحانه يدبر أمور عباده بحسب ما يعلم من مصالحهم، فلعل هؤلاء كان يستوي حالهم في البغي، وسع عليهم أو لم يوسع، أو لعلمهم لو لم يوسع عليهم لكانوا أسوأ حالاً في البغي، فلذلك وسّع عليهم، والله أعلم بتفاصيل أحوالهم. ﴿إِنَّهُ عِبَادُهُ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأحوالهم، بصير بما يصلحهم وما يفسدهم.

ثم بين سبحانه حسن نظره بعباده، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: ينزله عليهم من بعد ما يشعرون من نزوله، والغيث: ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضاراً في وقته وغير وقته، ووجه إنزاله بعد القنوط أنه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه، والمعرفة بموقع إحسانه. ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: ويفرق نعمته ويسطرها بإخراج النبات والثمار التي يكون سببها المطر، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى تدبير عباده، وتقدير أمورهم

ومصالحهم، المالك لهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ الم محمود على جميع أفعاله لكون جميعها إحساناً ومنافع. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وصفاته التي باين بها خلقه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لأنه لا يقدر على ذلك غيره، لما فيهما من العجائب والأجناس التي لا يقدر عليها إلا القادر بقدرته، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ والدابة: ما تدب، فيدخل فيه جميع الحيوانات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو على حشرهم إلى الموقف بعد إمامتهم قادر، لا يتعذر عليه ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ﴾ معاشر الخلق ﴿مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ من بلوى في نفس أو مال ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها، فلا يعاقب بها. قال الحسن: الآية خاصة بالحدود التي تستحق على وجه العقوبة. وقال قتادة: هي عامة. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي، ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده». وقال أهل التحقيق: إن ذلك خاص وإن خرج مخرج العموم، لما يلحق من مصائب الأطفال والمجانين ومن لا ذنب له من المؤمنين، ولأن الأنبياء والأئمة يمتحنون بالمصائب، وإن كانوا معصومين من الذنوب، لما يحصل لهم على الصبر عليها من الثواب.

● **النظم:** والوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما بيّن عظيم إنعامه على العباد، بيّن بعده ألا يعاقبهم إلا على معاصيهم.



قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥).

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وابن عامر: «الجوار» بحذف الياء في الوصل والوقف، وقرأ الباقون: «الجواري» بإثبات الياء في الوصل، وابن كثير ويعقوب في الوقف أيضاً. وقرأ أهل المدينة وابن عامر: «يَعْلَمَ الَّذِينَ يجادلون» بالرفع، والباقون: «وَيَعْلَمَ» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: القياس «الجواري»، ومن حذف فلأن حذف هذه الياءات - وإن كانت لا ما - قد كثر في كلامهم، فصار كالقياس المستمر. ومن قرأ: «يَعْلَمَ» بالرفع استأنف لأنه موضع استئناف من حيث جاء من بعد الجزاء، وإن شئت جعلته خبر مبتدأ محذوف. ومن نصب فلأن قبله شرطاً وجزاء وكل واحد منهما غير واجب، تقول في الشرط: إن تأتني وتُعطيني أكرمك، فتنصب تعطيني، وتقديره: إن يكن إتيان منك وإعطاء أكرمك. فالنصب بعد الشرط إذا عطف عليه بالفاء أمثل من النصب [إذا عطف عليه] بالفاء بعد جزاء الشرط. فأما قوله:

وَمَنْ لَا يَقْدَمُ رَجُلَهُ مُطْمَئِنَّةً فَيُثْبِتْهَا فِي مَسْتَوَى الْأَرْضِ يَزَلَّ

فالنصب فيه حسن لمكان النفي. فأما العطف على الشرط نحو: إن تأتني وتكرمني فأكرمك، فالذي يختار سبويه النصب في العطف على جزاء^(١) الشرط، فيختار «ويعلم الذين يجادلون» إذا لم يقطعه من الأول فيرفعه، ويزعم أن المعطوف على جزاء الشرط شبيه بقوله: وألحق بالحجاز فاستريحاً^(٢)

قال: إلا أن من ينصب في العطف على جزاء الشرط أمثل من ذلك، لأنه ليس يوقع فعلاً إلا بأن يكون من غيره فعل، فصار بمنزلة غير الواجب. وزعم سبويه أن بعضهم قرأ: ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَقْضِي لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بالنصب، وأنشد للأعشى في نصب ما عطف بالفاء على الجزاء: وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ أَهْلِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا^(٣) فهذا حجة لمن قرأ: «ويعلم».

● **اللغة:** الأعلام: الجبال، واحدا علم. قالت الخنساء:

وإن صخرأ لتأتهم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فيظللن أي: يدمن ويؤمن، يقال: ظل يفعل كذا، إذا فعله نهائياً. والرواكد: الثوابت. والإيباق: الإهلاك والإتلاف. وَوَبَقَ الرجل يَبِقُ وَوَبَقَ يَوْبَقُ: إذا هلك. والمحيص: المعدل والملمجأ.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعجزونني حيث ما كنتم، فلا تسبقونني هرباً في الأرض. وفي هذا استدعاء إلى العبادة، وترغيب فيما أمر به، وترهيب عما نهى عنه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يدفع عنكم عقابه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم عليه. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: ومن حججه الدالة على اختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجارية ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال الطوال. ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: إن يشأ الله يسكن الريح فتبقى السفن راكدة واقفة على ظهر الماء لا يبرحن عن المكان، لأن ماء البحر يكون راكداً، فلو لم تجيء الريح لوقفت السفينة في البحر ولم تجر، فالله سبحانه جعل الريح سبباً لجريها فيه، وجعل هبوبها في الجهة التي تسير إليها السفينة. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكره ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: حججاً

(١) وفي نسخة: العطف على الشرط.

(٢) أوله: سأترك ناقتي لبني تميم وهو لمغيرة بن حنين.

(٣) مجزأً ومسحجاً بمعنى. وكبك: جبل. مقصوده أن من بعد عن أهله يصير مظلوماً، ولم يزل يرى مصارعه في كل مكان، فإن عمل صالحاً دفنوه، وإن عمل شراً شهروه به كالنار على جبل كبك. وفي جميع النسخ: «وتدفن» مع أن الغرض من الإستشهاد أن يكون تدفن، ليكون من العطف على الجزاء بالفاء. وقيل كوكباً بدل كبكباً.

واضحات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على أمر الله ﴿شَكُورٍ﴾ على نعمته. وقيل: صَبَّارٌ على ركوبها، شكور على جريها والنجاة من البحر. ﴿أَوْ يُؤْفِقَهُنَّ يَمًا كَسْبًا﴾ معناه: إن يشأ إسكان الريح يسكن الريح، أو إن يشأ يجعل الريح عاصفة، فيهلك السفن، أي: أهلها بالغرق في الماء عقوبة لهم بما كسبوا من المعاصي. ﴿وَيَعَفَّ عَنْ كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يغرقهم، ولا يعاجلهم بعقوبة معاصيهم ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْدِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِنَا﴾ أي: في إبطال آياتنا ودفعها ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ﴾ أي: ملجأ يلجأون إليه، عن السدي.



قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠).

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم هنا وفي سورة والنجم: «كبير الإثم» على التوحيد، والباقون: «كباثر الإثم» على الجمع.

● **الحجة:** حجة الجمع قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. ومن قال: «كبير» فأفرد، جاز أن يريد به الجمع، كقوله: ﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾. وفي الحديث: «منعت العراق درهمها وقفيزها».

● **الإعراب:** ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: يجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ تأكيداً للضمير في ﴿غَضِبُوا﴾ و﴿يَغْفِرُونَ﴾ جواب ﴿وَإِذَا﴾. ويجوز ﴿هُمْ﴾ ابتداء، و﴿يَغْفِرُونَ﴾ خبره، وكذا ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾. وإن شئت كان ﴿هُمْ﴾ وصفاً للمنصوب قبله، وإن شئت كان مبتدأ. وقياس قول سيبويه أن يرتفع ﴿هُمْ﴾ بفعل مضمر دل عليه ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه من تقدم وصفهم، فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: الذي أعطيتكموه من شيء من الأموال ﴿فَمِنَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به أياماً ثم تموتون، فيبقى عنكم أو يهلك المال قبل موتكم. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب والنعيم وما أعده للجزاء على الطاعة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ من هذه المنافع القليلة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله، وبما يجب التصديق به، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والتوكل على الله: تفويض الأمور إليه باعتقاد أنها جارية من قبله على أحسن التدبير، مع الفرع إليه بالدعاء من كل ما ينوب. ﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾: يجوز أن يكون موضع ﴿وَالَّذِينَ﴾ جزأً عطفاً على قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فيكون المعنى: وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم، المجتنبين كبائر الإثم ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء، ويكون الخبر محذوفاً، فيكون

المعنى: والذين يجتنبون الكبائر والفواحش. ﴿وَإِذَا مَا عَصِیُوا﴾ مما يفعل بهم من الظلم ﴿هُمْ یَقْفُرُونَ﴾ ويتجاوزون عنه، لهم مثل ذلك. والفواحش: جمع فاحشة، وهي أقبح القبيح. والمغفرة في الآية المراد بها ما يتعلق بالإساءة إلى نفوسهم، فمتى عفا عنها كانوا ممدوحين، فأما ما يتعلق بحقوق الله وواجبات حدوده، فليس للإمام تركها ولا العفو عنها، ولا يجوز له العفو عن المرتد وعمن جرى مجراه. ثم زاد سبحانه في صفاتهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوه فيما دعاهم إليه من أمور الدين، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أداموها في أوقاتها بشرائطها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ يقال: صار هذا الشيء شورى بين القوم، إذا تشاوروا فيه، وهو فعل من المشاورة، وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق، أي: لا يتفردون بأمر حتى يشاوروا غيرهم فيه. وقيل: إن المعنى بالآية الأنصار، كانوا إذا أرادوا أمراً قبل الإسلام، وقبل قدوم النبي ﷺ، اجتمعوا وتشاوروا ثم عملوا عليه، فأثنى الله عليهم بذلك. وقيل: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبي ﷺ، وورود النقباء عليه، حتى اجتمعوا في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له، عن الضحاك. وفي هذا دلالة على فضل المشاورة في الأمور. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشd». ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ في طاعة الله تعالى وسبيل الخير ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ من غيرهم ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ممن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا، عن السدي. وقيل: ينتصرون أي: يتناصرون، ينصر بعضهم بعضاً، نحو يختصمون ويتخاصمون، عن أبي مسلم. وقيل: يعني به المؤمنين الذين أخرجهم الكفار من مكة، وبغوا عليهم، ثم مكّنه الله في الأرض حتى انتصروا من ظلمهم، عن عطاء. وقيل: جعل الله المؤمنين صنفين:

- صنف يعفون عمن ظلمهم، وهم الذين ذكروا قبل هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَا عَصِیُوا هُمْ یَقْفُرُونَ﴾.

- وصنف ينتصرون ممن ظلمهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية، فمن انتصر وأخذ بحقه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله، فهو مطيع لله، ومن أطاع الله فهو محمود، عن ابن زيد.

ثم ذكر سبحانه حد الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قيل: هو جواب القبيح إذ قال: أخزأك الله. تقول: أخزأك الله، من غير أن تعتدي، عن ابن نجیح والسدي ومجاهد. وقيل: يعني القصاص في الجراحات والدماء، عن مقاتل. وسمي الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى، كما قال: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾. ثم ذكر سبحانه العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فمن عفا عما له المؤاخذه به، وأصلح أمره فيما بينه وبين ربه، فثوابه على الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ثم بين سبحانه أنه لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم، أو لحبه إياه، ولكن ليعرضه^(١) بذلك بجزييل الثواب، ولحبه الإحسان والفضل. وقيل: إنه لا يحب الظالم في قصاص وغيره، بتعديه عما هو له إلى ما ليس

(١) من باب عرض المتاع للبيع. والهاء يعود إلى المظلوم أي: ليجعل نفسه معرضاً لجزييل الثواب.

له. وقيل: إن الآية الأولى عامة في وجوب التناصر بين المسلمين، وهذه الآية في خاصة الرجل يجازي من ظلمه بمثل ما فعله أو يعفو. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنة بغير حساب».



قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٤٣ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۝٤٤ وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝٤٥﴾.

● **الإعراب:** ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: جواب القسم الذي دل عليه قوله: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ﴾ كما قال سبحانه: ﴿لَنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾. وقيل: بل هي جملة في موضع خبر المبتدأ الذي هو من ﴿صَبَرَ وَعَفَرَ﴾ والتقدير: إن ذلك منه لمن عزم الأمور، وحسن الحذف لطول الكلام. وقوله: ﴿خَشِيعِينَ﴾ منصوب على الحال من ﴿يُعْرَضُونَ﴾. و﴿يُعْرَضُونَ﴾ في موضع النصب على الحال من ﴿وَتَرْنَهُمْ﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه المنتصر فقال: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ معناه: من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه بعد ظلمه، أضاف الظلم إلى المظلوم، أي بعد أن ظلم وتعدى عليه فأخذ لنفسه بحقه، فالمنتصرون ما عليهم من إثم وعقوبة وذم، ومثله في إضافة المصدر إلى المفعول قوله: ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: الإثم والعقاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ ابتداء ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع، ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ أي: تحمل المشقة في رضا الله ﴿وَعَفَرَ﴾ فلم ينتصر ف ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من ثابت الأمور التي أمر الله تعالى بها فلم تنسخ. وقيل: «عزم الأمور» هو الأخذ بأعلاها في باب نيل الثواب والأجر. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: ومن يضلله الله عن رحمته وجنته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: معين ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: سواء. وقيل: من عذبه الله عقوبة له على عناده وجحوده، فما له من ولي يلي أمره، ويدفع عذاب الله عنه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: ترى الظالمين يا محمد إذا شاهدوا عذاب النار ﴿يَقُولُوكَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رجوع ورَدَّ إلى دار الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ تمنياً منهم لذلك.

﴿وَتَرْنَهُمْ﴾ يا محمد ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهِمُ﴾ أي: على النار قبل دخولهم النار ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ أي: ساكنين متواضعين في حال العرض ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: خفي النظر لما

عليهم من الهوان، يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في نفوسهم، عن الحسن وقتادة. وقيل: خفي: ذليل، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: من عين لا تفتح كلها، وإنما نظروا ببعضها إلى النار^(١). ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لما رأوا عظيم ما نزل بالظالمين ﴿إِنَّ لِّغَيْرِينَ﴾ في الحقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن فوتوها الانتفاع بنعيم الجنة ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: وأولادهم وأزواجهم وأقاربهم لا ينتفعون بهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لما حيل بينهم وبينهم. وقيل: وأهلهم من الحور العين في الجنة لو آمنوا ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ هذا من قول الله تعالى. والمقيم: الدائم الذي لا زوال له.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآ لُهُ مِّن سَبِيلٍ ۖ﴾ (٤٦) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ ۖ﴾ (٤٧) ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَأَمَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَآ قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ۖ﴾ (٤٨) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ﴾ (٤٩) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلَىٰ قَدِيرٍ ۖ﴾ (٥٠).

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن الظالمين الذين ذكرهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لا فيما عبده من دونه، ولا فيمن أطاعوه في معصيته، أي: نُصَارُ ﴿يَنصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويدفعون عنهم عقابه. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآ لُهُ مِّن سَبِيلٍ﴾ يوصله إلى الجنة. ثم قال سبحانه: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي: أجبوا داعي ربكم، يعني محمداً ﷺ، فيما دعاكم إليه ورغبكم فيه، من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لا رجوع بعده إلى الدنيا. وقيل معناه: لا يقدر أحد على رده ودفعه وهو يوم القيامة، عن الجبائي. وقيل معناه: لا يرد ولا يؤخر عن وقته، وهو يوم الموت، عن أبي مسلم. ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: معقل يعصمكم من العذاب، ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ﴾ أي: إنكار وتغيير للعذاب. وقيل: من نصير منكر ما يحل بكم. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا﴾ يعني الكفار، أي: عدلوا عما دعوتهم إليه ﴿فَأَمَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: مأموراً بحفظهم لئلا يخرجوا عما دعوتهم إليه، كما يحفظ الراعي غنمه لئلا يتركوا، أي: فلا تحزنوا لإعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: ليس عليك إلا إيصال المعنى إلى أفهامهم، والبيان لما فيه رشدهم. ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأوصلنا إليه نعمة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي: بطر، لأن الفرح المراد هنا ما قارنه

(١) في المخطوطة بزيادة «خوفاً منها».

أَشْرَ، أو جحود، أو إنكار، لأنه خرج مخرج الذم، وقيل: إن الرحمة هنا العافية. ﴿وَلِنْ تُصِبَّهُمْ سَيِّئُهُ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: قحط، أو فقر، أو مرض، أو غير ذلك مما يسوءهم، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ يُعَدُّ المصيبة ويجحد النعم.

ثم بيّن سبحانه أن النعم كلها منه، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيهما وفيما بينهما، وسياستهما بما تقتضيه الحكمة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من أنواع الخلق ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) من خلقه ﴿إِنشَاءً﴾ فلا يولد له ذكر ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ البنين فلا يولد له أنثى ﴿أَوْ يُرْجِعُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِنْشَاءً﴾ معناه: أو يجمع لهم بين البنين والبنات. تقول العرب: زوّجت إبلي أي: جمعت بين صغارها وكبارها. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية. وقيل: هو أن تلد توأم ذكر وأنثى، أو ذكراً وذكراً، أو أنثى وأنثى، عن ابن زيد. وقيل: هو أن يجمع في الرحم الذكر والأنثى، عن محمد بن الحنفية. ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من الرجال والنساء ﴿عَقِيمًا﴾ لا يلد ولا يولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما خلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على خلق من يشاء.



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥١) وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣).

● **القراءة:** قرأ نافع: «أو يرسل» بالرفع، «فيوحي» بسكون الياء. والباقون: «أو يرسل»، «فيوحي» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب «أو يرسل» فلا يخلو من أن يكون محمولاً على «أن» في قوله: ﴿أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ﴾ أو على غيره، فلا يجوز أن يكون محمولاً عليه، لأنه يصير تقديره: ما كان لبشر أن يكلمه الله أو أن يرسل رسولاً إليه. ولم يخل قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من أن يكون المراد: أو يرسله رسولاً، أو يكون: أو يرسل إليه رسولاً، والتقديران جميعاً فاسدان. ألا ترى أن كثيراً من البشر قد أرسل رسولاً، وكثيراً منهم قد أرسل إليه الرسل، فإذا لم يخل من هذين التقديرين ولم يصح واحد منهما، علمت أن المعنى ليس عليه والتقدير على غيره، فالذي عليه المعنى والتقدير الصحيح ما ذهب إليه الخليل، من أن يُحمل ﴿يُرْسِلَ﴾ على أن يوحى الذي

سورة الشورى

يدل عليه ﴿وَحَيًّا﴾، فصار التقدير: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحياً أو يرسل رسولاً فيوحى. ويجوز في قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أمران:

أحدهما: أن يكون استثناء منقطعاً.

والآخر: أن يكون حالاً.

فإن قدرته استثناء منقطعاً لم يكن في الكلام شيء يوصل بـ «مِنْ»، لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل فيما بعده، لأن حرف الاستثناء في معنى حرف النفي، ألا ترى أنك إذا قلت: قام القوم إلا زيداً. فالمعنى: قام القوم لا زيد. فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي فيما بعده، كذلك لا يعمل ما قبل الاستثناء إذا كان كلاماً تاماً فيما بعد، إذا كان بمعنى النفي. وكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد «إلا» فيما قبلها نحو: ما أنا الخبز إلا أكل، كما لم يعمل ما بعد حرف النفي فيما قبله، فإذا كان كذلك لم يتصل الجار بما قبل «إلا».

ويمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر، وهو أن قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ في صلة «وحي» الذي هو بمعنى: أن يوحى، فإذا كان كذلك لم يجز أن يحمل الجار الذي هو «مِنْ» قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ على ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾، لأنك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما، ألا ترى أن المعطوف على الصلة في الصلة، فإذا حَمَلْتَ العطف على ما ليس في الصلة، فَصَلْتَ بين الصلة والموصول بالأجنبي الذي ليس منهما. فإذا لم يجز حمله على ﴿يُكَلِّمُهُ﴾ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ ولم يكن بد من أن يعلق الجار بشيء، ولم يكن في اللفظ شيء تحمله عليه، أضمرت «يكلم»، وجعلت الجار في قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ متعلقاً بفعل مراد في الصلة، محذوف منها للدلالة عليه. وقد يحذف من الصلة أشياء للدلالة عليها، ويكون في المعنى معطوفاً على الفعل المقدر صلة، لأن الموصول وهي: «يوحي» فيكون التقدير: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى إليه أو يكلمه من وراء حجاب، يحذف يكلم من الصلة لأن ذكره قد جرى وإن كان خارجاً من الصلة، فحسن ذلك حذفه من الصلة وسوَّغه.

ألا ترى أن ما قبل حرف الاستفهام مثل ما قبل الصلة، في أنه لا يعمل في الصلة، كما لا يعمل ما قبل الاستفهام فيما كان من حيز الاستفهام، وقد جاء: ﴿ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ والمعنى: الآن آمنت وقد عصيت قبل. فلما كان ذكر الفعل قد جرى في الكلام أُضْمِرَ.

ولا يجوز أن يقدَّر عطف ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ على الفعل الخارج من الصلة فيفصل بين الصلة والموصول بالأجنبي منهما، كما فصل في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ ثم قال: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَدُ﴾ فعطف بـ «أو» على ما في الصلة بعد ما فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، لأن قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ من الاعتراض الذي يسد ما في الصلة ويوضحه، فصار بذلك بمنزلة الصفة، لما في الصفة من

التبيين والتخصيص. ومثل هذا في الفصل في الصلة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهُمْ لَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ فصل بقوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾^(١) وعطف عليه قوله: ﴿وَتَرْهُمْ لَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ على الصلة مع هذا الفصل، من حيث قوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ يسدّد^(٢) ما الصلة.

وأما من رفع فقال: «أو يرسلُ رسولاً» فجعل «يرسلُ» حالاً، فإن الجار في قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ متعلق بمحذوف، ويكون في الظرف ذكر من ذي الحال، فيكون قول: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ على هذا التقدير مصدراً وقع موقع الحال، كقولك: جئت ركضاً، وأتيت عدواً. ويكون «من» في أنه مع ما انجز به في موضع الحال، كقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. ومعنى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ فمن قدر الكلام استثناء منقطعاً أو حالاً يكلمهم غير مجاهر لهم بكلامه، يريد أن كلامه يُسْمَعُ ويَحْدُثُ من حيث لا يُرَى كما يُرَى سائر المتكلمين، وليس أن ثم حجاباً يفصل موضعاً من موضع، فيدل ذلك على تحديد المحجوب، ومن رفع «يرسلُ» كان في موضع نصب على الحال، والمعنى: هذا كلامه إياهم، كما يقول: تحتك الضرب، وعتابك السيف.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أجل النعم وهي النبوة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله ﴿إِلَّا﴾ أن يوحى إليه ﴿وَحْيًا﴾ وهو داود أوحى في صدره، فزبر الزبور ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ أي: أو يكلمه من وراء حجاب، وهو موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبرائيل أرسل إلى محمد ﷺ، عن مجاهد. وقيل معناه: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بمثل ما يكلم به عباده، من الأمر بطاعته والنهي عن معاصيه، وتنبيهه إياهم على ذلك من جهة خاطر أو المنام وما أشبه ذلك على سبيل الوحي. وسماه وحياً لأن الوحي في اللغة ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به، أو من وراء حجاب، وهو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به، نحو كلامه لموسى عليه السلام، لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى عليه السلام وحده، وفي المرة الثانية حجبه عن جميع الخلق إلا عن موسى والسبعين الذين كانوا معه. وقد يقال: إنه حجب عنهم موضع الكلام الذي أقام الكلام فيه، فلم يكونوا يدرون من أين يسمعون، لأن الكلام عرض لا يقوم إلا في جسم. ولا يجوز أن يكون أراد بقوله: إن الله تعالى كان من وراء حجاب يكلم عباده، لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة.

وعنى بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ إرساله ملائكته بكتبه وكلامه إلى أنبيائه، ليلغوا ذلك عنه عباده، فهذا أيضاً ضرب من الكلام الذي يكلم الله به عباده، ويأمرهم فيه وينهاهم من غير أن يكلمهم على سبيل ما كلم به موسى عليه السلام، وهو خلاف الوحي الذي ذُكِرَ في أول الآية، لأنه تنبيه خاطر وليس فيه إفصاح، عن أبي علي الجبائي.

سورة الشورى

وقال الزجاج معناه: إن كلام الله للبشر إما أن يكون بالهام يلهمهم، أو بكلام من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله. ﴿إِنَّكُمْ عَلَيَّ﴾ عن الإدراك بالأبصار ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك ﴿رُؤُوسًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: بأمرنا، ومعناه: القرآن لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر، عن قتادة والجبائي وغيرهما. وقيل: هو روح القدس، عن السدي. وقيل: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالوا: ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ يا محمد قبل الوحي ﴿مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايْمُنُ﴾ أي: ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان. وقيل معناه: ولا أهل الإيمان، أي: من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. وهذا من باب حذف المضاف. ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ أي: جعلنا الروح الذي هو القرآن نوراً، لأن فيه معالم الدين، عن السدي. وقيل: جعلنا الإيمان نوراً، لأنه طريق النجاة، عن ابن عباس. ﴿تَهْدِي بِهٖ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نرشده إلى الجنة، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ترشد وتدعو إلى طريق مُفَضٍّ إلى الحق وهو الإيمان. ثم فسر ذلك الصراط بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿أَلَّا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ أي: إليه ترجع الأمور والتدبير يوم القيامة، فلا يملك ذلك غيره.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

مكية/آياتها (٨٩)

مكية كلها. وقيل: إلا آية منها ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية. نزلت ببيت المقدس، عن مقاتل.

● عدد آياتها: ثمان وثمانون آية شامي، تسع في الباقيين.

● اختلافها: آيتان ﴿حَمَّ﴾ كوفي ﴿هُوَ مَهِيْنٌ﴾ حجازي بصري.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال

له يوم القيامة: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ وعن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: من أدام قراءة حم الزخرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض، ومن ضمة القبر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل، ثم جاءت حتى تكون هي التي تدخله الجنة بأمر الله عز وجل.

● تفسيرها: لما ختم الله سورة ﴿حَمَّ عَسَقَ﴾ بذكر القرآن والوحي، افتتح هذه السورة

بذلك أيضاً، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣
وَأَنذَرْتُكُمْ لَدَيْنَا لَعْنِي حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥﴾.

● القراءة: قرأ أهل المدينة والكوفة غير عاصم: «إن كنتم» بكسر الهمزة، والباقيون:

بفتحها.

● الحجة: قال أبو علي: من قال: «إن كنتم» فالمعنى: لأن كنتم، فأما ﴿صَفْحًا﴾

فانتصابه من باب «صنع الله»، لأن قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ يدل على أن نصف عنكم صفحاً. وكأن قولهم: صفحت عنه، أي: أعرضت عنه ووليته صفحة العنق. فالمعنى: أفنضرب عنكم ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم لأن كنتم قوماً مسرفين. وهذا يقرب من قوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُدْرَكَ سُدًى﴾. والكسر على أنه جزاء استغني عن جوابه بما تقدمه، مثل: أنت ظالم إن فعلت كذا، كأنه قال: إن كنتم مسرفين نضرب.

● اللغة: يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه، أي: تركته وأمسكت عنه. يقال: صفح

عني بوجهه. قال كثير، وذكر امرأة:

سورة الزخرف

صَفُوحاً فَمَا تَلْفَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ^(١)

أي: معرضة بوجهها، والصفوح في صفات الله تعالى معناه: العفو عن الذنب، كأنه أعرض عن مجازاته تفضلاً، يقال: صَفَحَ عن ذنبه: إذا عفا. والإسراف: مجاوزة الحد في العصيان.

● **المعنى:** ﴿حَدَّ﴾ مَرَّ معناه. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بالقرآن المبين للحلال والحرام، المبين ما يحتاج إليه الأناس من شرائع الإسلام، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلناه، عن السدي. وقيل: قلناه، عن مجاهد. ونظيره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أي: يقولون. ﴿قَوْلًا نَّاعِرِيًّا﴾ أي: بلسان العرب، والمعنى: جعلناه على طريقة العرب في مذاهبهم في الحروف والمفهوم، ومع ذلك فإنه لا يتمكن أحد منهم من إنشاء مثله، والابتداء بما يقاربه من علو طبقة في البلاغة والفصاحة، إما لعدم علمهم بذلك، أو لأنهم صرفوا عنه، على الخلاف بين العلماء فيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا وتفكروا فيه فتعلموا صدق من ظهر على يده. وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن، لأن المجمعول هو المحدث بعينه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿فِي أُرْ الْكِتَابِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وإنما سُمِّيَ أمَّا، لأن سائر الكتب تنسخ منه. وقيل: لأن أصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، كما قال: بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، عن الزجاج. وهو الكتاب الذي كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة، لما رأى في ذلك من صلاح ملائكته بالنظر فيه، وعلم فيه من لطف المكلفين بالإخبار عنه. ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: الذي عندنا، عن ابن عباس. ﴿لَعَلِّي﴾ أي: عالٍ في البلاغة، مظهر ما بالعباد إليه من الحاجة. وقيل معناه: يعلو كل كتاب بما اختص به من كونه معجزاً وناسخاً للكتب، وبوجوب إدامة العمل به، وبما تضمنه من الفوائد، وقيل: «عليّ» أي: عظيم الشأن رفيع الدرجة، تُعَظَّمُ الملائكة والمؤمنون. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مظهر للحكمة البالغة. وقيل: حكيم دلالة على كل حق وصواب، فهو بمنزلة الحكيم الذي لا ينطق إلا بالحق. وصف الله تعالى القرآن بهاتين الصفتين على سبيل التوسع، لأنهما من صفات الحي. ثم خاطب سبحانه من لم يعتبر بالقرآن وجحد ما فيه من الحكمة والبيان، فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ والمراد بالذكر هنا القرآن، أي: أفنترك عنكم الوحي صفحاً فلا تأمركم ولا نهاكم ولا نرسل إليكم رسولاً؟ ﴿أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لأن كنتم، والمعنى: أفنمسك عن إنزال القرآن ونهملكم فلا نعرفكم ما يجب عليكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم؟ وهذا استفهام إنكار، ومعناه: إنا لا نفعل ذلك. وأصل ضربت عنه الذكر، أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفه عن جهة، ضربه بعصا أو سوط ليعدل به إلى جهة أخرى، ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل.

وقيل: إن الذكر بمعنى العذاب، ومعناه: أحسبتم أننا لا نعذبكم أبداً، عن السدي.



(١) أي: كثيرة الصفح عن عشاقها، فما تلتفك إلا بخيلة بالوصل، وسريعة الملل. فمن أظهر من وصلها الملل ملّت سريعاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم عزى سبحانه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني من الأمم الخالية التي ذكرناها، كفرت بالأنبياء وسخرت منهم لفرط جهالتهم وغباوتهم، واستهزأت بهم كما استهزأ قومك بك، أي: فلم تضرب عنهم صفحاً لاستهزائهم برسلمهم، بل كررنا الحجج وأعدنا الرسل. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا من أولئك الأمم بأنواع العذاب من كان أشد قوة ومنعة من قومك، فلا يغتر هؤلاء المشركون بالقوة والنجدة. ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سبق فيما أنزلنا إليك. شبه حال الكفار الماضية بحال هؤلاء في التكذيب، ولما أهلك أولئك بتكذيبهم رسلمهم فعاقبة هؤلاء الإهلاك.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: إن سألت قومك يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أنشأهما واخترعهما ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا: خلقهن - يعني السماوات والأرض - العزيز القادر الذي لا يقهر، العليم بمصالح الخلق، وهو الله تعالى، لأنهم لا يمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأصنام والأوثان. وهذا إخبار عن غاية جهلهم، إذا اعترفوا بأن الله خلق السماوات والأرض ثم عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث. ثم وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقرأ «مهاداً» وقد مضى ذكره في طه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وقيل معناه: لتهدوا إلى الحق في الدين بالاعتبار الذي حصل لكم بالنظر فيها.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرِ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفَاكٍ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِمُفْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لِمَنْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

● **اللغة:** يقال: أنشر الله الخلق فنشروا، أي: أحياهم فحيوا. قال الأعشى:

لو أنشدت ميتاً إلى نحرها عاش ولم يُنقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشِر^(١)

الإقْران: الإطاقة، يقال: أقرنت لهذا البعير، أي: أطقته.

● **المعنى:** ثم أكد سبحانه ما قدمه بقوله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿يَقْدِرُ﴾ أي: بقدر الحاجة، لا زائداً عليها فيفسد، ولا ناقصاً عنها فيضر ولا ينفع، وفي ذلك دلالة على أنه واقع من قادر مختار، قد قدره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بذلك. ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ أي: فأوحينا ﴿بِهِ﴾ أي: بذلك المطر ﴿بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ أي: جافة يابسة بإخراج النبات والأشجار، والزرع والثمار، و﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ من قبوركم يوم البعث. ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني أزواج الحيوان من ذكر وأنثى. وقيل معناه: خلق الأشكال جميعها من الحيوان والجماد، فمن الحيوان الذكر والأنثى، ومن غير الحيوان مما هو كالمقابل، كالحلو والمر، والرطب واليابس، وغير ذلك. وقيل: الأزواج: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والجنة والنار، عن الحسن. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْفَارِ﴾ من الإبل والبقر، عن سعيد بن جبیر. وقيل: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البحر والبر ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾. بيّن سبحانه أن الغرض في خلق ما ذكر لتستووا على ظهور ما جعل لكم، فالضمير في ﴿ظُهُورِهِ﴾ يعود إلى لفظ ﴿مَا﴾. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فتشكروا على تلك النعمة التي هي تسخير ذلك المركب، ﴿وَتَقُولُوا﴾ معترفين بنعمه، منزهين له عن شبه المخلوقين ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ المركب، أي: ذلله لنا حتى ركبناه، ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ﴾ أي: مطبقين مقاومين في القوة. ﴿وَأَنَّا إِنَّا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: ولتقولوا أيضاً ذلك، ومعناه: وإنا إلى الله راجعون في آخر عمرنا، على مركب آخر وهو الجنابة. قال قتادة: قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم.

وروي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً في سفر، كبر ثلاثاً، وقال: «سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنَّا إِنَّا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٨﴾»، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، والعمل بما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا وأطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال. وإذا رجع قال: «أُثْبُون تائبون لرَبَّنَا حامدون» أورده مسلم في الصحيح.

وروى العياشي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكُرُ النعمة أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، ومنّ علينا بمحمد ﷺ، وتقول: بعده: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ إلى آخره.

(١) يصف المرأة بأنها من فرط الجمال تحيي الأموات، فلو أسندت ميتاً إلى نحرها صار حياً، ولم ينقل إلى قابر يقبره ويدفنه، فيتعجب الناس ويقولون: يا عجباً للميت الحي.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: نصيباً، يعني: حكموا بأن بعض عباده وهم الملائكة له أولاد، ومعنى الجعل هنا: الحكم، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد والحسن، قالوا: زعموا أن الملائكة بنات الله. قال الزجاج: قد أنشد بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى جزء معنى الإناث وهو:

إن أجزأت حُرَّةً يوماً فلا عَجَبٌ قد تُجزىء الحُرَّةُ المِذكَارُ أحياناً^(١)

أي: أنثت. وقيل معناه: وجعلوا لله من مال عباده نصيباً، فيكون كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْفَكِ نَصِيبًا﴾ فحذف المضاف، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي: جاحد لنعم الله، مظهر لكفره، غير مستتر به.



قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١١) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٢) أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٣) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٤) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴿

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «يُنْشَأُ» بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، والباقون: «يُنْشَأُ» بفتح الياء وسكون النون والتخفيف. وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو: «عباد الرحمن» والباقون: «عند الرحمن». وقرأ أهل المدينة: «أَشْهَدُوا» على أَفْعِلُوا بضم الهمزة وسكون الشين وقبلها همزة الاستفهام مفتوحة، ثم تخفف الثانية من غير أن يدخل بينهما ألفاً، وبعضهم يُدْخِلُ بينهما ألفاً، وقرأ الباقيون: «أَشْهَدُوا» بفتح الألف والشين.

● **الحجة:** قال أبو علي: يقال: نَشَأَتِ السحابة، ونَشَأَ الغلام، فإذا نقل هذا الفعل بالهمزة كقوله: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾، ﴿ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ تعدى إلى مفعول. ومن قرأ: «يُنْشَأُ» كان مثل فَرِحَ وأفْرَحَ، وغَرِمَ وأغرم. وموضع ﴿مِنْ﴾ نصب على تقدير: اتخذوا له مَنْ يَنْشَأُ في الحلية على وجه التقريع لهم بما افتروه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾.

وحجة من قرأ: «عباد الرحمن» قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾. وحجة من قرأ: «عند

(١) المذكر: التي من عاداتها أن تلد الذكور، وكذلك الرجل. المراد: إنه إن كانت الحرة مؤنثاً بأن خلقها الله أنثى، فلا عجب، فإن الحرة المذكر التي هي سبب الفخر، تكون أنثى. قال في الكشف: ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث وأدعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منقول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: «أجزاء المرأة». الخ.

سورة الزخرف

الرحمن» قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وفي هذا دلالة على رفع المنزلة والتقريب، كما قال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وليس من قرب المسافة.

وشهدت تستعمل على ضربين:

أحدهما: بمعنى الحضور.

والآخر: بمعنى العلم. والذي بمعنى الحضور يتعدى إلى مفعول به، يدل ذلك على ذلك قوله:

ويوم شهدناه سليماً وعامراً

تقديره: شهدنا فيه سليماً. ومن ذلك قوله:

شهدنا فما تلقى لنا من كتيبة يد الدهر إلا جبرئيلُ أمامها

فهذا محذوف المفعول، والتقدير فيه: شهدنا المعركة، فهذا الضرب إذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين، تقول: شهد زيد المعركة، وأشهدته إياها، ومن ذلك قوله: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وأما شهدت الذي بمعنى علمت فيستعمل على ضربين:

أحدهما: أن يكون قسماً.

والآخر: أن يكون غير قسم.

فاستعمالهم إياه قسماً كاستعمالهم: عليم الله ويعلم الله قسمين، يقول: علم الله لأفعلن، فيتلقاه ما يتلقى الأقسام، وأنشد سيبويه:

ولَقَدْ عَلِمْتُ لَتَأْتِيَنَّ مَنِيَّتِي إِنْ الْمَنَابِيا لَا تَطْيِيشُ سِهَامِهَا^(١)

وحكي أن زفر كان يذهب إلى أنه إذا قال: «أشهد بالله»، كان يميناً. وإن قال: أشهد، ولم يقل: «بالله»، لم يره يميناً. وقال محمد الشيباني: «أشهد» غير موصولة بقوله: بالله، مثل أشهد موصولة بقولك: بالله، في أنه يمين، واستشهد على ذلك بقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿أَخَذُوا آمَنَهُمْ جُنَّةً﴾، فجعله يميناً ولم يوصل بقوله بالله.

وأما شهدت الذي يراد به علمت ولا يراد به حضرت، فهو ضرب من العلم مخصوص، فكل شهادة علم، وليس كل علم شهادة، ومما يدل على اختصاصه في العلم أنه لو قال عند الحاكم: أعلم أن لزيد على عمرو عشرة، لم يحكم بها حتى يقول: أشهد. فالشهادة مثل التيقن

(١) طاش السهم عن الهدف: جاز عنه ولم يصبه. وما في هذه الصفحة من البيت والمصراع المذكور في (جامع الشواهد).

في أنه ضرب من العلم مخصوص، وليس كل علم تيقناً، وإن كان كل تيقن علماً، فكان معنى أشهد أيها الحاكم على كذا: أعلمه علماً يحضرنى. وقد تذلل لي فلا أتوقف فيه لوضوحه عندي وتبينه لي. وليس كذلك سبيل المعلومات كلها، ألا ترى أن منها ما يحتاج إلى توقف فيه واستدلال عليه.

وأما قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ فمن الشهادة التي هي الحضور، كأنهم وُبحوا على أن قالوا ما لم يحضروه، مما حُكمه أن يعلم بالمشاهدة. ومن قال: «أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ» فالمعنى: أأحضروا ذلك، وكان الفعل متعدياً إلى مفعولين، فلما بني للمفعول به نقص مفعولاً فتعدى إلى مفعول واحد، ويقوي هذه القراءة: ﴿مَا أَشْهَدْتُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وأما قوله: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ فحذف المفعول^(١) الأول على حد: ضربني وضربت. وهذا منقول من شهد بكذا، إلا أن حرف الجر يحذف مع أن وإن.

● **المعنى:** ثم أنكر سبحانه عليهم قولهم، فقال: ﴿أَمْرٌ﴾ وهذا استفهام وتوبيخ، ومعناه: بل ﴿أَتَحَدَّ بِمَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ أي: اتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَكُمْ﴾ أي: أخلصكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ وهذا كقوله: ﴿أَفَأَصْفَكُمْ رِبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾. ثم زاد في الاحتجاج عليهم بأن قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي: بما جعل الله شهباً، وذلك أن ولد كل شيء شبيهه وجنسه، فالمعنى: إذا بُشِّرَ أحدهم بولادة ابنة له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ بما يلحقه من الغم بذلك ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء كرباً وغيظاً. ثم وُبحهم بما افتروه، فقال: ﴿أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَِّةِ﴾ أي: أو جعلوا من يُنشأ في الحلية، أي: في زينة النساء لله عز وجل، يعني البنات ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ يعني المخاصمة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ للحجة. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، أي: لا يمكنها أن تبين الحجة عند الخصومة لضعفها وسفها.

وقيل معناه: أو تعبدون من يُنشأ في الحلية، ولا يمكنه أن ينطق بحجته ويعجز عن الجواب وهم الأصنام، فإنهم كانوا يُحَلِّونَهَا بِالْحَلِيِّ، عن ابن زيد. وإنما قال: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ ولم يقل: وهي، لأنه حملة على لفظ «من». ﴿وَجَعَلُوا أَلَمَّتِيكَهَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتًا﴾ بأن زعموا أنهم بنات الله ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ هذا رد عليهم، أي: أحضروا خلقهم حتى علموا أنهم إناث، وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا أَلَمَّتِيكَهَ إِنْتًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾. ﴿سَتَكُنُّنَّ شَاهِدَاتُهُمْ﴾ بذلك ﴿وَيُسْتَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو شاء الرحمن ألا نعبدهم ما عبدناهم، فإنما عبدناهم بمشيئة الله ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لا يعلمون صحة ما يقولون، هذا إشارة إلى بطلان قولهم لما لم يصدر عن دليل وعلم. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا كاذبون. قال أبو حامد: كَذَبَهُمُ الله تعالى لأنهم أنكروا التوحيد بإضافتهم الولد إليه سبحانه، وفارقوا العدل بإضافتهم الكفر إلى مشيئة الله تعالى.



(١) كذا في النسخ، والصواب مفعول الأول أي: مفعول الفعل الأول، وهو أشهد الله، فإن جملة أني بريء ليست مفعولاً أولاً على أي تقدير.

سورة الزخرف

﴿أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٦١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
 ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٦٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن
 نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ
 أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٦٤﴾
 فَانظُرْ مِنْهُمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٦٥﴾ .

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحفص: «قال أولو» وقرأ الباقون: «قل أولو»، وقرأ أبو جعفر: «جئناكم» والباقون: «جئكم».

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «قال» فالمعنى: قال لهم النذير: أولو جئكم. ومن قرأ: «قل» فإنه يكون حكاية ما أوجي إلى النذير، كأنه أوحينا إليه فقلنا له: قل لهم: أولو جئكم بأهدى من ذلك.

● **المعنى:** لما حكى الله سبحانه تخرُّص مَنْ أضاف عبادة الأصنام والملائكة إلى مشيئة الله قال: ﴿أَمْ أَلَيْسَتْكُمْ كِتَابًا﴾ وهو استفهام بمعنى التقرير لهم على خطئهم، والتقدير: أهذا الذي ذكروه شيء تخرُّصوه وافتعلوه أم آتيناهم كتاباً. ﴿مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: مستمسكون بذلك، فإذا لم يمكنهم ادعاء أن الله تعالى أنزل بذلك كتاباً، عُلِمَ أن ذلك من تخرصهم، ودل «أم» على حذف حرف الاستفهام، لأن المعادلة له. ثم أعلم أنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة، فقال: ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة وطريقة، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقيل: على جماعة، أي: كانوا مجتمعين موافقين على ما نحن عليه، عن الجبائي. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ نهدي بهداهم. ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ ومجمع من الناس ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نذيراً، لأن ﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهم الْمُتَنَعِّمُونَ الذين آثروا الترفه على طلب الحجة، يريد الرؤساء، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ نفتدي بهم فلا نخالفهم، وأحال جميعهم على التقليد للآباء فحسب، دون الحجة، والتقليد قبيح في العقول، إذ لو كان جائزاً لكان يلزم في ذلك أن يكون الحق في الشيء ونقيضه، فكل فريق يقلد أسلافه، مع أن كلاً منهم يعتقد أن من سواه على خطأ وضلال، وهذا باطل لا شبهة في بطلانه. فإذا لا بد من الرجوع إلى حجة عقلية أو سمعية. ثم قال سبحانه للنذير: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ أي: أتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ولا تقبلون ما جئكم به؟ وفي هذا أحسن التلطف في الاستدعاء إلى الحق، وهو أنه لو كان ما يدعونه حقاً وهدي، وكان ما جئكم به من الحق أهدي منه، كان أوجب أن يتبع ويرجع إليه. ثم أخبر أنهم أبوا أن يقبلوا ذلك و﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أيها الرسل ﴿كَافِرُونَ﴾. ثم ذكر سبحانه ما فعل بهم فقال: ﴿فَاَنْظُرْ مِنْهُمْ﴾ بأن أهلكناهم وعجلنا عقوبتهم، ﴿فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾

الْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَالْجَاهِدِينَ لَهُمْ. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ الْمَحْمُودَةُ تَكُونُ لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ.



قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

● **اللغة:** تقول العرب: أنا براء منك، ونحن براء منك، الذكر والأنثى والاثنتان والجماعة فيه سواء. والمعنى: أنا ذو براء منك، كما قالوا: رجل عدل^(١)، وقوم عدل، أي: ذو عدل^(٢)، وذوو عدل.

● **المعنى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام والكواكب ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي: بريء ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ثم استثنى خالقه من جملة ما كانوا يعبدونه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: سوى الله الذي خلقني وابتدأني، وتقديره: إلا من الذي فطرني. قال قتادة: كانوا يقولون: الله ربنا، مع عبادتهم الأوثان، ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق الجنة بلطف من ألطافه. وقيل: سيهدين إلى الحق بما نصب من الأدلة، وفيه بيان ثقته بالله تعالى، ودعاء لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من عنده. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: جعل كلمة التوحيد، وهي قول: «لا إله إلا الله»، كلمة باقية في ذرية إبراهيم ونسله، فلم يزل فيهم من يقولها، عن قتادة ومجاهد والسدي. وقيل: جعل هذه الكلمة التي قالها إبراهيم، وهو براءة من الشرك، باقية في ولده من بعده. وقيل: الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين، عن أبي عبد الله عليه السلام. واختلف في عقبه من هم؟ فقيل: ذريته وولده، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: ولده إلى يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هم آل محمد، عن السدي. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم في توحيد الله تعالى، كما اقتدى الكفار بأبائهم، عن الفراء والحسن. وقيل: لعلهم يرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله تعالى. ثم ذكر سبحانه نعمه على قريش فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ المشركين بأنفسهم وأموالهم وأنواع النعم، ولم أعجلهم بالعقوبة لكفرهم، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن، عن السدي. وقيل: الآيات الدالة على الصدق. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَيُظْهِرُهُ، وهو محمد ﷺ. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ أي: حيلة خفية وتمويه ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون لكونه من قبل الله تعالى.

(١) [وامرأة عدل].

(٢) [وذات عدل].

سورة الزخرف

● **النظم:** وجه اتصال قصة إبراهيم عليه السلام بما قبلها، أنه سبحانه لما ذم التقليد، وأوجب اتباع الحق والدليل، أتبعه بذكر إبراهيم الخليل، حيث اتبع الحجة وأوضح المحجة. وقيل: إنه سبحانه لما ذم التقليد وذكر أن الكفار أبوا إلا ذلك، ذكر أن تقليد إبراهيم أولى لأنهم من أولاده وذريته، ويدعون أنهم على طريقته. وإنما اتصل قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ بما تقدمه من ذكر إعراضهم عن الحجة وتعويلهم على التقليد. فبين سبحانه أنهم أتوا من قبل نفوسهم، فقد أزيحت علتهم بأن أمهلوا ومتعوا، ثم جاءهم الحق فلم يؤمنوا.



قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ ۖ أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۖ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۖ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ۖ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۖ﴾

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «سُقْفًا» بفتح السين، والباقون: «سُقْفًا» بضم السين والقاف. وقرأ عاصم وحمة: «وإن كل ذلك لما» بتشديد الميم، والباقون: «لما» خفيفة الميم.

● **الحجة:** قال أبو علي: سَقْف جمع سَقْف، مثل رهن ورهن، ويخفف فيقال: رهن وفُعل، في الجمع يخفف. وسَقْف واحد يدل على الجمع، ألا ترى أنه علم بقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: لكل بيت سَقْفًا. ومن شدد «لما» كانت إن عنده بمنزلة ما النافية. فالمعنى: ما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا. ولما في معنى إلا. حكى سيبويه: نشدتك الله لما فعلت، وحمله على إلا. وهذه الآية تدل على فساد قول من قال: إن قوله: ﴿وَإِن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إن المعنى: لمن هو جميع لدينا حاضرون. وزعموا أن في حرف أَيْ: وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا. ومن قرأ: «لما» بالتخفيف، فإنَّ إن في قوله: ﴿وَإِن كُلُّ﴾ هي المخففة من الثقيلة. واللام فيها هي التي تدخل لتفصل بين النفي والإيجاب في قوله:

هَبْلَتِكَ أَمَكُ إِن قَتَلْتَ لِفَارَسًا

ومن نصب بها مخففة فقال: إن زيداً لمنطلق، استغنى عن هذه اللام، لأن النافية لا ينتصب بعدها اسم فلا يقع اللبس، و«ما» فيه زيادة. والمعنى: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

● **اللغة:** المعارج: الدرج، واحدها مِغْرَج، والعروج: الصعود. وظهر عليه: إذا علاه وصعده. قال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وُجُودنا وإنا لَنرجو فوق ذلك مَظهر^(١)

والسرر: جمع سرير، ويجمع على أسرة أيضاً. والزخرف: كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب: زخرف، ويقال: زخرفه زخرفة: إذا حسَّنه وزَيَّنَّه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير: زخرف. وفي الحديث أنه ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فُتُحِيَ.

● **المعنى:** ﴿وَقَالُوا﴾ أي: وقال هؤلاء الكفار ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يعنون بالقريتين مكة والطائف. وتقدير الآية: على رجل عظيم من القريتين، أي: من إحدى القريتين، فحذف المضاف، ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين: الوليد بن المغيرة من مكة، وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، عن قتادة. وقيل: عتبة بن أبي ربيعة من مكة، وابن عبد يا ليل من الطائف، عن مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة، وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف، عن ابن عباس. وإنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمي قومهما، وذوي الأموال الجسيمة فيهما، فدخلت الشبهة عليهما، حتى اعتقدوا أن من كان كذلك كان أولى بالنبوة، فقال سبحانه رداً عليهما: ﴿أَمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة بين الخلق. بين سبحانه أنه هو الذي يقسم النبوة لا غيره. والمعنى: بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاءوا، عن مقاتل. ثم قال سبحانه: ﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: نحن قسمنا الرزق في المعيشة على حسب ما علمناه من مصالح عبادنا، فليس لأحد أن يتحكم في شيء من ذلك، فكما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق، فكذلك اصطفينا للرسالة من نشاء. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ معناه: أفقرنا البعض وأغنيا البعض، فتلقى ضعيف الحيلة عيى اللسان وهو مبسوط له، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مُقْتَرٌّ عليه، ولم نُفَوِّضْ ذلك إليهم مع قلة خطره، بل جعلناه على ما توجبه الحكمة والمصلحة، فكيف نفوض اختيار النبوة إليهم مع عظم محلها وشرف قدرها. وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ معناه: إن الوجه في اختلاف الرزق بين العباد، في الضيق والسعة، زيادة على ما فيه من المصلحة، أن في ذلك تسخيراً من بعض العباد لبعض، بإحواجهم إليهم، يستخدم بعضهم بعضاً، فينتفع أحدهم بعمل الآخر له، فينتظم بذلك قوام أمر العالم. وقيل معناه: ليملك بعضهم بعضاً بمالهم، فيتخذونهم عبيداً ومماليك، عن قتادة والضحاك. ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: ورحمة الله سبحانه ونعمته من الثواب والجنة خير مما يجمعه هؤلاء من حطام الدنيا. وقيل معناه: والنبوة لك من ربك خير يجمعونه من الأموال، عن ابن عباس.

ثم أخبر سبحانه عن هوان الدنيا عليه، وقلة مقدارها عنده، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يجتمع الناس على الكفر، فيكونوا كلهم كفاراً على دين واحد، لميلهم إلى الدنيا وحرصهم عليها، عن ابن عباس والحسن وقاتة والسدي. وقيل معناه: ولولا

(١) جدود جمع جد: وهو بمعنى الحظ والبخت والعظمة. «ومجدنا وجدودنا»: إمّا منصوبان مفعولان له لقوله: «بلغنا»، وإما مرفوعان يدلان عن ضمير «بلغنا».

سورة الزخرف

أن يجتمع الناس على اختيار الدنيا على الدين، عن ابن زيد. ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِتَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ قوله: ﴿لِيُوقِتَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرْ﴾ والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن سقفاً من فضة، فالسقف إذا كان من فضة فالحيطان من فضة. وقيل: إن اللام الثانية بمعنى على، فكأنه قال: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً من فضة. وقال مجاهد: ما يكون من السماء فهو سَقَف - بالفتح - وما يكون من البيت فهو سُقْف - بضمين - ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾. ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: وجعلنا درجاً وسلاسل من فضة لتلك السقف، عليها يعلون ويصعدون. ﴿وَلِيُوقِتَهُمْ أَتُونًا وَسُرَرًا﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً وسرراً من فضة ﴿عَلَيَّهَا﴾ أي: على تلك السرور ﴿يَتَكُونُونَ﴾، ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: ذهباً، عن ابن عباس والضحاك وقتادة. وهو منصوب بفعل مضمر، أي: وجعلنا لهم مع ذلك ذهباً. وقيل: الزخرف: النقوش، عن الحسن. وقيل: هو الفرش ومتاع البيت، عن ابن زيد. والمعنى: لأعطي الكافر في الدنيا غاية ما يتمناه فيها لقلتها وحقارتها عنده، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك لما فيه من المفسدة. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا، فقال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَاكٍ لَّمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وقد مر بيانه. ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة الباقية ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة لهم. قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل سبحانه ذلك، فكيف لو فعله؟ وفي هذه الآية^(١) دلالة على اللطف، وأنه تعالى لا يفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر، وإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر فلأن لا يفعل الكفر ولا يريده أولى.



قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِّمَن شِطَلْنَا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ﴾ (٣٦) **وَأَنَّهُمْ لِيَصدُّوهُنَّ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۖ﴾ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَلَسَّسَ الْفَرِيقَ ۖ﴾ (٣٨) وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۖ﴾ (٣٩) أَفَأَنتُمْ تُسْمِعُونَ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ (٤٠)**

● **القراءة:** قرأ عاصم في رواية حماد ويعقوب: «يَقِيضُ» بالياء، والباقون: «نُقِيضُ» بالنون. وقرأ أهل العراق غير أبي بكر: «حتى إذا جاءنا» على الواحد، والباقون: «جاءانا» على الاثنين.

● **الحجة:** من قرأ: «يَقِيضُ» بالياء، فالضمير يعود إلى «الرحمن». ومن قرأ بالنون فالمعنى على ذلك، لكنه سبحانه أخبر عن نفسه بنون العظمة. ومن قرأ: «وجاءانا» على التثنية فهو الكافر وقرينه، ومن قرأ: «جاءانا» فهو الكافر لأنه أفرد بالخطاب في الدنيا، وأُقيمت عليه

(١) وفي المخطوطة: هذه الآيات.

الحجة بإنفاذ الرسول إليه، فاجتزىء بالواحد على الاثنين، كما قال: ﴿لَيُبَدِّلَنَّ فِي السَّاعَةِ﴾ والمراد: لينبدن هو وماله.

● **اللغة:** العشو: أصله النظر ببصر ضعيف، يقال: عشا يعشو عشواً وعشواً: إذا ضعف بصره وأظلمت عينه، كأن عليها غشاوة. وقال الأعشى:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خير موقدٍ

وإذا ذهب البصر قيل: عشي يعشى عشا، والرجل أعشى. وقرأ في الشواذ: «ومن يعش» بفتح الشين، ومعناه: يغم، ويقال: عشا إلى النار: إذا أتاها وقصد لها. وعشا عنها: إذا عرض عنها قاصداً لغيرها، كقولهم: مال إليه ومال عنه. والتقيض: الإتاحة. الأزهري: قيض الله فلاناً لفلان: جاء به.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الوعد للمتقين، عقبه بذكر الوعيد لمن هو على ضد صفتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: يعرض عنه، عن قتادة والسدي. وقيل معناه: ومن يغم عنه، عن ابن عباس وابن زيد. قال الجبائي: شبههم بالأعمى لما لم يبصروا الحق. والذكر: هو القرآن. وقيل: هو الآيات والأدلة. ﴿فَنَقِصَ لَهُمْ شِطْرًا فَهُمْ لَمْ يَرْجِعُوا﴾ أي: نخل بينه وبين الشيطان الذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة، فيصير قريبه عوضاً عن ذكر الله، عن الحسن وأبي مسلم. قال الحسن: وهو الخذلان عقوبة له عن الإعراض، حين علم أنه لا يفلح. وقيل معناه: نُقِرْنَ به شيطاناً في الآخرة يلزمه فيذهب به إلى النار، كما أن المؤمن يُقَرْنَ به ملك فلا يفارقه حتى يصير به إلى الجنة، عن قتادة. وقيل: أراد به شياطين الإنس، نحو: علماء السوء، ورؤساء الضلالة، يصدونهم عن سبيل الله فيتبعونهم. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يعني وإن الشياطين، وإنما جمع لأن قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ في مذهب جمع، وإن كان اللفظ على الواحد ﴿لَيَصْدُوثُهُمْ﴾ أي: يصرفون هؤلاء الكفار ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الجنة^(١) ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار أنهم على الهدى فيتبعونهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ من قرأ على التثنية، فالمعنى: جاءنا الشيطان ومن أغواه يوم القيامة، الذي يتولى سبحانه حساب الخلق فيه. ومن قرأ على التوحيد، فالمعنى: حتى إذا جاءنا الكافر وعلم ما يستحقه من العقاب، ﴿قَالَ﴾ في ذلك الوقت لقربه الذي أغواه ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني المشرق والمغرب، فغلب أحدهما، كما قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع

يعني: الشمس والقمر. وقيل: يعني محمداً ﷺ، وإبراهيم عليه السلام. وقيل: أراد بالمشرقين: مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما في قوله: ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾. والمراد: يا ليت بيني وبينك هذا البعد مسافة، فلم أرك ولا اغتررت بك. ﴿فَلَسَ الْقَرِينُ﴾ كنت لي في الدنيا حيث أضللتني وأوردتني النار، وبش القرين أنت لي اليوم، فإنهما يكونان مشدودين في سلسلة واحدة زيادة عقوبة وغم، عن ابن عباس. ويقول الله سبحانه في ذلك اليوم للكفار: ﴿وَلَنْ

(١) وفي نسخة: طريق الحق.

سورة الزخرف

يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١﴾ أَي: لَا يُخَفَّفُ الْإِشْتِرَاكُ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ، لِأَن لِّكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَافِرِ وَالشَّيَاطِينِ الْحِظُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْعَذَابِ. وقيل: معناه أنه لا تسلي لهم عما هم فيه بما يروونه بغيرهم من العذاب، لأنه قد يتسلى الإنسان عن المحنة إذا رأى أن عدوه في مثلها.

ثم قال لنبية ﷺ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ شبه الكفار في عدم انتفاعهم بما يسمعون ويروونه بالصُّمِّ والعمي. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين ظاهر مضاف^(١)، معناه: فلا يضيقنَّ صدرك فإنك لا تقدر على إكراههم على الإيمان.



قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهاً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

● **الإعراب:** لما دخل «ما» على حرف الشرط، أشبه القسم في التأكيد والإيذان بطلب التصديق، فدخلت النون في الكلام لذلك، لأن النون يلزم في جواب القسم، ولا يلزم في الجزاء، لأنه مشبه به.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: إما نتوفينك إما منهم منتقمون من أمتك بعدك. ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ معناه: أو نبقيتك ونرينك في حياتك ما وعدناهم من العذاب، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾ أي: قادرون على الانتقام منهم، وعقوبتهم في حياتك وبعد وفاتك. قال الحسن وقتادة: إن الله أكرم نبيه ﷺ بأن لم يره تلك النعمة، ولم ير في أمته إلا ما قرئت به عينه، وقد كان بعده نقمة شديدة. وقد روي أنه ﷺ أرى ما تلقى أمته بعده، فما زال منقبضاً ولم ينسط ضاحكاً حتى لقي الله تعالى. وروى جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إني لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى، حتى قال: «لا ألفتكم ترجعون بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم». ثم التفت إلى خلفه فقال: «أو عليّ أو علي»، ثلاث مرات، فرأينا أن جبرائيل غمزه فأنزل الله على أثر ذلك ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: بعلي بن أبي طالب عليه السلام: وقيل: إن النبي ﷺ أرى الانتقام منهم، وهو ما كان من نقمة الله من المشركين يوم بدر بعد أن أخرجوه من مكة، فقد أسر منهم وقتل مع قلة أصحابه وضعف مئتهم^(٢)، وكثرة الكفار وشدة شوكتهم.

(١) ليس في نسختين: لفظة مضاف.

(٢) المنة بالضم: القوة، وبمعنى الضعف أيضاً، فهي من الأضداد.

ثم أمره سبحانه بالتمسك بالقرآن، فقال: ﴿فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أُوحِيَ﴾ من القرآن بأن تتلوه حق تلاوته، وتتبع أوامره وتنتهي عما نهى فيه عنه. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين حق وصواب، وهو دين الإسلام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: وإن القرآن الذي أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش، عن ابن عباس والسدي. وقيل: «لقومك» أي: للعرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ثم يختص بذلك الشرف الأخص من العرب، حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم، ثم لبني هاشم أكثر مما يكون لقريش. ﴿وَسَوْفَ تُشْكُلُونَ﴾ عن شكر ما جعله الله لكم من الشرف، عن الكلبي والزجاج وغيرهما. وقيل: تسألون عن القرآن، وعما يلزمكم من القيام بحقه. ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ معناه: سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد، وهو قول أكثر المفسرين. والتقدير: سل أمم من أرسلنا أو أتباع من أرسلنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وقيل: إن المراد: سل أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وإن كانوا كفاراً، فإن الحجة تقوم بتواتر خبرهم، والخطاب وإن توجه إلى النبي ﷺ، فالمراد به الأمة، أي: سلوا من ذكرنا. ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ أي: هل جعلنا فيما مضى معبوداً سوى الله يعبده قوم، فإنهم يقولون: إنا لم نأمرهم بذلك ولا تعبدناهم. وقيل معناه: وسل الأنبياء وهم الذين جمعوا له ليلة الإسراء، وكانوا تسعين نبياً منهم موسى وعيسى، ولم يسألهم ﷺ، لأنه كان أعلم بالله منهم، عن الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ آلِيَّ إِلَىٰ مُلْكِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِ أَفْلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

● القراءة: قرأ حفص ويعقوب وسهل: «أسورة» والباقون: «أساورة».

● الحجة: الأسورة: جمع سوار، مثل سقاء وأسقية، وخوان وأخونة. ومن قرأ:

«أساورة» جعله جمع أسوار، فيكون الهاء عوضاً عن الياء التي كانت ينبغي أن تلحق في جمع

أسوار، على حد أعصار وأعاصير. ويجوز في «أساور» أن يكون جمع أسورة، فيكون مثل: أسقية وأساق، ولحق الهاء كما في: قشعم وقشاعة^(١).

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث موسى ﷺ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالحجج الباهرة، والمعجزات القاهرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أشراف قومه. وخصّ الملائكة بالذكر وإن كان أيضاً مرسلًا إلى غيرهم، لأن من عداهم تبع لهم. ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني إليكم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: فلما أظهر المعجزات التي هي: اليد البيضاء والعصا، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُمُونَ﴾ استهزاء واستخفافاً وجهلاً منهم بما عليهم من ترك النظر فيها، وبما لهم من النفع بحصول العلم بها. ﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ المراد بذلك ما ترادف عليهم من الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، وكانت كل آية من هذه الآيات أكبر من التي قبلها، وهي العذاب المذكور في قوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم عذبوا بهذه الآيات، وكانت عذاباً لهم ومعجزات لموسى ﷺ، فغلب عليهم الشقاء، ولم يؤمنوا. ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ﴾ يعنون بذلك: يا أيها العالم، وكان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه، ولم يكن صفة ذم، عن الكلبي والجبائي. وقيل: إنما قالوا استهزاء بموسى ﷺ، عن الحسن. وقيل معناه: يا أيها الذي غلبنا بسحره. تقول العرب: خاصمته فخصمته، وحاججته فحججته، فكذلك ساحرته^(٢)، وأرادوا أنه غالب السحرة فغلبهم بسحره. ﴿أَنذِرْ لَنَا رَبَّكَ إِنَّمَا عَهْدُ عِنْدَكَ﴾ أي: بما زعمت أنه عهد عندك، وهو أنه ضمن لنا أننا إذا آمنا بك أن يكشف العذاب عنا. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: راجعون إلى الحق الذي تدعوننا إليه متى كشف عنا العذاب. وفي الكلام حذف، لأن التقدير: فدعا موسى وسأل ربه أن يكشف عنهم ذلك العذاب، فكشف الله عنهم ذلك. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: يغدرون وينقضون العهد. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: فاصبر يا محمد على أذى قومك، فإن حالك معهم كحال موسى مع قومه، فيؤول أمرك إلى الاستعلاء على قومك، كما آل أمره إلى ذلك. ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ معناه: إنه لما رأى أمر موسى يزيد على الأيام ظهوراً واعتلاء، خاف على مملكته، فأظهر الخداع فخطب الناس بعدما اجتمعوا ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّْ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أتصرف فيها كما أشاء، أراد بذلك إظهار بسطته في الملك والمال. ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ يَدَيْهِ﴾ أي: من تحت أمري. وقيل: إنها كانت تجري تحت قصره وهو مشرف عليها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك العظيم، وقوتي وضعف موسى. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مِمَّا تُكْفِرُونَ﴾ أي: ضعيف حقير، يعني به موسى. قال سيويو والخليل: عطف أنا بأم على قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن معنى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ معنى: «أم تبصرون»، فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون، لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه، فقد صاروا بصراء عنده. وقيل: المهيمن: الفقير الذي يمتن نفسه في جميع ما يحتاج إليه، ليس له من يكفيه أمره. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: ولا يكاد يفصح بكلامه وحججه للعقدة التي في

(١) الْقَشْعَمُ: المُسْنَم من الرجال، والنسور، والضخم، والأسد.

(٢) [فسحرته].

لسانه . وقال الحسن : كانت العقدة زالت عن لسانه حين أرسله الله ، كما قال مخبراً عن نفسه : ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ثم قال : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ . وإنما عيَّره بما كان في لسانه قبل . وقيل : كان في لسانه لثغة^(١) ، فرفعه^(٢) الله تعالى ، وبقي فيه ثقل ، عن الجبائي . ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي : هلا طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقاً في نبوته ، وكان إذا سودوا رجلاً سوروه بسوار من ذهب ، وطوقوه بطوق من ذهب . ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ متتابعين يعينون على أمره الذي بعث به ، ويشهدون له بصدقه . وقيل : متعاضدين متناصرين ، كل واحد منهم يمالئ صاحبه ، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ﴾ ومعناه : إن فرعون استخف عقول قومه ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه ، لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل ، وهو قوله : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّنْ قَبْلِي﴾ إلى آخره . ولو عقلوا لقالوا : ليس في ملك الإنسان دلالة على أنه مُحَقَّقٌ ، وليس يجب أن يأتي مع الرسل ملائكة ، لأن الذي يدل على صدق الرسل هو المعجز دون غيره . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي : خارجين عن طاعة الله تعالى .

● **النظم :** وجه اتصال قصة موسى ﷺ بما قبلها ، أنه لما تقدّم السؤال عن أحوال الرسل وما جاءوا به ، اتصل به حديث موسى وعيسى ﷺ ، لأن أهل الكتابين إليهما ينتسبون . وقيل : إنه لما تقدم ذكر محمد ﷺ ، وتكذيب قومه إياه ، ذكر حديث موسى تسلياً له وتطبيعاً لقلبه ﷺ .



قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْاَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

● **القراءة :** قرأ حمزة والكسائي : «سُلفاً» بضم السين واللام ، وقرأ الباقون بفتحهما . وقرأ أهل المدينة وابن عامر والأعشى والبرجمي والكسائي وخلف : «يصدون» بضم الصاد ، والباقون بكسر الصاد .

● **الحجة :** من قرأ : «سُلفاً» جاز أن يكون جمعاً لسلف ، مثل : أسد وأسد ، ووثن ووثن . ومن قرأ : «سُلفاً» فلان فعلاً قد جاء في حروف يراد بها الكثرة ، فكأنه اسم من أسماء الجمع ، قالوا : خادم وخَدَم ، وطالب وطَلَب ، وحارس وحَرَس . وكذلك المثل واحد يراد به

(١) اللثغة : ثقل اللسان بالكلام . تحوّل اللسان من السين إلى التاء ، أو من الراء إلى الغين ، أو من حرف إلى حرف .

(٢) كذا في النسخ . ولعل تذكير الضمير باعتبار الثقل .

سورة الزخرف

الجمع، ولذلك عطف على سلف في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ ومعنى: «يَصُدُّونَ»، و«يَصُدُّونَ» جميعاً: يضحجون، عن أبي عبيدة. قال: والكسر أجود، ويقال: صد عن كذا فيوصل بعن، كما قال الشاعر:

صَدَدَتْ الْكَأْسُ عَنَّا أَمْ عَمْرُو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا^(١)

و«صَدُّوا عن سبيل الله». فمن ذهب في «يَصُدُّونَ» إلى معنى يعدلون، كان المعنى: إذا قومك منه، أي: من أجل المثل يصدون، ولم يوصل يصدون بعن. ومن قال: «يَصُدُّونَ» يضحجون، جعل من متصلة ببيضج، كما تقول: يضحج كم كذا. وقال بعض المفسرين: معنى يَصُدُّونَ: يضحجون، والمعنى أنه لما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، لأنها اتخذت آلهة وعبدت، فعيسى في حكمهم قال: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ فِي هَذَا الَّذِي قَالُوهُ مِنْهُ يَضْحَكُونَ﴾ لما أتوا به من عندهم، من تسويتهم بين عيسى وبين آلهتهم، وما ضربوه إلا إرادة للمجادلة، لأنهم قد علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوا من الموات.

● **اللغة:** يقال: آسفه فأسف بأسف أسفاً، أي: أغضبه فغضب، وأحزنه فحزن. ويقال: الأسف: الغيظ من المغتم، إلا أنه هاهنا بمعنى الغضب. والسلف: المُتَقَدِّم على غيره قبل مجيء وقته، ومنه السلف في البيع، والسلف: نقيض الخلف. والجدل: مقابلة الحجة بالحجة. وقيل: الجدل اللدد في الخصام، وأصله من جذل الحبل وهو شدة قتله، ورجل مجدول الخلق، أي: شديده. وقيل: أصله من الجدالة، وهي الأرض، كأن كل واحد من الخصمين يروم إلقاء صاحبه على الجدالة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه، فقال: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا، عن ابن عباس ومجاهد. وغضب الله سبحانه على العصاة إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الذي يستحقونه على طاعتهم. وقيل معناه: أسفوا رسلنا، لأن الأسف بمعنى الحزن لا يجوز على الله سبحانه. ﴿أَنفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: انتقمنا لأوليائنا منهم ﴿فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ما نجا منهم أحد: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي: مُتَقَدِّمِينَ إِلَى النَّارِ ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة وموعظة ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ أي: لمن جاء بعدهم يتعظون بهم. والمعنى: إن حال غيرهم يشبه حالهم إذا أقاموا على العصيان. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ اختلف في المراد به على وجوه:

أحدها: إن معناه: ولما وصف ابن مريم شهباً في العذاب بالآلهة، أي: فيما قالوه على زعمهم، وذلك أنه لما نزل قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. قال المشركون: «قد رضينا بأن تكون آلهتنا حيث يكون عيسى» وذلك قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يضحجون ضجيج المجادلة حيث خاصموك، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ

(١) أي: عملت يا أم عمرو خلاف العادة، ولم تجربها على العادة. وكانت العادة في الكأس أن تدار في مجلس الشرب من جانب اليمين إلى اليسار. وفي أصل الديوان صيبت، وهو أيضاً بمعنى صرفت.

هُوَ أَي: ليست آلهتنا خيراً من عيسى، فإن كان عيسى في النار بأنه يُعبد من دون الله، فكذلك آلهتنا، عن ابن عباس ومقاتل.

وثانيها: إن معناه: لما ضرب الله المسيح مثلاً بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَي: من قدر على أن ينشئ آدم من غير أب وأم، قادر على إنشاء المسيح من غير أب، اعترض على النبي ﷺ بذلك قوم من كفار قريش، فنزلت هذه الآية.

وثالثها: إن معناه: إن النبي ﷺ لما مدح المسيح وأمه، وأنه كآدم في الخاصية، قالوا: إن محمداً يريد أن نعبد كما عبدت النصارى عيسى، عن قتادة.

ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن علي، عليهم أفضل الصلوات، أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يوماً فوجدته في ملاء من قريش، فنظر إلي ثم قال: «يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة كمثلي عيسى بن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا». فعظم ذلك عليهم فضحكوا، وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية ﴿وَقَالُوا ءِالَهُتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ﴾ أَي: آلهتنا أفضل أم المسيح، فإذا كان المسيح في النار رضينا أن تكون آلهتنا معه، عن السدي وابن زيد.

وقيل معناه: إن آلهتنا خير من المسيح، فإذا عبد المسيح جاز أن تعبد آلهتنا، عن الجبائي.

وقيل: هو كناية عن محمد ﷺ، والمعنى: آلهتنا خير من محمد ﷺ، وهو يأمرنا بأن نعبد كما عبد النصارى المسيح، ونطيعه ونترك آلهتنا، عن قتادة. وقال علي بن عيسى: معنى سؤالهم بقولهم ﴿ءِالَهُتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ﴾ أنهم ألزموا ما لا يلزم على ظن منهم وتوهم، كأنهم قالوا: ومثلنا فيما نعبد، مثل ما يعبد المسيح، فأيا خير عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح، على أنه إن قال: عبادة المسيح؟ أقر بعبادة غير الله، وكذلك إن قال: عبادة الأوثان. وإن قال: ليس في عبادة المسيح خير قصّر به عن المنزلة التي أبين لأجلها من سائر العباد. وجوابهم عن ذلك أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام عليه لا يوجب العبادة له، كما لا يوجب أن ينعم عليه بأعلى مراتب النعمة.

﴿مَا صَرَّوْهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أَي: ما ضربوا هذا المثل لك إلا ليجادلوا به ويخاصموك ويدفعوك به عن الحق، لأن المتجادلين لا بد أن يكون أحدهما مبطلاً، بخلاف المتناظرين، لأن المناظرة قد تكون بين المحقين. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أَي: جدلون في دفع الحق بالباطل.

ثم وصف سبحانه المسيح، فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أَي: ما هو إلا عبد أنعمنا عليه بالخلق من غير أب، وبالنبوة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَي: آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله تعالى على ما يريد، حيث خلقه من غير أب فهو مثل لهم يشبهون به ما يرون من أعاجيب صنع الله. ثم قال سبحانه دالاً على كمال قدرته، وعلى أنه لا يفعل إلا الأصلح: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ أَجْلًا مَعْدُومًا﴾ أَي: بدلاً منكم معاش بني آدم ﴿مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾

سورة الزخرف

آدم، أي: يكونون خلفاء منهم. والمعنى: لو نشاء أهلكناكم وجعلنا الملائكة بدلکم سكان الأرض يعمرونها ويعبدون الله، ومثل قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ في الآية ما في قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على الطهيان^(١)

وقيل معناه: ولو نشاء لجعلناكم أيها البشر ملائكة، فيكون من باب التجريد، وفيه إشارة إلى قدرته على تغيير بنية البشر إلى بنية الملائكة. ﴿يَحْلَتُونَ﴾ أي: يخلف بعضهم بعضاً.



قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ حِثُّكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ إِلَيمٍ ٦٥﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وقتادة والضحاك: «وإنه لعلم» بفتح العين واللام، أي: إمارة وعلامة.

● **المعنى:** ثم رجع سبحانه إلى ذكر عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعني: إن نزول عيسى عليه السلام من أشراط الساعة، يعلم به قربها. ﴿فَلَا تَمُوتُ بِهَا﴾ أي: بالساعة، فلا تكذبوا بها، ولا تشكوا فيها، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ينزل^(٢) عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة من الله لهذه الأمة». أورده مسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم». وقيل: إن الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعود إلى القرآن، ومعناه: إن القرآن لدلالة على قيام الساعة والبعث يعلم به ذلك، عن الحسن. وقيل معناه: إن القرآن لدليل الساعة، لأنه آخر الكتب، أنزل على آخر الأنبياء، عن أبي مسلم. وقوله: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ معناه: واتبعوني فيما أمركم به، هذا الذي أنا عليه طريق واضح قيم. ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: ولا يصرفنكم الشيطان بوساوسه عن دين الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة يدعوكم إلى الضلال الذي هو سبب هلاككم.

ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى عليه السلام حين بعثه الله نبياً، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

(١) الطهيان: قلة الجبل. يتمنى أن يكون لهم بدلاً من ماء زمزم شربة ماء، وضعت على قلة الجبل، فصارت باردة شديداً.

(٢) وفي الحجري بدل ينزل: «كيف بكم إذا نزل».

أي: بالمعجزات الدالة على نبوته. وقيل: بالإنجيل، عن قتادة. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، عن عطاء. وقيل: بالعلم بالتوحيد والعدل والشرائع. ﴿وَلَا يَتَّبِعُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قيل: إن المعنى: كل الذي تختلفون فيه، كقول لبيد: أو يخترم بعض النفوس حمامها^(١)

أي: كل النفوس، وقول القطامي:

قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المُستعجل الزَّلُّ
أي: كل حاجته، عن أبي عبيدة. قال الزجاج: والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل، والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه، وقول الشاعر:

أو تخترم بعض النفوس حمامها

إنما يعني نفسه. وقيل معناه: لأبين لكم ما تختلفون فيه من أمور الدين دون أمور الدنيا. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن تجتنبوا معاصيه وتعملوا بالطاعات ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أدعوكم إليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ خالصاً ولا تشركوا به شيئاً^(٢)، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى في أمر عيسى. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَيسَ﴾ قد مر تفسير الآية في سورة مريم.



قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٦٦)
الْأَخِلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ^(٦٧) يعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون^(٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ^(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ^(٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ^(٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ^(٧٤) لَا يُفَرِّجُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ^(٧٥) .

● القراءة: قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص: «ما تشتهيه الأنفس» بزيادة الهاء، والباقون: «تشتهي الأنفس» بحذف الهاء.

● الحجة: قال أبو علي: حذف هذه الهاء من الصلة في الحسن كإثباتها، إلا أن الحذف

(١) أوله: «تركا أمكنة إذا لم أرضها». أي: إنني أترك أمكنة إذا لم أرضها إلا أن يأخذ الموت نفسي، فلا يمكنها البراح.

(٢) وفي المخطوطة والحجري: «شيئاً معبوداً».

سورة الزخرف

يرجّح على الإثبات، بأن عامة هذا النحو في التنزيل جاء على الحذف، نحو قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، ﴿وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ﴾ ويقوي الحذف من جهة القياس أنه اسم قد طال. والأسماء إذا طالت فقد يحذف منها كما يحذف في: اشهباب واحميرار، وكما حذفوا من كينونة، فكما ألزموا الحذف لهذا، كذلك حسن أن تحذف الهاء من الصلة.

● **اللغة:** الحبور: السرور الذي يظهر في الوجه أثره، وحبرته أي: حسنته، والحبر: الأثر. والصحاف: جمع صحفة، وهي الجام الذي يؤكل فيه الطعام. والأكواب: جمع كوب، وهي إناء على صورة الإبريق لا أذن له ولا خرطوم. وقيل: إنه كالكأس للشراب. قال الأعشى:

صَرِيفِيَّةٌ^(١) طَيِّبُ طَعْمُهَا لَهَا زَبْدٌ بَيْنَ كُوبٍ وَدَنْ

● **المعنى:** قال سبحانه موبخاً لهم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظر هؤلاء الكفار بعد ورود الرسل والقرآن ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون وقت مجيئها. ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ومعناه: إن الذين تخالوا وتواصلوا في الدنيا، يكون بعضهم أعداء لبعض ذلك اليوم، يعني يوم القيامة، وهم الذين تخالوا على الكفار والمعصية ومخالفة النبي ﷺ، لما يرى كل واحد منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة. ثم استثنى من جملة الأخلاء المتقين، فقال: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ من المؤمنين الموحدين الذين خال بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى، فإن تلك الخلّة تتأكد بينهم يوم القيامة، ولا تنقلب عداوة. ﴿يَتَعَادَىٰ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم وقت الخوف: يا عبادي! لا خوف عليكم من العذاب اليوم. ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت الثواب. ثم وصف سبحانه عباده وميزهم من غيرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَايُنَا﴾ أي: صدّقوا بحججنا ودلائلنا واتبعوها ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: مستسلمين لأمرنا خاضعين منقادين. و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في محل نصب على البدل من ﴿عِبَادٍ﴾ والصفة له.

ثم بيّن سبحانه ما يقال لهم بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ اللاتي كن مؤمنات مثلكم. وقيل: يعني أزواجكم من الحور العين في الجنة ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تسرون وتكرمون، وقد مر تفسيره في سورة الروم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ أي: بقصاع ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فيها ألوان الأطعمة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: كيزان لا عرى لها. وقيل: بآنية مستديرة الرأس. اكتفى سبحانه بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب. ﴿وَفِيهَا﴾ أي: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ من أنواع النعيم المشروبة والمطعومة والملبوسة والمشمومة وغيرها، ﴿وَتَكُنُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: وما تلذ العيون بالنظر إليه، وإنما أضاف الالتذاذ إلى الأعين، وإنما الملتذ على الحقيقة هو الإنسان، لأن المناظر الحسنة سبب من أسباب اللذة، فإضافة اللذة إلى الموضوع الذي يلذ الإنسان به

(١) الصريفية: الخمر المنسوبة إلى صريفون، وهي قرية عند عكبراء، أو منسوب إلى صريفية: قرية بواسط - كما قيل - أو لأنها أخذت من الدن ساعتد، كاللبن الحار ساعة يصرف عن الضرع.

أحسن، لما في ذلك من البيان مع الإيجاز. وقد جمع الله سبحانه بقوله: ﴿مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَكَلُّدُ الْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان. ﴿وَأَنشُرَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة وأنواع من الملاذ ﴿خَلِيدُونَ﴾ أي: دائمون مؤبدون. ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْثَنُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعطيتها لها بأعمالكم. قال ابن عباس: الكافر يرث نار المؤمن، والمؤمن يرث جنة الكافر، وهذا كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ جمع لهم بين الطعام والشراب والفواكه وبين دوام ذلك، فهذه غاية الأمانة. ثم أخبر سبحانه عن أحوال أهل النار، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ دائمون ﴿لَا يُفَرِّغُهُمْ﴾ العذاب، أي: لا يُخَفَّفُ عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.



قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ (٧٧) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ (٧٨) أَمْ أَتَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدُهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥).

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير عاصم إلا يحيى وروح عن يعقوب: «وإليه يرجعون» بالياء، والباقون: بالتاء. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود ويحيى والأعمش: «يا مالٍ» وروي ذلك عن علي عليه السلام. وقراءة أبي عبد الرحمن اليماني: «فأنا أول العبدین» بغير ألف، والقراءة المشهورة: «العابدين».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الياء في «يرجعون» أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾. وحجة التاء أن يراد به مع الغيبة مخاطبون، فغلب الخطاب على الغيبة، أو يكون على قل لهم، وإليه ترجعون. وقوله: «يا مالٍ» على المذهب المألوف في الترخيم، قال الشاعر:

فَأَبْلَغُ مَا لَكَ عَنِّي رَسُولًا وَمَا يُغْنِي الرَّسُولُ لَدَيْكَ مَالٍ

أي: يا مالك. قال ابن جني: وفي هذا الموضع سر، وهو أنهم لعظم ما هم فيه خفيت^(١)

سورة الزخرف

قواهم وصغر كلامهم، فكان هذا في موضع الاختصار. وقوله: ﴿أَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ من قولهم. عِبِدْتُ من الأمر أَعْبَدَ عَبْدًا، أي: أنفت منه. قال الفرزدق:

أولئك قومي إن هَجَوْنِي هَجَوْتُهُمْ وَأَعْبَدُ أَنْ تُهْجَى كَلِيبٌ بدارمٍ
ولكنَّ نَضْفًا إِنْ سَبَبْتُ وَسَبَّنِي بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ مِنْ قَرِيشٍ وَهَاشِمٍ^(١)

● الإعراب: قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ ارتفع ﴿إِلَهٌ﴾ بكونه خبر مبتدأ محذوف من الصلة، وتقديره: وهو الذي هو في السماء إله. ﴿وَفِي السَّمَاءِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿إِلَهٌ﴾ وموضعه نصب به وإن كان مقدماً عليه. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم وقوع الساعة، فالمصدر مضاف إلى المفعول، أي: يعلم وقوع الساعة.

● المعنى: لما بين سبحانه ما يفعله بالمجرمين، بيّن أنه لم يظلمهم بذلك، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ نفوسهم بما جَنَوْا عليها من العذاب ﴿وَأَكَادُوا يَكْفُكُ﴾ أي: ويدعون خازن جهنم فيقولون: يا مالك ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليمتنا ربك حتى نتخلص ونستريح من هذا العذاب. ﴿قَالَ﴾ أي: فيقول مالك مجيباً لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ أي: لا بثون دائمون في العذاب. قال ابن عباس والسدي: إنما يجيبهم مالك بذلك بعد ألف سنة. وقال عبد الله بن عمر: بعد أربعين عاماً. ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾ أي: يقول الله تعالى: لقد أرسلنا إليكم الرسل ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: جاءكم رسلنا بالحق، وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره. وقيل: هو من قول مالك، وإنما قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾ لأنه من الملائكة وهم من جنس الرسل، عن الجبائي. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ﴾ معاشر الخلق ﴿بِالْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ لأنكم ألغتم الباطل فكرهتم مفارقتة. ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِتُونَ﴾ أي: بل أحكموا أمراً في كيد محمد ﷺ والمكر به، ﴿فَأِنَّا مُبْرِتُونَ﴾ أي: محكمون أمراً في مجازاتهم. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي: بل أظن هؤلاء الكفار ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم، والسر: ما يضمرة الإنسان في نفسه ولا يظهره لغيره، والنجوى: ما يحدث به المحدث غيره في الخفية. ﴿بَلَى﴾^(٢) نسمع ذلك وندركه ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾ ما يقولونه ويفعلونه، يعني الحفظة. وسبب نزول الآية مذكور في تفسير أهل البيت . ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إن معناه: إن كان للرحمن ولد في قولكم، وعلى زعمكم فأنا أول العابدين، أي: أول من عبد الله وحده^(٣)، فقد دفع أن يكون له ولد. والمعنى: فأنا أول الموحدين لله المنكرين لقولكم، عن مجاهد.

(١) النصف بالكسر: الاسم من الإنصاف. مقصوده: إني آف أن تهجى قبيلة كليب في قبال دارم، لأن دارماً أمتع حسباً من كليب، فليسا بكفوء. ولكن الإنصاف أن يقع التساب والتهاجي بين قومي، وبين بني عبد شمس، وبني هاشم، فإنهما كفوان لقومي.

(٢) [أي: بل].

(٣) في الحجري زيادة وهي «ومن عبد الله وحده» وهو الصواب.

وثانيها: إِنَّ «إِنْ» بمعنى ما النفي، والمعنى: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله المقربين بذلك، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وثالثها: إن معناه: لو كان له ولد، لكنت أنا أول الأنفين من عبادته، لأن من كان له ولد لا يكون إلا جسماً محدثاً، ومن كان كذلك لا يستحق العبادة، لأنه لا يقدر على النعم التي يستحق بها العبادة، عن الجبائي وغيره.

ورابعها: أن يقول: كما أني لست أول من عبد الله، فكذلك ليس لله ولد، وهذا كما تقول: إن كنت كاتباً فأنا حاسب، تريد: لست كاتباً ولا أنا حاسب، عن سفيان بن عيينة.

وخامسها: إن معناه: لو كان له ولد لكنت أول من يعبد به بأن له ولداً، ولكن لا ولد له، عن السدي وأبي مسلم. وهذا كما يقال: لو دعت الحكمة إلى عبادة غيره لعبدته، لكن الحكمة لا تدعو إلى عبادة غيره. ولو دل الدليل على أن له ولداً لقلت به، ولكنه لا يدل. فهذا تحقيق لنفي الولد، وتبديد له، لأنه تعليق محال بمحال.

ثم نزه سبحانه نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لمالك السماوات والأرض وخالقهن وخالق العرش ومدبره، عما يصفونه به من اتخاذ الولد، لأن من قدر على ذلك استغنى عن اتخاذ الولد.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار، فقال: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فيه بعذاب الأبد، وهو يوم القيامة. ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو الذي تحق له العبادة في السماء، وتحق له العبادة في الأرض، وإنما كرر لفظ إله لأمرين:

أحدهما: التأكيد ليتمكن المعنى في النفس.

والثاني: لأن المعنى هو إله في السماء، يجب على الملائكة عبادته، وإله في الأرض يجب على الإنس والجن عبادته.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عبادته ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: دامت بركته، فمنه البركات واتصال السعادات، وجلّ عن أن يكون له ولد أو شبيه، من له التصرف في السماوات والأرض فيما بينهما بلا دافع ولا منازع، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم يوم القيامة، لأنه لا يعلم وقته على التعيين غيره. ﴿وَالَّذِي تُرْتَجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازي كلّا على قدر علمه.



قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

سورة الزخرف

● **القراءة:** قرأ عاصم وحمة: «وقيله» بالجر، والباقون: بالنصب، وفي الشواذ قراءة الأعرج ومجاهد: «وقيله» بالرفع. وقرأ أهل المدينة والشام: «فسوف تعلمون» بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الجر في «وقيله» أنه معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدُ عِلْمٍ السَّاعَةِ﴾، وعلم قيله، أي: يعلم الساعة ومن يصدق بها ويعلم قيله، ومعنى يعلم قيله أي: يعلم أن الدعاء مندوب إليه، نحو قوله: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ و﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضَرًا وَخُفْيَةً﴾. وأما من نصب حمله على موضع ﴿وَعِنْدُ عِلْمٍ السَّاعَةِ﴾، لأن الساعة مفعول بها وليست بظرف، فالمصدر مضاف إلى المفعول به. ومثل ذلك قوله:

قَدْ كُنْتُ دَايِنْتُ بِهَا حَسَانًا مَخَافَةَ الْإِفْلَاسِ، وَالْيَانَا^(١)
يُحْسِنُ بَيْنَ الْأَضْلِ، وَالْقِيَانَا

فكما أن القيان والليان، محمولان على ما أضيف إليه المصدر من المفعول به، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ عِلْمٍ السَّاعَةِ﴾ لما كان معناه: يعلم الساعة، حملت ﴿وقيله﴾ على ذلك. ويجوز أن تحمله على: يقول قيله، فيدل انتصاب المصدر على فعله، وكذلك قول كعب: يَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَابِيهَا وَقِيلَهُمْ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ^(٢) أي ويقولون: حقاً. ووجه ثالث أن يحمل على قوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وقيله.

ومن قرأ: «وقيله» بالرفع احتمال ضربين:

أحدهما: أن يجعل الخبر: وقيله قيلُ يا رب فيحذف.

والآخر: أن يجعل الخبر: وقيله يا رب مسموع ومتقبل، ف﴿يَرْبِّ﴾ منصوب الموضع بـ ﴿قِيلَهُ﴾ المذكور، وعلى القول الآخر: بقيله المضمر، وهو من صلته، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع أن يحذف بعض الموصول ويبقى بعضه، لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور. وقد يحتمل بيت كعب الرفع على هذين الوجهين.

وقال ابن جني: هو معطوف على «علم» أي: وعلم قيله، فحذف المضاف، فالمصدر الذي هو قيل، مضاف إلى الهاء الذي هو مفعول في المعنى، والتقدير: وعنده علم أن يقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

ومن قرأ «فسوف تعلمون» بالتاء، فالوجه فيه أنه على تقدير: قل لهم: فسوف تعلمون.

(١) داينت أي: أقرضت. والضمير في بها راجع إلى القنية، وهي ما يكتسب من المال. والليان: المماطلة بالدين. والأصل المال الأصيل مقابل القيان: وهو جمع القين والقينة: وهما العبد والأمة أي: يحسن بيع أنواع أمواله من الأصل والقيان، لقضاء دينه.

(٢) مَرَّ الْبَيْتُ فِي ج ١.

ووجه الباء أن يحمل على الغيبة التي هي «فاصفح عنهم». وقوله: ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ تقديره: وقل أمرنا وأمركم سلام، أي: متاركة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أنه لا شفاعاة لمعبوديهم، فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الذي يدعونه الكفار إلهاً ويوجهون عبادتهم إليه من الأصنام وغيرها ﴿الشَّفَعَةَ﴾ لمن يعبدهم كما توهمه الكفار، وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط العقاب عنه. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهم: عيسى بن مريم، وعزير، والملائكة، استثناهم سبحانه ممن عبد من دون الله، فإن لهم عند الله منزلة الشفاعاة، عن قتادة. وقيل معناه: لا يملك أحد من الملائكة وغيرهم الشفاعاة إلا لمن شهد بالحق، أي: شهد أن لا إله إلا الله، وذلك أن النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمد حقاً، فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه. فنزلت الآية. فالمعنى: إنهم يشفعون للمؤمنين بإذن الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بالسنتهم. وفي هذا دلالة على أن حقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والمعرفة، لأن الله شرط مع الشهادة العلم، وهو ما اقتضى طمأنينة القلب إلى ما اعتقده، بحيث لا يتشكك إذا شكك، ولا يضطرب إذا حرك. ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ أي: أخرجهم من عدم إلى الوجود ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ لأنهم يعلمون ضرورة أن أصنامهم لم تخلقهم ﴿فَأَنَّهُمْ يُؤَفِّكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره. ﴿وَقِيلَ يَنْتَبِإَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وينكر عليهم تخلفهم عن الإيمان، وذكر أن قراءة عبد الله: وقال الرسول يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وعلى هذا فالهاء في ﴿وَقِيلَ﴾ يعود إلى النبي ﷺ. ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد بصفح وجهك، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: مداراة، ومتاركة. وقيل: هو سلام هجران ومجانبة، لا سلام تحية وكرامة، كقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. وقيل معناه: قل ما تسلم به من شرهم وأذاهم، وهذا منسوخ بأية السيف، عن قتادة. وقيل معناه: فاصفح عن سفهمهم، ولا تقابلهم بمثله. ندبه سبحانه إلى الحلم فلا يكون منسوخاً، عن الحسن. ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يوم القيامة إذا عاينوا ما يحل بهم من العذاب.

سُورَةُ الدِّخَانِ

مكية/آياتها (٥٩)

- عدد آياتها: تسع وخمسون آية كوفي، سبع بصري، ست في الباقيين.
- اختلافها: أربع آيات ﴿حَمَّ﴾ و﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ كوفي، ﴿شَجَرَتَ الرَّقُودِ﴾ عراقي شامي والمدني الأول، ﴿فِي الْبُطُونِ﴾ عراقي مكّي والمدني الأخير.
- فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، غفر له». أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنة». وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر ﷺ قال: من قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله، بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وأظله تحت ظلّ عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأُعطي كتابه يمينه.
- تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة الزخرف بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه السورة أيضاً بمثل ذلك في الإنذار بالعذاب الشديد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾.

إحدى عشرة آية كوفي^(١) في غيرهم.

- القراءة: قرأ أهل الكوفة: «ربّ السموات» بالجر، والباقيون: بالرفع.

● **الحجة:** الرفع فيه على أحد أمرين: إما أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو رب السماوات، وإما أن يكون مبتدأ وخبره الجملة التي عاد الذكر منها إليه، وهو قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويقويه قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ومن قرأ بالجر جعله بدلاً من «ربك» المتقدم ذكره. قال أبو الحسن: الرفع أحسن وبه يقرأ.

● **الإعراب:** ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ جواب القسم دون قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه. فإن القسم تأكيد خبر بخبر آخر، فقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ في انتصابه وجهان:

أحدهما: أن يكون نصباً على الحال، وتقديره: إنا أنزلناه أمرين أمراً، كما يقال: جاء فلان مشياً وركضاً، أي: ماشياً وراكضاً، وعلى هذا فيكون مصدراً موضوعاً موضع الحال، وهذا اختيار الأخفش. ويجوز أن يكون تقديره: ذا أمر فحذف المضاف، كما قال: «ولكن البر» بمعنى: ذا البر.

والثاني: أن يكون منصوباً على المصدر، لأن معنى قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ فيها يؤمر، قد دل ﴿يُفْرَقُ﴾ على يؤمر، وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ منصوب على أنه مفعول له، أي: أنزلناه للرحمة. وقال الأخفش: هو منصوب على الحال، أي: راحمين رحمة.

● **المعنى:** ﴿حَمْدٌ﴾ مر بيانه. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم سبحانه بالقرآن الدال على صحة نبوة نبينا ﷺ، وفيه بيان الأحكام، والفصل بين الحلال والحرام. وجواب القسم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن، والليلة المباركة: هي ليلة القدر، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﷺ. وقيل: هي ليلة النصف من شعبان، عن عكرمة. والأصح الأول. ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. واختلف في كيفية إنزاله. فقيل: أنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل نجوماً إلى النبي ﷺ.

وقيل: إنه كان ينزل جميع ما يحتاج في كل سنة في تلك الليلة، ثم كان ينزلها جبرائيل ﷺ شيئاً فشيئاً، وقت وقوع الحاجة إليه.

وقيل: كان بدء إنزاله في ليلة القدر. وروي عن ابن عباس أنه قال: قد كَلَّمَ الله جبرائيل في ليلة واحدة، وهي ليلة القدر، فسمعه جبرائيل وحفظه بقلبه، وجاء به إلى السماء الدنيا إلى الكتبة وكتبوه، ثم نزل على محمد ﷺ بالنجوم في ثلاث وعشرين سنة. وقيل: في عشرين سنة.

وإنما وصف الله سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة، لأن فيها يُقَسِّمُ الله نعمه على عباده من السنة إلى السنة، فتدوم بركاتها. والبركة: نماء الخير، وضدها: الشؤم، وهو نماء الشر. فالليلة التي أنزل فيها كتاب الله، مباركة ينمي الخير فيها على ما دبر الله سبحانه لها، من غلّو مرتبتها واستجابة الدعاء فيها.

سورة الدخان

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: مخوفين بما أنزلناه من تعذيب العَصَا. والإنذار: الإعلام بموضع الخوف ليتقوا، وموضع الأمن ليجتنبوا، فالله عز اسمه قد أُنذر عباده بآتم الإنذار من طريق العقل والسمع. ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في هذه الليلة يفصل ويبين. والمعنى: يقضي كل أمر محكم لا تلحقه الزيادة والنقصان، وهو أنه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من أمور السنة إلى مثلها من العام القابل، عن ابن عباس والحسن وقتادة. وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يبرم فيها أمر السنة، وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزيد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ معناه: إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه في اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً إلى عبادنا، كمن كان قبله من الأنبياء ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: رأفة منا بخلقنا، ونعمة منا عليهم، بما بعثنا إليهم من الرسل، عن ابن عباس. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه من عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَمَا يَنبَغُهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بهذا الخبر مُحَقِّقِينَ له، وهو أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحق العبادة سواه، ﴿يُحْيِي﴾ الخلق بعد موتهم ﴿وَيُمِيتُ﴾ أي: ويميتهم بعد إحيائهم، ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَدَبَّرَكُمْ﴾ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ الذين سبقوكم.

ثم ذكر سبحانه الكفار فقال: ليس هؤلاء بموقنين بما قلنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ مما أخبرناك به. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ مع ذلك ويستهزئون بك وبالقرآن إذا قرئ عليهم، عن الجبائي. وقيل: يلعبون أي: يشتغلون بالدنيا ويترددون في أحوالها. ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: فانتظر يا محمد ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ دعا على قومه لما كذّبوه، فقال: «اللهم سنيئاً^(١) كسني يوسف» فأجذبت الأرض فأصابت قريشاً المجاعة، وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام، ثم جاءوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا. فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم، ثم عادوا إلى الكفر، عن ابن مسعود والضحاك. وقيل: إن الدخان آية من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكفار والمنافقين، وهو لم يأت بعد، وإنه يأتي قبل قيام الساعة، فيدخل أسماعهم حتى إن رؤوسهم تكون كالرأس الحنيد، ويصيب المؤمن منه مثل الزكمة، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص^(٢)، ويمكن ذلك أربعين يوماً، عن ابن عباس وابن عمر والحسن والجبائي. ﴿يَعْشَى النَّاسُ﴾ يعني أن الدخان يعم جميع الناس، وعلى القول الأول المراد بالناس أهل مكة، وهم الذين يقولون ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه مؤلم.



(١) في نسخة «سنيئ» وهو الصواب، فإن علامة النصب فيه الباء من دون التنوين.

(٢) الخصاص: كل خلل وخرق في باب، ومنخل، وبرقع ونحوه. والفُرَج في البناء بين الأثافي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٣) أَفَنُكْفِرُكَمُ الدَّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٥﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّيَ لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيَ ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢١﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٢٢﴾ .

● الإعراب: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ منصوب بقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾، ويجوز أن ينتصب بمضمر دل عليه ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾، ولا ينتصب بقوله: ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ لأنه ما بعد «إِنْ» لا يعمل فيما قبله .

● المعنى: ثم لما أخبر سبحانه أن الدخان يغشى الناس، عذاباً لهم، وأنهم قالوا ويقولون على ما فيه من الخلاف: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حكى عنهم أيضاً قولهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. قال سبحانه: ﴿أَفَنُكْفِرُكَمُ الدَّكْرَى﴾ أي: من أين لهم التذكر والاعتاظ؟ وكيف يتذكرون ويتعظون؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي: وحالهم أنهم قد جاءهم رسول ظاهر الصدق والدلالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا عنه ولم يقبلوا قوله. ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو معلم يعلمه بشر، مجنون بادعاء النبوة. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: عذاب الجوع والدخان ﴿قَلِيلًا﴾ أي: زماناً قليلاً يسيراً إلى يوم بدر، عن مقاتل. ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ في كفركم وتكذيبكم، فلما كشف الله سبحانه ذلك عنهم بدعاء النبي ﷺ واستسقائه لهم، عادوا إلى تكذيبه. هذا على تأويل من قال: إن ذلك الدخان كان وقت النبي ﷺ. فأما على القول الآخر فمعناه: إنكم عائدون إلى العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم. والقليل: مدة ما بين العذابين. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: واذكر لهم ذلك اليوم، يعني يوم بدر على القول الأول، قالوا: لما كشف عنهم الجوع عادوا إلى التكذيب، فانتقم الله منهم يوم بدر. وعلى القول الآخر: البطشة الكبرى تكون يوم القيامة. والبطش: هو الأخذ بشدة وقع الألم. ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم ذلك اليوم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ أقسم سبحانه أنه فتن قبل كفر قوم النبي ﷺ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: اختبرهم وشدد عليهم التكليف؛ لأن الفتنة شدة التعبد، وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش. وقيل: إن الفتنة معاملة المختبر ليجازى بما يظهر دون ما يعلم مما لا يظهر. ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كريم الأخلاق والأفعال بالتجاوز والصفح والدعاء إلى الصلاح والرشد. وقيل: كريم عند الله بما استحق بطاعته من الإكرام والإعظام. وقيل: كريم شريف في قومه من بني إسرائيل. ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾ هذا من قول موسى ﷺ لفرعون وقومه. والمعنى: أطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخير فإنهم أحرار، فهو كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فيكون ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول ﴿أَذُوا﴾. وقال الفراء: أذوا إلي ما أمركم به يا عباد

الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على ما أؤديه وأدعوكم إليه ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتجبروا على الله بترك طاعته، عن الحسن. وقيل: لا تتكبروا على أولياء الله بالبغي عليهم. وقيل: لا تبغوا عليه بكفران نعمه وافتراء الكذب عليه، عن ابن عباس وقتادة. ﴿إِنِّي أَنَا نَبِيٌّ مَّبِينٌ﴾ أي: بحجة واضحة يظهر الحق معها. وقيل: بمعجز ظاهر يبين صحة نبوتي وصدق مقالتي. فلما قال ذلك توعدوه بالقتل والرجم، فقال: ﴿وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: لذت بمالكي ومالككم والتجأت إليه ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي: من أن ترموني بالحجارة، عن قتادة. وقيل: إن الرجم الذي استعاذ منه موسى هو الشتم، كقولهم: «هو ساحر كذاب» ونحوه، عن ابن عباس وأبي صالح. ﴿وَإِنْ لَّمْ تَوْتُوا لِي فَأَعْرَضُوا﴾ أي: وإن لم تُصَدِّقُونِي فاتركوني لا معي ولا علي. وقيل معناه: فاعتزلوا أذاي، عن ابن عباس.



قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ (٢٢) فَأَسْرِعَ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩).

● **اللغة:** الرَّهْو: السهل الساكن. يقال: عيش راه، أي: خافض وادع، قال الشاعر:

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلَّمُ^(١)

وقيل: الرهو: الدَّمث^(٢) ليس برمل ولا حزن، عن الأزهري. يقال: جاءت الخيل رهواً أي: مسابقة. قال ابن الأعرابي: الرهو من الطير والخيل: السراع. قال الشاعر:

طَيْراً رَأَتْ بَازِيًا نَضَخَ^(٣) الدَّمَاءُ بِهِ وَأُمُّهُ خَرَجَتْ رَهْوَاً إِلَى عَيْدٍ

● **الإعراب:** ﴿رَهْوَاً﴾ نصب على الحال من ﴿الْبَحْرِ﴾ ويكون حالاً بعد الفراغ من الفعل، كقولهم: قطعت الثوب قباء. وهذا يدل على أن البحر كان قبل تركه وبعد تركه رهواً. و﴿كَمْ﴾ في قوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ في موضع نصب بأنه صفة موصوف محذوف، وهو مفعول ﴿تَرَكُوا﴾ وتقديره: شيئاً كثيراً تركوا. ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه تمام قصة موسى عليه السلام بأن قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي: فدعا

(١) مقصوده توصيف نساء مورد مدحه بالإستواء في المشي، فلا أعجازهن متخلفة عن سائر أعضاء البدن، ولا الصدور متكلة على الأعجاز بأن يتأخر الصدر عن الأعضاء، ويتكل على الأعجاز.

(٢) الدَّمث والدَّمث والدميث: المكان اللين ذو الرمل. وأرض دُمثاء: لينة سهلة.

(٣) وفي بعض النسخ بالحاء المهملة: وَالنَّضَخُ: الأثر من الطيب وغيره، يبقى في الثوب. وبالحاء: رشاش الماء، ونحوه.

موسى ربه حين يئس من قومه أن يؤمنوا به، فقال: ﴿أَنْ هَتَوَلَّاءَ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون لا يؤمنون، عن الكلبي ومقاتل. فكانه قال: اللهم عجل لهم مما يستحقونه بكفرهم ما يكونون به نكالا لمن بعدهم، وما دعا عليهم إلا بعد أن أذن له في ذلك. وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ الفاء وقعت موقع الجواب، والتقدير: فأجيب بأن قيل له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾، أمره سبحانه أن يسير بأهله وبالمؤمنين به ليلًا حتى لا يردهم فرعون إذا خرجوا نهاراً، وأعلمه بأنه سيتبعهم فرعون بجنوده بقوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي: ساكناً على ما هو به إذا قطعتة وعبرته، وكان قد ضربه بالعصا فانفلق لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يتركه كما هو ليغرق فرعون وقومه، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: رهوا أي: منفتحاً منكشفاً، حتى يطمع فرعون في دخوله، عن أبي مسلم. قال قتادة: لما قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي: كما هو طريقاً يابساً ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ سيغرقهم الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه عن حالهم بعد إهلاكهم، فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة ﴿وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: مجالس شريفة، ومنازل خطيرة. وقيل: هي المناظر الحسنة ومجالس الملوك، عن مجاهد. وقيل: منابر الخطباء، عن ابن عباس. وقيل: المقام الكريم الذي يعطي اللذة كما يعطي الرجل الكريم الصلة، عن علي بن عيسى. ﴿وَتَنَعَّمُوا كَانُوا فِيهَا فَتَاهِينَ﴾ أي: وتنعّم وسعة في العيش كانوا بها ناعمين متمتعين كما يتمتع الآكل بأنواع الفواكه. ﴿كَذَلِكَ﴾ قال الكلبي معناه: كذلك أفعل بمن عصاني. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾: إیراث النعمة: تصييرها إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة، كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة، فلما كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم، كان ذلك إیراثاً من الله لهم. وأراد بقوم آخرين بني إسرائيل، لأنهم رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: إن معناه: لم يبك عليهم أهل السماء والأرض لكونهم مسخوطاً عليهم، عن الحسن. فيكون مثل قوله: ﴿حَتَّى نَصَعَ الْحَزْبُ أَوْرَاثَهُ﴾ أي: أصحاب الحرب، ونحوه قول الحطيئة: وشر المنايا ميتت وسط أهله كَهْلِكَ الْفَتَى قَدْ أَسْلَمَ الْحَيَّ حَاضِرُهُ^(١)

أي: وشر المنايا ميتة ميت. وقال ذو الرمة:

لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهْبُ السَّبَالِ^(٢) أَذْلَةٌ سَوَاسِيَةٌ^(٣) أَحْرَاؤُهَا وَعَبِيدُهَا

(١) الحاضر: القوم الحي إذا اجتمعوا في الدار التي بها مجتمعهم.

(٢) صهب جمع أصهب: الأحمر والأشقر. والسبال: جمع سبلة: الدائرة في وسط الشفة العليا. وقيل: ما على الشارب من الشعر، أو طرفه، أو مجتمع الشاربين. وصهب السبال: وصف الروميين، ولأنهم أعداء العرب يوصف به الأعداء.

(٣) سواء سواسية، يقال للجمع وسواء يقال للمفرد والمثنى والجمع. وسواسية لا تقال إلا في الشر كقولهم: هم سواسية في الشر، وكذا هنا.

سورة الدخان

أي: لهم أهل مجلس.

وثانيها: إنه سبحانه أراد المبالغة في وصف القوم بصغر القدر، فإن العرب إذا أخبرت عن عظم المصائب بالهالك قالت: بكاء السماء والأرض، وأظلم لفقده الشمس والقمر. قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

الشمس طالعةً لَيْسَتْ بكاسفةٍ، - تبكي عليك - نُجُومُ الليل، والقَمَرُ^(١)

أي: ليست مع طلوعها كاسفة نجوم الليل والقمر، لأن عظم المصيبة قد سلبها ضوءها، وقال النابغة:

تبدو كواكبُهُ والشمسُ طالعةً، لا الثُورُ نورًا، ولا الإِظلامُ إِظلامًا

وثالثها: أن يكون ذلك كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء. وقد روي عن ابن عباس أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقل: وهل يبكيان على أحد؟ قال: نعم، مصلاه في الأرض ومصعد عمله في السماء. وروى أنس عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وله باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه». فعلى هذا يكون معنى البكاء الإخبار عن الاختلال بعده، كما قال مزاحم العقيلي:

بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ أَجْلِهِمْ فَتَهَلَّلَتْ^(٢) دُمُوعِي فَأَيَّ الْجَاذِعَيْنِ الْيَوْمِ
أُمُسْتَغْبِرُ بِكَيِّ مِنَ الْهَوْنِ، وَالبلى، أَمْ آخَرَ يَبْكِي شَجْوَهُ، وَيَهِيمُ^(٣)

وقال السدي: لما قُتِلَ الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها. وروى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله ﷺ، أنه قال: بكت السماء على يحيى بن زكريا، وعلى الحسين بن علي ﷺ أربعين صباحاً، ولم تبك إلا عليهما. قلت: وما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء، وتغيب حمراء. «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» أي: عوجلوا بالعقوبة، ولم يمهلوا.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣١﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتَشْرِفِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَبْتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَتَوْا بِغَابِئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ

- (١) كسفت الشمس النجوم: غلب ضوءها على النجوم، فلم يبد منها شيء. ونجوم الليل والقمر مفعول كاسفة. مقصوده: إن موتك صار سبباً لقلعة ضوء الشمس، بحيث لا يغلب نورها نور القمر والنجوم، وهي تبكي عليك.
- (٢) تهلل العين: سالت بالدمع.
- (٣) هام على وجهه: ذهب من العشق وغيره، لا يدري أين يتوجه.

قَبْلَهُمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ
 ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ .

● الإعراب: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من عذاب فرعون، فحُذِفَ المضاف، ويجوز أن يكون
 حالاً من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: ثابتاً من فرعون، فلا يكون على حذف المضاف ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ
 قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: يجوز أن يكون ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، خبره،
 ويجوز أن يكون منتصباً بفعل مضمر دل عليه ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ويجوز أن يكون رفعاً بالعطف على
 ﴿قَوْمٌ تُبِيعَ﴾. فعلى هذا تقف على ﴿قَبْلِهِمْ﴾، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في تقدير: وأهلكناهم، أي:
 والمهلكون من قبلهم.

● المعنى: ثم أقسم سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ تَجَنَّبَا رَبِّيَ إِنْ شِئَا رَبِّي﴾ الذين آمنوا بموسى ﴿مِنْ
 الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والاستبعاد، وتكليف المشاق، ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ
 إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا﴾ أي: متجبراً متكبراً متغلباً. ﴿مِنْ الْمُتَرَفِّينَ﴾ أي: المجاوزين الحد في الطغيان،
 وصفه بأنه عال وإن جاز أن يكون «عال» صفة مدح، لأنه قيده بأنه عال في الإسراف، لأن
 العالي في الإحسان ممدوح، والعالي في الإساءة مذموم. ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أي: اخترنا موسى
 وقومه بني إسرائيل وفضلناهم بالتوراة وكثرة الأنبياء منهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على بصيرة منا
 باستحقاقهم التفضيل والاختيار ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم، عن قتادة والحسن
 ومجاهد. ويدل عليه قوله تعالى لأمة نبينا ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقيل:
 فضلناهم على جميع العالمين في أمر كانوا مخصومين به، وهو كثرة الأنبياء منهم، ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾
 أي: وأعطيناهم ﴿مِنْ الْآيَاتِ﴾ يعني الدلالات والمعجزات مثل فلق البحر، وتظليل الغمام،
 وإنزال المَنِّ والسلوى، ﴿مَا فِيهِ بَلَكُؤٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما فيه النعمة الظاهرة، عن الحسن. وقيل:
 ما فيه شدة وامتحان مثل العصا، واليد البيضاء، فالبلاء يكون بالشدة والرخاء، عن ابن زيد.
 فيكون في الآيات نعمة على الأنبياء وقومهم، وشدة على الكفار المكذبين بهم.

ثم أخبر سبحانه عن كفار قوم نبينا ﷺ الذين ذكرهم في أول السورة، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَيَقُولُونَ﴾: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾ أي: ما الموتة إلا موتة نموتها في الدنيا، ثم لا نبعث
 بعدها، وهو قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين ولا معادين ﴿فَأَنؤُا يَتَابَعُونَ﴾ الذين ماتوا
 قبلنا وأعيدوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله تعالى يقدر على إعادة الأموات وإحيائهم.
 وقيل: إن قائل هذا أبو جهل بن هشام، قال: إن كنت صادقاً فابعث جدك قُصَيَّ بن كلاب،
 فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت. وهذا القول جهل من أبي جهل من
 وجهين:

أحدهما: إن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، وليست هذه الدار بدار جزاء ولكنها دار
 تكليف، فكأنه قال: إن كنت صادقاً في إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف.

سورة الدخان

والثاني: إن الإحياء في دار الدنيا إنما يكون للمصلحة، فلا يقف ذلك على اقتراحهم، لأنه ربما تعلق بذلك مفسدة.

ولما تركوا الحجة وعدلوا إلى الشبهة جهلاً، عدل سبحانه في إجابتهم إلى الوعيد والوعظ، فقال: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ﴾ أي: أمشركو قريش أظهر نعمة وأكثر أموالاً وأعز من القوة والقدرة، أم قوم تبع الحميري، الذي سار بالجيوش حتى حير^(١) الحيرة، ثم أتى سمرقند فهدمها ثم بناها، وكان إذا كتب كتب باسم الذي ملك براً وبحراً وضحاً وريحاً، عن قتادة. وسمي تبعاً لكثرة أتباعه من الناس. وقيل: سمي تبعاً لأنه تبع من قبله من ملوك اليمن. والتبابعة: اسم ملوك اليمن، فتبع لقب له، كما يقال: خاقان لملك الترك، وقصر لملك الروم، واسمه أسعد^(٢) أبو كرب. وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» وقال كعب: نعم الرجل الصالح، ذم الله قومه، ولم يذمه. وروى الوليد ابن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن تبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي ﷺ، أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من تقدمهم من قوم نوح وعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ معناه: إنهم ليسوا بأفضل منهم وقد أهلكناهم بكفرهم، وهؤلاء مثلهم، بل أولئك كانوا أكثر قوة وعدداً، فإهلاك هؤلاء أيسر. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَتَجَرَمِينَ﴾ أي: كافرين، فليحذر هؤلاء أن ينالهم مثل ما نال أولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ أي: لم نخلق ذلك لا لغرض العبث، بل خلقناهما لغرض حكمي، وهوان نفع المكلفين بذلك ونعرضهم للثواب، وننفع سائر الحيوانات بضروب المنافع واللذات ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بالعلم الداعي إلى خلقهما، والعلم لا يدعو إلا إلى الصواب والحق. وقيل معناه: ما خلقناهما إلا للحق، وهو الامتحان بالأمر والنهي، والتمييز بين المحسن والمسيء، لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. وقيل معناه: ما خلقناهما إلا على الحق الذي يستحق به الحمد، خلاف الباطل الذي يستحق به الذم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ما قلناه لعدولهم عن النظر فيه، والاستدلال على صحته. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني اليوم الذي يفصل فيه بين المحق والمبطل، وهو يوم القيامة. وقيل معناه: يوم الحكم ميقات قوم فرعون، وقوم تبع ومن قبلهم، ومشركي قريش وموعدهم.



قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٣) طَعَامُ الْآثِمِينَ (٤)

(١) لم نجد له فيما بأيدينا من كتب اللغة معنى يناسبه، ولعله مما يشق، ويؤخذ الفعل من الاسم نحو خيم القوم أي: ضربوا خياماً. وهذا أيضاً مأخوذ من الحيرة. وفي نسخة: حيز مأخوذ من الحيز.

(٢) وفي المخطوطة «سعد».

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وحفص ورويس: «يغلي» بالياء والباقون: «تغلي» بالتاء. وقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو: «فاعتلوه» بكسر التاء، والباقون: بضمها. وقرأ الكسائي وحده: «ذق أنك» بفتح الهمزة، والباقون: «إنك» بكسرها.

● **الحجة:** من قرأ: «تغلي» بالتاء فعلى الشجرة، كأن الشجرة تغلي. ومن قرأ بالياء حمله على الطعام، وهو الشجرة في المعنى. وَيَعْتَلُ وَيَعْتَلُ: مثل يَغْكُفُ وَيَغْكُفُ، وَيَفْسُقُ وَيَفْسُقُ في أنهما لغتان، ومعنى فاعتلوه: قودوه بعنف. ومن قرأ: «إنك» بالكسر، فالمعنى: إنك أنت العزيز الكريم في زعمك، فأجرى ذلك على حسب ما كان يذكره أو يذكر به. ومن قرأ: «أنك» بالفتح، فالمعنى: ذق بأنك.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه أن يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم فيه، بيّن أي يوم هو، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ فالمولى: صاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العم، والناصر، والحليف، وغيرهم ممن هذه صفته. والمعنى: إن ذلك اليوم يوم لا يغني فيه ولي عن ولي شيئاً، ولا يدفع عنه عذاب الله تعالى. ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ وهذا لا ينافي ما يذهب إليه أكثر الأمة من إثبات الشفاعة للنبي ﷺ، والأئمة عليهم السلام، والمؤمنين، لأن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله تعالى وإذنه. والمراد بالآية أنه ليس لهم من يدفع عنهم عذاب الله وينصرهم من غير أن يأذن الله له فيه. وقد بيّن ما أشرنا إليه باستثنائه من رحمه منهم، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أي: إلا الذين رحمهم الله من المؤمنين، فإنه إما أن يسقط عقابهم ابتداءً، أو يأذن بالشفاعة فيهم لمن علت درجته عنده، فيسقط عقاب المشفوع له لشفاعته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

ثم وصف سبحانه ما يفصل به بين الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ وقد مر تفسيره في سورة الصافات ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ أي: الأثم، وهو أبو جهل. وروي أن أبا جهل أتى بتمر وزيد فجمع بينهما وأكل وقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفنا محمد به، نحن نتزقه، أي: نملأ أفواهنا به، فقال سبحانه: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو المذاب من النحاس، أو الرصاص، أو الذهب، أو الفضة. وقيل: هو دُرْدِي الزيت. ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ: أي: إذا حصلت في أجواف أهل النار تغلي كغلي الماء الحار الشديد الحرارة. قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يكون المعنى: يغلي المهل في البطن، لأن المهل إنما ذكر للتشبيه به في الذوب. ألا ترى أن المهل لا يغلي في البطن، وإنما يغلي ما شُبَّه به ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوا الأثيم ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: زعزعوه وادفعوه بعنف، ومنه قول الشاعر:

فِيَا ضِيعَةَ الْفَتْيَانِ إِذْ يَغْتَلَوْهُ بِبَطْنِ الثَّرَى مِثْلَ الْفَنِيْقِ الْمُسْدَمِ^(١)

وقيل معناه: جُرَّوه على وجهه، عن مجاهد ﴿إِلَى سَوَاءِ الْحَجِيمِ﴾ أي: إلى وسط النار، عن قتادة. وسمي وسط الشيء سواء لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به. والسواء: العدل. ﴿ثُمَّ صُبُّوا قَوْلَ رَأْسِهِ﴾ قال مقاتل: إن خازن النار يمر به على رأسه، فيذهب رأسه عن دماغه ثم يصب فيه ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ﴾ وهو الماء الذي قد انتهى حره، ويقول له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، وذلك أنه كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم، فيقول له الملك: ذق العذاب أيها المتعزز المتكبر في زعمك، وفيما كنت تقوله. وقيل: إنه على معنى النقيض، فكأنه قيل: إنك أنت الدليل المهيمن، إلا أنه قيل على هذا الوجه للاستخفاف به. وقيل معناه: إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم، فما أغنى ذلك عنك. ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: ثم يقال لهم: إن هذا العذاب ما كنتم تشكون فيه في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْهٖ بِسَآئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «في مقام» بالضم، والباقون: «في مقام» بالفتح.
● **الحجة:** من فتح الميم أراد به المجلس والمشهد، كما قال: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ ووصفه بالأمن يقوي أن المراد به المكان. ومن ضم فإنه يحتمل أن يريد به المكان من أقام، فيكون على هذا معنى القراءتين واحد، أو يجوز أن يجعله مصدرًا، ويُقدَّر المضاف محذوفًا، أي: موضع إقامة.

● **اللغة:** السندس: الحرير. والإستبرق: الديباج الغليظ الصفيق. قال الزجاج: إنما قيل له: إستبرق لشدة بريقه. والهور - جمع حوراء - من الحور: وهو شدة البياض، وهن البيض الوجوه. وقال أبو عبيدة: الحوراء: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها. والعين: جمع العينا، وهي العظيمة العينين.

● **الإعراب:** ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، التقدير: الأمر كذلك. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ نصب على الحال من ﴿يَلْبَسُونَ﴾. و﴿يَلْبَسُونَ﴾ يجوز أن يكون خبراً بعد

(١) وفي نسخة: الفتيق بالتاء، وهو من الجمال ما يفتق سمناً. وبالنون: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله، ولا يركب. والمسدم: البعير المهمل، الهائج.

خبر، ويجوز أن يكون حالاً من الظرف الذي هو قوله: ﴿فِي مَقَامٍ﴾ لأن التقدير: إن المتقين ثبتوا في مقام. ومفعول ﴿يَلْبَسُونَ﴾ محذوف، وتقديره: يلبسون ثياباً من سندس، ف ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من ﴿يَدْعُونَ﴾. ﴿أَلَمَوْتَهُ الْأُولَى﴾ نصب على الاستثناء، قال الزجاج: معناه: سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا، كقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ المعنى: سوى ما قد سلف. وأقول: إن سوى لا يكون إلا ظرفاً، و«إلا» حرف، فكيف يكون بمعناه؟ فالأولى أن يكون «إلا» هنا مع ما بعدها صفة أو بدلاً بمعنى غير، تقديره: لا يدوقون فيها الموت غير الموتة الأولى، إذ الموتة الأولى قد انقضت، فلا يمكن أن يستثنى من الموت الذي لا يدوقونه في الجنة، إذ ليست بداخلة فيه. وقوله: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له، تقديره: فعل الله ذلك بهم فضلاً منه وتفضلاً منه، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره: وأعطاهم فضلاً، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لما قبله، لأن ما ذكره قبله تفضل منه سبحانه، كقول امرئ القيس:

وَرُضْتُ^(١) فَلَذْتُ صَعْبَةً أَيْ إِذْلَالٍ

على معنى أذلته أَيْ إِذْلَالٍ، فاستغنى عن أذلته بذكر: رضت.

● **المعنى:** ثم عقب سبحانه الوعيد بذكر الوعد، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله لكونها قبائح، ويفعلون الطاعات لكونها طاعات، ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ آمنوا فيه الغير من الموت والحوادث. وقيل: آمنوا فيه من الشيطان والأحزان، عن قتادة. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين وعيون ماء نابعة فيها ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خاطب العرب فوعدهم من الثياب بما عظم عندهم واشتهته أنفسهم. وقيل: السندس ما يلبسونه، والإستبرق ما يفرشونه. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في المجالس لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، بل يقابل بعضهم بعضاً. وقيل معناه: متقابلين بالمحبة، لا متدابرين بالبغضة. ﴿كَذَلِكَ﴾ حال أهل الجنة. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ قال الأخفش: المراد به التزويج المعروف، يقال: زوجته امرأة وبامرأة. وقال غيره: لا يكون في الجنة تزويج، والمعنى: وقرناهم بحور عين ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: يستدعون فيها أي ثمرة شاءوا واشتهوا غير خائفين فوتها آمنين من نفاذها ومضرتها. وقيل: آمنين من التخمر والأسقام والأوجاع.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا أَلَمَوْتٍ﴾ شبه الموت بالطعام الذي يذاق ويتكره عند المذاق. ثم نفى أن يكون ذلك في الجنة، وإنما خصّهم بأنهم لا يدوقون الموت، مع أن جميع أهل الآخرة لا يدوقون الموت، لما في ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة في الجنة، فأما من يكون فيما هو كالموت في الشدة، فإنه لا يطلق له هذه الصفة، لأنه يموت موتات كثيرة بما يقاسيه من العقوبة. ﴿إِلَّا أَلَمَوْتَهُ الْأُولَى﴾ قيل معناه: بعد الموتة الأولى. وقيل معناه: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها. وقيل: سوى الموتة الأولى، وقد بيّنا ما عندنا فيه. ﴿وَوَقَّعْنَاهُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: فصرف عنهم عذاب النار.

(١) راض المهر: ذلله وسخره، وجعله مطيعاً، وعلمه السير. ويقال: رَضَ نفسك بالتقوى أي: ذللها.

سورة الدخان

استدلَّت المعتزلة بهذا على أن الفاسق الملي لا يخرج من النار، لأنه يكون قد بقي النار، والجواب عن ذلك: إن هذه الآية يجوز أن تكون مختصة بمن لا يستحق دخول النار فلا يدخلها، أو من استحق النار فتفضل عليه بالعفو، فلم يدخلها. ويجوز أن يكون المراد ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ على وجه التأيد، أو على الوجه الذي يعذب عليه الكفار.

﴿فَضَلَّ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم تفضلاً منه، لأنه سبحانه خلقهم وأنعم عليهم ورغب فيهم العقل وكلفهم، وبين لهم من الآيات ما استدلوا به على وحدانية الله تعالى وحسن الطاعات، فاستحقوا به النعم العظيمة، ثم جزاهم بالحسنة عشر أمثالها، فكان ذلك فضلاً منه عز اسمه. وقيل: إنما سماه. ﴿فَضَلَّ﴾ وإن كان مستحقاً، لأن سبب الاستحقاق هو التكليف والتمكين، وهو فضل منه سبحانه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالمطلوب العظيم الشأن. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ، فالهاء كناية عن غير مذكور، والمعنى: هَوَّنَا الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِكَ وَيَسَّرْنَا قِرَاءَتَهُ عَلَيْكَ. وقيل معناه: جعلنا القرآن عربياً ليسهل عليك وعلى قومك تفهيمه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليتذكروا ما فيه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ويتفكروا فيه. ﴿فَازْتَقَبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَبِونَ﴾ أي: فإن أعرضوا ولم يقبلوا فانتظر مجيء ما وعدناك به إنهم منتظرون، لأنهم في حكم من ينتظر، لأن المحسن يترقب عاقبة الإحسان، والمسيء يترقب عاقبة الإساءة. وقيل معناه: انتظر بهم عذاب الله فإنهم ينتظرون بك الدوائر. وقيل: انتظر قهرهم ونصرك عليهم فإنهم منتظرون قهرك بزعمهم.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مكية / آياتها (٣٧)

وتسمى أيضاً: سورة الشريعة، لقوله فيها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وهي مكية. قال قتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الآية.

● عدد آياتها: سبع وثلاثون آية كوفي، ست في الباقيين.

● اختلافها: آية ﴿حَمَّ﴾ كوفي.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ حمَّ الجاثية، ستر الله عورته، وسكن روعته عند الحساب». وروى أبو نصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها ألا يرى النار أبداً، ولا يسمع زفير جهنم، ولا شهيقها، وهو مع محمد ﷺ.

● تفسيرها: لما ختم الله سبحانه سورة الدخان بذكر القرآن، افتتح هذه السورة بذكره أيضاً، فقال سبحانه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ﴾ ١ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ٣ لِّمُؤْمِنِينَ ٤ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥ وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦

● القراءة: قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «آيات» في الموضعين على النصب، والباقون: «آيات» على الرفع فيها.

● الحجة: قال أبو علي: قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾ جاز الرفع في قوله: ﴿آيَاتٌ﴾ من وجهين:

أحدهما: العطف على موضع إن وما عملت فيه، فإنه رفع بالابتداء، فيحتمل الرفع فيه على الموضع.

والآخر: أن يكون مُسْتَأْنَفًا، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، فيكون قوله ﴿آيَاتٌ﴾ على هذا مرتفعاً بالظرف. فهذا وجه قول من رفع «آيات» في الموضعين. قال أبو الحسن: «ين دَابَّةٍ آيَاتٌ» قراءة الناس بالرفع، وهي أجود وبها نقراً، لأنه قد صار على كلام آخر، نحو: إن في الدار زيدا وفي البيت عمرو، لأنك إنما تعطف الكلام كله على الكلام كله. قال: وقد قرئ بالنصب وهو عربي. انتهت الحكاية عنه.

وأما قول: ﴿وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى آخره «آيات»، فإنك إن تركت الكلام على

سورة الجاثية

ظاهره، فإن فيه عطفاً على عاملين، أحد العاملين الجار الذي هو «في» من قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾، والعامل الآخر - إن نصبت «آيات» وإن رفعت - فالعامل المعطوف عليه في الابتداء والظرف.

وجه قراءة من قرأ: «آيات» بالنصب أنه لم يحمل على موضع «إن» كما حمل من رفع «آيات» في الموضعين أو قطعه واستأنف. ولكن حمل على لفظ «إن» دون موضعها، فحمل «آيات» في الموضعين على نصب «إن» في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فإن قلت: إنه يعرض في هذه القراءة العطف على عاملين، وذلك في قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ لَآيَاتٍ﴾. وسيبويه وكثير من النحويين لا يجيزونه. قيل: يجوز أن يقدر في «مع» قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ لَآيَاتٍ﴾. وإن كانت محذوفة من اللفظ، وذلك أن ذكره قد تقدم في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾. فلما تقدّم ذكر الجار في هذين قدر فيه الإثبات في اللفظ وإن كان محذوفاً منه، كما قدر سيبويه في قوله:

أَكُلُّ امْرِئٍ تَخَسِبِينَ امْرَأً وَنَارٍ تَأْجُجُ بِاللَّيْلِ نَاراً؟

إن «كل» في حكم الملفوظ به، واستغني عن إظهاره بتقدم ذكره، ومما يؤكد هذه القراءة أن في آيات محمولة على أن ما ذكر عن أبي أنه قرأ في المواضع الثلاثة لآيات، فدخل اللامات تدل على أن الكلام محمول على إن. وإذا كان محمولاً عليها حسن النصب، وصار كل موضع من ذلك، كأن إن مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأن هذه اللام إنما تدخل على خبر إن أو على اسمها. ومما يجوز أن يتأول على ما ذكرنا قول الفرزدق:

وباشر راعيها الصّلاً بلبانه^(١) وكفّيه، حرّ النار ما يتحرّف

فهذا إن حملت الكلام على ظاهره كان عطفاً على عاملين، على الفعل والباء إن قدرت أن الباء ملفوظ بها، لتقدم ذكرها صارت في حكم الثبات في اللفظ، وإذا صار كذلك كان العطف على عامل واحد وهو الفعل دون الجار، وكذلك قول الآخر:

أوصيت من برة قلباً حراً^(٢)، بالكلب خيراً، والحماة شراً

فإن قدرت الجار في حكم المذكور لدلالة المتقدم عليه، لم يكن عطفاً على عاملين، كما لم يكن قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ لَآيَاتٍ﴾ كذلك.

وقد يخرج قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ لَآيَاتٍ﴾ من أن يكون عطفاً على عاملين من وجه آخر، وهو أن تقدر قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ﴾ على «في» المتقدم ذكرها، وتجعل ﴿لَآيَاتٍ﴾

(١) الصّلاً: وسط الظهر من الناس، ومن كل ذي أربع. النار: الوقود. واللبان بالفتح: الصدر وفي نسختين «يتحرق» بدل «يتحرّف». وتحرق أي: وقع في النار. وتحرف أي: مال إلى حرف أي: إلى جانب.

(٢) برة: امرأة وهي جدة قريش أم النضر بن كنانة. والحماة بالفتح: أم الزوجة. وحماة المرأة أم زوجها أي: أوصيتني برة من قلب حرّ، أو بقلب حرّ بالكلب خيراً، وبالحماة شراً.

مُتَكَرِّرَةً، كَرَّرْتَهَا لِمَا تَرَاخَى الْكَلَامُ وَطَالَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ شَيْوَحْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتُمْ لَكُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أَنْ هِيَ «أَنْ» هِيَ الْأَوَّلَى كَرَّرْتُ، وَكَمَا جَاءَ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ لِمَا تَرَاخَى عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا النُّحُو فِي كَلَامِهِمْ غَيْرُ ضَيِّقٍ.

● **المعنى:** ﴿حَمْدٌ﴾ قَدْ بَيَّنَّا مَا قِيلَ فِيهِ، وَأَجُودُ الْأَقْوَالِ أَنَّهُ اسْمُ لِلْسُورَةِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: وَفِي تَسْمِيَةِ السُّورَةِ بِـ ﴿حَمْدٍ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْمَعْجَزُ كُلُّهُ مِنْ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ، لِأَنَّهُ سَمِّيَ بِهِ لِيُذَكَّرَ بِأَوْصَافِهِ، وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَنَّهُ مَعْجَزٌ، وَأَنَّهُ مَفْصَلٌ قَدْ فُصِّلَتْ كُلُّ سُورَةٍ مِنْ أُخْتِهَا، وَأَنَّهُ هَدَى وَنُورٌ. فَكَانَ قِيلَ: هَذَا اسْمُهُ الدَّالُّ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِهِ. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ أَضَافَ التَّنْزِيلَ إِلَى نَفْسِهِ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ السُّورِ اسْتِفْتَحَاحًا بِتَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِ قَدْرِهِ، بِإِضَافَتِهِ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ أَكْرَمِ الْوُجُوهِ وَأَجْلَاهَا. وَمَا اقْتَضَى هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا، فَقَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي، اللَّهُمَّ وَسِّعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِي، فَيَأْتِي بِمَا يُؤْذَنُ أَنْ تَعْظِيمَهُ لِرَبِّهِ مَنَعْدٌ بِكُلِّ مَا يَدْعُو بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ: الْقَادِرِ الَّذِي لَا يَغَالِبُ ﴿الْكَبِيرُ﴾ الْعَالَمُ الَّذِي أَفْعَالُهُ كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَصَوَابٌ. ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الَّذِينَ يَصَدِّقُونَ بِاللَّهِ وَبِأَنْبِيَائِهِ، لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ، وَفِي الدَّلَالَاتِ وَالْحُجُجِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ لَهُمَا مُدَبِّرًا صَانِعًا قَادِرًا عَالِمًا. ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّاءَ مَا يَتَّبِعُهُ﴾ فِي خَلْقِهِ إِيَّاكُمْ بِمَا فِيكُمْ مِنْ بَدَائِعِ الصَّنِيعَةِ، وَعَجَائِبِ الْخَلْقَةِ، وَمَا يَتَعَاقَبُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ مِنْ مَبْتَدَأِ خَلْقِكُمْ فِي بَطُونِ الْأَمْهَاتِ إِلَى انْقِضَاءِ الْأَجَالِ، وَفِي خَلْقِ مَا يَفْرُقُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَمَنَافِعِهَا وَالْمَقَاصِدِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهَا، دَلَالَاتٌ وَاضِحَاتٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: يَطْلُبُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ. ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أَيُّ: فِي زَهَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَجِيئِهِمَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: وَفِي اخْتِلَافِ حَالِهِمَا مِنَ الطُّولِ وَالْقَصْرِ. وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمَا فِي أَنَّ أَحَدَهُمَا نُورٌ وَالْآخَرُ ظِلْمَةٌ. ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أَرَادَ بِهِ الْمَطَرَ الَّذِي يَنْبِتُ بِهِ النَّبَاتَ الَّذِي هُوَ رِزْقُ الْخَلَائِقِ، فَسَمَاهُ رِزْقًا لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ، ﴿فَأَخْبَا بِهِنَّ الْأَرْضُ بِعَدَمِ مَوْثِقَةٍ﴾ أَيُّ: فَأَحْيَا بِذَلِكَ الْمَطَرَ الْأَرْضَ بَعْدَ يَبْسِهَا وَجَفَافِهَا. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أَيُّ: وَفِي تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ يَجْعَلُهَا مَرَّةً جَنُوبًا، وَأُخْرَى شِمَالًا، وَمَرَّةً صَبًا، وَأُخْرَى دُبُورًا، عَنْ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: يَجْعَلُهَا تَارَةً رَحْمَةً، وَتَارَةً عَذَابًا، عَنْ قَتَادَةَ. ﴿وَإِنَّ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وَجُوهُ الْأَدْلَةِ وَتَدَبُّرُوهَا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ لَهُهَا الْأَشْيَاءَ مُدَبِّرًا حَكِيمًا قَادِرًا عَلِيمًا، حَيًّا غَنِيًّا قَدِيمًا لَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ.



قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿١﴾ وَيَلِكُلْ أَفَاكَ أَنْبِيرُ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
 فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَزْؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾

مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص والأعشى والبرجمي وابن عامر ويعقوب: «تؤمنون» بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ بالياء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾. ومن قرأ بالتاء فالتقدير: قل لهم: فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه ذكر الأدلة عقب ذلك بالوعيد لمن أعرض عنها ولم يتفكر فيها، فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: ما ذكرناه أدلة الله التي نصبها لخلقه المكلفين، ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأها عليك يا محمد لتقرأها عليهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ دون الباطل، والتلاوة: الإتيان بالثاني في أثر الأول في القراءة، والحق الذي تتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به في جميع أنواعه. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إن هؤلاء الكفار إن لم يصدقوا بما تلوناه عليك، فبأي حديث بعد حديث الله وهو القرآن وآياته يصدقون، وبأي كلام ينتفعون، وهذا إشارة إلى أن المعاند لا حيلة له. والفرق بين الحديث الذي هو القرآن وبين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر، تبين الحق من الباطل، والآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح والفساد. ﴿وَلَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾ الأفاك: الفعل من الإفك وهو الكذب، ويطلق ذلك على من يكثر كذبه، أو يعظم كذبه، وإن كان في خبر واحد ككذب مُسَيَّلَمَةٍ في ادعاء النبوة. والأثيم: ذو الإثم، وهو صاحب المعصية التي يستحق بها العقاب، والويل: كلمة وعيد يتلقى بها الكفار. وقيل: هو وادٍ سائل من صديد جهنم.

ثم وصف سبحانه الأفاك الأثيم بقوله: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ أي: يسمع آيات القرآن التي فيها الحجة تقرأ عليه، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يقيم كل كفره وباطله متعظماً عند نفسه عن الانقياد للحق ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أصلاً في عدم القبول لها والاعتبار بها. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: وإذا علم هذا الأفاك الأثيم من حججنا وأدلتنا شيئاً استهزأ بها، ليرى العوام أنه لا حقيقة لها، كما فعله أبو جهل حين سمع قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّرْقُومِ ﴿١١﴾ طَعَامُ الْآثِيمِ ﴿١٢﴾﴾، أو كما فعله النضر بن الحارث حين كان يقابل القرآن بأحاديث الفرس. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: مذل مخز مع ما فيه من الألم، ﴿بَيْنَ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالمال والدنيا جهنم. ومعناه: قدامهم ومن بين أيديهم، كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ﴾ ووراء اسم يقع على القدام والخلف، فما توارى عنك فهو وراءك، خلفك كان أو أمامك. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: لا يغني عنهم ما حصلوه وجمعه من المال والولد شيئاً من عذاب الله تعالى. ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من الآلهة التي عبدوها لتكون شفعاءهم عند الله، ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ (١١)
 ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)
 ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)
 ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وحفص: «من رجز أليم» بالرفع، والباقون: «أليم» بالجر. وقرأ أبو جعفر: «ليُجزى» بضم الياء وفتح الزاي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف: «لنُجزى» بالنون وكسر الزاي والنصب، وقرأ الباقيون: «ليجزى» بفتح الياء وكسر الزاي.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرجز: العذاب، فالتقدير: لهم عذاب من عذاب أليم. ومن رفع فالمعنى: عذاب أليم من عذاب، وفيه قولان:

أحدهما: إن الصفة قد تجيء على وجه التأكيد، كما أن الحال تجيء كذلك. وذلك نحو قوله: ﴿نَنْعَمَ وَجِدَةً﴾ ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَةَ﴾. وقولهم: أمس الدابر، قال:

وَأَبِي الَّذِي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمْعُهُمْ بِفِعَالٍ هَامِدَةٍ كَأَمْسِ الدَّابِرِ^(١)

والآخر: إنه محمول على أنه بمعنى الرجز الذي هو النجاسة على البدل للمقاربة، ومعنى النجاسة فيه قوله: ﴿وَسَقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ ﴿يَجْزَعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِفَعُهُ﴾ فكان المعنى: لهم عذاب من تجرّع رجز أو شرب رجز، فتكون «من» تبييناً للعذاب مما هو. ومن قرأ: «ليجزى» بالياء، فحجته أن ذكر الله قد تقدم في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، فيكون فاعل «يجزي». ومن قرأ بالنون، فالتون في معنى الياء، وإن كانت الياء أشد مطابقة لما في اللفظ. ومن قرأ: «ليُجزى قوماً» فقال أبو عمرو: إنه لحسن ظاهر. وذكر أن الكسائي قال: إن معناه: ليجزي الجزاء قوماً. قال الجامع البصير: معناه ليُجزى الخير قوماً، فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه، وليس التقدير: ليجزي الجزاء قوماً، لأن المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. فإذا الخير مضمّر كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ لأن قوله: ﴿إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ يدل على توارى الشمس.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿هَذَا هُدًى﴾ أي: هذا القرآن الذي تلوناه والحديث الذي ذكرناه هدى، أي: دلالة موصلة إلى الفرق بين الحق والباطل من أمور الدين والدنيا. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وجعلوها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ مر معناه. ثم نبّه سبحانه خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: جعله على

سورة الجاثية

هيئته^(١) لتجري السفن فيه، ﴿وَلَتَسْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ولتطلبوا بركوبه في أسفاركم من الأرباح بالتجارات. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ له هذه النعمة. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وسخّر لكم مع ذلك معاش الخلق، ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم، والمطر والثلج والبرد، وما في الأرض من الدواب والأشجار والنبات والأثمار والأنهار، ومعنى تسخيرها لنا أنه تعالى خلقها جميعاً لانتفاعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث أنا ننتفع بها على الوجه الذي نريده. وقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عباس: أي: كل ذلك رحمة منه لكم. وقال الزجاج: كل ذلك منه تفضل وإحسان. ويحسن الوقف على قوله: ﴿جَمِيعًا﴾، ثم يقول ﴿مِّنْهُ﴾ أي: ذلك التسخير منه لا من غيره فهو فضله وإحسانه. وروى عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري أنهم قرأوا «منة» منصوبة ومنونة، وعلى هذا فيكون من باب تبسّم وميض البرق. فكانه قال: منّ عليهم منة. وروي عن سلمة أنه قرأ: «منة» بالرفع، وعلى هذا فيكون خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك منه، أو هو منه، أو يكون على معنى: سخر لكم ذلك منة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾، هذا جواب أمر محذوف دل عليه الكلام، وتقديره: قل لهم: اغفروا يغفروا، فصار «قل لهم» على هذا الوجه يغني عنه، عن علي بن عيسى. وقيل معناه: قل للذين آمنوا اغفروا، ولكنه شبه بالشرط والجزاء، كقوله: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، عن الفراء. وقيل: ﴿يَغْفِرُوا﴾ تقديره: يا هؤلاء اغفروا، فحذف المنادى، كقوله: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾. وقول الشاعر:

ألا يا أسلمي ذات الدماليج والعقد^(٢)

﴿لِّلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: لا يخافون عذاب الله إذا نالوكم بالأذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكف عنكم، وقد مرّ تفسير ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ عند قوله: ﴿وَدَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. ومعنى «يغفروا» هاهنا: يتركوا مجازاتهم على أذاهم، ولا يكافئوهم ليتولى الله مجازاتهم. ﴿يَجْزَى قَوْمًا مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بيان هذا الجزاء في الآية التي تليها، وهو قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: طاعة وخيراً وبراً ﴿فَلَنَفْسِهِ﴾، لأن ثواب ذلك يعود ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَلَنُفَسِّدْهُ﴾ أي: فوبال إساءته على نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، أي: إلى حيث لا يملك أحد النفع والضرر، والنهي والأمر، غيره سبحانه، فيجازي كل إنسان على قدر عمله.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَعَآيَاتُهُمْ يَبْدَأُ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

(١) وفي نسخة على هيئة تجري السفن فيه. وفي أخرى على هيئة لتجري.. والأول هو الصواب.

(٢) جمع الدملوج: حلي يلبس في المعصم. والعقد: القلادة.

﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ .

● **المعنى:** لما تقدّم ذكر النعمة، ومقابلتهم إياها بالكفر والطغيان، بيّن عقيب ذلك ذكر ما كان من بني إسرائيل أيضاً في مقابلة النعم من الكفران، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يعني العلم بالدين. وقيل: العلم بالفصل بين الخصمين وبين المحق والمبطل، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي: وجعلنا فيهم النبوة، حتى روي أنه كان فيهم ألف نبي. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: وأعطيناهم من أنواع الطيبات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم. وقيل: فضلناهم في كثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم، وإن كانت أمة محمد ﷺ أفضل منهم في كثرة المطيعين لله وكثرة العلماء منهم، كما يقال: هذا أفضل في علم النحو، وذلك في علم الفقه، فأمة محمد ﷺ أفضل في علو منزلة نبيها عند الله على سائر الأنبياء، وكثرة المجتبيين الأخيار من آله وأمته. والفضل: الخير الزائد على غيره، فأمة محمد ﷺ أفضل بفضل محمد وآله. ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: أعطيناهم دلالات وبراهين واضحات من العلم بمبعث محمد ﷺ، وما بيّن لهم من أمره. وقيل: يريد بالأمر أحكام التوراة. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: من بعد ما أنزل الله الكتاب على أنبيائهم وأعلمهم بما فيها، ﴿بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ﴾ أي: طلباً للرئاسة، وأتقن من الإذعان للحق. وقيل: بغياً على محمد ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوته وصفته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ظاهر المعنى.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: ثم جعلناك يا محمد على دين ومنهاج وطريقة، يعني بعد موسى وقومه، والشرية: السنة التي من سلك طريقها أدته إلى البغية، كالشرية التي هي طريق إلى الماء، فهي علامة منصوبة على الطريق من الأمر. والنهي يؤدي إلى الجنة كما يؤدي ذلك إلى الوصول إلى الماء. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اعمل بهذه الشريعة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ولا يفصلون بينه وبين الباطل، من أهل الكتاب الذين غيروا التوراة أتباعاً لهواهم، وحباً للرئاسة، واستتباعاً للعوام، ولا المشركين الذين اتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام. ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم^(١). ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني أن الكفار بأجمعهم متفقون على معاداتك، وبعضهم أنصار بعض عليك ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ناصرهم وحافظهم، فلا تشغل قلبك بتناصرهم وتعاونهم عليك، فإن الله ينصرك عليهم ويحفظك. ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلته عليك من القرآن بصائر، أي: معالم في الدين، وعظات وعبر للناس يبصرون

(١) وفي نسخة: ان اتبعت أهواءهم في عبادة الأصنام.

بها من أمور دينهم، ﴿وَهْدَى﴾ أي: دلالة واضحة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ونعمة من الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بثواب الله وعقابه، لأنهم هم المتتبعون به.



قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْزِيهِمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ جَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر وروح وزيد: «سواء» بالنصب، والباقون: بالرفع. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «غشوة» بفتح الغين بغير ألف، والباقون: «غشاة» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: ليس الوجه في الآية نصب «سواء» على أن تجريه على ما قبله، على حد قولك: مرتت برجل ضارب أبوه، وبزيد خارجاً أخوه، لأنه ليس باسم فاعل ولا مشبه به، مثل حسن وشديد ونحو ذلك، إنما هو مصدر فلا ينبغي أن يجري على ما قبله، كما يجري اسم الفاعل وما مشبه به، لتعريفه من المعاني التي أعمل فيها اسم فاعل، وما شبه به عمل الفعل. ومن قال: مرتت برجل خير منه أبوه، وسرج خبز. صفته، وبرجل مئة إبله، استجاز أن يجري «سواء» أيضاً على ما قبله كما أجرى الضرب الأول.

فأما من قرأ «سواء» بالنصب، فإن انتصابه يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يجعل: المحيا والممات، بدلاً من الضمير المنصوب في ﴿نَجْعَلُهُمْ﴾ فيصير التقدير: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء، فينتصب «سواء» على أنه مفعول ثان لنجعل، ويكون انتصاب «سواء» على هذا القول حسناً، لأنه لم يرفع مظهراً.

ويجوز أيضاً أن يجعل ﴿نَجْعَلُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ظرفين من الزمان فيكون كذلك أيضاً.

ويجوز أن يعمل في الظرفين أحد شيئين:

أحدهما: ما في «سواء» من معنى الفعل، كأنه يستوون في المحيا والممات.

والآخر: أن يكون العامل الفعل، ولم يعلم الكوفيون الذين نصبوا «سواء» نصبوا الممات.

فإذا لم ينصبوه كان النصب في «سواء» على غير هذا الوجه، وغير هذا الوجه لا يخلو من أن ينتصب على أنه حال، أو على أنه المفعول الثاني لنجعل. وعلى أي: هذين الوجهين حملته فقد

أعملته عمل الفعل، فرفعت به المظهر، فإن جعلته حالاً أمكن أن يكون الحال من الضمير في ﴿بَجَّعَهُمْ﴾، ويكون المفعول الثاني قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. فإذا جعلت قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المفعول الثاني، أمكن أن يكون «سواء» منتصباً على الحال مما في قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من معنى الفعل. فيكون ذو الحال الضمير المرفوع في قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهذا الضمير يعود إلى الضمير المنصوب في ﴿بَجَّعَهُمْ﴾، وانتصابه على الحال من هذين الوجهين.

ويجوز أن يجعل قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المفعول الثاني، ولكن يجعل المفعول الثاني قوله: ﴿سَوَاءٌ تَحْيَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، فيكون جملة في موضع نصب بكونها في موضع المفعول الثاني لنجعل. ويجوز فيمن قال: مررت برجل مائة إبله، فأعمل المائة عمل الفعل، أن ينصب «سواء» على هذا الوجه أيضاً، ويرتفع به المحيا، كما جاز أن يرتفع به إذا قدرت الجملة في موضع الحال. والحال في الجملة التي هي ﴿سَوَاءٌ تَحْيَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ يكون من جعل، ويكون ما في قوله: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في معنى الفعل.

وقد قيل في الضمير في قوله: ﴿تَحْيَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: إنه ضمير الكفار دون الذين آمنوا، فكان «سواء» على هذا القول مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ مقدّم، تقديره: محياهم ومماتهم سواء، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم ممات سوء، ولا يكون النصب على هذا في «سواء»، لأنه إثبات في الإخبار بأن محياهم ومماتهم يستويان في الذم والبعد من رحمة الله.

والقول الآخر: إن الضمير في ﴿تَحْيَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ للقبيلين، فإذا كان كذلك جاز أن ينتصب «سواء» على أنه المفعول الثاني من نجعل، فيمن استجاز أن يعمل في الظاهر، لأنه يلتبس بالقبيلين جميعاً، وليس في الوجه الأول كذلك، لأنه للكفار دون المؤمنين، ولا يلتبس للمؤمنين من حيث كان للكفار من دونهم. ولا يجوز أن ينتصب «سواء» ولم يكن فيه إلا الرفع، ويكون على هذا الوجه قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿سَوَاءٌ تَحْيَهُمْ﴾ استئناف، ولا يكون في موضع حال من قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنه لا يلتبس بهم. والقول في «غشوة» و«غشاوة» مذكورة في سورة البقرة.

● **اللغة:** الاجتراح: الاكتساب، يقال: جرح واجترح، وكسب واكتسب. وفلان جارحة قومه، أي: كاسبة قومه، وأصله من الجراح، لأن لذلك تأثيراً كتأثير الجراح، ومثله الاقتراف، وهو مشتق من قرف^(١) القرحة. والسيئة: الفعلة القبيحة التي تسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها. والحسنة: هي التي تسر صاحبها باستحقاق الممدح عليها. قال علي بن عيسى: القبيح ما ليس للقادر عليه أن يفعله، والحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله، وكل فعل وقع لا لأمر من الأمور، فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة ولا إلى السفه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه للكفار على سبيل التوبيخ لهم: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا

(١) قرف القرحة يقرنها: قشرها بعد يسها.

سورة الجاثية

السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١﴾ معناه: بل أحسب، وهذا استفهام إنكار. وقيل: إن هذا معطوف على معنى مضمّر، تقديره: هذا القرآن بصائر للناس مُؤدّية إلى الجنة، أَفَعَلِمُوا ذلك، أم حَسِبَ الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي أن نجعل منزلتهم منزلة الذين صدّقوا الله ورسوله، وحققوا أفعالهم بأعمالهم. ﴿سَوَاءٌ نَجْعَلُهم مِمَّنْهُمْ﴾ أي: يستوي محيا القبيلين ومماتهم، يعني: أَحَسِبُوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم؟ ﴿سَوَاءٌ مَا يَنْكُرُونَ﴾ أي: سواء ما حكموا على الله تعالى، فإنه لا يسوّي بينهم ولا يستقيم ذلك في العقول، بل ينصر المؤمنين في الدنيا وَيُمْكِنُهُم من المشركين، ولا ينصر الكافرين ولا يُمَكِّنُهُم من المسلمين، وينزل الملائكة عند الموت على المؤمنين بالبشرى، وعلى الكافرين يضرّيون وجوههم وأدبارهم. وقيل: أراد محياهم بعد البعث، ومماتهم عند حضور الملائكة لقبض أرواحهم. وقيل: أراد أن المؤمنين محياهم على الإيمان والطاعة، ومماتهم على الإيمان والطاعة، ومحيا المشركين على الشرك والمعصية، ومماتهم كذلك، فلا يستويان، عن مجاهد. وقيل: الضمير في مماتهم للكفار، والمعنى: إنهم يتساوون في حال كونهم أحياء، وفي حال كونهم أمواتاً، لأن الحي متى لم يفعل الطاعة فهو بمنزلة الميت. ثم قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما عبثاً، وإنما خلقهما لنفع خلقه، بأن يُكَلِّفَهُمْ وَيُعَرِّضَهُم للثواب الجزيل. ﴿وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية. ﴿وَهُمْ لَا يُظَلُّونَ﴾ أي: لا يخسون حقوقهم. ثم قال:

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه، فاتَّبَعَ هواه في أموره ولا يحجزه تقوى، عن ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل معناه: من اتخذ معبوده ما يهواه، دون ما دلّت الدلالة على أن العبادة تحق له، فإذا استحسن شيئاً وهواه اتخذته إلهاً، وكان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر، عن عكرمة وسعيد بن جبير. وقيل معناه: أفرأيت من انقاد لهواه انقياده لإلهه ومعبوده، ويرتكب ما يدعوه إليه، ولم يرد أنه يعبد هواه ويعتقد أنه تحق له العبادة، لأن ذلك لا يعتقده أحد، عن علي بن عيسى. قد أيس الله رسوله من إيمان هؤلاء بهذا. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله وخلاه وما اختاره جزاء له على كفره وعناده، وترك تدبره على علم منه باستحقاقه لذلك. وقيل: أضله الله، أي: وجده ضالاً على حسب ما علمه، فخرج معلومه على وفق ما علمه، كما يقال: أحمدت فلاناً، أي: وجدته حميداً، وكقول عمرو بن معد يكرب: قاتلناهم فما أجبتناهم، وسألناهم فما أبخلناهم، وقاولناهم فما أفحمناهم، أي: ما وجدناهم كذلك. وقيل معناه: إنه ضلّ عن الله، كما قال:

هَبُونِي ائْزَأْ مِنْكُمْ أَضَلَّ بِعِيرِهِ لَهُ ذِمَّةٌ، إِنَّ الذُّمَّامَ كَبِيرُ

أي: ضلّ عنه بعيره. ﴿رَحَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فسرناه في سورة البقرة. ﴿فَن يَبْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: من بعد هداية الله إياه، والمعنى: إذا لم يهتد بهدي الله بعد ظهوره

ووضوحه فلا طمع في اهتدائه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون بهذه المواعظ، وهذا استبطاء بالتذكر منهم، أي: تذكروا واتعظوا حتى تحصلوا على معرفة الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلا حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ في معناه أقوال:

أحدها: إن تقديره: نحيا ونموت، فقدم وأخر.

والثاني: إن معناه: نموت ونحيا أولادنا.

والثالث: يموت بعضنا ويحيا بعضنا، كما قال: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل بعضكم بعضاً. ﴿وَمَا يُمِلُّكَ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وما يميتنا إلا الأيام والليالي، أي: مرور الزمان وطول العمر، إنكاراً منهم للصانع. ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ نفى سبحانه عنهم العلم، أي: إنما ينسبون ذلك إلى الدهر لجهلهم، ولو علموا أن الذي يميتهم هو الله وأنه قادر على إحيائهم لما نسبوا الفعل إلى الدهر. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم فيما ذكروه إلا ظانون، وإنما الأمر بخلافه. وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»، وتأويله: إن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المحزنة، والبلايا النازلة إلى الدهر، فيقولون: فعل الدهر كذا، وكانوا يسبون الدهر، فقال ﷺ: «إن فاعل هذه الأمور هو الله تعالى فلا تسبوا فاعلها». وقيل معناه: فإن الله مصرف الدهر ومدبره، والوجه الأول أحسن، فإن كلامهم مملوء من ذلك. ينسبون أفعال الله إلى الدهر. قال الأصمعي: ذم أعرابي رجلاً فقال: هو أكثر ذنباً من الدهر. وقال كثير:

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشَلَّتْ
وقال آخر:

فَاسْتَأَثَرَ الدَّهْرُ الْغَدَاةَ بِهِمْ وَالدَّهْرُ يَرْمِينِي وَمَا أَرْمِي
يَا دَهْرُ قَدْ أَكْثَرْتَ فَجَعَلْتَنَا بَسَرَاتِنَا وَوَقَّزْتَ فِي الْعَظْمِ^(١)

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلَاقَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي﴾ أي: إذا قرأت عليهم حججنا ظاهرات و﴿كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لم يكن لهم في مقابلتها حجة إلا مقاتلتهم: إن كنتم صادقين في أن الله يعيد الأموات ويعيئهم يوم القيامة فأتوا بآبائنا وأحيوهم حتى نعلم أن الله قادر على بعثنا، وإنما لم يجبههم الله إلى ذلك لأنهم قالوا ذلك مُتَعَنِّتِينَ مقترحين لا طالبين الرشد.



(١) السراة بالفتح: جمع السري، وهو السيد الشريف السخي، وصاحب المروة في شرف، وهو جمع نادر. ووقر العظم يقره أي: صدعه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «كل أمة تدعى إلى كتابها» بفتح اللام، والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في نصبه أنه بدل على الأول، وفي الثاني من الإيضاح ما ليس في الأول، لأن فيه ذكر السبب الداعي إلى الحياة، فلذلك جاز إبداله منه. وتكون ﴿تُدْعَى﴾ في موضع نصب على الحال، أو على أنه مفعول ثان على تفصيل معنى ﴿وَتَرَى﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ راداً على الكفار قولهم، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في دار الدنيا، لأنه لا يقدر على الإحياء أحد سواه، لأنه القادر لنفسه. ﴿ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بأن يعثكم ويعيدكم أحياء. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه لقيام الحجة عليه، وإنما احتج بالإحياء في دار الدنيا، لأن من قدر على فعل الحياة في وقت قدر على فعلها في كل وقت، ومن عجز عن ذلك في وقت مع ارتفاع الموانع المعقولة وكونه حياً، عجز عنه في كل وقت. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك بعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحته. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو قادر على البعث والإعادة. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ العادلون عن الحق، الفاعلون للباطل، أنفسهم وحياتهم في الدنيا، لا يحصلون من ذلك إلا على عذاب دائم. ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ﴾ أي: وترى يوم القيامة أهل كل ملّة باركة على ركبها، عن ابن عباس. وقيل: باركة مستوفزة^(١) على ركبها كهيئة قعود الخصوم بين يدي القضاة، عن مجاهد والضحاك وابن زيد. وقيل: إن الجشؤ للكفار خاصة. وقيل: هو عام للكفار والمؤمنين، ينتظرون الحساب. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: كتاب أعمالها الذي كان يستنسخ لها. وقيل: إلى كتابها المنزل على رسولها ليسألوا عما عملوا به. ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يعني ديوان الحفظة ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: يشهد عليكم بالحق، والمعنى: يبينه بياناً شافياً حتى كأنه ناطق. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نستكتب الحفظة ما كنتم تعملون في دار الدنيا، والاستنساخ: الأمر بالنسخ، مثل: الاستكتاب الأمر بالكتابة. وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يشهد بما قضي فيه من خير وشر، وعلى هذا فيكون معنى نستنسخ أن الحفظة تستنسخ الخزنة ما هو مدوّن عندها من أحوال

(١) استوفز في قعدته: قعد منتصباً غير مطمئن، أو وضع ركبته ورفع إتيته، أو استقل على رجليه، ولما يستو قائماً. وقد نهيا للوثوب.

العباد، وهو قول ابن عباس. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾ أي: جنته وثوابه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: الفلاح الظاهر.



قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ ﴿٣٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرِينَ ﴿٣٩﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم مِّنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُرُوفًا وَغَرَّبْتُمُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٤٠﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: «والساعة» بالنصب، والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرفع على وجهين:

أحدهما: أن يقطع من الأول فيعطف جملة على جملة.

والآخر: أن يكون محمولاً على موضع «إن» وما عملت فيه، وموضعها رفع. وأما النصب فمحمول على لفظ «إن» وموضع «لا ريب» رفع بأنه في موضع خبر «إن». وقد عاد الذكر إلى الاسم، فكانه قال: والساعة حق، لأن قوله: «لا ريب فيها» في معنى حق. قال أبو الحسن: والرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب إذا جاء بعد خبر إن اسم معطوف، ويقويه قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه الوعد بالوعيد، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم: أفلم تكن حججي وبيناتي تُقرأ عليكم من كتابي، ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: تعظمت عن قبولها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين. كما قال: ﴿أَتَجْعَلُ السَّيِّئِينَ مُقَدِّمِينَ وَالصَّالِحِينَ وَخَلْفَةً﴾ والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ دالة على جواب «أما» المحذوف. ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن ما وعد الله به من الثواب والعقاب كائن لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وإن القيامة لا شك في حصولها ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ وأنكرتموها، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ ونشك فيك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ﴾ في ذلك. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظهر لهم جزاء معاصيهم التي عملوها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاء استهزائهم. ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ﴾ أي: نترككم في العقاب ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم التأهب للقاء يومكم هذا، عن ابن عباس. وقيل: معناه: نحلكم في العذاب محل المنسي كما أحللتهم هذا اليوم عندكم محل المنسي. ﴿وَمَاؤَاتِكُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقركم جهنم ﴿وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب الله،

سورة الجاثية

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعلنا بكم ﴿بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: سخرية تسخرون منها ﴿وَعَرَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم بزينتها، فاغتررتم بها، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يُخْرِجُونَ» بفتح الياء، كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبي والاعتذار، لأن التكليف قد زال. وقيل معناه: لا يقبل منهم العتبي.

ثم ذكر سبحانه عظمته فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الشكر التام والمدحة التي لا يوازيها مدحة، لله الذي خلق السماوات والأرض ودبرهما وخلق العالمين ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: السلطان القاهر، والعظمة القاهرة، والعلو والرفعة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يستحقهما أحد سواه. وفي الحديث: يقول الله سبحانه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في جهنم». ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في جلاله ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله. وقيل: العزيز في انتقامه من الكفار، والحكيم فيما يفعله بالمؤمنين والأخيار.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الْاِحْقَافِ

مكية/آياتها (٢٥)

مكية، قال ابن عباس وقتادة: «إلا آية منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ آيَةٌ﴾. نزلت في عبد الله بن سلام.

● عدد آياتها: خمس وثلاثون آية كوفي، أربع في الباقيين.

● اختلافها: آية ﴿حَمَّ﴾ كوفي.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الأحقاف أعطي من الأجر بعدد كل رمل في الدنيا عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات». وعن عبد الله بن أبي يعقوب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف، لم يصبه الله بروعة في الدنيا، وأمنه من فزعه يوم القيامة.

● تفسيرها: لما ختم الله تلك السورة بذكر التوحيد، وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح هذه السورة أيضاً بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ﴾ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَشْفَعُ مِنْ عِنْدِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥﴾.

● القراءة: قرأ علي عليه السلام، وأبو عبد الرحمن السلمي: «أو أثر» بسكون الشاء من غير ألف. وقرأ ابن عباس بخلاف، وعكرمة وقتادة: «أو أثر» بفتحيتين، والقراءة المشهورة: «أو أثر» بالألف.

● الحجة: قال ابن جني: الأثر والأثرية: البقية، وهي ما يؤثر من قولهم: أثر الحديث يَأْثُرُهُ أَثَرًا أو أثره، ويقولون: من هذا أثر وأثره، أي: أثر، ومنه سيف ماثور، أي: عليه أثر الصنعة وطريق العمل. وأما الأثرية - ساكنة الشاء - فهي أبلغ معنى، وذلك أنها الفعلة الواحدة من هذا الأصل، فهي كقولهم: ائتوني بخبر واحد أو حكاية شاذة، أي: قنعت في الاحتجاج لكم بهذا الأصل على قتله.

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ أَي: ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً، وإنما خلقناهما لتتعبداً سكانهما بالأمر والنهي، ونعرضهم للثواب وضروب النعم، فنجازيهم في الآخرة بأعمالهم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة، فإنه أجل مسمى عنده، مطوي عن العباد علمه إذا انتهى إليه تنأى وقامت القيامة. وقيل: هو مسمى للملائكة وفي اللوح المحفوظ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُتُوا مُعْضُونٌ﴾ أي: أن الكافرين عما أُتُوا من القيامة والجزاء معرضون، عادلون عن التفكير فيه. ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين كفروا بالله ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرَأَيْتُمْ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فاستحقوا بذلك العبادة والشكر ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: في خلقها، وتقديره: أم لهم شرك ونصيب في خلق السماوات. ثم قال لهم: ﴿أَتُوفَىٰ بِكُمْ فِي يَوْمٍ لَا تَوَدُّهُ﴾ أي: في يوم لا تحبونه، من كتب الأولين يعلمون به أنهم شركاء الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون، عن مجاهد. وقيل: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: خبر من الأنبياء، عن عكرمة ومقاتل. وقيل: هو الخط، أي: بكتاب مكتوب، عن ابن عباس. وقيل: خاصة من علم أوثرتم به عن قتادة. والمعنى: فهاتوا إحدى هذه الحجج الثلاث: أولاً: دليل العقل، والثانية: الكتاب، والثالثة: الخبر المتواتر. فإذا لم يمكنهم شيء من ذلك فقد وضح بطلان دعواهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: مَنْ أضل عن طريق الصواب ممن يدعو من دون الله شيئاً، لو دعاه إلى يوم القيامة لم يجبه ولم يغته. والمراد: إنه لا يستجيب له أبداً. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ أي: ومن يدعونهم مع ذلك لا علم لهم بدعائهم ولا يسمعون دعاءهم، وإنما كنى عن الأصنام بالواو والنون، لما أضاف إليها ما يكون من الغفلاء، كقوله: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَعِيدِينَ﴾.



قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ أَسْتَكَبِرْتُمْ إِنَّا اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ .

● اللغة: الآية: الدلالة التي تدل على ما يُتَعَجَّب منه. قال:

بَايَةِ تَقْدُمُونَ الْخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهُ عَلَى سَنَابِكِهَا مُدَامًا^(١)

أفاض القوم في الحديث: إذا مضوا فيه، وأصل الإفاضة: الدفع، وأفاضوا من عرفات: اندفعوا منها، وحديث مفاض ومستفاض ومستفيض أي: جار شائع. والبدع والبديع بمعنى، وهو بدع من قوم أبداع، قال عدي بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تغتري رجالاً عرت من بغد بُؤس وأسعد^(٢)

● **النزول:** قيل: نزلت الآية الأخيرة في عبد الله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل، فرُوي أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي ﷺ، فأسلم، وقال: يا رسول الله، سل اليهود عني فإنهم يقولون: هو أعلمنا، فإذا قالوا ذلك قلت لهم: إن التوراة دالة على نبوتك، وإن صفاتك فيها واضحة. فلما سألهم قالوا ذلك، فحيثُ أظهر عبد الله بن سلام إيمانه فكذبوه.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أنه إذا قامت القيامة صارت آلهتهم التي عبدوها أعداء لهم، فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾، وكذلك قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. ﴿وَكَانُوا بِمَادِيهِمْ كُفَرِينَ﴾ يعني أن هذه الأوثان التي عبدوها ينطقها الله، حتى يجحدوا أن يكونوا دعوا إلى عبادتها، ويكفروا بعبادة الكفار، ويجحدوا ذلك. ثم وصفهم الله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا نُنَادِيَهُمْ أَيْنَنَا بَيِّنَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: للقرآن والمعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: حيلة لطيفة ظاهرة وخداع بين. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ﴾ ﴿إِنْ أَفْتَرَيْتُهُمْ﴾ أي: إن كذبت على الله واختلقت القرآن كما زعمتم ﴿فَلَا تَكُونُ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إن كان الأمر على ما تقولون: إني ساحر مفتر، فلا يمكنكم أن تمنعوا الله مني إذا أراد إهلاكه على أفترتي عليه، والمراد: كيف افترتي على الله من أجلكم، وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني إذا افترت عليه. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إن الله أعلم بما تقولون في القرآن، وتخوضون فيه من التكذيب به، والقول فيه بأنه سحر. ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيِّنًا وَبَيِّنَاتُ﴾ أن القرآن جاء من عنده ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في تأخير العقاب عنكم حين لا يعجل بالعقوبة. قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، أي: من أتى من الكبائر مثل ما أنتم به من الافتراء على الله وعلي ثم تاب فإن الله غفور رحيم به.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول بعث، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. والبدع: الأول من الأمر ﴿وَمَا أَتَرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يُكْرَمُ﴾ أي: لا أدري أأموت أم أقتل، ولا أدري أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم، أم ليس يفعل

(١) قدّم القوم يقدمهم قدوماً: سبقهم والزور: ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين. مقصوده: إن تقدمهم على الخيل بتقديم صدورهم على صدورها حال كون سنابكها محمزة من الدم، كأنه انصبّت عليها الخمر، وهي شديدة العدو آية عجيبة وفي نسخة «شعثاً» بدل «زوراً».

(٢) عراه واعتراه بمعنى أصابه. وأسعد جمع سعد: وهو اليمن وضد النحس. يقول: لست أنا بأول من أصابته الحوادث مع أنها تصيب رجالاً قد أصابتهم في السعد من البخت، والبؤس منه.

سورة الأحقاف

بكم ما فعل بالأمم المكذبة؟ وهذا إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه قد علم أنه في الجنة، وأن من كذبه في النار، عن الحسن والسدي. وقيل معناه: لست أدعي غير الرسالة ولا أدعي علم الغيب ولا معرفة ما يفعله الله تعالى بي ولا بكم في الإحياء والإماتة، والمنافع والمضار، إلا أن يوحى إلي، عن أبي مسلم. وقيل: ما أدري ما أؤمر به، ولا ما تؤمرون به، عن الضحاك. وقيل: ما أدري أترك بمكة أو أخرج منها، بأن أؤمر بالتحول عنها إلى بلد آخر، وما أدري أؤمر بقتالكم أو بالكف عن قتالكم وهل ينزل بكم العذاب أم لا؟ ﴿إِنْ أَنْجِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْ﴾ أي: لست أتبع في أمركم من حرب أو سلم، أو أمر أو نهى إلا ما يوحى الله إلي وما يأمرني به. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف لكم ظاهر. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناه: أخبروني ماذا تقولون ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: إن كان هذا القرآن من عند الله هو أنزله، وهذا النبي رسوله. ﴿وَكَفَرْتُمْ﴾ أنتم أيها المشركون به ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني عبد الله بن سلام ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾، معناه: عليه، أي: على أنه من عند الله. وقيل: على مثله أي: على التوراة، عن مسروق. وقيل: الشاهد موسى، شهد على التوراة كما شهد النبي ﷺ على القرآن، لأن السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة ﴿فَقَامَنَ﴾ يعني الشاهد ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم على الإيمان به، وجواب قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ محذوف، وتقديره: ألستم من الظالمين. ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وقيل: جواب ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ﴾، عن الحسن. وقيل جوابه: ﴿أَفْتَوْمُونُ﴾، عن الزجاج.



قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّمُنْذِرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وابن عامر ويعقوب: «لتنذر» بالثاء، والباقون: بالياء. وقرأ أهل الكوفة: «إحساناً» والباقون: «حسنًا». وروي عن علي عليه السلام، وأبي عبد الرحمن السلمي: «حسنًا» بفتح الحاء والسين. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو والكسائي: «كرهاً» بفتح الكاف، والباقون: بضمها. وقرأ يعقوب: «وفصله»، وهو قراء الحسن وأبي رجاء وعاصم والجحدري، والباقون: «وفصالة».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «التنذر» بالتاء قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ وقوله: ﴿لِنُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى﴾. وحجة الباء: ﴿لِنُنذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا﴾ أو أسند الإنذار إلى الكتاب كما أسنده إلى الرسول. وأما الباء في قوله: ﴿بِوَلَدَيْهِ﴾ فيجوز أن يتعلق بـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، بدلالة قوله: ﴿ذَلِكَ رِجْزٌ مِّنْهُ﴾. ويجوز أن يتعلق بالإحسان، ويدل عليه قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي﴾. ولا يجوز أن يتعلق في الآية بالإحسان لتقدمها على الموصول، ولكن يجوز أن تعلقه بمضمر يفسره الإحسان، كما جاز في نحو قوله: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، وقوله:

كان جزائي بالعصا أن أجلدا

في قول من لم يعلقه بالجزاء. والإحسان: خلاف الإساءة، والحسن: خلاف القبيح، فمن قال «إحساناً» كان انتصابه على المصدر، وذلك أن معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا﴾ أمرناه بالإحسان، أي: ليات الإحسان إليهما دون الإساءة، ولا يجوز أن يكون انتصابه بـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، لأن ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ قد استوفى مفعوليه اللذين أحدهما منصوب، والآخر المتعلق بالباء.

ومن قرأ: «حسنًا» فمعناه: ليات في أمرهما أمراً ذا حسن، أي: ليات الحسن في أمرهما دون القبيح، ويؤيده قراءة علي، صلوات الرحمن عليه: «حَسَنًا» لأن معناه: ليات في أمرهما فعلاً حسنًا.

وأما «الكره» بالفتح فهو المصدر، و«الكره» بالضم الاسم، كأنه الشيء المكروه. وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ وهذا بالضم، وقال: ﴿أَنْ رَّبُّنَا لِلنَّسَاءِ كَرْهًا﴾ فهذا في موضع الحال، والفتح فيه أحسن، وقد قيل: إنهما لغتان.

وأما الفصل فهو بمعنى الفصال، إلا أن الأكثر بالألف. وفي الحديث: «لا رضاع بعد الفصال» يعني بعد الفطام.

● **اللغة:** القديم: ما تقادم وجوده، وفي عرف المتكلمين: هو الموجود الذي لا أول لوجوده. والإيزاع: أصله المنع، وأوزعني: أمتعني عن الانصراف عن ذلك باللطف، ومنه قول الحسن: «لا بد للناس من وَرْعَةٍ»^(١)، وقال أبو مسلم: الإيزاع: إيصال الشيء إلى القلب.

● **الإعراب:** ﴿إِمَامًا﴾ منصوب على الحال من الضمير في الظرف عند سبويه، ومن ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾ عند الأخفش. ومن رفع بالظرف، ويجوز أن يرتفع قوله: ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾ بالعطف على قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: وشهد شاهد من قبل القرآن كتاب موسى، ففصل بالظرف بين الواو والمعطوف به. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على قوله: ﴿إِمَامًا﴾. و﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال أيضاً من قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾، ويجوز أن يكون حالاً مما في ﴿مُصَدِّقٌ﴾ من الضمير، وتقديره: وهذا كتاب مصدق ملفوظاً به على لسان العرب. و﴿وَبَشِّرِ﴾ عطف على قوله: ﴿لِنُنذِرَ﴾ وهو مفعول له. ﴿جَزَاءً﴾ مصدر مؤكد قبله، وتقديره:

(١) جمع الوازع: وهو المانع الزاجر أي: لا بد للناس من ولاة مانعين عن محارم الله تعالى.

سورة الأحقاف

جُوزُوا جزاء، فاستغنى عن ذكر جوزوا لدلالة الجملة قبلها عليها، ويجوز أن يكون ﴿جَزَاءً﴾ مفعولاً له، و﴿كُرْهًا﴾ منصوب على الحال، أي: حملته كارهة.

● المعنى: ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين جحدوا وحدانيته، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: لو كان هذا الذي يدعونا إليه محمد خيراً، أي: نفعاً عاجلاً أو آجلاً، ما سبقنا هؤلاء الذين آمنوا به إلى ذلك، لأننا كنا بذلك أولى. واختلف فيمن قال ذلك، ف قيل: هم اليهود، قالوا: لو كان دين محمد ﷺ، خيراً ما سبقنا إليه عبد الله بن سلام، عن أكثر المفسرين. وقيل: إن أسلم وجهينة ومزينة وغفارا، لما أسلموا قال بنو عامر بن صعصعة وغطفان وأسد وأشجع هذا القول، عن الكلبي. ونظم الكلام يوجب أن يكون: ما سبقتُمونا إليه، ولكنه على ترك المخاطبة. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُورُونَ هَذَا إِفْكٌ كَذِبٌ﴾ أي: فإذا لم يهتدوا بالقرآن من حيث لم يتدبروه فسيقولون: هذا القرآن كذب متقادم، أي: أساطير الأولين. ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: من قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله للمؤمنين به قبل القرآن. وتقدير الكلام: وتقدمه كتاب موسى إماماً. وفي الكلام محذوف يتم به المعنى تقديره: فلم يهتدوا به، ودل عليه قوله في الآية الأولى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، وذلك أن المشركين لم يهتدوا بالتوراة فتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، ويعرفوا منها صفة محمد ﷺ. ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للكتب التي قبله، ﴿إِنَّا نَعْرِيبُ﴾ ذكر اللسان تأكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً تأكيداً ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لتخوفهم، يخاطب النبي ﷺ. ومن قرأ بالياء أسند الفعل إلى الكتاب. ﴿وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ﴾ وبشارة للمؤمنين. وقيل معناه: ويبشر بشري، فيكون نصباً على المصدر. ويجوز أن يكون في موضع رفع، أي: وهو بشري للمحسنين الموحدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ مر تفسيره. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من أهوال يوم القيامة. ﴿أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها المنعمون فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والأعمال الصالحات.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ مر تفسيره. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا﴾ أي: بكره ومشقة، عن الحسن وقتادة ومجاهد. يعني حين أثقلت وثقل عليها الولد ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد به شدة الطلق، عن ابن عباس ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ يريد أن أقل مدة الحمل وكمال مدة الرضاع، ثلاثون شهراً. قال ابن عباس: إذا حملت تسعة أشهر أرضعت أحداً وعشرين شهراً، وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وهو ثلاث وثلاثون سنة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: بلوغ الحلم، عن الشعبي. وقيل: وقت الحاجة عليه، عن الحسن. وقيل: هو أربعون سنة، وذلك وقت إنزال الوحي على الأنبياء، ولذلك فسر به فقال: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، فيكون هذا بياناً لزمان الأشد. وأراد بذلك أنه يكمل له رأيه ويجتمع عليه عقله عند الأربعين سنة ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

وَالَّذِى وَأَنَّ أَعْمَلَ مَصْلِحًا تَرْضَاهُ ﴿١﴾ قد مرّ تفسيره في سورة النمل. ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين، عن الزجاج. وقيل: إنه دعاه بإصلاح ذريته لبرّه وطاعته، لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾. وقيل: إنه الدعاء بإصلاحهم لطاعة الله عز وجل وهو عبادته وهو الأشبه، لأن طاعتهم لله من برّه، لأن اسم الذرية يقع على من يكون بعده. وقيل معناه: اجعلهم لي خلف صدق ولك عبيد حق، عن سهل بن عبد الله. ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سيئاتي وذنوبي ﴿وَلِيَّيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمرك.



قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أَفِي لَكُمْ مَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «نَتَقَبَّلُ وَنَتَجَاوَزُ» بالنون، «أَحْسَنَ» بالنصب، والباقون: «يُتَقَبَّلُ وَيُتَجَاوَزُ» بضم الياء، «أَحْسَنُ» بالرفع. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب: «أَذْهَبْتُمْ» بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ ابن عامر: «أَذْهَبْتُمْ» بهمزتين، والباقون: «أَذْهَبْتُمْ» بفتح الهمزة.

● **الحجة:** من قرأ: «يُتَقَبَّلُ» فلأن الفعل وإن كان مبنياً للمفعول به، فمعلوم أنه لله تعالى، كما جاء في الأخرى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فبناؤه للمفعول كبنائه للفاعل في العلم بالفاعل. وحجة من قرأ: «نَتَقَبَّلُ» بالنون أنه قد تقدم الكلام ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾، وكلاهما حسن. وقد ذكرنا اختلافهم في «أَف» في بني إسرائيل. وحجة الاستفهام في «أَذْهَبْتُمْ» أنه قد جاء هذا النحو بالاستفهام نحو: «أليس هذا بالحق»، وقوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. ووجه الخبر أن الاستفهام تقرير فهو مثل الخبر، ألا ترى أن التقرير لا يجاب بالفاء كما يجاب بها إذا لم يكن تقريراً، فكانهم يوبّخون بهذا الذي يخبرون به ويبكّتون. والمعنى في القراءتين يقال لهم هذا، فحذف القول كما حذف في نحو قوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

● **الإعراب:** ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ﴾ نصب على المصدر، تقديره: وعدهم الله ذلك وعداً، وإضافته إلى ﴿الصَّادِقِ﴾ غير حقيقية لأن ﴿الصَّادِقِ﴾ في تقدير النصب بأنه صفة ﴿وَعَدَ﴾ و﴿الَّذِي

سورة الأحقاف

كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١﴾ موصول وصلته في موضع النصب بكونه صفة للوعد، و﴿أَفِي لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، تقديره: هذه الكلمة التي تقال عند الأمور المكروهة كائنة لكما. ﴿وَبَلَّكَ﴾ منصوب لأنه مفعول فعل محذوف، تقديره: ألزمتك الله الويل. وقيل تقديره: ويل لك، فهو مبتدأ وخبر كما قلناه في ﴿أَفِي لَكُمْ﴾. ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ﴾ معطوف على محذوف، تقديره والله أعلم: ليجزيهم بما عملوا وليوفيهم أعمالهم.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه بما يستحقه هذا الإنسان من الثواب، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذا القول ﴿الَّذِينَ تَقَبَّلَ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: يثابون على طاعاتهم، والمعنى: نقبل بإيجاب الثواب لهم أحسن أعمالهم، وهو ما يستحق به الثواب من الواجبات والمندوبات، فإن المباح أيضاً من قبيل الحسن ولا يوصف بأنه متقبل. ﴿وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمُ﴾ التي اقترفوها ﴿فِي أَحْصِ الْجَنَّةِ﴾ أي: في جملة من يتجاوز عن سيئاتهم وهم أصحاب الجنة، فيكون قوله: ﴿فِي أَحْصِ الْجَنَّةِ﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿وَعَدَ الْصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: وعدهم وعد الصديق، وهو ما وعد أهل الإيمان بأن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن سيئهم إذا شاء أن يتفضل عليهم بإسقاط عقابهم، أو إذا تابوا، الوعد الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ إذا دعوه إلى الإيمان ﴿أَفِي لَكُمْ﴾ وهي كلمة تَبَرُّم يقصد بها إظهار التَسَخُّط، ومعناه: بعداً لكما. وقيل معناه: نتناً وقذراً لكما، كما يقال عند شم الرائحة المكروهة. ﴿أَتُؤَدِّينِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر وأحيا وأبعث. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: مضت الأمم وماتوا قبلي فما أُخْرِجُوا ولا أُعِيدُوا. وقيل معناه: خلت القرون على هذا المذهب، ينكرون البعث ﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه ﴿يَسْتَفْتِيَانِ اللَّهَ﴾ أي: يستصرخان الله ويطلبان منه الغوث ليلطف له بما يؤمن عنده، ويقولان له: ﴿وَبَلَّكَ ءَامِنٌ﴾ بالقيامة وبما يقوله محمد ﷺ، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ فَيَقُولُ﴾ هو في جوابهما ﴿مَا هَذَا﴾ القرآن وما ترعمانه وتدعوانني إليه ﴿إِلَّا أَتُطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخبار الأولين وأحاديثهم التي سطورها وليس لها حقيقة.

وقيل: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال له أبواه: أسلم، وألحاً عليه، فقال: أحيوا لي عبد الله بن جدعان ومشايخ قریش، حتى أسألهم عما تقولون، عن ابن عباس وأبي العالية والسدي ومجاهد. وقيل: الآية عامة في كل كافر عاق لوالديه، عن الحسن وقناة والزجاج قالوا: ويدل عليه أنه قال عقيهما: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُرٍ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب في أمم، أي: مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ على مثل حالهم واعتقادهم. قال قتادة: قال الحسن: الجن لا يموتون، فقلت: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُرٍ﴾ الآية تدل على خلافه. ثم قال سبحانه مخبراً عن حالهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم إذا أهلكوها بالمعاصي.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل واحد ممن تقدّم ذكره من المؤمنين البرّة، والكافرين

الفجرة درجات على مراتبهم ومقادير أعمالهم، فدرجات الأبرار في عليين، ودرجات الفجار دركات في سجين، عن ابن زيد وأبي مسلم. وقيل معناه: ولكل مطيع درجات ثواب وإن تفاضلوا في مقاديرها، عن الجبائي وعلي بن عيسى. ﴿وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم وثوابها. ومن قرأ بالياء فالمعنى: وليوفيهم الله أعمالهم، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بعقاب لا يستحقونه، أو بمنع ثواب يستحقونه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني يوم القيامة، أي: يدخلون النار، كما يقال: عرض فلان على السوط. وقيل معناه: عرض عليهم النار قبل أن يدخلوها ليروا أهوالها، ﴿أَذْقَبْتُمْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي: فيقال لهم: آثرتم طبباتكم ولذاتكم في الدنيا على طببات الجنة، ﴿وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا﴾ أي: انتفعتم بها منهمكين فيها. وقيل: هي الطببات من الرزق، يقول: أنفقتموها في شهواتكم وفي ملاذ الدنيا، ولم تنفقوها في مرضاة الله.

ولما وئخ الله سبحانه الكفار بالتمتع بالطيبات واللذات في هذه الدار، أثر النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام الزهد والتشف واجتناب الترفه والنعمة. وقد روى في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وإنه لمضطجع على خصفة^(١)، وإن بعضه على التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول الله، أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقبصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير؟ فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عجلت طبباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أخرت لنا طبباتنا».

وقال علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات في بعض خطبه: «والله لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: اغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى».

وروى محمد بن قيس عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «والله إن كان علي عليه السلام ليأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، وإن كان يشتري القميصين فيخير غلامه خيرهما، ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي خمس سنين ما وضع أجرة على أجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس على خبز البر واللحم، وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله عز وجل، فيه رضى، إلا أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد أعتق ألف مملوك من كد يمينه، تربت منه يدها وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله أحد من الناس بعده، وإن كان ليصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة. وإن كان أقرب الناس شهماً به علي بن الحسين عليه السلام، ما أطاق عمله أحد من الناس بعده».

ثم إنه قد اشتهر في الرواية أنه عليه السلام لما دخل على العلاء بن زياد بالبصرة يعوده، قال له

(١) الخَصْفَةُ: الجُلَّةُ تُعمل من الخوص للتمر.

سورة الأحقاف

العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباءة وتحلى من الدنيا، فقال ﷺ: عليّ به. فلما جاء به قال: يا عديّ نفسه، لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولذك؟ أتري الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك، قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس، كيلا يتبيّع^(١) بالفقير فقره.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الذي فيه الذل والخزي والهوان، ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: باستكباركم عن الانقياد للحق في الدنيا، وتكبركم على أنبياء الله وأوليائه ﴿يَغْيِرُ الْخَفَى وَيَمَّا كُنْتُمْ فَسْقُونَ﴾ أي: بخروجكم من طاعة الله إلى معاصيه.



قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادِ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِِكَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَا يَمَّا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنَكُمْ قَوْمًا بَٰجِلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّطْمَرُنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذٰلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير الكسائي ويعقوب وسهل: «لا يُرى» بضم الياء، «إلا مساكنهم» بالرفع، وقرأ الباقون: «لا ترى» بالتاء، «إلا مساكنهم» بالنصب. وفي الشواذ قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة ومالك بن دينار والأعمش: «لا ترى» بضم التاء، «إلا مساكنهم» بالرفع. وقرأ الأعمش: «مسكنهم».

● **الحجة:** قال أبو علي: تذكير الفعل في قوله: ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ حسن، وهو أحسن من إلحاق علامة التانيث الفعل من أجل الجمع، وذلك أنهم حملوا الكلام في هذا الباب على المعنى، فقالوا: ما قام إلا هند، ولم يقولوا: ما قامت، لما كان المعنى: ما قام أحد، ولا يجيء التانيث فيه إلا في شذوذ وضرورة، فمن ذلك قول الشاعر:

برى النخز والإجراز ما في عروضها فما بَقِيَتْ إِلَّا الصُّدُورُ الْجَرَائِصُ^(٢)

(١) باغ الدم يتبّع وتبيّع: هاج وثار.

(٢) برى السفر الإنسان والحيوان هزله، وأذهب لحمه. ونخره بحديدة أو نحوها نخرأ: وجأ بها، وبكلمة: أوجعه بها، وأجرز الناقة: هزلت فهي مجرز. والعرض: الناحية. والعرض من الحديث: معظمه ومن العنق: جانبه. والجرح: العظيم الصدر المتنفخ الجنين. يقال: أذهب النخر والهزال ما في نواحي بدنهما من اللحم والشحم، فلم يبق منها إلا عظام صدر متنفخ، ليس عليها شحم، ولا دم.

وقول ذي الرمة:

كأنها جُمِّلَ وَهَمَّ وما بَقِيَتْ إلا النُّحِيزَةُ والألواحُ والعَصَبُ^(١)

قال ابن جني: قوله: ﴿مَسْكِنَهُمْ﴾: إن شئت جعلته مصدرًا، وقدرت حذف المضاف، أي: لا ترى إلا آثار مسكنهم، كما قال ذو الرمة:

تَقُولُ عَجُوزٌ: مَذْرُجِي مُتْرُوحًا على بابها من عِنْدِ أهلي، وغاديا^(٢)

فالمدرج هنا مصدر، ألا تراه قد نصب الحال، وإن شئت قلت: «مسكنهم» واحد كفى من جماعة.

● **اللغة:** الأحقاف: جمع جُحْف، وهو الرمل المستطيل العظيم، لا يبلغ أن يكون جبلاً.

قال المبرد: الحقف: هو الرمل الكثير المكتنز غير العظيم، وفيه اعوجاج. قال العجاج:

بات على أرطاةٍ جُحِفَ أحقفا

والعارض: السحاب يأخذ في عرض السماء، قال الأعشى:

يا مَنْ رأى عارضاً قَدْ بَثَّ أَزْمَقُهُ كأنما البرقُ في حافَاتِهِ^(٣) شَعْلُ

والتدمير: الإهلاك واللقاء بعض الأشياء على بعض حتى يخرب ويهلك، قال جرير:

وكان لَهُمْ كَبْكُورٌ ثُمَّودٌ لَمَّا رَغَى ظَهراً، فدمَّرَهُمْ دماراً^(٤)

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا محمد لقومك أهل مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾

يعني هوداً ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ أي: خوَّفَهُم بالله تعالى ودعاهم إلى طاعته ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وهو واد بين عُمان ومهرة، عن ابن عباس. وقيل: رمال فيما بين عمان إلى حضرموت، عن ابن إسحاق.

وقيل: رمال مشرفة على البحر بالشَّخَرِ^(٥) من اليمن، عن قتادة. وقيل: أرض خلالها رمال، عن الحسن. ﴿وَقَدْ خَلَّتْ أَلْتُذُرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْ خَلْفِهِ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبل هود عليه السلام

ومن بعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ألا تعبدوا. والمعنى: إني لم أبعث قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده، وهذا اعتراض كلام وقع بين إنذار هود وكلامه لقومه. ثم عاد إلى كلام

هود لقومه فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وتقدير الكلام: إذ أنذر قومه بالأحقاف فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، الآية. ثم حكى ما أجاب به قومه بقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ يا هود

(١) الجَمَلُ والجُمْلُ: حبل السفينة. والوَهْمُ: الضخم. والنحيزة من نجز البعير إذا أصابه النحاز: وهو داء في رثته يسعل به شديداً. ولوح الجسد: عظمه، يصفها بأنها صارت من الهزال بمنزلة الحبل، فما بقي فيها شيء سوى النَّفْسِ، والعظم، والعصب.

(٢) مذكور في (جامع الشواهد).

(٣) حافات الشيء: جوانبه.

(٤) رَغَى البعير رُغَاءً: صَوْتٌ وضج. والبكر: الفتى من الإبل.

(٥) الشَّخَرُ: ساحل اليمن. وشَخَرِ عمان وشَخَرِ عمان: وهو ساحل البحر بين (عمان)، و(عدن).

سورة الأحقاف

﴿لِتَأْكُلُوا﴾ أي: لتلثتنا وتصرفنا ﴿عَنْ إِلَهَيْنَا﴾ أي: عن عبادة آلهتنا ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُحْذَرِّينَ﴾ أن العذاب نازل بنا. ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو يعلم متى يأتيكم العذاب لا أنا ﴿وَأُتِلَفَكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم، أي: وأنا أبلغكم ما أمرت بتبليغه إليكم ﴿وَلَكِنِّي أُرْسِلُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ حيث لا تجيبون إلى ما فيه صلاحكم ونجاتكم، وتستعجلون العذاب الذي فيه هلاككم، وهذا لا يفعله إلا الجاهل بالمنافع والمضار. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: فلما رأوا ما يوعدون، والهاء تعود إلى «ما تعدنا» في قوله: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾. ﴿عَارِضًا﴾ أي: سحاباً يعرض في ناحية من السماء ثم يطبق السماء ﴿مُتَّقِبِلٌ أودَيْنِهِمْ﴾، قالوا: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد لهم يقال له: المغيث، فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا و﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾ أي: سحاب ممطر إيانا، هذا تقديره لأنه نكرة، بدلالة أنه صفة لـ«عارض». فقال هود عليه السلام: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: ليس هو كما توهمتم، بل هو الذي وعدتكم به، وطلبتم تعجيله. ثم فسرهُ فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو ريح فيها عذاب مؤلم. وقيل: بل هو قول الله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تهلك كل شيء مرت به من الناس والدواب والأموال، واعتزل هود ومن معه في حظيرة لم يصبهم من تلك الريح إلا ما تلين على الجلود وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض، حتى تُرى الظعينة كأنها جردة، عن عمر بن ميمون. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ وما عداها قد هلك. ومن قرأ بالتاء فهو على وجه الخطاب للنبي ﷺ. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف وجازيناهم بالعذاب ﴿يَجْرَى الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين الذين يسلكون مسالكهم.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَحَمَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْعِجْنِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وعكرمة وأبي عامر: «أفكهم» بفتح الألف والفاء والكاف، وقراءة عبد الله بن الزبير: «أفكهم»، وقراءة ابن عباس: «أفكهم» بالتشديد.

● **الحجة:** قوله: «أَفَكُفَّهِمْ» معناه: صرفهم وثناهم، قال:

إِنْ يَكُ عَنْ أَحْسَنِ الْمَرْوَةِ مَأْفُو كَأَفِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا^(١)

و«أَفَكُفَّهِمْ» أفعلهم منه، أي: أصارهم إلى الإفك، ويجوز أن يكون فاعلهم من ذلك مثل خادعهم. وأما «أَفَكُفَّهِمْ» ففعلهم، وذلك لتكثيره ذلك الفعل بهم. وروي عن قطرب أن ابن عباس قرأ: «أَفَكُفَّهِمْ»، أي: صارفهم.

● **اللغة:** التمكين: إعطاء ما يتمكن به من الفعل، وتدخل فيه القدرة والآلة وسائر ما يحتاج إليه الفاعل. وقيل: التمكين: إزالة الموانع، وذلك داخل في الأول، لأنه كما يحتاج الفاعل في الفعل إلى الآلات، يحتاج إلى زوال الموانع، فإذا أزيلت عنه العلل كلها فقد مكن. والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة أو نسك. والجمع: قرايين.

● **الإعراب:** ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾: إن هنا بمعنى «ما» و«إن» في النفي مع «ما» الموصولة بمعنى الذي أحسن في اللفظ من «ما». ألا ترى أنك لو قلت: رغبت فيما ما رغبت فيه، لكان أحسن منه أن تقول: رغبت فيما إن رغبت فيه، لاختلاف اللفظين.

● **المعنى:** ثم خوف سبحانه كفار مكة، وذكر فضل عباد بالأجسام والقوة عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ﴾ أي: في الذي ما مكانكم ﴿فِيهِ﴾. والمعنى: في الشيء الذي لم تُمكنكم فيه، من قوة الأبدان، وبسطة الأجسام، وطول العمر، وكثرة الأموال، عن ابن عباس وقاتدة. وقيل معناه: فيما مكانكم فيه، و«إن» مزيدة. والمعنى: مكانهم من الطاعات، وجعلناهم قادرين متمكنين بنصب الأدلة على التوحيد، والتمكين من النظر فيها، والترغيب والترهيب، وإزاحة العلل في جميع ذلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم أخبر سبحانه عن أولئك أنهم أعرضوا عن قبول الحجج، والتفكر فيما يدلهم على التوحيد، مع ما أعطاهم الله من الحواس الصحيحة التي بها تدرك الأدلة. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لم ينفعهم جميع ذلك، لأنهم لم يعتبروا ذلك، ولا استعملوا أبصارهم وأفئدتهم في النظر والتدبر ﴿إِذْ كَانُوا يَحْضُدُونَ بَايَتَ اللَّهِ﴾ وأدلته، ﴿وَحَافَ بِهِمْ﴾ أي: حل بهم جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ معناه: ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حولكم، وهم قوم هود، وكانوا باليمن، وقوم صالح بالحجر، وقوم لوط على طريقهم إلى الشام، ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ تصريف الآيات: تصييرها تارة في الإعجاز، وتارة في الإهلاك، وتارة في التذكير بالنعم، وتارة في التذكير بالنقم، وتارة في وصف الأبرار ليقندى بهم، وتارة في وصف الفجار ليجتنب مثل فعلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا عن الكفر. ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فها هنا نصر هؤلاء المهلكين الذين اتخذوهم آلهة، وزعموا أنهم يعبدونهم تقرباً إلى الله تعالى ثم لم ينصروهم، لأن هذا استفهام إنكار، ﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ضلت الآلهة وقت الحاجة إليها، فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم. ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾

سورة الأحقاف

أي: اتخاذهم الآلهة دون الله كذبهم وافترائهم، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ أي: يكذبون من أنها آلهة.

ثم بيّن سبحانه أن في الجن مؤمنين وكافرين، كما في الإنس، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ وجّهنا إليك جماعة من الجن تسمع القرآن. وقيل معناه: صرفناهم إليك عن بلادهم بالتوفيق والألطف حتى أتوك. وقيل: صرفناهم إليك عن استراق السمع من السماء برجوم الشهب، ولم يكونوا بعد عيسى قد صرفوا عنه، فقالوا: ما هذا الذي حدث في السماء إلا من أجل شيء قد حدث في الأرض، فضرّبوا في الأرض حتى وقفوا على النبي ﷺ، بيطن نخلة عامداً إلى عكاظ، وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن، ونظروا كيف يصلي، عن ابن عباس وسعيد بن جبیر. وعلى هذا فيكون الرمي بالشهب لطفاً للجن. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا القرآن أو النبي ﷺ ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض: استكتوا لنستمع إلى قراءته، فلا يحول بيننا وبين القرآن^(١) شيء. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ أي: فرغ من تلاوته ﴿وَلَوْ أَنَّا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: انصرفوا إلى قومهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾ أي: مُحذِرِينَ إياهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿قَالُوا يَكْفُومَنَّا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ يعنون القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما تقدمه من الكتب، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: يرشد إلى دين الحق، ويدل عليه، ويدعو إليه ﴿وَالْإِلَّهِ طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يؤدي بسالكه إلى الجنة.

القصة: عن الزهري قال: لما توفي أبو طالب اشتد البلاء على رسول الله ﷺ، فعمد ليقف بالطائف رجاء أن يؤوّه، فوجد ثلاثة نفر منهم هم سادة، وهم إخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر: أعجز الله أن يرسل غيرك؟ وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا أبداً، فلئن كنت رسولا كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن يرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك بعد. وتهزأوا به، وأفشوا في قومه ما راجعوه به، فقعدها له صفيين على طريقه. فلما مرّ رسول الله ﷺ بين صقيهم، جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموا رجله. فخلص منهم وهما يسيلان دماً إلى حائط من حوائطهم، واستظل في ظل نخلة منه وهو مكروب موجه، تسيل رجلاه دماً، فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله. فلما رآياه أرسلاه إليه غلاماً لهما يدعى: عداس، معه عنب، وهو نصراني من أهل نينوى، فلما جاءه قال له رسول الله ﷺ: من أي أرض أنت؟ قال: من أهل نينوى، قال: من مدينة العبد الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟ قال: أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى. فلما أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس، خرّ عداس ساجداً لله ولرسول الله ﷺ، وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان الدماء. فلما

(١) وفي نسختين: «الإستماع» بدل «القرآن».

بصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا، فلما أتاهما قالا: ما شأنك سجدت لمحمد وقبّلت قدميه، ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا؟ قال: هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى. فضحكنا، وقالا: لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع. فرجع رسول الله ﷺ إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة، قام في جوف الليل يصلي، فمر به نفر من جن أهل نصيبين. وقيل: من اليمن. فوجدوه يصلي صلاة الغداة ويتلو القرآن، فاستمعوا له، وهذا معنى قول سعيد بن جبيرة وجماعة. وقال آخرون: أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله، ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفراً من الجن من نينوى، فقال ﷺ: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة، فأياكم يتبعني؟ فأتبعه عبد الله بن مسعود، قال عبد الله: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، ودخل نبي الله شعباً يقال له: شعب الحجون، وخط لي خطأ، ثم أمرني أن أجلس فيه، وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك. ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيت أسودة كثيرة حتى حالت بيني وبينه، حتى لم أسمع صوته، ثم انطلقوا وطفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب، ذاهبين حتى بقي منهم رهط، وفرغ رسول الله ﷺ مع الفجر. فانطلق فبرز ثم قال: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: نعم، رأيت رجالاً سوداً مستغفري^(١) ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيبين. وروى علقمة عن عبد الله قال: لم أكن مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، ووددت أني كنت معه. وروى عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة نفر من جن نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. قال زَرِّ بن حبيش: كانوا تسعة نفر، منهم زبيعة. وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس، سكتوا فلم يقولوا شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: الجن كانوا أحسن جواباً منكم لما قرأت عليهم: ﴿فَإِنِّي ءَالَاؤُكُمْ تَكْذِبَانِ﴾، قالوا: لا، ولا شيء من آلائك ربنا نكذب.



قوله تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّمَ مِّنْ عَذَابِ آلِيزِ ۝ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَن يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝ (٣٥)﴾.

(١) الاستغفار: هو أن يدخل الرجل ثوبه بين رجليه، كما يفعل الكلب بذنبه.

سورة الأحقاف

● **القراءة:** قرأ يعقوب وحده: «يقدر» بالياء، وهو قراءة جده عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعاصم الجحدري، ومالك بن دينار. وقرأ جميع القراء: «بقادر». وفي الشواذ قراءة الحسن وعيسى الثقفي: «بلاغاً» بالنصب. وقراءة ابن محيصن: «فهل يهلك» بفتح الياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: قراءة القراء: «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض» إلى قوله: «بقادر»، من الحمل على المعنى، أدخل الباء لما كان في معنى: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر، ومثل ذلك في الحمل على المعنى قول الشاعر:

بَادَتْ وَغَيْرَ آيَهُنَّ مَعَ الْبَلَى إِلَّا رَوَاكِدُ جَنْمُرُهُنَّ هَبَاءً^(١)

ثم قال:

وَمُشَجَّجٌ أَمَا سَوَاءٌ قَذَالُهُ

لما كان: غير آيهن مع البلى إلا رواكد، بمعنى: بها رواكد، حمل: مشجج، على ذلك. وكذلك قوله: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَائِبٍ مِّنْ مَّعِينٍ» ثم قال: «وَحُورٌ عَيْنٌ» لما كان: يطاف عليهم بكذا معناه: لهم فيها كذا، وقالوا: إن أحداً لا يقول ذلك إلا زيد، فأدخل «أحداً» في الواجب، لما كان معنى الكلام النفي. ومن قرأ: «بلاغاً»، فهو على تقدير فعل مضمر أي: بلغوا بلاغاً، كما أن الرفع على تقدير مضمر أي: هو بلاغ، أو هذا بلاغ. وقرأ أبو مجلز^(٢): «بلغ» على الأمر.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تمام خبر الجن، فقال حاكياً عنهم: «يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» يعنون محمداً ﷺ، إذ دعاهم إلى توحيده، وخلع الأنداد دونه «وَأَمِنُوا بِهِ» أي: بالله «يَقِفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» أي: فإنكم إن آمنتم بالله ورسوله يغفر لكم ذنوبكم «وَيُخْرِجَكُمْ» أي: ويخلصكم «مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ». قال علي بن إبراهيم: فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فأمنوا به، وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، وأنزل الله سبحانه: «قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ» إلى آخر السورة. وكانوا يقرؤون إلى رسول الله ﷺ في كل وقت، وهذا دلالة على أنه كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس، ولم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله «وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أي: لا يعجز الله فيسبقه ويفوته «وَلَيْسَ لَكُم مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» أي: أنصار يمنعون من الله، ويدفعون عنه العذاب إذا نزل بهم. ويجوز أن يكون هذا من كلام الله تعالى ابتداء. ثم قال: «أُولَئِكَ» يعني الذين لا يجيبون داعي الله «فِي صَلَاحٍ ثَٰبِتٍ» أي: عدول عن الحق ظاهر.

(١) الضمير في «بادت» راجع إلى «الديار». وفي نسخة «من» بدل «مع». والرواكد: الأثافي مشتقة من الركود لثابتها.

وعجز قوله: «ومشجج»: فبدا وغيب ساره المعزاء. والمشجج: الوند مأخوذ من الشجة: وهو الجرح يكون في الوجه والرأس. وشدد لكثرة ذلك فيه. وسواء بمعنى الوسط. والقذال: جماع مؤخر الرأس. يقول: بادت الديار وغيرت أعلامها فلم يبق فيها إلا أحجار ثاف جمرها صار هباءً أيضاً، وكذا لم يبق فيها إلا وتد بدا رأسه، وأخفت الأرض الكثير الحصى سائره ومز البيت في ج ٢ وج ٣.

(٢) وفي نسختين: أبو مجلز.

ثم قال سبحانه مُنْبَهًا على قدرته على البعث والإعادة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأنشأهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ يَحْتَفِظُهُنَّ﴾ أي: لم يصبه في خلق ذلك إعياء ولا تعب، ولم يعجز عنه، يقال: عيي فلان بأمره: إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه. ﴿يَقْدِرُ﴾ الباء زائدة وموضعه رفع بأنه خبر إن ﴿عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّجَ أَلْمُونَ﴾ أي: فخلق السماوات والأرض أعجب من إحياء الموتى. ثم قال: ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادر عليه ﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم عقبه بذكر الوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم: أليس هذا الذي جُوزِيتُمْ به حق لا ظلم فيه. ﴿قَالُوا﴾ أي: فيقولون ﴿بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ اعترفوا بذلك وحلفوا عليه بعد ما كانوا منكربين، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم في الدنيا وإنكاركم.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: فاصبر يا محمد على أذى هؤلاء الكفار، وعلى ترك إجابتهم لك كما صبر الرسل، و﴿مِنْ﴾ هاهنا لتبيين الجنس كما في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. وعلى هذا القول فيكون جميع الأنبياء هم أولو العزم، لأنهم عزموا على أداء الرسالة وتحمل أعبائها، عن ابن زيد والجبائي وجماعة. وقيل: إن «من» هاهنا للتبويض، وهو قول أكثر المفسرين، والظاهر في روايات أصحابنا. ثم اختلفوا، فقيل: أولو العزم من الرسل: من أتى بشريعة مستأنفة، نسخت شريعة من تقدمه، وهم خمسة: أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد ﷺ، عن ابن عباس وقتادة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﷺ. قال: وهم سادة النبيين، وعليهم دارت رحى المرسلين. وقيل: هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر، ويوسف صبر في البئر والسجن، وأيوب صبر على الضر والبلوى، عن مقاتل. وقيل: هم الذين أمروا بالجهاد والقتال، وأظهروا المكاشفة، وجاهدوا في الدين، عن السدي والكلبي. وقيل: هم إبراهيم وهود ونوح ورابعهم محمد ﷺ، عن أبي العالية. والعزم: هو الوجوب والحتم، وأولو العزم من الرسل: هم الذين شرعوا الشرائع، وأوجبوا على الناس الأخذ بها، والانتقطاع عن غيرها. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: ولا تستعجل لهم العذاب فإنه كائن واقع بهم عن قريب، وما هو كائن فكان قد كان وقع. ﴿كَانَتْ يَوْمَ يَرْؤُا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب في الآخرة ﴿أَنَّهُ يَلْبِسُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ أي: إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأن ما مضى كأن لم يكن، وإن كان طويلاً، وتم الكلام. ثم قال: ﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل معناه: ذلك اللبث بلاغ. ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يقع العذاب إلا بالعاصين الخارجين من أمر الله تعالى. وقيل معناه: لا يهلك على الله تعالى إلا هالك مشرك، ولَّى ظهره الإسلام، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله، عن قتادة. وقيل معناه: لا يهلك مع رحمة الله وتفضله، إلا القوم الفاسقون، عن الزجاج. قال: وما جاء في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية/آياتها (٣٨)

وهي مدنية، وقال ابن عباس وقتادة: غير آية منها نزلت على النبي ﷺ، وهو يريد التوجه إلى المدينة من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزلت: ﴿وَكَأَنَّ مِنَ قَرَبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ﴾.

● عدد آياتها: أربعون آية بصري، ثمان وثلاثون كوفي، تسع في الباقيين.

● اختلافها: آيتان: ﴿أَوَّارَهَا﴾ غير الكوفي ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ بصري.

● فضلها: أبي بن كعب قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأها لم يدخله شك في دينه أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، ويكون ثواب صلواتهم له، ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند الله، ويكون في أمان الله وأمان محمد ﷺ. وقال عليه السلام: «من أراد أن يعرف حالنا أو حال أعدائنا فليقرأ سورة محمد ﷺ، فإنه يراها آية فينا وآية فيهم».

● تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بوعيد الكفار، وافتتح هذه السورة بمثلها، فقال جل ثناؤه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝۱﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝۲ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝۳ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُم فَشَدُّوا أَلْوَاكَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوَّارَهَا ۚ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ يَبْعُضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝۴ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ۝۵ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝۶﴾.

● القراءة: قرأ أهل البصرة وحفص: «والذين قُتِلُوا»، على ما لم يسم فاعله، والباقيون:

«قاتلوا» بالالف.

● **الحجة:** قال أبو علي: «قاتلوا» أعم من «قتلوا» ألا ترى أن من قاتل ولم يقتل لن يضل عمله، كما أن الذي قتل كذلك، فهو لعمومه أولى.

● **اللغة:** البال: الحال والشأن، والبال: القلب أيضاً، يقال: خطر ببالي كذا. والبال لا يجمع لأنه أبهم إخوانه من الحال والشأن. والإثخان: إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم، ومنه: أثخنه المرض: اشتد عليه، وأثخنه الجراح. والوثاق: اسم من الإيثاق، ويقال: أوثقه إيثاقاً ووثاقاً: إذا شد أسره كيلاً يفك. والأوزار: السلاح، وأصل الوزر: ما يحمله الإنسان، فسمي السلاح أوزاراً لأنه يحمل. قال الأعشى:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً
وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ يَخْدُو بِهَا عَلَى أَثَرِ الْحَيِّ عِيراً^(١)

● **الإعراب:** ﴿ذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ذلك كائن. ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ مصدر فعل محذوف، تقديره: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول، وهذه الإضافة في تقدير الانفصال، لأن تقديره: فضرباً الرقاب، قال الشاعر:

فَنَدَلَا زُرَيْنُ الْمَالَ نَدَلِ الثُّعَالِ

وكذلك قوله: ﴿مَتَا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ تقديره: فيما تمنون منا، وإما تفدون فداء.

● **المعنى:** ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وعبدوا معه غيره، ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن سبيل الإيمان والإسلام، باستدعائهم إلى تكذيب النبي ﷺ، يعني مشركي العرب، ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أحبط الله أعمالهم التي كان في زعمهم أنها قربة، وأنها تنفعهم، كالعتق والصدقة وقرى الضيف. والمعنى: أذهبها وأبطلها حتى كأنها لم تكن، إذ لم يروا لها في الآخرة ثواباً. وقيل: نزلت في المطعميين ببدر، وكانوا عشرة أنفس أطعم كل واحد منهم الجند يوماً. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله، وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحة ﴿وَعَمِلُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن والعبادات، خص الإيمان بمحمد ﷺ بالذكر مع دخوله في الأول، تشريفاً له وتعظيماً، ولثلا يقول أهل الكتاب: نحن آمنّا بالله وبأنبيائنا وكتبنا. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: وما نزل على محمد ﷺ هو الحق من ربهم، لأنه ناسخ للشرائع، والناسخ هو الحق. وقيل معناه: ومحمد الحق من ربهم، دون ما يزعمون من أنه سيخرج في آخر الزمان نبي من العرب فليس هذا هو، فردّ الله ذلك عليهم. ﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: سترها عنهم بأن غفرها لهم، يعني: غفر سيئاتهم المتقدمة بإيمانهم، وحكم بسقاط المستحق عليها من العقاب، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح حالهم في معاشهم وأمر دنياهم، عن قتادة. وقيل: أصلح أمر دينهم ودنياهم، بأن نصرهم على أعدائهم في الدنيا، ويدخلهم الجنة في العقبى.

(١) حدا الإبل وبها: ساقها وغنى لها. حدا الليل النهار: اتبعه.

ثم بيّن سبحانه لِمَ فعل ذلك، وَلِمَ قسمهم هذين القسمين، فقال: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ذلك الإضلال والإصلاح باتباع الكافرين الشرك وعبادة الشيطان، واتباع المؤمنين التوحيد والقرآن وما أمر الله سبحانه باتباعه. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: كاليان الذي ذكرنا، يبيّن الله سبحانه للناس أمثال حسنات المؤمنين، وسيئات الكافرين، فإن معنى قول القائل: ضربت لك مثلاً، بينت لك ضرباً من الأمثال، عن الزجاج. وقيل: أراد به المثل المقرون به، فجعل الكافر في اتباعه الباطل كمن دعاه الباطل إلى نفسه فأجابه، والمؤمن كمن دعاه الحق إلى نفسه فأجابه. وقيل معناه: كما بيّنت عاقبة الكافر والمؤمن، وجزاء كل واحد منهما، أضرب للناس أمثالا يستدلون بها، فيزيدهم علماً ووعظاً. وأضاف المثل إليهم لأنه مجعول لهم.

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار، فقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ معاشر المؤمنين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أهل دار الحرب، ﴿فَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ﴾ أي: فاضربوا رقابهم. والمعنى: اقتلوهم، لأن أكثر مواضع القتل ضرب العنق، وإن كان يجوز الضرب في سائر المواضع، فإن الغرض قتلهم. ﴿حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ﴾ أي: أثقلتوهم بالجراح وظفرتهم بهم. وقيل: حتى إذا بالغتم في قتلهم وأكثرتم القتل حتى ضعفوا. ﴿فَشُدُّوا الرِّبَاطَ﴾ أي: أحكموا وثاقهم في الأسر، أمر سبحانه بقتلهم والإثخان فيهم ليدلوا، فإذا ذلوا بالقتل أسروا، فالأسر يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْتَهِى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُمُخِّجَ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي: فإما أن تمنوا عليهم منّا بعد أن تأسروهم، فتطلقوهم بغير عوض، وإما أن تدفوهم فداء.

واختلف في ذلك. فقيل: كان الأسر محرماً بآية الأنفال، ثم أبيح بهذه الآية، لأن هذه السورة نزلت بعدها، فإذا أسروا فالإمام مخير بين المن والفداء بأسارى المسلمين وبالمال، وبين القتل والاستعباد، وهو قول الشافعي وأبي يوسف ومحمد بن إسحاق. وقيل: إن الإمام مخير بين المن والفداء والاستعباد، وليس له القتل بعد الأسر، عن الحسن. وكأنه جعل في الآية تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: فاضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وقيل: إن حكم الآية منسوخ بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾، عن قتادة والسدي وابن جريج. وقال ابن عباس والضحاك: الفداء منسوخ. وقيل: إن حكم الآية ثابت غير منسوخ، عن ابن عمر والحسن وعطاء، قالوا: لأن النبي ﷺ مَنَّ على أبي غرة، وقتل عقبة بن أبي معيط، وفادى أسارى بدر. والمروى عن أئمة الهدى صلوات الرحمن عليهم أن الأسارى ضربان:

ضرب: يؤخذون قبل انقضاء القتل والحرب قائمة، فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويتركهم حتى ينزفوا، ولا يجوز المن ولا الفداء.

والضرب الآخر: الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانقضى القتال، فالإمام مخير فيهم بين المن والفداء، إما بالمال أو بالنفس، وبين الاسترقاق وضرب الرقاب، فإن أسلموا في الحاليين سقط جميع ذلك، وكان حكمهم حكم المسلمين.

﴿حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى يضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون. وقيل: حتى لا يبقى أحد من المشركين، عن ابن عباس. وقيل: حتى لا يبقى دين غير دين الإسلام، عن مجاهد. والمعنى: حتى تضع حربكم وقاتلكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم، بأن يسلموا فلا يبقى إلا الإسلام خير الأديان، ولا تعبد الأوثان، وهذا كما جاء في الحديث: «الجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال». وقال الفراء: المعنى: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلمة. وقال الزجاج: أي: اقتلوهم وأسروهم حتى يؤمنوا، فما دام الكفر فالحرب قائمة أبداً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر الذي ذكرنا ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الكفار بإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء، ﴿وَلَكِنْ﴾ يأمركم بالحرب وبذل الأرواح في إحياء الدين ﴿لِيُثَبِّتَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي: ليمتحن بعضكم ببعض، فيظهر المطيع من العاصي. والمعنى: إنه لو كان الغرض زوال الكفر فقط، لأهلك الله سبحانه الكفار بما يشاء من أنواع الهلاك، ولكن أراد مع ذلك أن يستحقوا الثواب، وذلك لا يحصل إلا بالتعب وتحمل المشاق.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد في دين الله يوم أحد، عن قتادة. ومن قرأ: «قاتلوا» فالمعنى: جاهدوا سواء قُتلوا أو لم يقتلوا. ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يضيع الله أعمالهم ولن يهلكها، بل يقبلها ويجازيهم عليها ثواباً دائماً. ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة والثواب ﴿وَيُضِلِّجُ بِالْهَلَكِ﴾ أي: شأنهم وحالهم. والوجه في تكرير قوله: ﴿بِالْهَلَكِ﴾ أن المراد بالأول: إنه أصلح بالهم في الدين والدنيا. وبالثاني: إنه يصلح حالهم في نعيم العقبى، فالأول سبب النعيم، والثاني نفس النعيم. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ أي: بينها لهم، حتى عرفوها إذا دخلوها وتفرقوا إلى منازلهم، فكانوا أعرف بها من أهل الجنة إذا انصرفوا إلى منازلهم، عن سعيد بن جبير وأبي سعيد الخدري وقاتادة ومجاهد وابن زيد. وقيل معناه: بينها لهم، وأعلمهم بوصفها على ما يشوق إليها، فيرغبون فيها ويسعون لها، عن الجبائي. وقيل معناه: طيَّبها لهم، عن ابن عباس في رواية عطاء، من العرف، وهو الرائحة الطيبة، يقال: طعمُ مَعْرَفٍ، أي: مُطَيَّبٍ.



قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُصْرِكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝١٠﴾.

● **اللغة:** التعس: الانحطاط، والعتار، والإتعاس، والإذلال، والإدحاض بمعنى، وهو العثار الذي لا يستقل صاحبه، فإذا سقط الساقط فأريد به الانتعاش والاستقامة. قيل: لعل له، وإذا لم يرد ذلك قيل: تعساً. قال الأعشى:

فالتعس أولى لها من أن أقول لها^(١)

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ونبي الله بالقتال والجهاد، ﴿يَضُرَّكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيَبِيتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: ويُسْجِعكم ويقوِّ قلوبكم لتثبتوا. وقيل: ينصركم في الآخرة، ويثبت أقدامكم عند الحساب وعلى الصراط. وقيل: ينصركم في الدنيا والآخرة، ويثبت أقدامكم في الدارين، وهو الوجه. قال قتادة: حق على الله أن ينصر من نصره، لقوله: ﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ﴾ وأن يزيد من شكره لقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأن يذكر من ذكره من ذكره لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وأن يوفي بعهد من أقام على عهده لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ أي: مكروهاً لهم وسوءاً، عن المبرد. أي: أنتعسهم الله فتعسوا تعساً. قال ابن عباس: يريد في الدنيا العسرة، وفي الآخرة التردّي في النار. ﴿وَأَصْلُ أَعْمَلَهُمْ﴾ مرّ معناه. ﴿ذَلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿يَأْتِيهِمْ كَرْهُوْا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ على نبيه ﷺ من القرآن والأحكام، وأمرهم بالانقياد فخالفوا ذلك. وقال أبو جعفر عليه السلام: كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام، ﴿فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ لأنها لم تقع على الوجه المأمور به.

ثم نبّههم سبحانه على الاستدلال على صحة ما دعاهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حين أرسل الله إليهم الرسل فدعّوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، فلم يقبلوا منهم وعصوهم، أي: فهلا ساروا ورأوا عواقب أولئك. ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم. ثم قال: ﴿وَاللَّكَفِرِينَ﴾ بك يا ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾ من العذاب إن لم يؤمنوا ويقبلوا ما تدعوهم إليه. والمعنى: إنهم يستحقون أمثالها، وإنما يؤخّر الله سبحانه عذابهم إلى الآخرة تفضلاً منه.



قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ١١ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ١٢ ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ١٣ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى يَتِيمٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ١٤ ﴿مَثَلُ الْبَغَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذِيقٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ١٥ .

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «أسن» مقصوراً، والباقون: «آسن» بالمد. وقرأ علي عليه السلام وابن عباس: «أمثال الجنة» على الجمع.

● **الحجة:** قال أبو زيد يقال: آسن الماء يأسن أسوناً. إذا تغير. وأسِن الرجل يأسن أسناً: إذا غشي عليه من ريح خبيثة، وربما مات منها، قال:

التَّارِكُ الْقِرْنَ مُصَفَّرًا أَنَامِلُهُ تَمِيلُ فِي الرُّمَحِ مَيْلَ الْمَائِحِ الْأَسِينِ^(١)

قال أبو عبيدة: الْأَسِينُ: المتغير^(٢)، فحجة ابن كثير أن اسم الفاعل من فعل يفعل على فعل. وقال أبو الحسن: أَسِينٌ إِنَّمَا هُوَ لِلْحَالِ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا. ومن قرأ: «آسن» على فاعل، فإنما يريد أن ذلك لا يصير إليه فيما يستقبل. وقوله: «أمثال الجنة» فيه دليل على أن القراءة العامة التي هي: «مثل» في معنى الكثرة، لما فيه من معنى المصدرية.

● **اللغة:** المثوى: المنزل، من قولهم: ثوى بالمكان ثواء: إذا أقام به. ويقال للمرأة: أمُ المثوى، أي: ربة المنزل. والمَثَلُ والمِثْلُ بمعنى، مثل الشَّبه والشَّبه، والبَدَلُ والبِذْلُ^(٣). والأَمْعاء: جمع معي، وفي الحديث: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». وفيه وجوه من التأويل:

أحدها: قول علي عليه السلام: إنه في رجل معين.

والثاني: إن المعنى: يأكل المؤمن فيسمى الله تعالى، فيبارك في أكله.

والثالث: إن المؤمن يُضَيَّقُ عليه في الدنيا، والكافر يصيب منها.

والرابع: إنه مَثَلٌ لزهد المؤمن في الدنيا، وحرص الكافر عليها، وهذا أحسن الوجوه.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: مثل الجنة التي وعد الْمُتَّقُونَ مما قد عرفتموه من الدنيا، جنة فيها أنهار إلى آخره. وقوله: ﴿كَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ﴾ تقديره: أفمن كان على بَيِّنَةٍ من ربه وأُعْطِيَ هذه الأشياء، كمن زُيِّنَ له سوء عمله، وهو خالد في النار.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي فعلناه في الفريقين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يتولى نصرهم وحفظهم، ويدفع عنهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ينصرهم، ولا أحد يدفع عنهم، لا عاجلاً ولا آجلاً. ثم ذكر سبحانه حال الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) القرن: كفؤك، ومن يقاومك، ونظيرك في الشجاعة. واصفرار الأنامل: كناية عن الموت. ماح الرجل: دخل البئر فملا الدلو لقلته مائها، ولا يمكن أن يستقي منها إلا بالإغتراف باليد ومقابلة الماتح أي: من يستقي وهو على رأس البئر. سئل الأصمعي عن المتح والميح، فقال: «الفوق للفوق، والتحت للتحت» أي: المتح أن يستقي وهو على رأس البئر. والميح: أن يملأ الدلو وهو في قعرها. والآسن: من دخل البئر فأصابته ريح منتنة، فغشي عليه، أو دار رأسه.

(٢) [الريح].

(٣) كلاهما بمعنى الشريف الكريم، ومنهما الأبدال.

سورة محمد

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١﴾ أَي: من تحت أشجارها وأبنيتها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَعْتُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أَي: سيرتهم سيرة الأنعام، آثروا لذات الدنيا وشهواتها، وأعرضوا عن العبر، يأكلون للشبع، ويتمتعون لقضاء الوطر. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أَي: موضع مقامهم يقيمون فيها. ثم خوفهم وهذدهم سبحانه فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيَّتِكَ﴾ يا محمد، يعني مكة ﴿الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ أَي: أخرجك أهلها، والمعنى: كم من رجال هم أشد من أهل مكة، ولهذا قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فكئى عن الرجال، عن ابن عباس. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم إهلاكنا إياهم. والمعنى: فمن الذي يؤمن هؤلاء أن أفعل بهم مثل ذلك. ثم قال سبحانه على وجه التهجين والتوبيخ للكفار والمنافقين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ أَي: على يقين من دينه، وعلى حجة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشرائع ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، زَيَّنَ له الشيطان المعاصي وأغواه. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: شهواتهم وما تدعوهم إليه طباعهم، وهو وصف لمن زَيَّنَ له سوء عمله وهم المشركون. وقيل: هم المنافقون، عن ابن زيد. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

ثم وصف الجنات التي وعدا المؤمنين بقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ تقدّم تفسيره في سورة الرعد. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أَي: غير متغيّر لطول المقام كما تتغير مياه الدنيا، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو غير حامض ولا قارص، ولا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألبان في الدنيا، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ أَي: لذیذة يلتذون بشربها ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها، بخلاف خمر الدنيا التي لا تخلو من المزاة^(١) والسكر والصداع، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصًّى﴾ أَي: خالص من الشمع والرغوة والقذى، ومن جميع الأذى والعيوب التي تكون لعسل الدنيا. ﴿وَلَمْ يَكُن فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أَي: مما يعرفون اسمها، ومما لا يعرفون اسمها، مُبرّاة من كل مكروه يكون لثمرات الدنيا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ أَي: ولهم مع هذا مغفرة من ربهم، وهو أنه يستر ذنوبهم، وينسيهم سيئاتهم حتى لا يتنقص عليهم نعيم الجنة، ﴿كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ أَي: من كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ﴿وَشَقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ شديد الحر، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ إذا دخل أجوافهم. وقيل: إن قوله: ﴿كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أَي: كمن زَيَّنَ له سوء عمله ومن هو خالد في النار، فحذف الواو، كما يقال: قصدي فلان، شتمني ظلمي.



قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَقَتُهُمْ ﴿١٧﴾﴾ فَهَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا

(١) وفي نسختين «المرارة» بدل «المزاة». والمزاة: طعم بين الحموضة والحلاوة.

فَإِنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ﴿١٠﴾ .

● **القراءة:** روي في بعض الروايات عن ابن كثير: «أنفًا» بالقصر. والقراءة المشهورة:

«أنفًا» بالمد.

● **الحجة:** قال أبو علي: أنشد أبو زيد:

وَجَدْنَا آلَ مُرَّةٍ حِينَ خِفْنَا جَرِيرَتَنَا هُمُ الْأَنْفُ الْكَرَامَا
وَيَسْرُحُ جَارُهُمْ مِنْ حَيْثُ يُمَسِّي كَأَنَّ عَلَيْهِ مُؤْتَنَفًا حَرَامًا^(١)
أي: كأن عليه حرمة شهر مؤتنف حرام، فحذف. والأنف: الذين يأنفون من احتمال
الضيم. قال أبو علي: فإذا كان كذلك فقد جُمع فَعِلَ على فُعِلَ، لأن واحد أنف أنف، بدلالة
قول الشاعر:

وَحَمَّالُ الْمِئِينَ إِذَا أَلَمْتُ بِنَا الْحَدَثَانِ وَالْأَنْفُ النَّصُورُ^(٢)

وليس الأنف والأنف في البيتين مما في الآية في شيء، لأن ما في الشعر من الأنفة، وما
في الآية من الابتداء، ولم يسمع أنف في معنى ابتداء. ويجوز أن يكون توهمه ابن كثير، مثل:
حاذِرٌ وَحَذِرٌ، وفاكه وفكه، والوجه المد. والأنف: الجائي، من الائتلاف وهو الابتداء، فقوله:
«أنفًا» أي: في أول وقت يقرب منا.

● **اللغة:** الأهواء: جمع الهوى، وهو شهوة النفس، يقال: هوى يهوى هوى فهو هوى.
واستهواه هذا الأمر أي: دعاه إلى الهوى. والأشراط: العلامات. وأشراط فلان نفسه بالأمر: إذا
أعلمها بعلامة، قال أوس بن حجر:

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُغْصِمٌ وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا^(٣)

وواحد الأشراط شُرط، والشُرط بالتحريك: العلامة، وأشراط الساعة: علاماتها، والشُرط
أيضاً: رذال المال، قال جرير:

(١) مرة: بطن من قريش. والجريرة: الذنب، وهي مفعول خفنا. والأنف الكراما مفعول ثانٍ لوجدنا. والأنف: صفة
من أنف الشيء أي: استنكف وتزّه عنه. وفي المخطوطة «يمسي» بدل «يمشي» وهو الأنسب للمقام. المؤتنف:
المستأنف.

(٢) أَلَمْتُ أي: نزلت وجدّثان الدهر وحَدَثَانِه: نوابه. والنصور: مبالغة من الناصر.

(٣) الضمير في «فيها» راجع إلى الجبال. وأعصم: يجوز أن يكون من قولهم: أعصم الراكب إذا لم يثبت على الفرس.
وأن يكون من أعصم به إذا تمسك به. والأسباب: الأحوال. وتوكل عليه أي وثق. يصف رجلاً تدلى من رأس
الجبل ليقطع النبعة، لاتخاذ القوس منه.

تَرَى شَرْطَ الْمَعْزَى مُهُورٍ نِسَائِهِمْ وَفِي شَرْطِ الْمَعْزَى لَهُنَّ مُهُورٌ^(١)

وأصحاب الشرط: سموا بذلك للبسهم لباساً يكون علامة لهم. والشرط في البيع: علامة بين المتبايعين.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ أي: ومن الكافرين الذين تقدم ذكرهم من يستمع إلى قراءتك ودعوتك وكلامك، لأن المنافق كافر. ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني الذين آتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين. قال ابن عباس: أنا ممن أوتوا العلم بالقرآن. وعن الأصمغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال: إنا كنا عند رسول الله ﷺ، فيخبرنا بالوحي فأعياه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ عِيسَىٰ﴾ أي: أي شيء قال الساعة؟، وإنما قالوه استهزاء، أو إظهار أنا لم نشتغل أيضاً بوعيه وفهمه. وقيل: إنما قالوا ذلك لأنهم لم يفهموا معناه، ولم يعلموا ما سمعوه. وقيل: بل قالوا ذلك تحقيراً لقوله، أي: لم يقل فيه فائدة. ويحتمل أيضاً أن يكونوا سألوا رياء ونفاقاً، أي: لم يذهب عني من قوله إلا هذا، فماذا قال؟ أعده عليٌّ لأحفظه، وإنما قال: ﴿يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ ثم قال: ﴿خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ لأن في الأول رد الضمير إلى لفظة من، وفي الثاني إلى معناه، فإنه موحد اللفظ مجموع المعنى. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وسم قلوبهم بسمة الكفار، أو خلّى بينهم وبين اختيارهم، ﴿وَالْبَعَثَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: شهوات نفوسهم، وما مالت إليهم طباعهم، دون ما قامت عليه الحجة.

ثم وصف سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما سمعوا من النبي ﷺ ﴿زَادَهُمْ﴾ الله، أو قراءة القرآن، أو النبي ﷺ ﴿هُدًى﴾. وقيل: زادهم استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً لنبيهم ﷺ. ﴿وَوَاللَّهُمَّ تَقَوُّهُمْ﴾ أي: وفقهم للتقوى. وقيل معناه: وآتاهم ثواب تقواهم، عن سعيد بن جبير وأبي علي الجبائي. وقيل: بين لهم ما يتقون، وهو ترك الرُخص والأخذ بالعزائم. ﴿فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: فليس ينتظرون إلا القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، فقوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من ﴿السَّاعَةَ﴾. وتقديره: إلا الساعة إتيانها بغتة، والمعنى: إلا إتيان الساعة إياهم بغتة. ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها، قال ابن عباس: معالمها، والنبي من أشراطها، ولقد قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين». وقيل: هي أعلامها، من انشقاق القمر، والدخان، وخروج النبي ﷺ، ونزول آخر الكتب، عن مقاتل. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُنْ جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم الذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة؟ وموضع ﴿ذِكْرُهُمْ﴾ رفع مثله في قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾. ﴿وَأَن لَّهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: ليس تنفعه الذكرى، والذكرى: ما أمر الله سبحانه أن يتذكروا به، ومعناه: وكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة؟ فإنه لا ينفعهم في ذلك الوقت الإيمان والطاعات، لزوال التكليف عنهم.

(١) يذمهم بأنهم صعاليك مهور نساءهم من رذال المعزى، ومعروف أن المعزى من أموال الصعاليك، فيذم على ملكيتها. وأشد الذم إذا كان مهر نساء قوم من رذال المعزى.

ثم قال لنبيه ﷺ، والمراد به جميع المكلفين: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: أقم على هذا العلم واثبت عليه، واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن، ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»، أورده مسلم في «الصحيح». وقيل: إنه يتعلق بما قبله، على معنى: إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا إله إلا الله، أي: يبطل الملك عند ذلك، فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله. وقيل: إن هذا إخبار بموته ﷺ، والمراد: فاعلم أن الحي الذي لا يموت هو الله وحده. وقيل: إنه كان ضيق الصدر من أذى قومه، فقيل له: فاعلم أنه لا كاشف لذلك إلا الله. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ الخطاب له والمراد به الأمة، وإنما خوطب بذلك لتستن أمته بسترته. وقيل: إن المراد بذلك الانقطاع إلى الله تعالى، فإن الاستغفار عبادة يستحق به الثواب، وقد صحَّ الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال: «كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله، إني لأخشى أن يدخلني لساني في النار، فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أكرمهم الله سبحانه بهذا، إذ أمر نبيهم أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم.

ثم أخبر سبحانه عن علمه وأحوال الخلق وما لهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَوِّكُمْ﴾ أي: متصرفكم في أعمالكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار، عن ابن عباس. وقيل: يعلم متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم، أي: مقامكم في الأرض، عن عكرمة. وقيل: متقلبكم من ظهر إلى بطن، ومثواكم في القبور، عن ابن كيسان. وقيل: يعلم متقلبكم: متصرفكم في النهار، ومثواكم: مضجعكم بالليل. والمعنى: إنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

ثم قال سبحانه حكاية عن المؤمنين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلا نزلت، لأنهم كانوا يأنسون بنزول القرآن، ويستوحشون لإبطائه، ليعلموا أوامر الله تعالى وتعبده لهم. ﴿فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ ليس فيها متشابه ولا تأويل. وقيل: سورة ناسخة لما قبلها من إباحة التخفيف في الجهاد. قال قتادة: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. وقيل: ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ أي: مقرونة بوعيد يؤكد الأمر. كقوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُمْرِبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وقيل: «محكمة» بوضوح ألفاظها، وعلى هذا فالقرآن كله محكم. وقيل: هي التي تتضمن نصاً تأويله ولم يتعقبه نص. وفي قراءة ابن مسعود: «سورة محدثة» أي: مجددة: ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: وأُوجِبَ عليهم فيها القتال وأُمِرُوا به، ﴿رَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. قال الزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لثقل ذلك عليهم، وعظمه في نفوسهم. ﴿فَأَوَّلَ لَهْمَةٍ﴾ هذا تهديد ووعيد. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك، وليك وقازنك ما تكره. وقال قتادة: معناه: العقاب لهم والوعيد لهم، وعلى هذا يكون «أولى» اسماً للتهديد والوعيد، ويكون «أولى لهم» مبتدأ أو خبراً، ولا ينصرف «أولى» لأنه على وزن الفعل، وصار اسماً للوعيد. وقول الأصمعي

إن معناه: وليك ما تكره، لا يريد به أن «أولى» فعل، وإنما فسره على المعنى. وقيل معناه: أولى لهم طاعة الله ورسوله، وقول معروف بالإجابة، أي: لو أطاعوا فأجابوا كانت الطاعة والإجابة أولى لهم. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، واختيار الكسائي، فيكون على هذا: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ» متصلاً بما قبله، وكذلك لو كانت صفة لسورة، وتقديره: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة، وقول معروف، على ما قاله الزجاج، وعلى القول الأول يكون «طاعة» مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة وقول معروف أمثل أو أحسن، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: أمرنا طاعة، ويكون الوقف حسناً عند قوله: «فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ».



قوله تعالى: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾».

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «وَتَقَطَّعُوا» بفتح التاء والطاء وسكون القاف، والباقون: «وَتَقَطَّعُوا» بالتشديد وضم التاء وكسر الطاء. وقرأ أهل البصرة: «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» بضم الهمزة وفتح الياء، وفي رواية رويس عن يعقوب بسكون الياء. وقرأ الباقيون: «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» بفتح الهمزة واللام. وروي عن النبي ﷺ: «فهل عسيتم إن وليتم». وعن علي عليه السلام: «إن توليتم». قال أبو حاتم: معناه: إن تولاكم الناس.

● **الحجة:** حجة من قرأ: «وَتَقَطَّعُوا» بالتخفيف قوله تعالى: «وَيَقَطَّعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُؤَصِّلَ»، والتشديد للمبالغة. وقوله: «وَلْيَتَمَنَّوْا» من الولاية، وفيه دلالة على أن القراءة المشهورة «توليتم» معناه: توليتم الأمر. قال أبو علي: قال: انتظرته ملياً من الدهر، أي: متسعاً منه، صفة الاستعمل استعمال الأسماء. وقالوا: تمليت حبیباً، أي: عشت معه ملاوة من الدهر، وقالوا: الملوان، يريدون بهما تكرر الليل والنهار وطول مدتهما، قال:

نَهَارٌ وَلَيْلٌ دَائِمٌ مَلَّوْهُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ الْمَرْءُ يَخْتَلِفَانِ

فلو كان الليل والنهار لم يضافا إلى ضميرهما، من حيث لا يضاف الشيء إلى نفسه، ولكن كأنه يراد: تكرر الدهر واتساعه بهما. والضمير في «أَمْلَىٰ لَهُمْ» لاسم الله، كما قال: «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» كَيْدِي مَيِّنٌ فمن قرأ: «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» فبنى الفعل للمفعول به، فإنه يحسن في هذا الموضع للعلم بأنه لا يؤخر أحد مدة أحد، ولا يوسع له فيها إلا الله سبحانه.

● **المعنى:** «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ» قد ذكرنا أن فيه مذهبين:

أحدهما: أن يكون متصلاً بما قبله، وقد مر ذكره.

والآخر: أن يكون كلاماً مبتدأ، ثم اختلف في تقديره على وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ محذوف الخبر. ثم قيل: إن معناه: طاعة وقول معروف أمثل وأليق من أحوال هؤلاء المنافقين. وقيل معناه: طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد - عن الحسن.

والوجه الآخر: إنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: قولوا أمرنا طاعة وقول معروف، أي: حسن لا ينكره السامع، وهذا أمرٌ أمر الله به المنافقين، عن مجاهد. وقيل: هو حكاية عنهم أنهم كانوا يقولون ذلك، ويقتضيه قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ معناه: فإذا وجد الأمر، ولزم فرض القتال، وصار الأمر معزوماً عليه. والعزم: العقد على الأمر لأن يفعله، فإذا عقد العازم العزم على أن يفعله قيل: عزم الأمر على طريق البلاغة. وجواب «إذا» محذوف ويدل عليه قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وتقديره: فإذا عزم الأمر تكلموا وكذبوا فيما وعدوا من أنفسهم، فلو صدقوا الله فيما أمرهم به من الجهاد، وامثلوا أمره، لكان لهم في دينهم وديارهم من نفاقهم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ يا معشر المنافقين ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ معناه: إن توليتم الأحكام ووليتم، أي: جعلتم ولاية أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشاء، وسفك الدم الحرام، فيقتل بعضكم بعضاً، ويقطع بعضكم رحم بعض، كما قتلت قريش بني هاشم، وقتل بعضهم بعضاً. وقيل: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتفسدوا بقتل بعضكم بعضاً. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن القرآن؟ ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ ثم ذم الله سبحانه من يريد ذلك، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّ أَبْصَرَهُمْ﴾ ومعناه: إنهم لا يعون الخبر، ولا يبصرون ما به يعتبرون، فكانهم صم عمي، عن أبي مسلم. وقيل: إنهم في الآخرة لا يهتدون إلى الجنة بمنزلة الأصم الأعمى في الدنيا، عن أبي علي الجبائي. ولا يجوز حملة على الصمم والعمى في الجارحة بلا خلاف، لأنهم لو كانوا كذلك لما ذموا على أنهم لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما أطلق الصمم لأنه لا يكون إلا في الأذن، وقرن العمى بالأبصار، لأنه قد يكون بالبصر وبالقلب. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ بأن يتفكروا فيه، ويعتبروا به. وقيل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ فيقصوا ما عليهم من الحق، عن أبي عبد الله عليه السلام وأبي الحسن موسى عليه السلام. ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ معنى تنكير. القلوب: إرادة قلوب هؤلاء، ومن كان مثلهم من غيرهم. وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع، وفيه تنبيه أيضاً على فساد قول من يقول: إن الحديث ينبغي أن يروى على ما جاء، وإن كان مخالفاً لأصول الديانات في المعنى، لأنه سبحانه دعا إلى التدبر والتفكير؛ وذلك مناف للتعامي والتجاهل.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا عن الحق والإيمان ﴿يَمِزْ بِمَدِّ مَا بَيْنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، أي: من بعد ما بان لهم طريق الحق، وهم المنافقون، عن ابن

عباس والضحاك والسدي، كانوا يؤمنون عند النبي ﷺ ثم يظهرون الكفر فيما بينهم، فتلك ردة منهم. وقيل: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بمحمد ﷺ وقد عرفوه، ووجدوا نعته مكتوباً عندهم، عن قتادة. وليس في هذا دلالة على أن المؤمن قد يكفر، لأنه لا يمتنع أن يكون المراد من رجع في باطنه عن الإيمان بعد أن أظهره، وقامت الحجة عنده بصحته. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زَيَّنَ لَهُمْ خطاياهم، عن الحسن. وقيل: أعطاهم سؤلهم وأمنيتهم إذ دعاهم إلى ما يوافق مرادهم وهواهم، عن أبي مسلم. ﴿وَأَمَّا لَهُمْ﴾ أي: طَوَّلَ لَهُمْ أمَلهم فَاغْتَرَوْا بِهِ. وقيل: أوهمهم طول العمر مع الأمن من المكار، وأبعد لهم في الأمل والأمنية.



قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكُةُ يَصْرِيْوْنَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «إسراهم» بالكسر، والباقون: «أسراهم» بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «إسراهم» أنه لما كان مصدراً أُفرد ولم يجمع، ويقوي الأفراد قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ فكما أُفرد السر ولم يجمع كذلك قال: «إسراهم». ومن فتح الهمزة جعله جمع: سر، فكأنه جمع لاختلاف ضروب السر، وجميع الأجناس يحسن جمعها مع الاختلاف. وقد جاء سرهم في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ على ما عليه معظم المصادر، لأنه يتناول جميع ضروبه، فأفرد مرة وجمع أخرى.

● **اللغة:** الأضغان: جمع الضغن وهو الحقد. واللحن: أصله إزالة الكلام عن جهته، ثم إنه يستعمل على وجهين: في الصواب والخطأ:

أما في الصواب: فمعناه: الكناية عن الشيء، والعدول عن الإفصاح عنه، قال الشاعر:

ولقد وحيْتُ لَكُمْ لكيلا تَفْطَنُوا وَلَحْنْتُ لَحْنًا لَيْسَ بِالمُرْتَابِ

وقيل: اللحن: هي الفطنة وسرعة الفهم، والفعل منه: لحن يلحن فهو لحن إذا فطن. ومنه الحديث: «لعل أحدكم يكون ألحن بحجته من بعض» أي: أفطن لها وأعرض بها. ومنه قول الشاعر:

منطقٌ صائبٌ، وتَلَحَّنُ أخيانا، وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْنًا

وإنما يسمى التعريض: لَحْنًا، لأنه ذهاب بالكلام إلى خلاف جهته، ومنه قول عمر: تعلموا اللحن كما تتعلمون القرآن.

وأما في الخطأ: فإن اللحن إزالة الإعراب عن جهته، والفعل منه: لحن يلحن فهو لاحن.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم، ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التسويل والإملاء ﴿يَأْتِيَهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من القرآن وما فيه من الأمر والنهي والأحكام. والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهم بنو أمية، كرهوا ما نزل الله في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام. ﴿سَطِطُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: نفعل بعض ما تريدونه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما أسره بعضهم إلى بعض من القول، وما أسروه في أنفسهم من الاعتقاد ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: فكيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم. وإنما حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم في ذلك الوقت. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ على وجه العقوبة لهم. ثم ذكر سبحانه سبب نزول ذلك الضرب فقال: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسْتَحْطَ اللَّهُ﴾ من المعاصي التي يكرهها الله ويعاقب عليها، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: سبب رضوانه من الإيمان وطاعة الرسول ﴿فَأَحْطَ﴾ الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ التي كانوا يعملونها من صلاة وصدقة وغير ذلك، لأنها في غير إيمان.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ أي: أحقادهم على المؤمنين، ولا يبدي عوراتهم للنبي صلى الله عليه وسلم. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ بأعيانهم يا محمد حتى تعرفهم، وهو قوله: ﴿فَلَتَرَفُنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بعلاماتهم التي ننصبها لك لكي تعرفهم بها. ﴿وَلَتَرَفُنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: وتعرفهم الآن في فحوى كلامهم، ومعناه ومقصده ومغزاه، لأن كلام الإنسان يدل على ما في ضميره. وعن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول: بغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ببغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وروي مثل ذلك عن جابر ابن عبد الله الأنصاري، وعن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور^(١) أولادنا بحب علي عليه السلام، فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشدة^(٢). وقال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول الله بعد هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها.



قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(١) باره: جزيه واختبره.

(٢) الرشدة بالفتح وتكسر: ضد الزينة، يقال «ولد لرشدة».

الرَّسُولَ وَلَا يُطِلُّوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو بكر: «وليبلونكم» وما بعده بالياء، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، والباقون: بالنون. وقرأ يعقوب: «وتبَلُّو» ساكنة الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الياء أن قبله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ» واسم الغيبة أقرب إليه من لفظ الجمع، فحمل على الأقرب. ووجه النون قوله: «وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ».

● **اللغة:** يقال: وتره يتره وترأ: إذا نقصه، ومنه الحديث: «فكأنه وتر أهله وماله»، وأصله: القطع، ومنه الثرة: القطع بالقتل، ومنه الوتر: المنقطع بانفراده عن غيره.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه، فقال: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ» أن نعاملكم بما نكلفكم به من الأمور الشاقة ﴿حَقَّقْ نَعْلَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: حتى يتميز المجاهدون في سبيل الله من جملةكم، والصابرون على الجهاد. وقيل معناه: حتى يعلم أوليائنا المجاهدين منكم، وأضافه إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً، كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يؤذون أولياء الله. وقيل معناه: حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأن الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك. ﴿وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نختبر أسراركم بما تستقبلونه من أفعالكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: امتنعوا عن اتباع دين الله ومنعوا غيرهم عن اتباعه (١) تارة، وبالإغواء أخرى. ﴿وَسَأَقُوا الرَّسُولَ﴾ أي: عاندوه وعادوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم أنه الحق، وعرفوا أنه رسول الله ﷺ. ﴿لَنْ يَصْرَوْا اللَّهَ﴾ بذلك ﴿شَيْئاً﴾ وإنما ضروا أنفسهم ﴿وَسَيُخِطِّطُ اللَّهُ﴾ أي: أعملهم، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً. وفي هذه الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كانوا قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه فلم يقبلوه عناداً، وهم المنافقون. وقيل: إنهم أهل الكتاب ظهر لهم أمر النبي ﷺ فلم يقبلوه. وقيل: هم رؤساء الضلالة جحدوا الهدى طلباً للجاه والرياسة، لأن العناد يضاف إلى الخواص.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بتوحيده ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بتصديقه. وقيل: أطيعوا الله في حرمة الرسول، وأطيعوا الرسول في تعظيم أمر الله، ﴿وَلَا تُطِلُّوا أَعْمَلَكُمْ﴾ بالشك والنفاق، عن عطاء. وقيل: بالرياء والسمعة، عن الكلبي. وقيل: بالمعاصي والكبائر، عن الحسن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مضى معناه. ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: أصروا على الكفر حتى ماتوا على كفرهم، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبداً، لأن لفظ لن للتأييد. ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي: ولا تتوانوا ولا تضعفوا عن القتال ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفار إلى المسالمة والمصالحة، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم القاهرون الغالبون، عن مجاهد. وقيل: إن الواو للحال، أي: لا

تدعوهم إلى الصلح في الحال التي تكون الغلبة لكم فيها. وقيل: إنه ابتداء إخبار من الله عن حال المؤمنين لأنهم الأعلون، يداً ومنزلة، آخر الأمر، وإن غلبوا في بعض الأحوال. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصرة على عدوكم ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثوابها، بل يثيبكم عليها ويزيدكم من فضله، عن مجاهد. وقيل معناه: لن يظلمكم، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْزِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦) **إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَضْغَنْكُمْ** (٣٧) **هَآتَنَ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ** (٣٨).

● **القراءة:** في بعض الروايات عن أبي عمرو: «ويُخْرِجُ» بالرفع، والمشهور عنه وعن الجميع: «ويُخْرِجُ» بالجرم.

● **الحجة:** وهذا يكون على استئناف الكلام، أي: وهو يخرج أضغانكم على كل حال.

● **اللغة:** الإحفاء: الإلحاح في السؤال حتى ينتهي إلى مثل الحفاء والمشي بغير حذاء، يقال: أحفاه بالمسألة يحفيه إحفاء. وقيل: الإحفاء بالمسألة الإلطاف فيها، عن أبي مسلم. والبخل: هو منع الواجب، وقيل: هو منع النفع الذي هو أولى في العقل، عن علي بن عيسى.

● **الإعراب:** ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ﴾ إنما قَدَّمَ المخاطب. على الغائب، لأن الابتداء بالأقرب - مع أنه المفعول الأول - أولى. وتقول: إن يسألها جماعتكم، لأنه غائب مع غائب، فالتصل أولى بأن يلي الفعل من المنفصل، وقال: ﴿هَآتَنَ هَؤُلَاءِ﴾ كَرَّرَ التنبيه في الموضعين للتأكيد و﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَؤُلَاءِ﴾ بدل منه، و﴿تَدْعُونَ﴾ خبر المبتدأ.

● **المعنى:** ثم حَضَّ الله سبحانه على طلب الآخرة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾ أي: سريعة الفناء والانقضاء، ومن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً. قال الحسن: الذي خلقها هو أعلم بها. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معاصيه ﴿يُؤْزِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ أي: جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ كلها في الصدقة، وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم، عن سفيان ابن عيينة والجبائي. وقيل: لا يسألكم أموالكم، لأن الأموال كلها لله، فهو أملك لها وهو المنعم بإعطائها. وقيل: لا يسألكم الرسول على أداء الرسالة أموالكم أن تدفعوها إليه. ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ﴾ أي: يُجهدكم بمسألة جميعها ﴿تَبَخَّلُوا﴾ بها فلا تعطوها، أي: إن يسألكم جميع ما في أيديكم تبخلوا. وقيل: فيحفكم، أي: فيلطف في السؤال، بأن يعد عليه الثواب الجزيل، عن أبي مسلم. ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَنْكُمْ﴾ أي:

ويظهر بغضكم وعداوتكم لله ورسوله، ولكنه فرض عليكم ربع العشر. قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج أضغان، وهي الأحقاد التي في القلوب، والعداوات الباطنة. ﴿هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: ما فرض عليهم في أموالهم، أي: إنما تُؤْمَرُونَ بإخراج ذلك وإنفاقه في طاعة الله، ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلْ﴾ بما فُرضَ عليه من الزكاة، ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه يحرمها مثوبة جسيمة ويلزمها عقوبة عظيمة، وهذه إشارة إلى أن معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ، فبخله بخل على نفسه، وذلك أشد البخل. قال مقاتل: إنما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه. وقيل معناه: فإنما يبخل بداع عن نفسه يدعو إلى البخل، فإن الله تعالى نهى عن البخل وذمه، فلا يكون البخل بداع من جهته. ﴿وَاللَّهُ أَلْفَيْ﴾ عما عندكم من الأموال ﴿وَأَنْتُمْ أَلْفُفَرَّةٌ﴾ إلى ما عند الله من الخير والرحمة، أي: لا يأمركم بالإنفاق لحاجته، ولكن لتنتفعوا به في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تعرضوا عن طاعته وعن أمر رسوله ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أمثل وأطوع لله منكم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ بل يكونوا خيراً منكم وأطوع لله. وروى أبو هريرة أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ وكان سلمان إلى جنب رسول الله ﷺ، فضرب يده على فخذه سلمان، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناولوه رجال من فارس». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن تتوبوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم، يعني الموالي. وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قد - والله - أبدل بهم خيراً منهم الموالي.

سُورَةُ الْفَتْحِ

مدنية/آياتها (٢٩)

● عدد آياتها: تسع وعشرون آية بالاجماع.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا شَهِدَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَتَحَ مَكَّةَ». وفي رواية أخرى: «فَكَأَنَّمَا كَانَ مَعَ مَنْ بَايَعَ مُحَمَّدًا ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ». عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال: «نَزَلَتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ سُورَةُ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَأَخَّرُ﴾». أوردته البخاري في الصحيح. قتادة عن أنس قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، إذ أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا. عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية، فجعلت ناقته تثقل فتقدمنا، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فأدركنا رسول الله ﷺ وبه من السرور ما شاء الله، فأخبر أنها أنزلت عليه. عبد الله بن بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ التَّلَفِ بِقِرَاءَةِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مِمَّنْ يَدْمَنُ قِرَاءَتَهَا، نَادَاهُ مَنَادٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْمَعَ الْخَلَائِقُ: أَنْتَ مِنْ عِبَادِي الْمَخْلُصِينَ، الْحَقُّوهُ بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِي، فَاسْكُنُوهُ جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَأَسْقُوهُ الرِّحِيقَ الْمَخْتُومَ بِمَزَاجِ الْكَافُورِ».

● تفسيرها: ختم الله تلك السورة بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، وَمِنْ غِنَاهُ أَنَّهُ فَتَحَ لِنَبِيِّهِ ﷺ مَا احتاج إليه في دينه ودنياه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلَ رِجْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا غَيْرِيًّا ③ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤.

● اللغة: الفتح: ضد الإغلاق، وهو الأصل، ثم استعمل في مواضع، فمنها: الحكم والقضاء. ويسمى الحاكم فتاحاً، والفتاحة: الحكومة. ومنها: النصر، والاستفتاح: الاستنصار، ومنها: فتح البلدان، ومنها: العلم. وقوله: ﴿وَعِنْدُكَ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ من ذلك.

● المعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء ظاهراً، عن قتادة. وقيل معناه:

سورة الفتح

يَسْرُنَا لَكَ يَسْرًا بَيْنًا، عَنْ مَقَاتِلٍ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَعْلَمْنَاكَ عِلْمًا ظَاهِرًا فِيمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الدِّينِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَرَشَدْنَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفَتَحْنَا لَكَ أَمْرَ الدِّينِ، عَنْ الزَّجَاجِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي هَذَا الْفَتْحِ عَلَى وَجْهِهِ:

أحدها: إن المراد به فتح مكة، وعدهُ الله ذلك عام الحديبية عند انكفائه منها، عن أنس وقتادة وجماعة من المفسرين. قال قتادة: نزلت هذه الآية عند مرجع النبي ﷺ من الحديبية، بشر في ذلك الوقت بفتح مكة، وتقديره: إنا فتحنا لك مكة، أي: قضينا بك بالنصر على أهلها. وعن جابر قال: ما كنا نعلم فتح مكة إلا يوم الحديبية.

وثانيها: إن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية، وكان فتحاً بغير قتال. قال الفراء: الفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق. والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مُتَعَذِّراً حتى فتحه الله. وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فكثر بهم سواد الإسلام. وقال الشعبي: بويح بالحديبية، وذلك بيعة الرضوان، وأطعم نخل خيبر، وظهرت الروم على الفرس، وفرح المسلمون بظهور أهل الكتاب، وهم الروم، على المجوس، إذ كان فيه مصداق قول الله تعالى: إِنَّهُمْ سَيُغْلِبُونَ، ﴿يَبْلُغُ الْأَمَدُ حِلَّةً﴾. والحديبية: بئر، روي أنه نفذ ماؤها فظهر فيها من أعلام النبوة ما اشتهرت به الروايات. قال البراء بن عازب: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فما ترك منها قطرة. فبلغ ذلك إلى النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض، ودعا ثم صبه فيها وتركها. ثم إنها أصدرتنا نحن وركابنا. وفي حديث سلمة بن الأكوع: إما دعا وإما بزق فيها فجاشت، فسقينا وأسقينا. وعن محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة^(١) أن رسول الله ﷺ خرج لزيارة البيت لا يريد حرباً، فذكر الحديث، إلى أن قال^(٢) رسول الله ﷺ: أنزلوا، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء، فأخرج رسول الله ﷺ من كنانته سهماً فأعطاه رجلاً من أصحابه، فقال: انزل في بعض هذه القلوب فاغرزه في جوفه. ففعل، فجاش بالماء الرواء، حتى ضرب الناس بعطن. وعن عروة وذكر خروج النبي ﷺ قال: وخرجت قريش من مكة، فسبقوه إلى بلدح وإلى الماء، فنزلوا عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه قد سبق، نزل على الحديبية وذلك في حر شديد، وليس فيها إلا بئر واحدة. فأشفق القوم من الظم والقوم كثير، فنزل فيها رجال يمتحونها، ودعا رسول الله ﷺ بِدَلْوٍ من ماء فتوضأ^(٣) ومضمض فاه، ثم مَجَّ فيه وأمر أن يصب في البئر. ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر، فدعا الله تعالى ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتها. وروى سالم بن أبي الجعد قال:

(٣) في بعض النسخ: فتوضأ من الدلو.

(١) محزمة خ ل.

(٢) [قال].

قلت لجابر: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة. وذكر عطشاً أصابهم، قال: فأتى رسول الله ﷺ بماء في تَوْرٍ، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا وسعنا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا، كنا ألفاً وخمسمائة.

ثالثها: إن المراد بالفتح هنا فتح خيبر، عن مجاهد والعوفي. وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري كان أحد القراء، قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون الأباغر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا نُوجِف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم. فلما اجتمع الناس إليه قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ السورة. فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح. فقُسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحد إلا من شهدها.

ورابعها: إن الفتح على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهرة، وإعلاء كلمة الإسلام. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قد قيل فيه أقوال، كلها غير موافق لما يذهب إليه أصحابنا! أن الأنبياء معصومون من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها.

فمنها: إنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة، وما تأخر عنها.

ومنها: قولهم: ما تقدم الفتح، وما تأخر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، على الوعد بأنه يغفره له إذا وقع.

ومنها: قولهم: ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعوتك. والكلام في ذنب آدم كالكلام في ذنب نبينا ﷺ، ومن حمل ذلك على الصغائر التي تقع محبطة عندهم، فالذي يبطل قولهم: إن الصغائر إذا سقط عقابها وقعت مكفرة، فكيف يجوز أن يَمُنَّ الله سبحانه على نبيه ﷺ بأن يغفرها له، وإنما يصح الامتنان والتفضل منه سبحانه بما يكون له المؤاخذه به، لا بما لو عاقب به لكان ظالماً عندهم، فوضح فساد قولهم. ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل:

أحدهما: إن المراد: لغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشقاعتك، وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته. ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: سأله رجل عن هذه الآية، فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام، ما تقدم من ذنبهم وما تأخر. وروى عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله سبحانه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قال: ما كان له ذنب، ولا هم بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعة ثم غفرها له.

والثاني: ما ذكره المرتضى - قدس الله روحه - أن الذنب مصدر، والمصدر يجوز إضافته

سورة الفتح

إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد: ما تقدّم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام. ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل: الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه، أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة، بما يفتح لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاء على جهاده، وغرضاً في الفتح ووجهاً له. قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تَعْلَقُ لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه. وأما قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدّم زمانه، من فعلهم القبيح بك ويقومك. وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخرى:

منها: إن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك.

ومنها: إن المراد بالذنب هناك ترك المندوب، وحسّن ذلك، لأن من المعلوم أنه ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه، ما لو وقع من غيره لم يُسَمَّ ذنباً، لعلو قدره ورفعة شأنه.

ومنها: إن القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب، كما قيل في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾. وهذا ضعيف، لأن العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء.

وقوله: ﴿وَوَيْتَرُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ﴾ معناه: يتم نعمته عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك، وإعلاء أمرك، ونصرة دينك، وبقاء شرعك، وبالأخرة برفع محللك. فإن معنى إتمام النعمة: فعل ما يقتضيها، وتبقيتها على صاحبها، والزيادة فيها. وقيل: يتم نعمته عليك بفتح خبير ومكة والطائف. ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: ويثبتك على صراط يؤدي بسالكه إلى الجنة. ﴿وَنُصْرَتُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾: النصر العزيز: هو ما يمتنع به من كل جبار عنيد، وعات مرید. وقد فعل ذلك بنبيه ﷺ إذ صير دينه أعز الأديان، وسلطانه أعظم السلطان.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي أن يفعل الله بهم اللطف الذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحق ما تسكن إليه نفوسهم، وذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلة الدالة عليه، فهذه النعمة التامة، للمؤمنين خاصة. وأما غيرهم فتضطرب نفوسهم لأول عارض من شبهة ترد عليهم، إذ لا يجدون برد اليقين وروح الطمأنينة في قلوبهم. وقيل: هي النصر للمؤمنين، لتسكن بذلك قلوبهم ويثبتوا في القتال. وقيل: هي ما أسكن قلوبهم من التعظيم لله ولرسوله. ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم بما يرون من الفتوح، وعُلُو كلمة الإسلام على وفق ما وعدوا. وقيل: ليزدادوا تصديقاً بشرائع الإسلام، وهو أنهم كلما أمرُوا بشيء من الشرائع والفرائض كالصلاة والصيام والصدقات، صدّقوا به، وذلك بالسكينة التي أنزلها الله في قلوبهم، عن ابن عباس. والمعنى: ليزدادوا معارف على المعرفة الحاصلة عندهم. ﴿وَلِلَّهِ جُحُودُ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة والجن والإنس والشیاطن، عن ابن عباس. والمعنى: إنه لو شاء لأعانكم بهم، وفيه بيان أنه لو شاء لأهلك المشركين، لكنه عالم بهم وبما يخرج من أصلاهم، فأمرهم لعلمه وحكمته، ولم يأمر بالقتال عن عجز واحتياج، لكن لِيُعْرَضَ

المجاهدين لجزيل الثواب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فكل أفعاله حكمة وصواب، ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تقديره: إنا فتحنا لك ليغفر لك الله، إنا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّاتٍ﴾، ولذلك لم يدخل واو العطف في «ليدخل» إعلاماً بالتفصيل. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين مؤبدين لا يزول عنهم نعيمها ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: عقاب معاصيهم التي فعلوها في دار الدنيا. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾ أي: ظفراً يعظم الله به قدره.



قوله تعالى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَوْفَى فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا (١٠).

● **القراءة:** قد بينا اختلافهم في «السوء» في سورة التوبة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ليؤمنوا» وما بعده بالياء. وقرأ الباقون: بالتاء. وقرأ أهل العراق: «فسيؤتيه» بالياء، والباقون: بالنون. وفي الشواذ قراءة الجحدري: «وتعزروه» بفتح التاء وضم الزاي مُحَقَّقًا.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الياء أنه لا يقال: لتؤمنوا بالله ورسوله^(١). وهو الرسول، فإذا لم يسهل ذلك كانت القراءة بالياء «ليؤمنوا». ومن قرأ بالتاء فعلى قوله لهم: إنا أرسلناك إليهم شاهداً لتؤمنوا. وحجة الياء في «فسيؤتيه» قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَوْفَى﴾ على تقديم ذكر الغيبة. وزعموا أن في حرف عبد الله «فسوف يؤتيه الله». والنون على الانصراف من الأفراد إلى لفظ الكثرة.

وقال ابن جني: من قرأ: «تعزروه» فالمعنى: تمنعوه وتمنعوا دينه ونبيه، فهو كقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ أي: إن تنصروا دينه، فهو على حذف المضاف. وأما «تعزروه» بالتشديد: فتمنعوا منه بالسيف، عن الكلبي. وعزرت فلاناً: فحمت أمره، ومنه: عزرة اسم رجل، ومنه: عندي التعزير للضرب دون الحد، وذلك أنه لم يبلغ به ذل الحد الكامل، فكانه محاسنة فيه. قال أبو حاتم: وقرأ بعضهم: «تعزروه» أي: تجعلوه عزيزاً.

● **المعنى:** لما تقدّم الوعد للمؤمنين عقبه سبحانه بالوعيد للكافرين، فقال: ﴿وَيَعَذِّبُ﴾ الله ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الشرك. فالنفاق: إصرار الكفر

سورة الفتح

وإظهار الإيمان. أخذ من نافقاء اليربوع، وهو أن يجعل لسربه بائين، يُظهر أحدهما ويخفي الآخر، فإذا أتى من الظاهر خرج من الآخر. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وهم الذين يعبدون مع الله غيره ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَنَ السَّوءَ﴾ أي: يتوهمون أن الله ينصرهم على رسوله، وذلك سوء، أي: قبيح، والسوء: المصدر، والسوء الاسم. وقيل: هو ظنهم أن النبي ﷺ لا يعود إلى موضع ولادته أبداً. وقيل: هو ظنهم أن لن يبعث الله أحداً، ومثله: ﴿وَلَنَنْتَظِرَنَّ ظَنَنَ السَّوءَ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ أي: يقع عليهم العذاب والهلاك، والدائرة: هي الراجعة بخير أو شر. وقال حميد بن ثور:

ودائرات الدهر أن تدورا

وقيل: إن من قرأ بالضم: فالمراد دائرة العذاب، ومن قرأ بالفتح: فالمراد ما جعله للمؤمنين من قتلهم وغنيمة أموالهم. ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يجعلهم فيها ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مآلاً ومرجعاً ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما كرر لأن الأول متصل بذكر المؤمنين، أي: فله الجنود التي يقدر أن يعينكم بها، والثاني: متصل بذكر الكافرين، أي: فله الجنود التي يقدر على الانتقام منهم بها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَظِيْبًا﴾ في قهره وانتقامه ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله وقضائه.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ﴾ شَهِدًا ﴿عَلَى أَمْتِكَ﴾ بما عملوه من طاعة ومعصية وقبول ورد، أو شاهداً عليهم بتبليغ الرسالة ﴿وَمُشْرِكًا﴾ بالجنة لمن أطاع، ﴿وَزَيْبِرًا﴾ من النار لمن عصى. ثم بين سبحانه الغرض بالإرسال، فقال: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ من قرأ «ليؤمنوا» بالياء، فالمعنى: ليؤمن هؤلاء الكفار بالله ﴿وَرُسُلِهِ﴾ وتقرؤهُ ﴿أَي: تنصروه بالسيف واللسان، والهاء تعود إلى النبي ﷺ﴾ ﴿وَتُؤَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظموه وتبجلوه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتصلوا^(١) بالغداة والعشي. وقيل معناه: وتنزهوه عما لا يليق به. وكثير من القراء اختاروا الوقف على ﴿وَتُؤَقِّرُوهُ﴾ لاختلاف الضمير فيه وفيما بعده. وقيل: وتعزروه، أي: وتنصروا الله وتوقروه. أي: وتعظموه وتطيعوه، كقوله: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. وعلى هذا فتكون الكنايات متفقة. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر أن الله سبحانه يريد من الكفار الكفر، لأنه صرح هنا أنه يريد من جميع المكلفين الإيمان والطاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ المراد بالبيعة هنا بيعة الحديبية، وهي بيعة الرضوان، بايعوا رسول الله ﷺ على الموت. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ﴾ يعني أن المبايعة معك تكون مبايعة مع الله، لأن طاعتك طاعة الله. وإنما سميت بيعة لأنها عُقدت على بيع أنفسهم بالجنة، للزومهم في الحرب النصر. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عقد الله في هذه البيعة فوق عقدهم، لأنهم بايعوا الله ببيعة نبيه ﷺ، فكانهم بايعوه من غير واسطة، عن السدي. وقيل معناه: قوة الله في نصره نبيه ﷺ فوق نصرتهم إياه، أي: ثق بنصرة الله لك لا بنصرتهم وإن بايعوك، عن ابن كيسان.

وقيل: نعمة الله عليهم بنبيه ﷺ فوق أيديهم بالطاعة والمبايعة، عن الكلبي. وقيل: يد الله بالثواب وما وعدهم على بيعتهم من الجزاء فوق أيديهم بالصدق والوفاء، عن ابن عباس. ﴿فَمَنْ تَكُنَّ﴾ أي: نقض ما عقد من البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْتَكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: يرجع ضرر ذلك النقض عليه، وليس له الجنة ولا كرامة، عن ابن عباس ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾ أي: ثبت على الوفاء ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ من البيعة ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً.



قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنِينَ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّبَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «ضُرًّا» بضم الضاد، «يبدلوا كلم الله» بغير ألف، والباقون: «ضَرًّا» بالفتح، «كلام الله» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: الضَّرُّ: خلاف النفع، وفي التنزيل: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. والضَّرُّ: سوء الحال، وفي التنزيل: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾. هذا الأبين في هذا الحرف عندي. ويجوز أن يكونا لغتين في معنى، كالفقر والفقر، والضعف والضعف. ومن قرأ: «كلام الله» فوجهه أنه قيل فيهم: لن تخرجوا معي أبداً، فخصَّ الكلام بما كان مفيداً وحديثاً، فقال: كلام الله. ومن قرأ: «كلم الله» قال: الكلم قد يقع على ما يقع عليه الكلام وعلى غيره، وإن كان الكلام بما ذكرنا أخص. ألا ترى أنه قال: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فإنما هو - والله أعلم - ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وما يتصل به.

● **اللغة:** المخلف: هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد، وهو مشتق من الخلف، وضده: المقدم. والأعراب: الجماعة من عرب البادية. وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب، فرَّقوا بينهما وإن كان اللسان واحداً. والبور: الفاسد الهالك، وهو مصدر لا يُنْتَى ولا يُجْمَع، يقال: رجل بورٌ، ورجال بورٌ، قال:

سورة الفتح

يا رسولَ الملِكِ إِنَّ لسانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
وقال حسان:

لا يَنْفَعُ الطَّوْلُ مِنْ ثُوكِ الْقُلُوبِ وَقَدْ يَهْدِي الْإِلَٰهَ سَبِيلَ الْمَغْشَرِ الْبُورِ

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن تخلف عن نبيه ﷺ فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي: الذين تخلفوا عن صحبتك في وجهتك وعمرتك، وذلك أنه لما أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة إلى الخروج معه، وهم: غفار وأسلم ومزينة وجهينة وأشجع والدُّئل، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو بصد. وأحرم بالعمرة وساق معه الهدى، ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتناقل عنه كثير من الأعراب، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه؟ فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل، فقال سبحانه: إنهم يقولون لك إذا انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلف عنك ﴿سَعَلَتْنَا أَمْوَالَنَا وَأَقْلُونَا﴾ عن الخروج معك ﴿فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾ في قعودنا عنك. فكذبهم الله تعالى فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ كذبهم في اعتذارهم بما أخبر عن ضمائرهم وأسرارهم، أي: لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أم لا. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أي: فمن يمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً أو نفعاً، أو غنيمة، عن ابن عباس. وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، أو يعجل لهم النفع، بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم سبحانه أنه إن أراد بهم شيئاً من ذلك، لم يقدر أحد على دفعه عنهم ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي: عالماً بما كنتم تعملون في تخلفكم.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: ظننتم أنهم لا يرجعون إلى من خلفوا بالمدينة من الأهل والأولاد، لأن العدو يستأصلهم ويصطليهم^(١). ﴿وَرَبَّتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم وسوِّله لكم، ﴿وَلَقَدْ ظَنَّ الْأَنبِيَاءُ فِي هَٰذَا مِنْ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، فَصَارَ مُعْجِزاً لَّنَبِيِّنَا ﷺ﴾. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى لا تصلحون لخير، عن مجاهد. وقيل: قوماً فاسدين، عن قتادة ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تسعُرهم وتحرقهم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ ذُنُوبَهُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذا استحق العقاب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ظاهر المعنى. ثم قال:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني هؤلاء ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَقَانِرَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني غنائم خيبر، ﴿ذَرُونَا تَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: اتركونا نجىء معكم، وذلك أنهم لما انصرفوا من عام الحديبية بالصلح وعدهم الله سبحانه فتح خيبر، وخص بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: ذرونا نتبعكم، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: مواعيد الله لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة، أرادوا تغيير ذلك بأن

(١) وفي بعض النسخ: «يصطلمهم».

يشاركوهم فيها، عن ابن عباس. وقيل: يريد أمر الله لنبية ألا يسير معه منهم أحد، عن مقاتل. ﴿قُلْ لَنْ تَنصِرُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قال الله بالحديبية قبل خيبر، وقبل مرجعنا إليكم، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية لا يشركهم فيها غيرهم، هذا قول ابن عباس ومجاهد وابن إسحاق وغيرهم من المفسرين.

وقال الجبائي: أراد بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ تَنصِرُونَا﴾ مَعَى أَبَدًا وَلَكِنْ تَقْتُلُونَا مَعَى عَدُوًّا. وهذا غلط فاحش، لأن هذه السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية، في سنة ست من الهجرة، وتلك الآية نزلت في الذين تخلفوا عن تبوك، وكانت غزوة تبوك بعد فتح مكة، وبعد غزوة حنين، والطائف، ورجوع النبي ﷺ منها إلى المدينة، ومقامه ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم تهيأ في رجب للخروج إلى تبوك، وكان منصرفه من تبوك في بقية رمضان، من سنة تسع من الهجرة. ولم يخرج ﷺ بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله تعالى، فكيف تكون هذه الآية مرادة بقوله: ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾، وقد نزلت بعده بأربع سنين؟ لولا أن العصية ترين على القلوب.

ثم قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: فسيقول المخلفون عن الحديبية لكم إذا قلت هذا: لم يأمركم الله تعالى به، بل أنتم تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة، فقال سبحانه: ليس الأمر على ما قالوه ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق وما تدعونهم إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا فقها قليلا، أو شيئا قليلا. وقيل معناه: إلا القليل منهم وهم المعاندون.



قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩﴾ وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: «ندخله» و«نعذبه» بالنون، والباقون: بالياء. وهما في المعنى سواء.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبية ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ﴾ فيما بعد ﴿إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم هوازن

سورة الفتح

وحنين، عن سعيد بن جبير وعكرمة. وقيل: هم هوازن وثقيف، عن قتادة. وقيل: هم ثقيف، عن الضحاك. وقيل: هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، عن الزهري. وقيل: هم أهل فارس، عن ابن عباس. وقيل: هم الروم، عن الحسن وكعب. وقيل: هم أهل صفين أصحاب معاوية. والصحيح أن المراد بالداعي في قوله: ﴿سَدَّعُونَ﴾ هو النبي ﷺ، لأنه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، وقتال أقوام ذوي نجدة وشدة، مثل أهل حنين، والطائف، وموثة، إلى تبوك، وغيرها. فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد وفاته. ﴿فَقَتِلُواْهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ معناه: إن أحد الأمرين لا بد أن يقع لا محالة، وتقديره: أو هم يسلمون، أي يقرون بالإسلام ويقبلونه. وقيل: ينقادون لكم، وفي حرف أبي: أو يسلموا، وتقديره: إلى أن يسلموا. وفي النصب دلالة على أن ترك القتال من أجل الإسلام إذا وقع. ﴿فَإِنْ تَطِيعُواْ﴾ أي: فإن تجيبوا إلى قتالهم ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: جزاءً صالحاً. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن القتال وتقعّدوا عنه ﴿كَأَمْ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الخروج إلى الحديبية ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ أي: ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد، والأعمى: الذي لا يبصر بجارحة العين. ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد أيضاً. قال مقاتل: عذّر الله أهل الزمانة والآفات الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ معناه: في الأمر بالقتال ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن أمر الله وأمر رسوله فيقعد عن القتال ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني بيعة الحديبية، وتسمى: بيعة الرضوان لهذه الآية. ورضا الله سبحانه عنهم هو إرادته تعظيمهم وإثابتهم. وهذا إخبار منه سبحانه أنه رضي عن المؤمنين إذ بايعوا النبي ﷺ في الحديبية تحت الشجرة المعروفة، وهي شجرة السمرة. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من صدق النية في القتال والكرهية له، لأنه بايعهم على القتال، عن مقاتل. وقيل: ما في قلوبهم من اليقين والصبر والوفاء ﴿فَأَنزَلَ الْسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي اللطف القوي لقلوبهم والطمأنينة، ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر، عن قتادة وأكثر المفسرين. وقيل: فتح مكة، عن الجبائي ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني غنائم خيبر، فإنها كانت مشهورة بكثرة الأموال والعقار. وقيل: يعني غنائم هوازن بعد فتح مكة، عن الجبائي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ أي: غالباً على أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله، ولذلك أمر بالصلح وحكم للمسلمين بالغنيمة، ولأهل الخيبر بالهزيمة.

ثم ذكر سبحانه سائر الغنائم التي يأخذونها فيما يأتي من الزمان، فقال: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ مع النبي ﷺ، ومن بعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني غنيمة خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر، وحاصر أهلها، هُمّت قبائل من أسد وغطفان أن يُغَيِّرُوا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة، فكفّ الله أيديهم عنهم، بإلقاء الرعب في قلوبهم. وقيل: إن مالك بن عوف، وعيينة بن حصين مع بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة اليهود من خيبر، فخذف الله الرعب في قلوبهم وانصرفوا. ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾

الغنيمة التي عجلها لهم ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك، حيث وعدهم أن يصيبوها فوق المخبّر على وفق الخبر. ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: ويزيدكم هدى بالتصديق بمحمد ﷺ، وما جاء به مما ترون من عدة الله في القرآن بالفتح والغنيمة.

● **قصة فتح الحديبية:** قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة، فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته، وزجرها فلم تنزجر، وبركت الناقة، فقال أصحابه: خلّات الناقة. فقال ﷺ: ما هذا لها عادة، ولكن حبسها حابس الفيل. ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة، ليأذنوا له بأن يدخل مكة، ويحل من عمرته، وينحر هديه، فقال: يا رسول الله، مالي بها حميم، وإني أخاف قريشاً لشدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني، عثمان بن عفان. فقال: صدقت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشرف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، مُعظماً لحرمة، فاحتبسته قريش عندها. فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة، فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة فاستند إليها، وباع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يَفِرُّوا. قال عبد الله بن معقل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم، وييدي غصن من السمرة أذُب عنه، وهو يبايع الناس، فلم يبايعهم على الموت، وإنما بايعهم على ألا يفروا.

وروى الزهري، وعروة بن الزبير، والمسور بن مخرمة^(١) قالوا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، قلّد رسول الله ﷺ الهدى، وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش. وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط، قريباً من عُسفان أتاه عينة الخزاعي، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش^(٢)، وجمعوا جموعاً، وهم قاتِلوك أو مقاتلوك، وصادوك عن البيت. فقال ﷺ: رُوحوا، فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالثنية، بركت راحلته، فقال ﷺ: ما خلّات القصواء ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها فوثبت به، قال: فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرّضه الناس تبرّضاً^(٣)، فشكوا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك، إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

(١) وفي بعض النسخ «محزمة».

(٢) جمع الأحبوش والأحبوشة أي: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.

(٣) تبرض الماء: أخذه قليلاً قليلاً من ههنا، ولهنا.

سورة الفتح

فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم. فإن شاءوا ما دونهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمعوا^(١). وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذ الله تعالى أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وإنه يقول كذا وكذا، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي: محمد، أرايت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تمكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى أشاباً من الناس خلقاء أن يفروا ويدعوك.

فقال له أبو بكر: امصص نظر اللات، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟ قال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا ترجع إليك، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي: غدر ولست أسعى في غدرتك. قال: وكان المغيرة صاحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضعاً ثاروا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له. قال: فرجع عروة إلى أصحابه، وقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد! إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئه، فإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتة، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها. فبعثت له، واستقبله القوم يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتة، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ:

(١) في بعض النسخ: «جتموا» وفي المخطوطة «حموا».

هذا مكرز، وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي ﷺ، فيينا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: قد سَهِّلَ عليكم أمركم.

فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال رسول الله: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: إني لرسول الله وإن كذبتُموني. ثم قال لعلي عليه السلام: امح رسول الله، فقال: يا رسول الله، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة، فأخذ رسول الله فمحاها.

ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قديم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله. ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله. وإن بيننا عيبة مكفولة^(١)، وإنه لا إسلال ولا إغلال. وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فتواثبت خراعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

فقال رسول الله ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف، فقال سهيل: والله ما تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاءنا ممن معك لم نرده عليك. فقال المسلمون: سبحان الله؟! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فقال رسول الله ﷺ: من جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً.

فقال سهيل: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل، خرجنا عنها لك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب، وسلاح الراكب. وعلى أن هذا الهدى حيث ما حبسناه محله، لا تقدمه علينا. فقال: نحن نسوق وأنتم تردون!

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف^(٢) في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض بالكتاب بعد، قال: والله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: فأجره لي. فقال: ما أنا بمجير له لك. قال: بلى فافعل. قال: ما

(٢) رَسَفَ يرسف رَسْفًا: مشى مشي المقيّد.

(١) وفي بعض النسخ مكفوفة.

سورة الفتح

أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجرناه. قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أَرَدُ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عَذَّبَ عذاباً شديداً.

فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذٍ، فأُتيت النبي ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله؟ فقال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نعط الدنيا في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟ قال: بلى، أفأخبرتكم أن نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به، فحضر رسول الله ﷺ بدنة، فدعا بحالقه فحلق شعره، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَتُ مُهْجِرَتِ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: وحدثني بريدة بن سفيان، عن محمد بن كعب أن كاتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، فجعل علي ﷺ يتلأأ، ويأبى أن يكتب إلا محمداً رسول الله، فقال رسول الله: فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد. فكتب ما قالوا. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلا يأكلان من تمر لهم. قال أبو بصير لأحد الرجلين: وإني لأرى سيفك هذا جيداً جداً، فاستله وقال: أجل، إنه لجيد، وجربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرّ الآخر حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. قال: فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد أوفى الله ذمتك ورددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد! فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت عليه عصابة. قال: فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل ﷺ إليهم فأتوه.

● **قصة فتح خيبر:** ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية، مكث بها عشرين ليلة، ثم خرج منها غادياً إلى خيبر. ذكر ابن إسحاق بإسناده عن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريباً منها وأشرفنا عليها، قال رسول الله ﷺ: قفوا، فوقف الناس، فقال: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله.

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلاً شاعراً، فجعل يقول:
 لا همٌّ لولا أنت ما حَجَّينا^(١) ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا
 فاغفر فداءً لك ما افْتَنَّينا وَتُبَّتِ الأقدامُ إن لاقينا
 وأنزلنَّ سَكِينَةً عَلينا إنا إذا صِيحَ بنا أتينا
 وبالصُّباحِ^(٢) عَوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هذا السابق^(٣)؟ قالوا: عامر. قال: يرحمه الله. قال عمر وهو على جمل له وجيب: يا رسول الله! لولا أمتعتنا به، وذلك أن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد، قالوا: فلما جد الحرب وتضافَّ القوم، خرج يهودي وهو يقول:
 قد عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَنِي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مُجَرَّبٍ
 إِذَا الْحَرْبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَبُ
 فبرز إليه عامر وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَنِي عَامِرُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مُغَامِرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف اليهودي في ترس عامر، وكان سيف عامر فيه قصر، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر، فمات منه.
 قال سلمة: فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي فقلت: قالوا: إن عامراً بطل عمله، فقال: من قال ذلك؟ قلت: نفر من أصحابك، فقال: كذب أولئك بل أوتي من الأجر مرتين.

قال: فحاضرناهم حتى أصابتنا مخضمة شديدة، ثم إن الله فتحها علينا، وذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يُجَبِّئُهُ أَصْحَابُهُ وَيُجَبِّئُهُمْ. وكان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، فقال حين أفاق من وجعه: ما فعل الناس بخيبر؟ فأخبر. فقال: «لَأُعْطِيَنَّ الرَايَةَ غَدًا رَجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَرَارًا غَيْرَ فَرَارٍ، لَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ».

وروى البخاري ومسلم، عن قتيبة عن سعيد قال: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني، عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، قال: فبات الناس يدوكون^(٤) بجملتهم، أيهم يُعْطَاهَا. فلما أصبح الناس، غدوا على رسول

(٣) وفي بعضها السابق.

(١) وفي نسخة: ما اهدتنا.

(٤) أي: يخوضون، ويموجون، ويختلفون.

(٢) وفي بعضها: وبالصباح.

سورة الفتح

الله ﷺ، كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، وعاد له فبراً كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: «قد علمت خير أني مرحب» الأبيات.

فبرز له علي عليه السلام وهو يقول:

أنا الذي سَمَّئني أُمي حَيْدَرَة كَلَيْثٍ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمَنْظَرَة
أَوْفِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَة^(١)

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله. وكان الفتح على يده. أوردته مسلم في «الصحيح».

وروى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن رافع^(٢) مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي عليه السلام حين بعثه رسول الله ﷺ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضر به رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باب الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده. فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما استطعنا أن نقلبه.

وإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: حدثني جابر بن عبد الله أن علياً عليه السلام حمل الباب يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه فاقتمحوها، وإنه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً. قال: وروي من وجه آخر عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

وإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان علي عليه السلام يلبس في الحر والشتاء القباء المحشو الثخين، وما يبالي الحر، فأتاني أصحابي فقالوا: إنا رأينا من أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً، فهل رأيت؟ فقلت: وما هو؟ قالوا: رأينا يخرج علينا في الحر الشديد في القباء المحشو الثخين، وما يبالي الحر، ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد، فهل سمعت في ذاك شيئاً؟ فقلت: لا. فقالوا: فسل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه. فسألته فقال: ما سمعت في ذلك شيئاً، فدخل على علي عليه السلام فسمر معه، ثم سأله عن ذلك، فقال: أو ما شهدت^(٣) خيبر؟ قلت: بلى، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ حين دعا أبا بكر فعقد له، ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم، ثم جاء بالناس وقد هُزِمَ؟ فقال: بلى، قال: ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم فقاتلهم، ثم رجع وقد هُزِمَ. فقال رسول

(١) ضرب من الكيل جراف، والمعنى: أقتلكم قتلاً واسعاً كبيراً.

(٢) [أبي رافع] بدل «رافع» وهو الصحيح.

(٣) وفي المخطوطة: «أو ما شهدت معنا خيبر».

الله ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَايَةَ الْيَوْمَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، كَرَارًا غَيْرَ فَرَارٍ». فدعاني فأعطاني الراية، ثم قال: اللهم اكفه الحر والبرد، فما وجدت بعد ذلك حرًا ولا بردًا. وهذا كله منقول من كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي.

ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً، ويحوز الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيط والسلاط، وكان آخر حصون خيبر، افتتح وحاصره رسول الله ﷺ بضعة عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق: ولما افتتح القموص حصن ابن أبي الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حبي بن أخطب، وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي معها صفية صاحت وصكّت وجهها، وحثت التراب على رأسها. فلما رآها رسول الله ﷺ قال: أغربوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت^(١) خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه. وقال لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال؟ حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟ وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمرًا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمدًا، ولطم وجهها لطمه أخضرت عينها منها، فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها، فسألها رسول الله ﷺ ما هو؟ فأخبرته، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: انزل فأكلمك. قال: نعم، فنزل وصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأهلها بذرايرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين من كان لهم من مال وأرض، على الصفراء والبيضاء، والكراع والحلقة^(٢)، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان. وقال رسول الله ﷺ: فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتمتموني شيئاً، فصالحوه على ذلك، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال، ففعل. وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أحد بني حارثة.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت أموال خيبر فيثاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، هي ابنة أخي مرحب، شاة مصلية، وقد سألت: أي: عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ، فقيل لها: الذراع. فأكثر فيها السم، وسمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه

(٢) وفي بعض النسخ: الخلفة.

(١) وفي المخطوطة: فجرت.

تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة، وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور، فتناول عظماً فانتهش منه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، فإن كتف هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة. ثم دعاها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحمت منه. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

قال: ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله ﷺ تَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوْفِي فِيهِ، فقال ﷺ: يا أم بشر ما زالت أكلة خبير التي أكلت بخبير مع ابنك تعاودني^(١)، فهذا أوان قطعت أبهري^(٢). وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة.



قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١) وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَر ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُكُمْ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُتْصِبْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥).

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: «بما يعملون» بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه قول أبي عمرو: وكان الله بما عمل الكفار من كفرهم، وصدكم عن المسجد الحرام، ومنعكم من دخوله بصيراً، فيجازي عليه. ووجه التاء: الخطاب قد جرى للقبيلتين في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾، فالخطاب لتقدم هذا الخطاب.

● **اللغة:** التبديل: رفع أحد الشئين وجعل الآخر مكانه، فيما حُكِمَ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، وَلَوْ رَفَعَ اللَّهُ حُكْمًا إِلَى خِلَافِهِ لَمْ يَكُنْ تَبْدِيلًا لِحُكْمِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَرْفَعُ شَيْئًا إِلَّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقْتَضِي الْحُكْمَ رَفْعُهُ فِيهِ. والمعكوف: الممنوع من الذهاب في جهة بالإقامة في مكانه،

(١) وفي الحجري «تعاذني».

(٢) الأبهري: عرق مستبطن الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه.

ومنه الاعتكاف: وهو الإقامة في المسجد للعبادة. وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً: إذا قام عليه. والمعرة: الأمر القبيح المكروه، يقال: عرَّ فلانٌ فلاناً: إذا شانه وألحق به عيباً، وبه سمي الجرب: عُرّاً، والعذرة: عرة.

● **الإعراب:** ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، والمعنى: سن الله خذلانهم سنة. وموضع ﴿أَنْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ رفع، بدل من ﴿رِجَالٌ﴾ والمعنى: لولا أن تطأوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات. ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا﴾ الآية، والتقدير^(١): وطء رجال ونساء، أي: قتلهم، وهو بدل الاشتمال، مثل: نفعتني عبد الله علمه، وأعجبتني الجارية حسنهما.

ويجوز أن يكون موضع ﴿أَنْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ نصباً على البديل من الهاء والميم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، والتقدير: ولولا رجال ونساء لم تعلموا أن تطؤوهم، أي: لم تعلموا وطأهم، وهو بدل الاشتمال أيضاً.

وقوله: ﴿لَنْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ في موضع رفع صفة لرجال ونساء، وجواب «لولا» يغني عنه جواب «لو» في قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِي مَعَكُمْ﴾ عطف على الكاف والميم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾، أي: صدوكم وصدوا الهدي، و﴿مَعَكُمْ﴾ حال. وقوله: ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ تقديره: كراهة أن يبلغ، فحذف المضاف. وقيل: معكوفاً من أن يبلغ، فحذف من.

● **النزول:** سبب نزول قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الآية. أن المشركين بعثوا أربعين رجلاً عام الحديبية ليصيبوا من المسلمين. فأتى بهم إلى النبي ﷺ أسرى، فخلى سبيلهم، عن ابن عباس. وقيل: إنهم كانوا ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا من جبل التنعيم عند صلاة الفجر، عام الحديبية ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم، عن أنس. وقيل: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة وبين يديه عليٌّ صلوات الله عليه يكتب كتاب الصلح، فخرج ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فدعا عليهم النبي ﷺ، فأخذ الله تعالى بأبصارهم، فقمنا فأخذناهم فخلى سبيلهم، فنزلت هذه الآية، عن عبد الله بن المغفل.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم يعد النبي ﷺ والمؤمنين فتوحاً آخر، فقال: ﴿وَأُخْرَى لَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا﴾ معناه: ووعدكم الله مغنم أخرى لم تقدرُوا عليها بعد، فتكون ﴿وَأُخْرَى﴾ في محل نصب. وقيل معناه: وقرية أخرى لم تقدرُوا عليها قد أعدها الله لكم وهي مكة، عن قتادة. وقيل: هي ما فتح الله على المسلمين بعد ذلك إلى اليوم، عن مجاهد. وقيل: إن المراد بها فارس والروم، عن ابن عباس والحسن والجبائي قال: كما أن النبي ﷺ بشرهم كنوز كسرى وقيصر، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم وفتح مدائنهم، بل كانوا خولاً لهم، حتى قدرُوا عليها بالإسلام. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر الله عليها، وأحاط علماً بها، فجعلهم بمنزلة قوم قد أدير حولهم، فما يقدر أحد منهم أن يفلت. قال الفراء: أحاط الله

(١) وفي نسختين: لولا وطء.

سورة الفتح

بها لكم حتى يفتحها عليكم، فكأنه قال: حفظها عليكم ومنعها من غيركم حتى تفتحوها وتأخذوها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ من فتح القرى وغير ذلك ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش يوم الحديبية يا معشر المؤمنين، ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ﴾ منهزمين بنصرة الله إياكم، وخذلان الله إياهم، عن قتادة والجبائي. وقيل: الذين كفروا من أسد وغطفان الذين أرادوا نهب ذراري المسلمين. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَبَيْنَا وَلَا نَصِيرًا﴾ يواليههم وينصرهم ويدافع عنهم، وهذا من علم الغيب.

وفي الآية دلالة على أنه يعلم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون، وفي ذلك إشارة إلى أن المعدوم معلوم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنتي في أهل طاعتي وأهل معصيتي، أنصر أوليائي، وأخذل أعدائي، عن ابن عباس. وقيل معناه: هذه طريقة الله وعادته السالفة، أن كل قوم إذا قاتلوا أنبياءهم انهزموا وقتلوا. ﴿وَلَن يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ في نصرته رسلاً ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييراً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالرعب ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بالنهي ﴿بِطَن مَّكَّةَ﴾ يعني الحديبية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ذكر الله منته على المؤمنين بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتلوا، وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح، ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ مر تفسيره.

ثم ذكر سبحانه سبب منعه رسول الله ﷺ ذلك العام دخول مكة، فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا وتحلوا من عمرتكم، يعني قريشاً ﴿وَالَّذِينَ مَعَكُمْ﴾ أن يبلغ محلهم أي: صدوا الهدي، وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ معه، وكانت سبعين بدنة، حتى بلغ ذا الحليفة فقلد البدن التي ساقها وأشعرها، وأحوم بالعمرة حتى نزل بالحديبية ومنعه المشركون، وكان الصلح. فلما تم الصلح نحروا البدن، فلذلك قوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: محبوساً عن ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ أي: منحره، وهو حيث يحل نحره، يعني مكة، لأن هدي العمرة لا يذبح إلا بمكة، كما أن هدي الحج لا يذبح إلا بمنى. ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ يعني المستضعفين الذين كانوا بمكة بين الكفار من أهل الإيمان ﴿لَرَّ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بأعيانهم لاختلاطهم بغيرهم ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بالقتل وتوقعوا بهم ﴿فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ نَعْمَةً﴾ أي: إثم وجناية، عن ابن زيد. وقيل: فيلحقكم بذلك عيب يعيبكم المشركون بأنهم قتلوا أهل دينهم. وقيل: هو غرم الدية والكفارة في قتل الخطأ، عن ابن عباس. وذلك أنهم لو كبسوا مكة وفيها قوم مؤمنون، لم يتميزوا من الكفار لم يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين، فتلزمهم الكفارة، وتلحقهم السيئة بقتل من على دينهم. فهذه المعرة التي صان الله المؤمنين عنها. وجواب «لولا» محذوف، وتقديره: لولا المؤمنون الذين لم تعلموهم لو طأتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم. قوله: ﴿يَغْيَرُ عَلَيْهِمْ﴾ موضع التقديم، لأن التقديم، لولا أن تطأوهم بغير علم. وقوله: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ اللام متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام، تقديره: فحال بينكم وبينهم ليدخل الله في رحمته من يشاء، يعني من أسلم من الكفار بعد الصلح، وقيل: ليدخل

الله في رحمته أولئك بسلامتهم من القتل، ويدخل هؤلاء في رحمته بسلامتهم من الطعن والعيب. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميز المؤمنون من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالسيف والقتل بأيديكم، ولكن الله تعالى يدفع^(١) المؤمنين عن الكفار، فلحمة اختلاطهم بهم لم يعذبهم.



قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، عن ابن فليح، وابن ذكوان: «شَطَاء» بفتح الطاء، والباقون بسكونها. وقرأ ابن عامر: «فأزره» بقصر الهمزة، والباقون: «فأزره» بالمد. وفي الشواذ قراءة الحسن: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» بالنصب فيهما. وقراءة عيسى الهمداني: «شطاء» بالمد والهمزة، و«شطاء» أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: يشبه أن يكون: «شَطَاء». لغة في: شَطء. فيكون كالشَّمع والشمع والتَّهَر والتَّهَر. ومن خفف الهمزة في «شطاء» حذفها وألقى حركتها على الطاء، فقال: شَطَاء. قال أبو زيد: أشطأت الشجرة بغصونها: إذا أخرجت غصونها. أبو عبيدة أخرج شطاء: فراخه، وأشطأ الزرع فهو مشطىء: أي: مُفْرَخ. وأزره على فاعله معناه: ساواه، أي: صار مثل الأم، وفاعله الشطء، أي: آزرأ الشطء الزرع، فصار في طوله. قال امرؤ القيس:

بِمَخْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْثُهَا مُضِمُّ جِيوشِ غَانَمِينَ وَخَيْبٍ^(٢)

(١) وفي نسختين: «يدفع بالمؤمنين».

(٢) الضال من السدر: ما كان عذياً أي: لا يسقيه إلا المطر. والمحنية: معطف الوادي أي: في معطف وادٍ قد ساوى نبته شجر الضال، وهو مجمع جيوش بعضها غانم، وبعضها خائب من الغنيمة.

سورة الفتح

أي: ساوى نبتة الضال في قامته، لأنه لا يُرعى. ويجوز أن يكون فاعل آزر الزرع، أي: آزر الزرع الشطء، ومن الناس من يفسر «آزره»: أعانه وقواه، فعلى هذا يكون آزر الزرع الشطء. قال أبو الحسن: آزره أفعله وهو الأشبه، ليكون قول ابن عامر: «أزره» فعله، فيكون فيه لغتان: فَعَلَ وأَفْعَلَ، لأنهما كثيراً ما يتعاقبان على الكلمة. ومن قرأ: «أشداء» بالنصب، فهو نصب على الحال من «معه» أي: هم معه على هذا الحال.

● **اللغة:** الحمية: الأنفة والإنكار، يقال: فلان ذو حمية منكرة، إذا كان ذا غضب وأنفة. والكفار: الزراع هنا، لأن الزراع يغطي البذر، وكل شيء قد غطيته فقد كفرته، ومنه يقال لليل: كافر، لأنه يستر بظلمته كل شيء. قال:

أَلَقْتُ ذُكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ

وقال لبيد:

فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ الثُّجُومَ غَمَامُهَا

● **الإعراب:** ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ عطف بيان، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على ﴿مُحَمَّدٌ﴾. و﴿أَشِدَّاءُ﴾ خبر ﴿مُحَمَّدٌ﴾ وما عطف عليه. وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبره ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مبتدأ، وما بعده خبره ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ إن شئت كان في موضع الحال، وإن شئت كان خبراً بعد خبر، وإن شئت كان هو الخبر فيمن نصب ﴿أَشِدَّاءُ﴾، ويكون ﴿تَرْتَبُهُمْ﴾ أيضاً في موضع النصب مثل ﴿أَشِدَّاءُ﴾. ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ ابتداء وخبر، والكلام تام. ثم ابتداء فقال: ﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْجٍ أَخْرَجَ سَطَكُ﴾ فلهم مثلان: أحدهما في التوراة، والثاني في الإنجيل. وقال مجاهد: بل قوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ مع ما بعده جميعاً في التوراة والإنجيل، وكذلك قوله: ﴿كَزَرْجٍ أَخْرَجَ سَطَكُ﴾ في التوراة والإنجيل، فيكون قوله: ﴿كَزَرْجٍ﴾ خبر مبتدأ مضمّر، أي: هم كزرع أخرج شطأه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾: «إذ» يتعلق بقوله: ﴿لَعَذَابُ﴾ أي: لعذبنا الذين كفروا وأذنا لك في قتالهم، حين جعلوا في قلوبهم الأنفة التي تحمي الإنسان، أي: حميت قلوبهم بالغضب. ثم فسر تلك الحمية فقال: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: عادة آبائهم في الجاهلية ألا يدعنوا لأحد، ولا يتقادوا له، وذلك أن كفار مكة قالوا: قد قتل محمدٌ وأصحابه آباءنا وإخواننا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفسنا. واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم.

وقيل: هي أنفتهم من الإقرار لمحمد ﷺ بالرسالة، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، حيث أراد أن يكتب كتاب العهد بينهم، عن الزهري. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي قوله: لا إله إلا الله، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. ﴿وَكُنَّا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ قيل: إن فيه تقدماً وتأخيراً، والتقدير: كانوا أهلها وأحق

بها، أي: كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحق بها من المشركين. وقيل معناه: وكانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلها. وقيل: وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها، وقد يكون حق أحق من غيره، ألا ترى أن الحق الذي هو طاعة يستحق بها المدح، أحق من الحق الذي هو مباح لا يستحق به ذلك. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمًا﴾ لما ذم الكفار بالحمية، ومدح المؤمنين بلزوم الكلمة والسكينة، بين علمه ببواطن سرائرهم، وما ينطوي عليه عقد ضمائرهم.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ قالوا: إن الله تعالى أرى نبيه ﷺ في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: ما حللنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر أنه أرى رسول الله ﷺ الصدق في منامه، لا الباطل، وأنهم يدخلونه. وأقسم على ذلك، فقال: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ يعني العام المقبل ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ قال أبو العباس ثعلب: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الناس فيما لا يعلمون.

وقيل: إن الاستثناء من الدخول، وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة، وقد مات منهم أناس في السنة، فيكون تقديره: لتدخلن كلكم إن شاء الله، إذ علم الله أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لئلا يقع في الخبر خلف، عن الجبائي.

وقيل: إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن. فأما الدخول فلا شك فيه، وتقديره: لتدخلن المسجد الحرام آمنين من العدو إن شاء الله. فهذه الأقوال الثلاثة للبصريين.

وقيل: إن «إن» هنا بمعنى «إذ»، أي: إذ شاء الله حين أرى رسوله ذلك، عن أبي عبيدة. ومثله قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال معناه: إذ كنتم. وهذا القول لا يرتضيه البصريون.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محرمين يحلق بعضهم رأسه ويقصر بعض، وهو أن يأخذ بعض الشعر. وفي هذا دلالة على أن المحرم بالخيار عند التحلل من الإحرام، إن شاء حلق، وإن شاء قصر. ﴿لَا تَحْقُقُوا﴾ مشركاً ﴿فَعَلِمَ﴾ من الصلاح في صلح الحديبية ﴿مَا لَمْ تَقْلُمُوا﴾ وقيل: علم في تأخير دخول المسجد الحرام من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم، وهو خروج المؤمنين من بينهم. والصلح المبارك موقعه. ﴿فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من قبل الدخول ﴿فَتَمَّ قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خير، عن عطاء ومقاتل. وقيل: يعني صلح الحديبية.

عمرة القضاء: وكذلك جرى الأمر في عمرة القضاء في السنة التالية للحديبية، وهي سنة سبع من الهجرة في ذي القعدة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام، فخرج النبي ﷺ ودخل مكة مع أصحابه معتمرين، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى المدينة. وعن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ﷺ بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث العامرية، فخطبها عليه، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكان تحتها أختها أم الفضل بنت الحارث، فزوجها العباس رسول الله، فلما قدم رسول الله ﷺ أمر

سورة الفتح

أصحابه فقال: اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف ليرى المشركون جلدكم وقوتهم. فاستكف^(١) أهل مكة الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ متوشحاً بالسيف، يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صُحُفٍ تُثْلَى عَلَى رُسُولِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ يَا رَبِّ: إِنِّي مُؤْمِنٌ لِقِيلِهِ
إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ

ويشير بيده إلى رسول الله ﷺ، وأنزل الله في تلك العمرة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ وهو أن رسول الله ﷺ اعتمر الشهر الحرام الذي صُد فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمداً ﴿بِالْهُدَى﴾ أي: بالدليل الواضح والحجة الساطعة. وقيل: بالقرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا﴾ أي: ليظهر دين الإسلام بالحجج والبراهين على جميع الأديان. وقيل: بالغلبة والقهر والانتشار في البلدان. وقيل: إن تمام ذلك عند خروج المهدي عليه السلام، فلا يبقى في الأرض دين سوى دين الإسلام، ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ بذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ نص سبحانه على اسمه ليزيل كل شبهة. تم الكلام هنا. ثم أثنى على المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ قال الحسن: بلغ من تشدهم على الكفار أن كانوا يتحرزون من ثياب المشركين حتى لا تلتزق بشياهم، وعن أبدانهم حتى لا تمس أبدانهم، وبلغ تراحمهم فيما بينهم أن كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، ومثله قوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ﴿تَرْبَهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾ هذا إخبار عن كثرة صلواتهم ومداومتهم عليها. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: يلتمسون بذلك زيادة نعمهم من الله، ويطلبون مرضاته. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: علامتهم يوم القيامة أن تكون مواضع سجودهم أشد بياضاً، عن ابن عباس وعطية. قال شهر بن حوشب: يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر. وقيل: هو التراب على الجباه، لأنهم يسجدون على التراب لا على الأنواب، عن عكرمة وسعيد بن جبير وأبي العالية. وقيل: هو الصفرة والنحول، عن الضحاك. قال الحسن: إذا رأيتهم حسبته مريضاً وما هم بمريض. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من صلى الخمس. ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يعني أن ما ذكر من وصفهم هو ما وصفوا به في التوراة أيضاً.

ثم ذكر نعتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍّ أَخْرَجَ سَطَنَهُمْ﴾ أي: فراخه، عن الضحاك. وقيل: ليس بينهما وقف، والمعنى: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل جميعاً، عن

(١) استكف الناس حوله: أحاطوا به ينظرون إليه.

مجاهد. والمعنى: كمثل زرع أخرج شطأه، أي: فراخه. ﴿فَنَازِلُهُ﴾ أي: شدة وأعانه وقواه. وقال المبرد: يعني أن هذه الأفراخ لحقت الأمهات حتى صارت مثلها ﴿فَأَسْتَغْلَظَ﴾ أي: غلظ ذلك الزرع ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي: قام على قصبه وأصوله، فاستوى الصغار مع الكبار، والسوق: جمع الساق. والمعنى أنه تنهى وبلغ الغاية. ﴿يُجِبْ الزُّرَّاعَ﴾ أي: يروع ذلك الزرع الزراع، أي: الأكرة الذين زرعه. قال الواحدي: هذا مثل ضربه الله تعالى بمحمد وأصحابه، فالزرع محمد ﷺ، والشطء: أصحابه والمؤمنون حوله، وكانوا في ضعف وقلة كما يكون أول الزرع دقيقاً ثم غلظ وقوي وتلاحق. فكذلك المؤمنون قوى بعضهم بعضاً حتى استغلظوا واستووا على أمرهم. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ أي: إنما كثروهم الله وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين بتوافرهم وتظاهريهم واتفاقهم على الطاعة. ثم قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وعد من أقام على الإيمان والطاعة ﴿مِنْهُمْ مَّغْفِرَةً﴾ أي: سترأ على ذنوبهم الماضية ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً دائماً.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

مدنية/آياتها (١٨)

عن الحسن وقتادة وعكرمة، وعن ابن عباس، إلا آية قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

● عدد آياتها: ثمانى عشرة آية بالإجماع.

● فضلها: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحُجُرَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بَعْدَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاهُ». الْحُسَيْنُ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحُجُرَاتِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كَانَ مِنْ زُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

● تفسيرها: لما ختم الله سبحانه سورة الفتح بذكر نبيه ﷺ، افتتح هذه السورة أيضاً بذكره، وما يختص به من الإجلال والإعظام، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

● القراءة: قرأ يعقوب: «لا تُقدِّموا» بفتح التاء والdal، والباقون: «ولا تُقدِّموا» بضم التاء وكسر dal. وقرأ أبو جعفر: «الحُجُرَاتِ» بفتح الجيم، والباقون: بضمها.

● الحجة: قال ابن جني: معناه: لا تفعلوا ما تؤثرونه، وتركوا ما أمركم الله ورسوله به. وهذا معنى القراءة المشهورة «لا تُقدِّموا» أي: لا تقدموا أمراً على ما أمركم الله به، فالمفعول هنا محذوف كما ترى. ومن قرأ: «الحُجُرَاتِ» أبدل من الضمة فتحة استثقلاً لتوالي الضمتين، ومنهم من أسكن فقال: «الحُجُرَاتِ» مثل عضد وعضد، وقال أبو عبيدة: حُجُرَاتُ جَمْعِ حَجَرٍ، فهو جمع الجمع.

● اللغة: قَدَّمَ تقدِماً، وأقدم إقداماً، واستقدم وقدم كل ذلك بمعنى تقدم. والجهر:

ظهور الصوت بقوة الاعتماد، ومنه الجهارة في المنطق، وجاهر بالأمر مجاهرة، ويقال: جهاراً، ونقيض الجهر: الهمس. والحروف المجهورة تسعة عشر حرفاً يجمعها قولك: «أطلقن ضرغم عجز ظبي ذواد». وما عداه من الحروف مهموس، يجمعها قولك: «حث فسكت شخصه» والغض: الحط من منزلة على وجه التصغير، يقال: غض فلان: إذا صغر حالة من هو أرفع منه، وغض بصره: إذا أضعفه عن حدة النظر، قال جرير:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَغِبَا بَلَّغَتْ، وَلَا كِلَابَا

● الإعراب: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ في محل نصب، لأنه مفعول له، ويجوز أن يكون في محل جر باللام المقدرة، أي: لأن تحبط أعمالكم. وقيل تقديره: كراهة أن تحبط، أو حذار أن تحبط.

● النزول: نزل قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في وفد تميم: وهم عطارد بن حاجب بن زرارة، في أشراف من بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهمتم، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد، فأدى ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم، فقالوا: جئناك لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: قد أذنت. فقام عطارد بن حاجب وقال:

الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً، الذي له الفضل علينا، والذي وهب علينا أموالاً عظيماً، نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثر عدداً وعدة، فمن مثلنا في الناس؟ فمن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكننا نستحي من الإكثار. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه، فقام فقال:

الحمد لله الذي في السماوات والأرض خلقه، قضى فيه أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً، فأنزل الله عليه كتاباً واثمنه على خلقه، فكان خيرة الله على العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فأمن به المهاجرون من قومه، وذوي رحمته، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، فكان أول الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار رسول الله ﷺ ورذوه، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث^(١) جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشد، وأجابه حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع: إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى

(١) وفي نسخة: «مكث» بدل «نكث».

من أصواتنا. فلما فرغوا أجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وأسلموا، عن ابن إسحاق.

وقيل: إنهم أناس من بني العنبر، كان النبي ﷺ أصاب من ذراريهم، فأقبلوا في فدائهم، فقدموا المدينة، ودخلوا المسجد، وعجلوا أن يخرج إليهم النبي ﷺ، فجعلوا يقولون: يا محمد، اخرج إلينا، عن أبي حمزة الثمالي، عن عكرمة عن ابن عباس.

● **المعنى:** ﴿يَتَأْتِيَكَ أَتَيْنًا﴾ روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما سلت السيوف، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف، ولا جهر بأذان، ولا أنزل الله ﴿يَتَأْتِيَكَ أَتَيْنًا﴾ حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج. ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بين اليدين عبارة عن الأمام، لأن ما بين يدي الإنسان أمامه، ومعناه: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي. وقدم هنا بمعنى تقدم، وهو لازم. وقيل معناه: لا تقدموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذي أمر الله ورسوله به، حتى إنه قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها، عن الزجاج.

وقيل^(١): لا تُمكنوا أحداً يمشي أمام رسول الله ﷺ، بل كونوا تبعاً له، وأخروا أقوالكم وأفعالكم عن قوله وفعله.

وقال الحسن: نزل في قوم ذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة. وقال ابن عباس: نُهوا أن يتكلموا قبل كلامه، أي: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ، فستل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب، حتى يجيب النبي ﷺ أولاً. وقيل معناه: لا تسبقوه بقول ولا فعل حتى يأمركم به، عن الكلبي والسدي. والأولى حمل الآية على الجميع، فإن كل شيء كان خلافاً لله ورسوله، إذا فعل، فهو تقديم بين يدي الله ورسوله، وذلك ممنوع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا معاصيه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم فيجازيكم بها.

﴿يَتَأْتِيَكَ أَتَيْنًا﴾ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ لأن فيه أحد الشيثيين: إما نوع استخفاف به فهو الكفر، وإما سوء الأدب فهو خلاف التعظيم المأمور به. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبتكم إياه وفي مجلسه، فإنه ليس مثلكم، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه. وقيل معناه: لا تقولوا له: يا محمد، كما يخاطب بعضكم بعضاً، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل، وقولوا: يا رسول الله. ﴿أَنْ تَحْطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: كراهة أن تحبط أو تلتأ تحبط أعمالكم. وقيل: إنه في حرف عبد الله: «فتحبط أعمالكم» ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: وأنتم لا تعلمون أنكم أحبطتم أعمالكم بجهر صوتكم على صوته وترك تعظيمه.

قال أنس: لما نزلت هذه الآية، قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق

صوت رسول الله ﷺ، فأجهر له بالقول، حبط عملي وأنا من أهل النار، وكان ثابت رفيع الصوت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو من أهل الجنة. وقال أصحابنا: إن المعنى في قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أنه ينحبط ثواب ذلك العمل، لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك الوجه، استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب، فانحبط عملهم، فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية، ولأنه تعالى علّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل، وهم يُعلّقونه بالمستحق على العمل، وذلك خلاف الظاهر.

ثم مدح سبحانه من يُعْظَمُ رسوله ويوقّره، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم في مجلسه إجلالاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ أي: اختبرها فأخلصها للنقوى، عن قتادة ومجاهد. أخذ من امتحان الذهب بالنار إذا أذيب حتى يذهب غشه ويبقى خالصه. وقيل معناه: إنه علم خلوص نياتهم، لأن الإنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته. وقيل معناه: عاملهم معاملة المختبر بما تعبد بهم به من هذه العبادة، فخلصوا على الاختبار كما يخلص جَدُّ الذهب بالنار. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على طاعتهم.

ثم خاطب النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحُجُرَاتِ﴾ وهم الجفّة من بني تميم، لم يعلموا في أي: حجرة هو، فكانوا يطوفون على الحجرات وينادونه. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم الله سبحانه بالجهل وقلة الفهم والعقل، إذ لم يعرفوا مقدار النبي ﷺ، ولا ما استحقه من التوقير، فهم بمنزلة البهائم. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من أن ينادوك من وراء الحجرات، في دينهم بما يحرزونه من الثواب، وفي دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء، ليعدوا بذلك في زمرة العقلاء. وقيل معناه: لأطلقت أسراهم بغير فداء، فإن رسول الله ﷺ كان سبي قوماً من بني النضير، فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم، وفادى النصف، فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ لكنك تعتق. كلهم ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ رِيعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَلَاوَا أَلَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فأصلحوا بين إخوانكم» بالثاء على الجمع، وهو قراءة ابن سيرين، والباقون: «بين أخويكم» على التثنية لقوله: «طائفان». وفي الشواذ قراءة زيد بن ثابت والحسن: «إخوانكم» بالالف والنون على الجمع، وقد ذكرناه في سورة النساء اختلافهم في قوله: ﴿فَتَيَسَّرُوا﴾ والوجه في القراءتين. والمروي عن الباقر عليه السلام: «فتبشروا» بالثاء والتاء.

● **اللغة:** العنت: المشقة، يقال: عنت الدابة تعنت عنتاً، إذا حدث في قوائمها كسر بعد جبر لا يمكنها معه الجري. قال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد، يقال: فلان يعنت فلاناً، أي: يشدد عليه ويلزمه ما يصعب عليه. ثم نقل إلى معنى الهلاك. والقسط: العدل، ونحوه الإقساط والقسوط، والقسط بالفتح: الجور والعدول عن الحق، فأصل الباب: العدول، فمن عدل إلى الحق فقد أقسط، ومن عدل عن الحق فقد أقسط.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِيكُمْ﴾ عند النحويين، وفيه نظر، لأن من حق الخبر أن يكون الخبر مفيداً، فلا يقال: النار حارة، لعدم الفائدة، والوجه عندي أن يكون لو مع ما في حيزه خبر أن، والمعنى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِمْكُمْ﴾. ويجوز على الوجه الأول أن يكون المراد التنبيه لهم على مكان رسول الله ﷺ، كما يقول القائل للرجل يريد أن ينبّهه على شيء: فلان حاضر. والمخاطب يعلم حضوره، ولو قال: إن رسول الله ﷺ فيكم، احتمل أن يكون غير رسول الله فيهم ممن هو بمنزلته، فإذا قال: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لا يحتمل ذلك على هذا، فقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ لو مع ما في حيزه، في محل رفع بأنه خبر، أن، خبر بعد خبر. ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ﴾ مفعول له، والتقدير: فعل الله ذلك لكم فضلاً منه ونعمة. ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿أَلْزِمُوا﴾ وما فيه من الفعل، أي: رشداً وفضلاً من الله. وقوله: ﴿يَحْكُمُ﴾ و﴿يَاْعَدِلُ﴾ كلاهما في موضع نصب على الحال، والعامل في الأول ﴿تُصَيَّبُوا﴾ وفي الثاني ﴿فَأَصْلِحُوا﴾.

● **النزول:** قوله: ﴿إِن جَاءَكُمُ فَاسِقٌ﴾ نزل في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق، فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فظن أنهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال: إنهم منعوا صدقاتهم، وكان الأمر بخلافه، فغضب النبي ﷺ وهم لا يغزوه، فنزلت الآية، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقيل: إنها نزلت فيمن قال للنبي ﷺ: إن مارية أم إبراهيم يأتيها ابن عم لها قبطي، فدعا رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وقال: يا أخي، خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقته، فقال: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة، أمضي لما أمرتني، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال ﷺ: بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. قال علي عليه السلام: فأقبلت متوشحاً بالسيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما عرف أنني أريده أتى نخلة فرقى إليها، ثم رمى بنفسه على قفاه، وشغرت برجليه. فإذا أنه أجبّ أمسح، ما له مما للرجال

قليل ولا كثير. فرجعت فأخبرت النبي ﷺ، فقال: الحمد لله الذي يصرف عنا سوء أهل البيت.

وقوله: ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا﴾ نزل في الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسيف والنعال، عن سعيد بن جبير. وقيل: نزل في رهط عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج، ورهط عبد الله بن رواحة من الأوس، وسببه أن النبي ﷺ وقف على عبد الله بن أبي، فراث حمار رسول الله ﷺ، فأمسك عبد الله أنفه وقال: إليك عني، فقال عبد الله بن رواحة: لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ومن أبيك. فغضب قومه، وأعان ابن رواحة قومه، وكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ﴾ أي: بخبر عظيم الشأن. والفاسق: الخارج عن طاعة الله إلى معصيته. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ صدقه من كذبه، ولا تبادروا إلى العمل بخبره، ومن قال: «فتثبتوا» فمعناه: توقفوا فيه وتأناؤا حتى يثبت عندكم حقيقته، ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ﴾ أي: حذراً من أن تصيبوا قوماً في أنفسهم وأموالهم بغير علم بحالهم، وما هم عليه من الطاعة والإسلام، ﴿فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطأ ﴿تَذِيرًا﴾ لا يمكنكم تداركه.

وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل، لأن المعنى: إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقفوا فيه. وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه كاذباً في خبره. وقد استدل بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً، من حيث إن الله سبحانه أوجب التوقف في خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه، وهذا لا يصح، لأن دليل الخطاب لا يُعَوَّل عليه عندنا وعند أكثر المحققين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: فاتقوا الله أن تكذبوه، أو تقولوا باطلاً عنده، فإن الله تعالى يخبره بذلك فتفضحوا. وقيل معناه: واعلموا بما أخبره الله تعالى من كذب الوليد أن فيكم رسول الله ﷺ، فهذه إحدى معجزاته. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي: لو فعل ما يريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت، وهو الإثم والهلاك. فسمى موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً، ألا ترى أن الطاعة تراعى فيها الرتبة، فلا يكون الإنسان مطيعاً لمن دونه، وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به. ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون، فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ﴾ أي: جعله أحب الأديان إليكم، بأن أقام الأدلة على صحته، وبما وعد من الثواب عليه، ﴿وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بالأنطاف الداعية إليه، ﴿وَكَّرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ بما وصف من العقاب عليه بوجوه الأنطاف الصارفة عنه ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ أي: الخروج عن الطاعة إلى المعاصي ﴿وَالْمُصِيبَاتِ﴾ أي: جميع المعاصي. وقيل: الفسوق الكذب، عن ابن عباس وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. ثم عاد سبحانه إلى الخبر عنهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ يعني الذين وصفهم بالإيمان وزينه في قلوبهم، هم المهتدون إلى محاسن الأمور. وقيل: هم الذين أصابوا الرشd واهتدوا إلى الجنة، ﴿فَقَبَلْنَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَ﴾ أي: تفضلاً مني

سورة الحجرات

عليهم، ورحمة مني لهم، عن ابن عباس. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأشياء كلها ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر من وجوه:

منها: إنه إذا حَبَّبَ في قلوبهم الإيمان وكره الكفر، فمن المعلوم أنه لا يحبب ما لا يحبه ولا يكره ما لا يكرهه.

ومنها: إنه إذا ألطف في تحبيب الإيمان بالطفاه، دل ذلك على ما نقوله في اللطف. ثم قال:

﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ أي: فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه، ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يصطلحا، ولا دلالة في هذا على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، ولا يمتنع أن يفسق إحدى الطائفتين أو تفسقا جميعاً. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ بأن تطلب ما لا يجوز لها، وتقاتل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿فَقَاتِلُوا آلَئِى تَبَغَى﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الأخرى، ﴿حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى طاعة الله، وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي: رجعت وتابت وأقلعت، وأنابت إلى طاعة الله ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بينها وبين الطائفة التي هي على الإيمان ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط حتى يكونوا سواء، لا يكون من إحدهما على الأخرى جور ولا شطط فيما يتعلق بالضمانات من الأروش. ﴿وَأَقِطُوا﴾ أي: اعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين الذين يعدلون فيما يكون قولاً وفعلًا.

﴿إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين، يلزم نصرة بعضهم بعضاً. ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: بين رجلين تقاتلا وتخاصما، ومعنى الاثنين يأتي على الجمع، لأن تأويله: بين كل أخوين، يعني: فأنتم إخوة للمقاتلين، فأصلحوا بين الفريقين، أي: كفوا الظالم عن المظلوم، وأعينوا المظلوم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ترك العدل والإصلاح، أو في منع الحقوق ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا.

قال الزجاج: سمي المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم إخوة؛ لانفاقهم في الدين، ورجوعهم إلى أصل النسب، لأنهم لأم واحدة وهي حواء. وروى الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». أوردته البخاري ومسلم في صحيحيهما. وفي وصية النبي ﷺ لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «سِرْ مِيلاً عَدِ مَرِيضاً، سِرْ مِيلِينَ شَيْخَ جَنَازَةٍ، سِرْ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ أَجِبْ دَعْوَةَ، سِرْ أَرْبَعَةَ أَمْيَالٍ زُرْ أَخَا فِي اللَّهِ، سِرْ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ أَجِبْ دَعْوَةَ الْمَلْهُوفِ، سِرْ سِتَّةَ أَمْيَالٍ انصُرِ الْمَظْلُومَ، وَعَلَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ».

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَايقُ بِبَلٍّ﴾ بما قبله، أنه لما أمر بطاعة الله

ورسوله، يَبَيِّنُ عَقِيْبَهُ أَنْ الرِّسُولَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عِنْدَهُ. وَوَجْهَ اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنُ﴾ لثَلَا تَقْعُوا فِي الْعَنَتِ^(١)، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ ﴿لَكِنَّ﴾ لَا بَدَّ أَنْ يَتَقَدَّمَ نَفْيُ إِذَا كَانَ مَا بَعْدَهُ إِثْبَاتًا، وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ﴿لَعَنْتُمْ﴾ مَعْنَاهُ: إِنَّهُ لَمْ يَطْعَمَكُمْ فَمَا عَشْتُمْ.



قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَا وَكَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «لا يَأْتِكُمْ» بالألف، والباقيون: «لا يَلْتَكُم» بغير الألف.

● **الحجة:** قال أبو زيد: أَلْتَهُ حَقَّهُ يَأْلَتُهُ أَلْتَأَ: إِذَا نَقَصَهُ، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ: لَا تْ يَلِيْتُ لِيَتَأَ، وَيَقُولُ: لَيْتَ الرَّجُلُ أَلَيْتَهُ لِيَتَأَ: إِذَا عَمِيَّتْ عَلَيْهِ الْخَبَرُ فَأَخْبَرْتَهُ بِغَيْرِ مَا يَسْأَلُكَ عَنْهُ. قَالَ رُؤْبَةُ: وَلَيْلَةٍ ذَاتِ نَدَى سَرَيْتُ وَلَمْ يَلِثْنِي عَنْ سَرَاهَا لَيْتُ

وقوم يقولون: أَلَاتْنِي عَنْ حَقِّي، وَأَلَاتْنِي عَنْ حَاجَتِي، أَي: صَرَفْنِي عَنْهَا. وَحُجَّةٌ مِّن قَرَأَ: «لَا يَأْتِكُمْ» قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ﴾. وَمِن قَرَأَ: «يَلْتَكُم» جَعَلَهُ مِّن لَا تْ يَلِيْتُ.

● **اللغة:** الهمز واللمز: العيب والغضُّ مِنَ النَّاسِ، فَاللَّمَزُ: هُوَ الرَّمْيُ بِالْعَيْبِ لِمَنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوْذَىٰ بِذِكْرِهِ، وَهُوَ الْمُنْهَى عَنْهُ. فَأَمَّا ذِكْرُ عَيْبِ الْفَاسِقِ فَلَيْسَ بِالْمَزِّ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «قُولُوا فِي الْفَاسِقِ مَا فِيهِ كَيَّ يَحْذَرُهُ النَّاسُ». وَالنَّبَزُ: الْقَذْفُ بِاللُّقَبِ، يُقَالُ: نَبَزْتُهُ أَنْبَزَهُ. وَالْغَيْبَةُ: أَنْ تَذْكُرَ الْإِنْسَانَ مِنْ وَرَائِهِ بِسُوءٍ هُوَ فِيهِ، فَإِذَا ذَكَرْتَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ الْبُهْتُ وَالْبَهْتَانُ. وَالشُّعُوبُ: هُوَ الَّذِي يَصْغُرُ شَأْنُ الْعَرَبِ، وَلَا يَرَى لَهُمْ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِمْ، سَمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا﴾ عَلَى أَنَّ الشُّعُوبَ مِنَ الْعَجَمِ، كَالْقَبَائِلِ مِنَ الْعَرَبِ. وَقَالَ

(١) [بما قبله: إِنَّ قَوْلَهُ «لَعَنْتُمْ» بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقُولَ مَا عَشْتُمْ أَي: مَا عَشْتُمْ بِطَاعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ].

سورة الحجرات

أبو عبيدة: الشعوب العجم، وأصله من التشعب، وهو كثرة تفرقهم في النسب. ويقال: شَعَبَتْه جمعته، وشَعَبَتْه فرقته، وهو من الأضداد.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي، فيسمع ما يقول. فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس، فجلس خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة، ذكر أما له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه حياءً، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَلَا يَسَاءُ مِّن نِّسَاءٍ﴾ نزل في نساء النبي ﷺ، سخرن من أم سلمة، عن أنس. وذلك أنها ربطت حَقْوِيهَا بِسَبِيَّةٍ وهي ثوب أبيض، وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة: أنظري ماذا تجرُّ خلفها كأنه لسان كلب، فلهذا كانت سخريتهما. وقيل: إنها عَيَّرَتْهَا بالقصر وأشارت بيدها أنها قصيرة، عن الحسن.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّبْعُضًا﴾ نزل في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما، وهو سلمان، بعثاه إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام، فبعثه إلى أسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال: ما عندي شيء، فعاد إليهما فقالا: بخل أسامة، وقالا لسلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله، فقال لهما رسول الله ﷺ: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالوا: يا رسول الله، ما تناولنا يوماً هذا لحماً، قال: ظللتُم تأكلون لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية. وعن أبي قلابة قال: إن عمر بن الخطاب حَدَّثَ أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس. فقال عمر: ما يقول هذا؟ قال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين. قال: فخرج عمر وتركه. وخرج عمر بن الخطاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف، يعسّان. فتبينت لهما نار، فأتيا واستأذنا، ففتح الباب فدخلنا، فإذا رجل وامرأة تغني، وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال: وما في هذا القدح؟ قال: ماء، فقال للمرأة: ما الذي تغنين؟ قالت: أقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي أَلَا حَبِيبُ أَلَا عِبُّهُ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ وَالتَّقَى لَزَعَزَعَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ
وَلَكِنَّ عَقْلِي وَالْحَيَاءَ يَكْنِفْنِي وَأُكْرِمُ بَغْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَاكِبُهُ

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرْنَا يا أمير المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقال عمر:

صدقت وانصرف.

وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ قيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقوله للرجل الذي لم يتفصح له: ابن فلانة، فقال ﷺ: من الذاكر فلانة؟ فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: انظر في وجوه القوم، فنظر إليهم، فقال: ما رأيت يا ثابت؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، قال: فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى والدين. فنزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ الآية، عن ابن عباس. وقيل: لما كان يوم فتح مكة، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحرث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره لغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يخبره به رب السماوات. فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره بما قالوا، فدعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عما قالوا، فأقروا به، ونزلت الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والازدراء بالفقر، والتكاثر بالأموال، عن مقاتل.

● **المعنى:** لما أمر سبحانه بصلاح ذات البين، ونهى عن التفرق، عَقَّبَ ذلك بالنهي عن أسباب الفرقة من السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة ونحو ذلك، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ قال الخليل: القوم يقع على الرجال دون النساء، لقيام بعضهم مع بعض في الأمور. قال زهير:

وما أدري ولستُ أخالُ أدري أَقَوْمٌ أَلْ حِضْنِ أَمْ نِسَاء؟!

فالمعنى: لا يسخر رجال من رجال، والسخرية: الاستهزاء. قال مجاهد معناه: لا يسخر غني من فقير لفقره، وربما يكون الفقير المهيمن في ظاهر الحال، خيراً وأجل منزلة عند الله من الغني الحسن الحال، ولو سخر مؤمن من كافر احتقاراً له لم يكن مأثوماً. وقال ابن زيد: هذا نهى عن استهزاء المسلمين بمن أعلن بفسقه، عسى أن يكون المسخور عند الله خيراً من الساخر معتقداً، أو أسلم باطنياً. ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَائِهِ﴾ على المعنى الذي تقدم ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه إذا قتل أخاه قتل نفسه، عن ابن عباس وقتادة. واللمز: العيب في المشهد، والهمز: العيب في المغيب. وقيل: إن اللمز يكون باللسان وبالعين وبالإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. وقيل معناه: ولا يلعن بعضكم بعضاً، عن الضحاك. ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ جمع اللقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان. وقيل: هو كل اسم لم يوضع له، وإذا دعي به يكرهه، فأما إذا كان لا يسوءه ولا يكرهه فلا بأس فيه، مثل الفقيه والقاضي. وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا منافق، عن قتادة وعكرمة. وقيل: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد ذلك: يا يهودي، أو يا نصراني، فهوا عن ذلك، عن الحسن. وقيل: هو أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح ثم يتوب منه، فيعير بما سلف منه، عن ابن عباس.

وروى أن صفية بنت حيي بن أخطب جاءت إلى النبي ﷺ تبكي، فقال لها: ما وراءك؟

سورة الحجرات

فقالت: إن عائشة تعيرني وتقول: يهودية بنت يهوديين، فقال لها: هلا قلت: أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ﷺ. فنزلت الآية، عن ابن عباس.

﴿يَسْ أَلِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بشئ الاسم أن يقول له: يا يهودي، يا نصراني، وقد آمن، عن الحسن وغيره. والمعنى: بشئ الشيء تسميته باسم الفسوق، يعني الكفر بعد الإيمان. وقيل معناه: بشئ الشيء اكتساب اسم الفسوق باغتيال المسلمين ولمزهم، وهذا لا يدل على أن اسم^(١) الإيمان والفسق لا يجتمعان، لأن هذا كما يقال: بشئ الحال الفسوق بعد الشيب. والمعنى: بشئ الحال الفسوق مع الشيب، وبشئ الاسم الفسوق مع الإيمان، على أن الظاهر أن المعنى: إن الفسوق الذي يتعقب الإيمان بشئ الاسم، وذلك هو الكفر. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْبَ﴾ من التنازع والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله تعالى ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم بفعل ما يستحقون به العقاب.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ قال الزجاج: وهو أن يُظن بأهل الخير سوء، فأما أهل السوء والفسق قلنا أن نظن بهم مثل ما ظهر منهم. وقيل: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم. وهو قوله: ﴿إِنَّكَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ يعني ما أعلنه مما ظن بأخيه، عن المقاتلين^(٢). وقيل: إنما قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ لأن من جملته ما يجب العمل به ولا يجوز مخالفته، وإنما يكون إثماً إذا فعله صاحبه وله الطريق إلى العلم بدلاً منه، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله. فأما ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلاً منه فليس بإثم، ولذلك قال: ﴿بَعْضُ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ دون جميعه. والظن المحمود قد بيّنه الله تعالى ودل عليه بقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وقيل معناه: يجب على المؤمن أن يحسن الظن ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلاً جميلاً، وإن كان ظاهراً قبيحاً.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: ولا تتبعوا عثرات المؤمنين، عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: التجسس والتجسس واحد، وروي في الشواذ عن ابن عباس: «ولا تحسسوا» بالحاء. قال الأخفش: وليس يبعد أحدهما عن الآخر إلا أن التجسس عما يكتُم، منه الجاسوس. والتجسس بالحاء: البحث عما تعرفه. وقيل: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير^(٣). وقيل معناه: لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا العيوب التي سترها أهلها. وقيل معناه: ولا تبحثوا عما خفي حتى يظهر، عن الأوزاعي. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تنازروا»^(٤)، وكونوا عباد الله إخواناً». وقوله:

(١) وفي نسخة ليس لفظة «اسم».

(٢) وفي نسخة: يعني مقاتل بن حسان، ومقاتل بن سليمان.

(٣) وفي نسخة: إن التجسس بالجيم في الشر، والجاسوس صاحب الشر. والتجسس في الخير، والجاسوس: صاحب سر الخير.

(٤) وفي النسخ: «ولا تدابروا» بدل «ولا تنازروا».

﴿وَلَا يَغْتَبَ بَئِضُكُم مَّبَئِضًا﴾ الغيبة: ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه. وفي الحديث: «إذا ذكرت الرجل بما فيه مما يكرهه الله فقد اغتبتته، وإذا ذكرته مما ليس فيه فقد بهتته». عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال: «إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه». ثم ضرب سبحانه للغيبة مثلاً فقال: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» وتأويله: إن ذكرك بالسوء من لم يحضرك، بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك، عن الزجاج. ولما قيل لهم: أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ قالوا: لا، فقيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً، عن مجاهد. وقيل: فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكروهوا غيبته حياً، عن الحسن. فهذا هو تقدير الكلام. وقوله: ﴿وَالْفَقُولُ اللَّهُ﴾ معطوف على هذا الفعل المقدر، ومثله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ * وَوَضَعْنَا * أي: وقد شرحنا ووضعنا. ويقال للمغتتاب: فلان يأكل لحوم الناس، قال:

وَلَيْسَ الذَّنْبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذَنْبٍ وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانًا
وقال آخر:

فَإِنْ يَأْكُلُوا لَحْمِي وَفُرْتُ لِحُومَهُمْ وَإِنْ يَهْدِيُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً لكراهية الطبع، كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته لكراهية العقل والشرع، لأن دواعي العقل والشرع أحق بالاتباع من دواعي الطبع، فإن داعي الطبع أعمى، وداعي العقل بصير. وعن ميمون بن شاة^(١)، وكان يفضل على الحسن، لأنه قد لقي من لم يلقه الحسن، قال: بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول: كل يا عبد الله، قلت: ولم أكل؟ قال: بما اغتيب عندك فلان، قلت: والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً، قال: لكنك استمعت فرضيت. وكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يُغتَاب عنده واحد. وقال رجل لابن سيرين: إني قد اغتبتك فاجعلني في حل، قال: إني أكره أن أُحِلَّ ما حَرَّمَ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ قابل التوبة ﴿رَجِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْآ خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أي: من آدم وحواء، والمعنى: إنكم متساوون في النسب، لأن كلكم يرجع في النسب إلى آدم وحواء. زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب. وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنما أنتم من رجل وامرأة، كجمام الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى». ثم ذكر سبحانه أنه إنما فرَّق أنساب الناس ليتعارفوا لا ليتفاخروا، فقال: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ وهي جمع شعب، وهو الحي العظيم، مثل مضر وربيعة، وقبائل هي دون الشعوب، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الشعوب دون القبائل، وإنما سميت بذلك لتشعبها وتفرقها، عن الحسن. وقيل: أراد بالشعوب الموالي، وبالقبايل العرب، في رواية عطاء عن ابن عباس. وإلى هذا ذهب قوم فقالوا:

الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: جعلناكم كذلك لتعارفوا، فيعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه، ولولا ذلك لفسدت المعاملات، وخربت الدنيا، ولما أمكن نقل حديث. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ أي: إن أكثركم ثواباً وأرفعكم منزلة عند الله أتقاكم لمعاصيه، وأعملكم بطاعته. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعة ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، فالיום أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وروي أن رجلاً سأل عيسى بن مريم: أي الناس أفضل؟ فأخذ قبضتين من تراب فقال: أي: هاتين أفضل؟ الناس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقاهم. أبو بكر البيهقي بالإسناد عن عباية بن ربيعي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل جعل الخلق قسمين: فجعلني في خيرهم قسماً، وذلك قوله: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيَّ﴾»، فأنما من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله: ﴿فَأَحَبُّ إِلَيَّ﴾»، فأنما من السابقين وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلَنَّاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الآية. فإني أتقى ولد آدم ولا فخر، وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فأنما وأهل بيتي مطهرون من الذنوب». ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿حَئِيرٌ﴾ بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا﴾ وهم قوم من بني أسد، أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنة جدبة، وأظهروا الإسلام، ولم يكونوا مؤمنين في السر، إنما كانوا يطلبون الصدقة. والمعنى: إنهم قالوا صدقنا بما جئت به، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بذلك ليكون آية معجزة له، فقال: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لم تصدقوا على الحقيقة في الباطن. ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: أنقذنا واستسلمنا مخافة السبي والقتل، عن سعيد بن جبير وابن زيد. ثم بين سبحانه أن الإيمان محله القلب دون اللسان، فقال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان، وصاحبه المؤمن المسلم حقاً. فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه، فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصدقوا بعد بما أسلمتم تعوداً من القتل، فالمؤمن مَبْطُنٌ من التصديق مثل ما يُظْهِرُ، والمسلم التام الإسلام مُظْهِرٌ للطاعة، وهو مع ذلك مؤمن بها. والذي أظهر الإسلام تعوداً من القتل غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين. وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»، وأشار إلى صدره. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، عن ابن عباس ومقاتل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦) ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨).

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «يعلمون» بالياء، والباقون: بالتاء.

● **الحجة:** وجه التاء أن قبله خطاباً، وهو قوله: ﴿لَا تَمْنُوا﴾. ووجه الياء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

● **الإعراب:** خبر المبتدأ الذي هو ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لهم.

● **المعنى:** ثم نعت سبحانه الصادقين في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا في دينهم بعد الإيمان، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في أقوالهم، دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه. قالوا: فلما نزلت الآيات أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بالدين الذي أنتم عليه؟ والمعنى: إنه سبحانه عالم بذلك فلا يحتاج إلى إخباركم به. وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، أي: كيف تعلمون الله بدينكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن العالم لنفسه يعلم المعلومات كلها بنفسه، فلا يحتاج إلى علم يعلم به، ولا إلى من يعلمه، كما أنه إذا كان قديماً موجوداً في الأزل لنفسه استغنى عن مُوجد أوجده، وكانوا^(١) يقولون: أمانا بك من غير قتال، وقتلتك بنو فلان. فقال سبحانه: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: بأن أسلموا. والمعنى: إنهم يمنون عليك بالإسلام ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ﴾ أي: بإسلامكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: بأن هداكم للإيمان وأرشدكم إليه، بأن نصب لكم من الأدلة عليه، وأزاح غلكم ووفقكم له، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعائكم الإيمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية، وإيمان وكفر.

(١) وفي بعض النسخ: كان هؤلاء.

سُورَةُ ق

مكية/آياتها (٢٥)

قال الحسن: غير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ الْفُرُوبِ﴾. والمنقول عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية. وهي خمس وأربعون آية بالاجماع.

فضلها: أُبَيُّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأ سورة ق، هوّن الله عليه تارات الموت وسكراته». أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ومن أدمن في فرائضه ونوافله سورة ق، وسّع الله في رزقه، وأعطاه كتابه يمينه، وحاسبه حساباً يسيراً».

● تفسيرها: لما ختم الله تلك السورة بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد، افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به، من القرآن وأدلة التوحيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْنَا وَكُنَّا زُرَابًا دَلَكَ رَجَعُ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾.

ولم يُعَدَّ «قَ» آية، ولا نظير له غير نون وصاد، لأنه مفرد. وكل مفرد فإنه لا يعد لبعده من شبه الجملة. فأما المركب مما أشبه الجملة، ووافق رؤوس الآي، فإنه يعد مثل «طه» و«حم» و«الم» وما أشبه ذلك.

اللغة: المجيد: الكريم المعظم. والعظيم: المكرم، والمجد في كلامهم: الشرف الواسع، يقال: مُجِد الرجل ومَجَّد مجداً، إذا عظم وكرم، وأصله من قولهم: مجدت الإبل مجوداً، إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها، من كلاً الربيع. وأمجد فلان القوم قري، قال:

أَتَيْنَاهُ زَوَّاراً فَأَمَجَدْنَا قَرِيَّ مِّنَ الْبَثِّ وَالْدَّاءِ الدَّخِيلِ الْمُخَاوِرِ^(١)

والعجيب والعجب: هو كل ما لا يعرف علته ولا سببه. والمريج: المختلط الملبس، وأصله إرسال الشيء مع غيره من المرج. قال الشاعر:

(١) أمجدنا قري أي: آتانا ما كفى وفضل. وخامر الداء فلاناً: خالط جوفه أي: وفدنا عليه فأتانا من بث الشكوى، وما به من الداء الدفين، ما كفانا وفضل.

فَجَالَتْ فَالْتَمَسْتُ بِهِ حِشَاهَا فَخَرَّ كَأَنَّهُ غُضُنْ مَرِيحُ

أي التبس بكثرة شعبه، ومرجت عهدهم وأمرجوها أي: خلطوها ولم يفوا بها.

● الإعراب: جواب القسم في ﴿قَآ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ محذوف يدل على ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا رُبَابًا﴾ وتقديره: إنكم مبعوثون، فقالوا: أنبئنا إذا متنا وكنا تراباً. ويجوز أن يكون الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وحذفت اللام لأن ما قبلها عوض منها، كما قال: ﴿وَالْأَشْمُسُ وَخُصْبُهَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾. والمعنى: لقد أفلح. والعامل في: ﴿أَوَدَا مِنَّا﴾ مضمر، والتقدير: إذا متنا بعثنا.

● المعنى: ﴿قَآ﴾ قد مر تفسيره. وقيل: إنه اسم من أسماء الله تعالى، عن ابن عباس. وقيل: هو اسم الجبل المحيط بالأرض من زمردة خضراء، خضرة السماء منها، عن الضحاك وعكرمة. وقيل معناه: قضي الأمر أو قضي ما هو كائن، كما قيل في حم: «حُمُ الْأَمْرِ»^(١). ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ أي: الكريم على الله العظيم في نفسه، الكثير الخير والنفع، لتبعثن يوم القيامة. وقيل: تقديره: والقرآن المجيد أن محمداً رسول الله ﷺ بدلالة قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ما كذبك قومك لأنك كاذب، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وحسبوا أنه لا يوحى إلا إلى ملك. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: معجب، عجبوا من كون محمد ﷺ رسولاً إليهم، فأنكروا رسالته، وأنكروا البعث بعد الموت، وهو قوله: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا رُبَابًا﴾ أنبئنا ونرد أحياء. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الرد الذي يقولون ﴿رَجِعْ بَعِيدٌ﴾ أي: رد بعيد عن الأوهام، وإعادة بعيدة عن الكون، والمعنى: إنه لا يكون ذلك لأنه غير ممكن. ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم، وتبليه من عظامهم، فلا يتعذر علينا ردهم. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم، وهو اللوح المحفوظ، لا يشذ عنه شيء. وقيل: حفيظ أي: محفوظ عن البلى والدروس، وهو كتاب الحفظة الذين يكتبون أعمالهم. ثم أخبر سبحانه بتكذيبهم، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والحق: القرآن. وقيل: هو الرسول. ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ أي: مختلط، فمرة قالوا: مجنون، وتارة قالوا: ساحر، وتارة قالوا: شاعر. فتحيروا في أمرهم^(٢) لجهلهم بحاله، ولم يثبتوا على شيء واحد، وقالوا للقرآن: إنه سحر مرة، وزجر^(٣) مرة، ومفتري مرة. فكان أمرهم ملتبساً عليهم. قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم.



قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (١) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) بَصْرَةَ

(٣) وفي المخطوطة: رجز.

(١) حُمُ الْأَمْرِ بالبناء للمجهول أي: قضي.

(٢) وفي بعضها: أمره.

سورة ق

وَذَكَّرَىٰ لِكُلِّ عِبْدٍ مُّسِيَّبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ
الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ .

● **اللغة:** الفروج: الشقوق والصدوع، وفي الحائط فُرْجة - بضم الفاء -، فإذا قيل: فُرْجة -
بفتح الفاء - فهو التفضي من الهم. قال:

ربما تكره النفوس من الألف بر له فُرْجة كَحَلِّ الْعِقَالِ^(١)

أي: رب شيء تكرهه النفوس. و«ما» هاهنا نكرة موصوفة. والفُرْج: موضع المخافة،
وفي عهد الحجاج: إني وليتك الفرجين، يعني: خراسان وسجستان. والحصيد: ما حصد من
أنواع النبات. والباسقات: الطّوال، ويسق النخل بسوقاً. والطلع: طلع النخلة، سمي بذلك
لطلوعه. والنضيد: ما نضد بعضه على بعض.

● **الإعراب:** ﴿كَيْفَ﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون
مصدراً ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: غير مفروجة. و﴿وَالْأَرْضُ﴾
منصوبة بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، وتقديره: ومددنا الأرض مددناها ﴿تَبَيَّرَةُ﴾ مفعول له،
وكذلك ﴿وَذَكَّرَى﴾، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ تقديره: وحب النبات الحصيد، و﴿الْحَصِيدِ﴾ صفة
لموصوف. و﴿بَاسِقَاتٍ﴾ نصب على الحال، وكذلك الجملة التي هي ﴿لَهَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ حال بعد
حال. و﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ مفعول له، أي: أنبتنا هذه الأشياء لرزق العباد، ويجوز أن يكون مفعولاً
مطلقاً، أعني المصدر، وتقديره: رزقناهم رزقاً.

● **المعنى:** ثم أقام سبحانه الدلالة على كونه قادراً على البعث، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَىٰ
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: ألم يتفكروا في بناء السماء مع عظمتها، وحسن ترتيبها وانتظامها، ﴿كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا﴾ بغير علاقة ولا عماد ﴿وَرَزَيْنَاهَا﴾ بالكواكب السيارة، والنجوم الثوابت ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾
أي: شقوق وفتوق. وقيل معناه: ليس فيها تفاوت واختلاف، عن الكسائي. وإنما قال: فوقهم
بنيانها، على أنهم يرونها ويشاهدونها ثم لا يتفكرون فيها. ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها
﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِي﴾ أي: جبلاً رواسخ تمسكها على الميدان، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾
أي: من كل صنف حسن المنظر، عن ابن زيد. والبهجة: الحسن الذي له روعة عند الرؤية،
كالزهرة والأشجار النضرة، والرياض الخضرة. وقال الأخفش: البهيج: الذي من رآه بهج به،
أي: سر به، فهو بمعنى المبهوج به. ﴿تَبَيَّرَةُ وَذَكَّرَى﴾ أي: فعلنا ذلك تبصيراً ليصبر به أمر الدين،
وتذكيراً وتذكراً ﴿لِكُلِّ عِبْدٍ مُّسِيَّبٍ﴾ راجع إلى الله تعالى.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: مطراً وغيثاً بعظم النفع به ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء
﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين فيها أشجار تشتمل على أنواع الفواكه المستلذة، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي:
حب البر والشعير، وكل ما يحصد، عن قتادة. لأن من شأنه أن يحصد إذا تكامل واستحصد،

والحب هو الحصيد، فهو مثل ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ومسجد الجامع، ونحوهما: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَتٍ﴾ أي: وأنبثنا به النخل طويلات عاليات ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي: لهذه النخل الموصوفة بالعلو طلع نُضْدُ بعضه على بعض، عن مجاهد وقتادة. والطلع: الكُفْرَى، وهو أول ما يظهر من ثمر النخل قبل أن ينشق، وهو نضيد في أكمامه، فإذا أخرج من أكمامه فليس بنضيد. ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتنا هذه الأشياء للرزق، وكل رزق فهو من الله تعالى بأن يكون قد فعله أو فعل سببه، لأنه مما يريده، وقد يرزق الواحد منا غيره، كما يقال: رزق السلطان جنده. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ أي: جذباً وقحطاً لا تنبت شيئاً، فنبتت وعاشت. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْفُرُجُ﴾ من القبور، أي: مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، نحيا الموتى يوم القيامة، فيخرجون من قبورهم، فإن من قدر على أحدهما قدر على الآخر، وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء من حيث إنهم رأوا العادة مستمرة في إحياء الموات من الأرض بنزول المطر، ولم تجر العادة بإحياء الموتى من البشر، ولو أنعموا الفكر، وأمعنوا النظر، لعلموا أن من قدر على أحد الأمرين قدر على الآخر.



قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلَ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠).

● **القراءة:** في الشواذ: قراءة أبي بكر عند خروج نفسه: «وجاءت سكرة الحق بالموت» وهي قراءة سعيد بن جبير وطلحة، ورواها أصحابنا عن أئمة الهدى عليهم السلام.

● **الحجة:** قال ابن جني: لك في الباء ضربان من التقدير: إن شئت علقتها بنفس «جاءت» كقوله: جئت بزيد، أي: أحضرته. وإن شئت علقتها بمحذوف وجعلتها حالاً، أي: وجاءت سكرة الموت ومعها الموت، كقولك: خرج بشيابه، أي: وثيابه عليه. ومثله قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي: وزيته عليه، وكقول أبي ذؤيب:

يَعْتُرْنَ فِي حَدِّ الطُّبَاتِ كَأَنَّمَا كَسَيْتُ بُرودَ بني يَزِيدَ الْأَذْرُعَ^(١)

(١) الطُّبَةُ: حدّ السيف، أو السنان، ونحوه. والمراد بحد الطُّبَاتِ: المضارب بأسرها، يقول: إن بقر الوحش أيضاً لا تنجو من الموت، فيعثرن وهن في حد الطُّبَاتِ من السيف، بجرح الصياد إياهن، فتحمر أذرعهن من الدم، كبرود بني يزيد (وهي برود فيها خطوط حمرة) وقد مر البيت أيضاً.

أي: يعثرن وهن في حد الطبات. وكقول الآخر:

وَمُسْتَنْتَةٌ كَاسْتَيْنِ الْخُرُوفِ وَقَدْ قَطَعَ الْحَبْلَ بِالْمِزْوَدِ^(١)

أي: قطعه وفيه مِزْوَدُهُ. وكذلك قراءة العامة. ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: إن شئت علقت الياء بنفس «جاءت»، وإن شئت علقتها بمحذوف^(٢): وجاءت سكرة الموت ومعها الحق.

● **اللغة:** يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه، وتعدّر ذلك عليك، وأغيّيت: إذا تعبت، وكل ذلك من التعب، إلا أن أحدهما في الطلب، والآخر فيما وقع الفراغ عنه. والوريد: عرق في الحلق، وهما وريدان في العنق، عن يمين وشمال، وكأنه العرق الذي يُرد إليه ما ينصب من الرأس. وحبل الوريد: حبل العاتق، وهو منفصل من الحلق إلى العاتق. والرقيب: الحافظ. والعنيد: المعد للزوم الأمر.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة تسلياً للنبي ﷺ وتهديداً للكفار، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، فأغرقهم الله ﴿وَأَصْحَابُ الرِّيسِ﴾ وهم أصحاب البئر التي رشوا نبيهم فيها، بعد أن قتلوه، عن عكرمة. وقيل: الرس: بئر قتل فيها صاحب ياسين، عن الضحاك. وقيل: هم قوم كانوا باليمامة على آبار لهم، عن قتادة. وقيل: هم أصحاب الأخدود. وقيل: كان سحق النساء في أصحاب الرس. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَقَوْمُ ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ﴿وَعَادَ﴾ وهم قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنَ وَخُنُوزَ لُوطٍ﴾ أي: وكذب فرعون موسى وقوم لوط لوطاً، وسماهم إخوانه لكونهم من نسبه. ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب ﴿وَقَوْمُ ثَمُودَ﴾ وهو تبع الحميري الذي ذكرناه عند قوله: ﴿أَهْمُ حَيْرٌ أَمْ قَوْمُ ثَمُودَ﴾. ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المبعوثة إليهم، وجحدوا نبوتهم ﴿هَاقٌّ وَعِيدٌ﴾ أي: وجب عليهم عذابي الذي أوعدتهم به، فإذا كان مآل الأمم الخالية، إذ كذبوا الرسل، الهلاك والدمار، وإنكم معاصر العرب قد سلكتم مسالكهم في التكذيب والإنكار، فحالكهم كحالهم في التباب والخسار.

ثم قال سبحانه جواباً لقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادتهم؟ وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا بأن الله هو الخالق، ثم أنكروا البعث. ويقال لكل من عجز عن شيء: عيي به. ثم ذكر أنهم في شك من البعث بعد الموت، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في ضلال وشك من إعادة الخلق جديداً. واللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له، والجديد: القريب الإنشاء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أراد به الجنس يعني ابن آدم ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُؤْسُسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: ما يحدث به قلبه وما يخفى ويكن في نفسه، ولا يظهره لأحد من المخلوقين. ﴿وَمَنْ أَوْزَىٰ إِلَيْهِ﴾ بالعلم ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وهو عرق يتفرق في البدن يخالط الإنسان في جميع

(١) المروء: حديدة توتد في الأرض يشد فيها حبل الدابة وقد مر البيت في ج ٣.

(٢) [بمعنى].

أعضائه. وقيل: هو عرق الحلق، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو عرق متعلق بالقلب، يعني: نحن أقرب إليه من قلبه، عن الحسن. وقيل معناه: نحن أعلم به ممن كان منه بمنزلة حبل الوريد في القرب. وقيل معناه: نحن أملك له من حبل وريده مع استيلائه عليه وقربه منه. وقيل معناه: نحن أقرب إليه بالإدراك من حبل الوريد لو كان مدركاً.

ثم ذكر سبحانه أنه على علمه به، وكُلُّ به مَلَكَيْنِ يحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَفَّى الصَّافِرِينَ﴾ «إذ» متعلقة بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: ونحن أعلم به وأملك له حين يتلقى المتلقين، وهما المَلَكَانِ يأخذان منه عمله فيكتبانه كما يكتب المملى عليه. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدَ﴾ أراد عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فاكتمى بأحدهما عن الآخر. والمراد بالقعيد هنا: الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. وقيل: عن اليمين كاتب الحسنات، وعن الشمال كاتب السيئات، عن الحسن ومجاهد. وقيل: الحفظة أربعة: مَلَكَانِ بالنهار، ومَلَكَانِ بالليل، عن الحسن. ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلم بكلام فيلفظه، أي: يرميه من فيه إلا لديه حافظ حاضر معه. يعني الملك الموكل به، إما صاحب اليمين، وإما صاحب الشمال، يحفظ عمله لا يغيب عنه، والهاء في ﴿لَدَيْهِ﴾ تعود إلى القول أو إلى القائل.

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألفها، وإلا كتب واحدة». وفي رواية أخرى قال: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: أمسك، فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة».

وعن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكَّلَ بعبد مَلَكَيْنِ يكتبان عليه، فإذا مات قالوا: يا رب قد قبضت عبدك فلاناً فإلى أين؟ قال: سمائي بملائكتي يعبدونني، وأرضي مملوءة من خلقي يطيعونني، اذهبوا إلى قبر عبدي فسبحاني، وكبراني، وهللاني، فاكتبوا ذلك في حسنات عبدي إلى يوم القيامة».

﴿وَمَاءٌ سَكْرَةٌ لَّغَوِيٍّ بِالْحَقِّ﴾ أي: جاءت غمرة الموت وشدته التي تغشي الإنسان وتغلب على عقله بالحق، أي: أمر الآخرة، حتى عرفه صاحبه واضطر إليه. وقيل معناه: جاءت سكرة الموت بالحق الذي هو الموت. قال مقاتل: يعني أنه حق كائن. والمراد: إن هذه السكرة قد قربت منكم فاستعدوا لها، فهي لقربها كالحاصلة، مثل قوله تعالى: ﴿أَنَّى آمُرُ اللَّهَ﴾. وروي أن عائشة قالت عند وفاة أبي بكر:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَ جُثَّتُ^(١) يَوْمًا، وضاق بها الصدرُ

(١) حشر حشرجة: غرغر عند الموت، وتردد نفسه.

سورة ق

فقال أبو بكر: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾. ويقال لمن جاءته سكرة الموت: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الموت ﴿مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيذًا﴾ أي: تهرب وتميل ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قد مر تفسيره، ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ أي: ذلك اليوم يوم وقوع الوعيد الذي خوَّف الله به عباده، ليستعدوا ويقدموا العمل الصالح له.



قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧) قَالَ لَا تَخَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبْدِلُ الْأَقْوُلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ نافع وأبو بكر: «يوم يقول» بالياء، والباقون: بالنون.

● **الحجة:** الياء على معنى: يقول الله تعالى، والنون أشبهه بقوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

● **اللغة:** السُّوق: الحثُّ على السير. والحديد: الحاد، مثل الحفيظ والحافظ. والعنيد: الجائر عن القصد، وهو العنود والعائد. وناقاة عنود: لا تستقيم في سيرها، والعنيد: المتجبر منه.

● **الإعراب:** ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ﴾ ﴿مَا﴾ هاهنا نكرة موصوفة، وتقديره: هذا شيء ثابت لدي عتيد، فالظرف صفة لـ«ما»، وكذلك عتيد. ﴿جَهَنَّمَ﴾ لا ينصرف للتعريف والتأنيث، وأصله من قولهم: بشر جَهَنام: إذا كانت بعيدة القعر. وقيل: هو أعجمي فلا ينصرف للتعريف والعجمة. وقوله: ﴿أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إن العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان، تقول للرجل الواحد: قوما واخرجا. ويحكى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى اضربا عنقه، يريد: اضرب. قال الفراء: سمعت من العرب مَنْ يقول: ويليكَ ارحلاها، وأنشدني بعضهم:

فَقُلْتُ لصاحبي: لا تحبسنا بنزع أصوله، واجتزأ شيعا^(١)

(١) وفي نسخة: المتجبر.

(٢) الشيخ: نبات كثير الأنواع، طيب الرائحة، يوقي طبخ اللحم سريعاً، ولا تحبسنا بقلع أصول الأشجار للشيء حتى يطول المكث بل اجتزأ الشيخ واشو به.

وأنشدني أبو ثروان:

فإن تزجراني يا ابن عَفَّانَ أنزجرُ وإن تدعاني أحمِ عِزْماً مُمْتَعاً^(١)

قال: وترى أن ذلك منهم لأجل أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قبيلاً: يا صاحبيّ ويا خليلي، قال امرؤ القيس:

خليليّ مُراً بي على أم جُنْدُبٍ، لنَقْضي حاجاتِ الفؤادِ المُعْدَبِ
فإنكُما إن تُنْظِراني ليلةٍ من الدهرِ تَنفَعَنِي، لدى أم جُنْدُبٍ

ثم قال:

ألم تر أني كلما جئت طارقاً وَجَدْتُ بها طيباً وإن لم تُطِيبِ

فرجع إلى الواحد، لأن أول الكلام واحد في لفظ الاثنين، وأنشد أيضاً:

خليليّ قوماً في عطالةٍ فأنظروا أناراً ترى من نخوٍ ما بين أم بزقا^(٢)
ولم يقل: ترياً.

والثاني: إنه إنما ثنى ليدل على التكرير، كأنه قال: ألق ألق، فثنى الضمير ليدل على تكرير الفعل، وهذا لشدة ارتباط الفاعل بالفعل، حتى إذا كرر أحدهما فكأن الثاني كرر، وهذا قول المازني. ومثله عنده: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ إنما جمع ليدل على التكرير، كأن قال: أرجعني أرجعني أرجعني، وحمل عليه قول امرئ القيس:

قفا نَبِكِ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

ونحو ذلك، أي: كأنه قال: قف قف.

والثالث: إن الأمر تناول السائق والشهيد، فكأنه قال: يا أيها السائق، ويا أيها الشهيد ألقيا.

والرابع: إنه يريد النون الخفيفة فكان: أَلْقَيْنَ، فأجرى الوصل مجرى الوقف، فأبدل من النون ألفاً، كما قال الأعشى:

وذا التُّسْكِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكُنَّهُ، وَلَا تَغْبُدِ الشَّيْطَانَ، والله فاعبدا^(٣)

ويؤيد هذا القول ما روي عن الحسن أنه قرأ: «ألقياً» بالتثنية.

(١) الممنوع: الممنوع شدد للمبالغة.

(٢) عطالة: جبل منيف بالسودة من ديار بني سعد. وفي اللسان «أناراً ترى من ذي أبانين أم برقاً». وبين: اسم موضع.

(٣) قد مر البيت في ج ١.

سورة ق

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: إن كان مبتدأ فخبيره وقوله: ﴿فَالْقِيَٰءُ﴾ ويجوز أن يكون نصباً بمضمر يفسره ﴿فَالْقِيَٰءُ﴾ ويجوز أن يكون نصباً بدلاً من قوله: ﴿كُلُّ كَفَّارٍ﴾. ولا يجوز أن يكون جرّاً صفة لـ «كفار»؛ لأن النكرة لا توصف بالموصول، إنما الموصول وُضلة إلى وصف المعارف بالجُمْل.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال الناس بعد البعث، فقال: ﴿وَحَمَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: وتجيء كل نفس من المُكَلَّفِينَ في يوم الوعيد، ومعها سائق من الملائكة يسوقها، أي: يحثها على السير إلى الحساب، وشهيد من الملائكة يشهد عليها لما يعلم من حالها، وشاهده منها وكتبه عليها، فلا يجد إلى الهرب ولا إلى الجحود سبيلاً. وقيل: السائق من الملائكة، والشهيد الجوارح تشهد عليها، عن الضحاك. ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: يقال له: لقد كنت في سهو ونسيان ﴿وَمِنْ هَٰذَا﴾ اليوم في الدنيا. والغفلة: ذهاب المعنى عن النفس ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الذي كان في الدنيا يغشي قلبك وسمعك وبصرك، حتى ظهر لك الأمر، وإنما تظهر الأمور في الآخرة بما يخلق الله تعالى من العلوم الضرورية فيهم، فيصير بمنزلة كشف الغطاء لما يرى. وإنما يراد به جميع المُكَلَّفِينَ برهم وفاجرهم، لأن معارف الجميع ضرورية. ﴿بَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: فعينك اليوم حادة النظر لا يدخل عليها شك ولا شهية. وقيل معناه: فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ، ولا يراد به بصر العين، كما يقال: فلان بصير بالنحو والفقه. وقيل: هو خاص في الكافر، أي: فأنت اليوم عالم بما كنت تنكره في الدنيا، عن ابن عباس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني الملك الشهيد عليه، عن الحسن. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: قرينه الذي قُيِّض له من الشياطين، عن مجاهد. وقيل: قرينه من الإنس، ﴿هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ إنه كان المراد به المَلَكُ الشهيد، فمعناه: هذا حسابه حاضر لدي في هذا الكتاب، أي: يقول لربه: كنت وكُنْتُني به فما كتبت من عمله حاضر عندي، وإن كان المراد به الشيطان أو القرين من الإنس، فالمعنى: هذا العذاب حاضر عندي، معد لي بسبب سيئاتي. ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هذا خطاب لخازن النار. وقيل: خطاب للمَلَكَيْنِ الموكِّلَيْنِ به، وهما السائق والشهيد، عن الزجاج. وقد ذكرنا ما قيل فيه. وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش أنه قال: حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى لي ولعلي: ألقيا في النار من أبغضكما، وأدخلنا الجنة من أحبكما، وذلك قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾». والعنيد: الذاهب عن الحق وسبيل الرشد. ﴿مَتَاعٌ لِلْعَوَّارِ﴾ الذي أمر الله به من بذل المال في وجوهه ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متجاوز يتعدى حدود الله ﴿مُزَيَّبٍ﴾ أي: شك في الله وفيما جاء من عند الله. وقيل: متهم يفعل ما يرتاب بفعله، ويظن به غير الجميل، مثل «المليم» الذي يفعل ما يلام عليه. وقيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم، فيكون المراد بالخير الإسلام. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَالْقِيَٰءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ هذا تأكيد للأول، فكأنه قال: افعلوا ما أمرتكم به فإنه مستحق لذلك.

و﴿قَالَ فَبِمَا أَشْرَكُوا﴾ أي: شيطانه الذي أغواه، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وإنما سمي قرينه لأنه يقرن به في العذاب. وقيل: قرينه من الإنس، وهم علماء السوء والمثبوعون. ﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتَهُ﴾ أي: ما أضللتته وما أوقعتته في الطغيان باستكراه، أي: لم أجعله طاغياً، ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مِّنَ الْإِيمَانِ﴾ أي: ولكنه طغى باختياره السوء، ومثل هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم ﴿لَا تَخْضَعُوا لَدَيْ﴾ أي: لا يخاضع بعضكم بعضاً عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعْدِ﴾ في دار التكليف ولم تنزعروا وخالفتم أمري. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ﴾ المعنى: إن الذي قدمته لكم في دار الدنيا من أني أعاقب من جحدني، وكذب رسلي، وخالفني في أمري لا يبدل بغيره، ولا يكون خلافه. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لست بظالم أحداً في عقابي لمن أستحقه، بل هو الظالم لنفسه بارتكابه المعاصي التي استحق بها ذلك، وإنما قال: ﴿يُظَلَّلِرْ﴾ على وجه المبالغة رداً على من أضاف الظلم إليه تعالى، وتقُدَّس عن ذلك.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ يتعلق يوم بقوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيْ﴾ الآية. وقيل: يتعلق بتقدير: اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي يقول الله فيه لجهنم: هل امتلأت من كثرة ما أُلْقِيَ فِيكَ من العصاة؟ ﴿وَنَقُولُ﴾ جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. قال أنس: طلبت الزيادة. وقال مجاهد: المعنى معنى الكفاية، أي: لم يبق مزيد لامتلائها، ويدل على هذا القول قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِثْمَةِ وَالتَّائِبِينَ أَجْمَعِينَ﴾. وقيل في الوجه الأول: إن هذا القول كان منها قبل دخول جميع أهل النار فيها، ويجوز أن تكون تطلب الزيادة على أن يزداد في سعتها، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم فتح مكة: ألا تنزل دارك؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار؟ لأنه كان قد باع دور بني هاشم لما خرجوا إلى المدينة. فعلى هذا يكون المعنى: وهل بقي زيادة؟ فأما الوجه في كلام جهنم فقيل فيه وجوه:

أحدها: إنه خرج مخرج المثل، أي: أن جهنم من سعتها وعظمتها بمنزلة الناطقة التي إذا قيل لها: هل امتلأت؟ تقول: لم أمتلئ، وبقي في سعة كثيرة. ومثله قول عنترة:

فَارْزُورٌ مِّنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وشكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمُحُمُ^(١)

قال آخر:

امْتَلَأَ الْحَوْضُ وَقَالَ: قَطَنِي مهلاً زُوَيْدًا قَدْ مَلَأْتُ بَطْنِي^(٢)

وثانيها: إنه سبحانه يخلق آلة الكلام فتتكلم، وهذا غير منكر، لأن من أنطق الأيدي والجوارح والجلود قادر على أن ينطق جهنم.

سورة ق

وثالثها: إنه خطاب لَخَزَنَةِ جَهَنَّمَ على وجه التقرير لهم، هل امتلأت جهنم؟ فيقولون: بلى لم يبق موضع لمزيد، ليعلم الخلق صدق وعده. عن الحسن قال: ومعناه: ما من مزيد، أي: لا مزيد، كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ وهو قول واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.



قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ۝٣٢ مَنِ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝٣٣ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ۝٤٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وحمة وخلف: «وإدبار» بكسر الهمزة. والباقون: «وَأدبار السجود» بالفتح. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر: «فنقبوا في البلاد» بكسر القاف، وقراءة السدي: «وألقي السمع»، وقراءة أبي عبد الرحمن السلمي وطلحة: «وما مسنا من لغوب» بفتح اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: «إدبار» مصدر، والمصادر تجعل ظروفًا على إرادة إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها، كقولك: جئتكم مقدم الحاج، وحقوق النجم، وخلافة فلان، تريد في ذلك كله وقت كذا. فكذلك يقدر هنا وقت إدبار السجود، إلا أن المضاف المحذوف في هذا الباب لا يكاد يظهر ولا يستعمل. فهذا أُدْخِلَ في باب الظروف من قول من فتح، فكأنه أمر بالتسبيح بعد الفراغ من الصلاة. ومن فتح جعله جمع دُبر أو دبر مثل قُفل وأقفال، وطُنب وأطناب. وقد استعمل ذلك ظرفاً نحو: جئتكم في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. قال أوس ابن حجر:

على دُبر الشهر الحرام بأرضنا، وما حَوْلَهَا جَذْبٌ، سِنُونُ تَلَمُّعٍ^(١)

وأما من قرأ: «فنقبوا» فقد قال ابن جني: إنه: فَعَلُوا من النقب، أي: ادخلوا وغوروا في الأرض، فإنكم لا تجدون لكم محيصاً. وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ معناه: أو ألقى السمع منه، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فيمكن أن يكون من المصادر التي جاءت على فعول، بفتح الفاء،

(١) تلمعت السنة كما قيل: عام أبقع أي: فهي خصب وجذب.

كالوضوء والولوج والوزوغ والقبول، وهي صفات مصادر محذوفة، أي: توضأت وضوءاً، أي: وضوءاً^(١) حسناً، وكذلك هذا، أي: وما مسنا من لغوب، أي: تعب متعب.

● **اللغة:** الإزلاف: التقريب إلى الخير، ومنه الزلفة، والزلفى. وازدلف إليه أي: اقترب. والمزدلفة: منزلة قريبة من الموقف، وهو المشعر وجمع، ومنه قول الراجز:

نَاجِ طَوَاهِ الْأَيْنِ مِمَّا أَوْجَفَا طِيَّ اللَّيَالِي زُلْفَا فزُلْفَا
سَمَاوَةَ الْهَلَالِ حَتَّى أَحَقَّوْزَفَا^(٢)

والتنقيب: التفتيح بما يصلح للسلوك، وهو من النقب الذي هو الفتح. قال امرؤ القيس:
لَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
أي: طوّفت في طرقها وسرت في نقوبها. واللغوب: الإعياء.

● **الإعراب:** ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إزلاًفاً غير بعيد، ويجوز أن يكون منصوباً على الحال من الجنة. ولم يقل: غير بعيدة لأنه في تقدير النسب، أي: غير ذات بعد. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو لكل أواب. ولا يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، تقديره: هذا الموعود هذا لكل أواب حفيظ ولا يجوز أن تتعلق اللام بـ ﴿تُوعَدُونَ﴾ لأن الأوابين هم الموعودون، لا الموعود لهم. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ ويجوز أن يكون في محل جر على البدل من أواب، فيتم الكلام عند قوله: ﴿وَيَاكَ يَفْلَحُ مُتَّبِعٌ﴾. ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف على تقدير: يقال لهم: ادخلوها، فعلى هذا يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِظٍ﴾. ويقتضي أن يكون ادخلوها خطاباً للمتقين، وتقديره: وتزلف الجنة للمتقين، ويقال لهم: ادخلوها بسلام.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين والعصاة، عطفه بذكر ما أعدّه للمتقين، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِبَتِ الجنة وأُدْنِيَتْ للذين اتقوا الشرك والمعاصي، حتى يروا ما فيها من النعيم. والجنة: هي البستان التي تجمع كل لذة من الأنهار والأشجار وطيب الثمار، ومن الأزواج الكرام والحدود الحسان، والخدم من الولدان، ومن الأبنية الفاخرة المُرْتِنَةُ بالياقوت الزمرد والعقيان، نسأل الله التوفيق لما يقرب من رضاه. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: هي قريبة منهم لا يلحقهم ضرر ولا مشقة في الوصول إليها. وقيل معناه: ليس ببعيد مجيء ذلك، لأن كل آت قريب. ومثله قول الحسن: كأنك بالدنيا كأن لم تكن، وبالأخرة كأن لم تزل. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب على ألسنة الرسل. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: تواب

(١) وفي بعض النسخ: وضوءاً حسناً.

(٢) ناج: البعير السريع ينجو بمن ركبها. والأين: الإعياء وما في مما أوجفا مصدرية أي: من إيجافه، وهو اعداته. وسماوة الهلال أي: شخصه. واحقوب الهلال: اعوج وكل ما طال واعوج فقد احقوقف، كظهر البعير، وشخص القمر. وقد مر البيت في ج ٥.

سورة ق

رَجَّاعٌ إِلَى الطَّاعَةِ، عَنِ الضَّحَّاكِ وَابْنِ زَيْدٍ. وَقِيلَ: لِكُلِّ مَسِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ. ﴿حَفِظُوا﴾ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، مُتَحَفِّظٌ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ مِنْ سَيِّئَةٍ تَدْنِسُهُ، أَوْ خَطِيئَةٍ تَحُطُّ مِنْهُ وَتَشِينُهُ. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ: هُوَ مَنْ خَافَ اللَّهَ وَأَطَاعَهُ وَأَمَّنَ بِثَوَابِهِ وَعَقَابِهِ وَلَمْ يَرِهِ. وَقِيلَ: بِالْغَيْبِ أَيُّ: فِي الْخُلُوعِ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، عَنِ الضَّحَّاكِ وَالسَّدي. ﴿وَمَا يَنْفَعُ مُتَّبِعٍ﴾ أَيُّ: وَدَامَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى وَافَى فِي الْآخِرَةِ بِقَلْبٍ مَقْبَلٍ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، رَاجِعٍ إِلَى اللَّهِ بِضَمَائِرِهِ. ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أَيُّ: يُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِأَمَانٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسَلَامَةٍ مِنْ كُلِّ آفَةٍ. وَقِيلَ: بِسَلَامٍ مِنَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الْوَقْتُ الَّذِي يَقُومُونَ فِيهِ فِي النِّعَمِ مُؤَبَّدِينَ لَا إِلَى غَايَةٍ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أَيُّ: لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهُيهِ أَنْفُسُهُمْ وَيُرِيدُونَهُ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أَيُّ: وَعِنْدُنَا زِيَادَةٌ عَلَى مَا يَشَاءُونَهُ مِمَّا لَمْ يَخْطُرْ بِأَلْفِهِمْ، وَلَمْ تَبْلُغْ أَمَانِيَهُمْ. وَقِيلَ: هُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى مِقْدَارِ اسْتِحْقَاقِهِمْ مِنَ الثَّوَابِ بِأَعْمَالِهِمْ.

ثُمَّ خَوْفٌ سَبْحَانَهُ كَفَّارٌ مَكَّةَ، فَقَالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَيُّ: كَثِيرًا أَهْلَكْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَهُمْ، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَيُّ: الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَكْثَرُ عِدَّةً وَعُدَّةً^(١) وَلَمْ يَتَعَذَّرْ عَلَيْنَا ذَلِكَ، فَمَا الَّذِي يُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ مِنْ مِثْلِهِ؟ ﴿فَقَبُولًا فِي الْآلِدِ﴾ أَيُّ: فَتَحُوا الْمَسَالِكَ فِي الْبِلَادِ بِشِدَّةِ بَطْشِهِمْ، أَصْلُهُ مِنَ النَّقْبِ وَهُوَ الطَّرِيقُ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: سَارُوا فِي الْبِلَادِ وَطَوَّفُوا فِيهَا بِقُوَّتِهِمْ، وَسَلَكُوا كُلَّ طَرِيقٍ، وَسَافَرُوا فِي أَعْمَالٍ طَوِيلَةٍ. ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ أَيُّ: هَلْ مِنْ مَحِيدٍ عَنِ الْمَوْتِ وَمَنْجَى مِنَ الْهَلَاكِ؟ يَعْنِي لَمْ يَجِدُوا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ مَنْجَى وَمَهْرَبًا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أَيُّ: فِيمَا أَخْبَرْتَهُ وَقِصَصَتَهُ ﴿لَذِكْرَى﴾ أَيُّ: مَا يَعْتَبَرُ بِهِ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ ﴿لَمَنْ كَانَ لَمْ قَلْبٌ﴾ مَعْنَى الْقَلْبُ هُنَا الْعَقْلُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مِنْ قَوْلِهِمْ: أَيْنَ ذَهَبَ قَلْبُكَ؟ وَفَلَانُ قَلْبُهُ مَعَهُ. وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ مِنْ لَا يَعْيِي الذِّكْرَ، لَا يَعْتَدُ بِمَا لَهُ مِنَ الْقَلْبِ. وَقِيلَ: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ، عَنْ قَتَادَةَ. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَيُّ: اسْتَمَعَ وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبُهُ بِغَيْرِ مَا يَسْتَمَعُ، وَهُوَ شَهِيدٌ لِمَا يَسْمَعُ فَيَفْقَهُ، غَيْرُ غَافِلٍ عَنْهُ وَلَا سَاهٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ. يُقَالُ: أَلْقَى إِلَيَّ سَمْعَكَ، أَيُّ: اسْمَعْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَجْلِسُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَخْرُجُونَ فَيَقُولُونَ: مَاذَا قَالَ آنفًا^(٢)؟ لَيْسَ قُلُوبُهُمْ مَعَهُمْ. وَقِيلَ: هُوَ شَهِيدٌ عَلَى صِفَةِ النَّبِيِّ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ، يُرِيدُ أَهْلَ الْكِتَابِ، عَنْ قَتَادَةَ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أَيُّ: نَصَبٍ وَتَعَبٍ، أَكْذَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا الْيَهُودَ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: اسْتَرَحَ اللَّهُ يَوْمَ السَّبْتِ، فَلِذَلِكَ لَا تَعْمَلُ^(٣) فِيهِ شَيْئًا. ﴿فَأَمَّا عَلَى مَا يَفُؤُونَ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنْ بَهْتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَقَوْلِهِمْ أَنَّكَ سَاحِرٌ، أَوْ مَجْنُونٌ، وَاحْتِمَلْ ذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَرَجِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْقِتَالِ، ﴿وَسَيَحْمَدُ بِحَمْدِكَ﴾ أَيُّ: وَصَلَّى وَاحْمَدَ اللَّهُ تَعَالَى. سَمَّى الصَّلَاةَ تَسْبِيحًا لِأَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ، عَنْ

(١) فِي الْمَخْطُوطَةِ: مَدَّةٌ بَدَلُ عِدَّةٍ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: لَا نَعْمَلُ.

(٢) فِيهَا أَيْضًا [أَيُّ].

ابن عباس وقتادة وابن زيد. وقيل: أراد به التسبيح بالقول تنزيهاً لله تعالى عما لا يليق به. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يعني صلاة الفجر، وصلاة الظهر، والعصر، عن قتادة وابن زيد، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني المغرب والعشاء الآخرة. وقيل: ومن الليل يعني صلاة الليل، ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء، عن مجاهد. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ فقال: تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير. ﴿وَأَذْكُرَ الشُّجُورِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إن المراد به الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن بن علي عليه السلام، والحسن والشعبي. وعن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وثانيها: إنه التسبيح بعد كل صلاة، عن ابن عباس ومجاهد.

وثالثها: إنه النوافل بعد المفروضات، عن ابن زيد والجبائي.

ورابعها: إنه الوتر من آخر الليل، روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.



قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ نُبَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۖ﴾ ﴿٤١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ۖ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۖ﴾ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۖ﴾ ﴿٤٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۖ﴾ ﴿٤٤﴾

● **الإعراب:** ﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ نُبَادِ الْمُنَادِ﴾ تقديره: واستمع حديث يوم ينادي المنادي، فحذف المضاف وهو مفعول به، وليس بالظرف. و﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بدل من ﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ نُبَادِ الْمُنَادِ﴾ وكذلك ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ﴾. ويجوز أن ينتصب ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ﴾ بقوله: ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: يصيرون إلينا في ذلك اليوم.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ، والمراد به جميع المكلفين: ﴿وَأَسْتَبِيعَ يَوْمَ نُبَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: اصغ إلى النداء وتوقعه، يعني صيحة القيامة والبعث والتشور، ينادي بها المنادي وهي النفخة الثانية. ويجوز أن يكون المراد: واستمع ذكر حالهم يوم ينادي المنادي. وقيل: إنه ينادي مناد من صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المنقطعة، واللحوم المُمْتَرِقة، قومي لفصل القضاء، وما أعد الله لكم من الجزاء، عن قتادة. وقيل: إن المنادي هو إسرافيل يقول: يا معشر الخلائق! قوموا للحساب، عن مقاتل. وإنما قال: ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لأنه يسمعه الخلائق كلهم على حد واحد، فلا يخفى على أحد قريب ولا بعيد، فكانهم نودوا من مكان يقرب منهم. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ والصيحة: المرة الواحدة من الصوت الشديد،

وهذه الصيحة^(١) هي النفخة الثانية. وقوله: ﴿يَالْعَقَى﴾ أي: بالبعث، عن الكلبي. وقيل: يعني أنها كائنة حقاً، عن مقاتل. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور إلى أرض الموقف. وقيل: هو اسم من أسماء القيامة، عن أبي عبيدة، واستشهد بقول الشاعر:

أليس يومُ سُمِّيَ الخروجا أعظمُ يومَ رَجَّةٍ رجوجا

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: أخبر سبحانه عن نفسه أنه هو الذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتاً، ثم يميتهم بعد أن كانوا أحياء، ثم يحييهم يوم القيامة، وهو قوله: ﴿وَلِئَلَّا نُنصِرُ﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضُ﴾ أي: تشقق ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ تتصدع، فيخرجون منها ﴿سِرَاعاً﴾ يسرعون إلى الداعي بلا تأخير ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ﴾ والحشر: الجمع بالسوق من كل جهة، ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي سهل علينا غير شاق، هين غير متعذر مع تباعد ديارهم وقبورهم. ثم عزى سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما يقوله هؤلاء الكفار في تكذيبك، وجحود نبوتك، وإنكار البعث، لا يخفى علينا من أمرهم شيء، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمسلط قادر على قلوبهم فتجبرهم على الإيمان، وإنما بعثت منذراً داعياً مرغباً، وهذا معنى قول ابن عباس. وقال تغلب: جاءت أحرف على فَعَال بمعنى مُفْعِل مثل دَرَاكَ بمعنى مُدْرِك، وَسَرَّاع بمعنى مسرع، وسيف سَقَّاط بمعنى مسقط، وبكاء بمعنى مُبْكِي. قال علي بن عيسى: لم يسمع من ذلك إلا دراك من أدركت. وقيل: جبار من جَبَرْتَه على الأمر بمعنى أجبرته، وهي لغة كنانة. وقيل معناه: ما أنت عليهم بفظ غليظ لا تحلم عنهم، فاحتمل أذاهم. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ إنما خص بالذكر من يخاف وعيد الله، لأنه الذي ينتفع به.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

مكية / آياتها (٦٠)

● عدد آياتها: ستون آية بالإجماع.

● فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الذاريات (١) أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا». وروى أبو داود بن فرقد عن أبي عبد الله ﷺ قال: من قرأ سورة الذاريات في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته، وأتاه برزق واسع، ونور له في قبره (٢) بسراج يزهر إلى يوم القيامة.

● تفسيرها: لما ختم الله تعالى سورة ق بالوعيد، افتتح هذه السورة بتحقيق الوعيد،

فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَّتِ ذُرَّوًا ۝١ فَلَمَّحَلَّتْ وَفَرًا ۝٢ فَلَجَرِيَّتِ يُسْرًا ۝٣ فَلَمَّقَسَمَتْ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَّاكٍ ۝٩ قُلِ الْخَرَصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو سَاهُونَ ۝١١ يَسْتَعْلُونَ ۝١٢ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝١٣ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ۝١٤ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ۝١٥﴾

● اللغة: ذرت الريح التراب تذروه ذرّوًا: إذا طيّرته، وأذرتّه تذريه بمعناه. والْحُبُكُ:

الطرائق التي تجري على الشيء، كالطرائق التي ترى في السماء، وفي الصافي من الماء إذا مرت عليه الريح، وهو تكسّر جار فيه. ويقال للشعر الجغد: حُبُك، والواحد حِبَاك وحَبِيكَة، والْحُبُكُ: حسن أثر الصنعة في الشيء واستواؤه، يقال: حبكه يحبّكه ويحبّكه، قال زهير في الحُبُك:

مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لِّضَاحِي مَائِهِ حُبُكٌ (٣)

(١) وفي بعض النسخ: في يومه وليلته.

(٢) وفي المخطوطة: ونور له قبره.

(٣) كلل فلاناً: ألبسه الإكليل: والنجم: النبات. والخريق: الريح الباردة الشديدة الهبابة. والضاحي: البارز الظاهر، يصف روضة.

والخراص: الكذاب، والخرص: الظن والحدس، وسمي الخَزَرُ^(١) خرصاً منه، ويقال: كم خرص أرضك؟ بكسر الخاء، وأصل الخرص: القطع، من قولهم: خرص فلان كلاماً واخترصه: إذا اقتطعه من غير أصل. والغمرة: من غمره الماء يغمره، وغمره الدين: إذا غطاه بكثرتة، والغمر: السيد الكثير العطاء، لأنه يغمر بعطائه.

● الإعراب: قال الزجاج: ﴿يَوْمَ﴾ نصب على وجهين:

أحدهما: أن يكون على معنى يقع الجزاء يوم هم على النار يفتنون.

والآخر: أن يكون لفظه لفظ نصب، ومعناه معنى رفع، لأنه مضاف إلى جملة كلام، تقول: يعجبني يوم أنت قائم، ويوم أنت تقوم. إن شئت فتحتة، وإن شئت رفعتة، كما قال الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أوقال^(٢)

وروي: غير أن نطقت، بالرفع. لما أضاف غير إلى «أن» وليست بمتمكنة فتح، وكذلك كما أضاف ﴿يَوْمَ﴾ إلى الجملة فتح، وكما قرئ ﴿وَمِنْ خَزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ ففتح يوم، وهو في موضع خفض، لأنك أضفته إلى غير ممكن. وقيل: إنه لما جرى في كلامهم ظرفاً، بقي في موضع الرفع على ذلك الاستعمال، وجاء مفتوحاً كما جاء في قوله: ﴿وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ﴾.

● المعنى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ روي أن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو يخطب على المنبر، فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح. قال: ﴿فَالْحَمَلُ وَفَرَ﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَرِيدُ يُسْرَ﴾ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمَقْسَمُ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة. وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. فالذاريات: الرياح تذررو التراب وهشيم النبات، أي: تفرقه. ﴿فَالْحَمَلُ وَفَرَ﴾ السحاب تحمل ثقلًا من الماء من بلد، إلى بلد فتصير موقرة به. والوقر بالكسر: ثقل الحمل على ظهر أو في^(٣) بطن، والوقر: ثقل الأذن. ﴿فَالْجَرِيدُ يُسْرَ﴾ السفن تجري ميسرة على الماء جرياً سهلاً إلى حيث سُيِّرَت. وقيل: هي السحاب تجري يسراً إلى حيث سَيَّرها الله من البقاع. وقيل: هي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، وزحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد. ﴿فَالْمَقْسَمُ أَمْرًا﴾ الملائكة يُقْسِمُونَ الأمور بين الخلق على ما أمروا به.

أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع للعباد، ولما تتضمنه من الدلالة على وحدانية الله تعالى وبدائع صنعته. وقيل: إن التقدير فيها القسم برب هذه الأشياء، لأنه لا يجوز القسم إلا بالله عز اسمه. وقال أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام: إنه لا يجوز لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى، والله سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه.

(١) حزره أي: قدره بطن.

(٢) الوَقْل: أصول السعف التي لم تستقص، فبقيت بارزة في الجذع، فأمكن المرتقي أن يرتقي فيها.

(٣) وفي المخطوطة: أو بطن.

ثم ذكر المُقَسِّم عليه، فقال: ﴿إِنَّكَ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من الثواب والعقاب، والجنة والنار ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: صدق لا بد من كونه، فهو اسم وضع موضع المصدر. وقيل معناه: ذو صدق، كقوله: ﴿عِشَّةٌ رَاضِيَةٌ﴾. ﴿وَإِنَّ إِلَيْنَا لَوَاقِعٌ﴾ أي: إن الجزاء. وقيل: إن الحساب لكائن يوم القيامة.

ثم أنشأ قَسَمًا آخر، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ﴾ أي: ذات الطرائق الحسنة، لكننا لا نرى تلك الحُبُكَ لبعدها عنا، عن الحسن والضحاك. وقيل: ذات الخلق الحسن المستوي، عن ابن عباس وقتادة وعكرمة والربيع. وقيل: ذات الحسن والزينة، عن علي بن أبي طالب. وروى علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ﴾ فقال: محبوبة إلى الأرض وشبك بين أصابعه. فقلت: كيف تكون محبوبة إلى الأرض والله تعالى يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ فقال: سبحان الله، أليس يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ قلت: بلى، قال: فثم عمد ولكن لا تَرَى! فقلت: فكيف ذلك جعلني الله فداك؟ قال: فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية، والسماء الثالثة فوقها قبة، ثم هكذا إلى الأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبة، وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وصاحب الأمر، وهو النبي ﷺ، والوصي^(١) علي بعده، وهو على وجه الأرض، وإنما يتنزل الأمر إليه من فوق، من بين السماوات والأرضين. قلت: وما تحتنا إلى أرض واحدة، قال: وما تحتنا إلا أرض واحدة، وإن الست لفوقنا. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم، أي: إنكم يا أهل مكة في قول مختلف في قول محمد ﷺ، فبعضكم يقول: شاعر، وبعضكم يقول: مجنون، وفي القرآن يقولون: إنه سحر، وكهانة، ورجز، وما سطره الأولون. وقيل معناه: منكم مُكَذِّبٌ بمحمد ﷺ، ومنكم مُصَدِّقٌ به، ومنكم شاك فيه. وفائدته أن دليل الحق ظاهر، فاطلبوا الحق بدليله وإلا هلكتم.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عن الإيمان به من صُرفٍ عن الخير، أي: المصروف عن الخيرات كلها من صرف عن هذا الدين. وقيل معناه: يؤفك عن الحق والصواب من أفك، فدل ذكر القول المختلف على ذكر الحق، فجازت الكناية عنه. وقيل معناه: يصرف عن هذا القول، أي: بسببه ومن أجله، عن الإيمان، من صرف. فالهاء في ﴿عَنْهُ﴾ تعود إلى القول المختلف، عن مجاهد، فيكون الصارف لهم أنفسهم، كما يقال: فلان معجب بنفسه، وأعجب بنفسه، وكما يقال: أين: يذهب بك؟ لمن يذهب في شغله. وقيل: إن الصارف لهم رؤساء البدع وأئمة الضلال، لأن العامة تبع لهم. ﴿قُلْ الْخَرَصُونَ﴾ أي: لُعِنَ الكذابون، يعني الذين يكذبون على الله

(١) وفي نسخة: والولي من بعده وفي نسخة: والوصي من بعده.

وعلى رسوله. وقيل معناه: لعن المرتابون، عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: وإنما كان القتل بمعنى اللعنة هنا، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

ثم وصف سبحانه هؤلاء الكفار، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ أَي: في شبهة وغفلة غمرهم الجهل﴾ ﴿سَاهُونَ﴾ أي: لاهون عما يجب عليهم. وقيل: هم في ضلالتهم متمادون، عن ابن عباس. وقيل: في عمى مترددون، عن قتادة. وقيل: إن أول مراتب الجهل السهو ثم الغفلة، ثم الغمرة، فتكون الغمرة عبارة عن المبالغة في الجهل، أي هم في غاية الجهل السهو ثم الغفلة، الحق، وعما يراد بهم. ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: متى وقت الجزاء؟ إنكاراً واستهزاء، لا على وجه الاستفادة لمعرفة، فأجيبوا بما يسوءهم من الحق الذي لا محالة أنه نازل بهم، فقيل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ﴾ أي: يكون هذا الجزاء في يوم يُعَذَّبُونَ فيها، ويحرقون بالنار، وقال عكرمة: ألم تر أن الذهب إذا أُدْخِلَ النار قيل: فتن، أي: فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب بإحراق الغش الذي فيه، ويقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: عذابكم وحريقكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً به، واستبعاداً له، فقد حصلتم الآن فيه وعرفتم صحته.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ ﴿٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ۖ ﴿٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۖ ﴿٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ۖ ﴿٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَفَكِّينَ ۖ ﴿١٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿١١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۖ ﴿١٢﴾ قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ ۖ ﴿١٣﴾﴾.

● **القرءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص «مثل» بالرفع، والباقون بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع «مثلاً» جعله وصفاً لـ«حق»، وجاز أن يكون «مثل» وإن كان مضافاً إلى معرفة صفة للنكرة، لأن «مثلاً» لا يختص بالإضافة، لكثرة الأشياء التي يقع التماثل بها بين المتماثلين، فلما لم تخصه بالإضافة، ولم يزل عنه الإبهام والشياع الذي كان فيه قبل الإضافة، بقي على تنكره. فقالوا: مرتت برجل مثلك، فلذلك في الآية لم يتعرف بالإضافة إلى ﴿أَنْتُمْ تَنْطِفُونَ﴾؛ وإن كان قوله: ﴿أَنْتُمْ تَنْطِفُونَ﴾ بمنزلة نطقكم، و«ما» في قوله: ﴿يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِفُونَ﴾ زائدة.

وأما من نصب فقال: ﴿يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ﴾ فيحتمل ثلاثة أضرب:

أحدهما: إنه لما أضاف مثل إلى مبني وهو قوله: ﴿أَنْتُمْ﴾، بناه كما بنى يومئذ في نحو قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيٍّ﴾ [على حين عاتبت المشيب على الصبا]، وقوله:

لَمْ يَمْنَعْ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ تَطَقَّتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونِ ذَاتِ أَوْقَالٍ
 فغير في موضع رفع بأنه فاعل يمنع. وإنما بنيت هذه الأسماء المبهمة نحو: مثل ويوم
 وحين وغير، إذا أضيفت إلى المبني، لأنها تكتسي منه البناء، لأن المضاف يكتسي من المضاف
 إليه ما فيه من التعريف، والتنكير، والجزاء، والاستفهام. تقول: هذا غلام زيد، وصاحب
 القاضي، فيتعرف الاسم بالإضافة إلى المعرفة. وتقول: غلام مَنْ يضرب؟ فيكون استفهاماً،
 وتقول: صاحب مَنْ يضرب أضرب، فيكون جزاء. فمن بنى هذه المبهمة إذا أضافها إلى مبني،
 جعل البناء أحد ما يكتسيه من المضاف إليه، ولا يجوز على هذا: جاءني صاحب الخمسة
 عشر، ولا غلام هذا، لأن هذين من الأسماء غير المبهمة، والمبهمة في إبهامها وبعدها من
 الاختصاص، كالحروف التي تدل على أمور مبهمة، فلما أُضيفت إلى المبنية جاز ذلك فيها،
 والبناء على الفتح في ﴿مِثْلُ﴾ قولُ سيبويه.

والقول الثاني: أن تجعل «ما» مع «مثل» بمنزلة شيء واحد، وبنيته على الفتح، وإن كانت
 «ما» زائدة. وهذا قول أبي عثمان، وأشد في ذلك قول الشاعر:

وتداعى مِنْ خَرَاهِ بَدَمٍ مِثْلَ مَا أَثْمَرَ حُمَاضُ الْجَبَلِ^(١)

فذهب إلى أن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، وينبغي أن يكون «أثمر» صفة لـ «مثل ما»
 لأنه لا يخلو من أن يكون صفة له، أو يكون مثلاً مضافاً إلى الفعل فلا تجوز الإضافة، لأننا لم
 نعلم مثلاً أضيف إلى الفعل في موضع، فكذلك لا نضيفه في هذا الموضع إلى الفعل، فإذا لم
 تجز الإضافة كان وصفاً، وإذا كان وصفاً وجب أن يعود منه إلى الموصوف ذكر، فيحذف كما
 يحذف الذكر العائد من الصفة إلى الموصوف.

وقد يجوز ألا يقدر «مثل» مع «ما» كشيء واحد. ولكن تجعله مضافاً إلى «ما» فيكون
 التقدير: مثل شيء أثمره حماض الجبل، فبني «مثل» على الفتح لإضافتها إلى «ما» وهو غير
 متمكن، ولا يكون لأبي عثمان حينئذ في البيت حجة على كون «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء
 واحد. ويجوز أن يكون «ما» والفعل بمنزلة المصدر، فيكون كقوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَحْدُونَ﴾ وفي قوله: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

والقول الثالث: هو أن ينصب على الحال من النكرة في النطق، وهو قول أبي عمرو
 الجرمي. وذو الحال الذكر المرفوع في قوله: ﴿لَحَقُّ﴾، والعامل في الحال هو الحق، لأنه من
 المصادر التي وصف بها.

ويجوز أن يكون الحال من النكرة الذي هو حق في قوله: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾، وإلى هذا ذهب
 أبو عمرو. ولا يعلم أنه جعله حالاً من الذكر الذي في حق، وهذا لا خلاف في جوازه. وقد
 حمل أبو الحسن قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُقَرَّرُ كُلُّ أَمْرِ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ على الحال، وذو الحال
 ﴿كُلُّ أَمْرِ حَكِيمٍ﴾ وهو نكرة. فهذه وجوه النصب في «مثل ما».

(١) الحُمَاض: بقلة برّية تنبت أيام الربيع في مسائل الماء، ولها ثمرة حمراء، وهي من ذكور البقول.

● **الإعراب:** ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ﴾ يجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ خبر كان، وفاعله ﴿مَا يَهْتَجُونَ﴾ والتقدير: كانوا قليلاً هجوعهم، ويجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف على تقدير: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، فتكون ﴿مَا﴾ زائدة، و﴿يَهْتَجُونَ﴾ خبر «كان».

و﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الباء، كما يكون الباء بمعنى من في قوله: ﴿عَنَّا يَتِرِبْ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: منها. فيكون التقدير: كانوا يهجعون بالليل قليلاً. وقيل: إن قوله: ﴿مَا يَهْتَجُونَ﴾ بمنزلة هجوعهم، وهو بدل من الواو في ﴿كَانُوا﴾ وقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ في موضع الصفة لقليل، والتقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إن رفعت «آيات» بالابتداء، وجعلت «في الأرض» خبراً، كان الضمير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالضمير في خبر المبتدأ. وإن قدرت «آيات» مرتفعة بالظرف، كان الضمير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالضمير في الفعل، كقولهم: قام زيد وقعد، والتقدير: وفي أنفسكم آيات، وكذا قوله فيما بعد: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي موسى آيات، وفي هود آيات، وفي ثمود آيات، وفي قوم نوح آيات، وفي عاد آيات.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لأهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ مرّ تفسيره ﴿عَيْنِينَ مَّا ءَانَتْهُمْ﴾ أي: ما أعطاهم من الخير والكرامة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ يعني في دار التكليف ﴿مُحْسِنِينَ﴾ يفعلون الطاعات ويحسنون إلى غيرهم بضروب الإحسان. ثم ذكر إحسانهم في أعمالهم، فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ﴾ أي: كانوا يهجعون قليلاً من الليل يصلون أكثر الليل، عن الزهري وإبراهيم. والهجوع: النوم بالليل دون النهار. وقيل معناه: كانوا قلّ ليلة تمرّ بهم إلا صلوا فيها، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام). والمعنى: كان الذي ينامون فيه كله قليلاً، ويكون الليل اسماً للجنس. وقال مجاهد: لا ينامون كل الليل. وقيل: إن الوقف على قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ على معنى: كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتداء فقال: ﴿مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ﴾ فيكون «ما» بمعنى النفي، عن الضحاك ومقاتل. وهذا على نفي النوم عنهم البتة، أي: كانوا يحيون الليل بالقيام في الصلاة وقراءة القرآن.

وأقول: إن «ما» إذا كان نفياً، لا يتقدم عليه ما كان في حيّزه، إلا أن يتعلق قوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ بفعل محذوف، ويدل عليه قوله: ﴿يَهْتَجُونَ﴾ كما تقوله في قوله: ﴿إِنِّي لَكَا لَيْنَ النَّاصِيَةِ﴾، ﴿وَكَا نُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: قال الحسن: مدوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا بالأسحار في الاستغفار. وقال أبو عبد الله (عليه السلام): كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر. وقيل إن معناه: وبالأسحار هم يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار طلب منهم للمغفرة، عن مجاهد ومقاتل والكلبي.

ثم ذكر سبحانه صدقاتهم، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ والسائل: هو الذي يسأل الناس، والمحروم: هو المحارف^(١)، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: المحروم: المتعفف

(١) المحارف: المحروم المحدود إذا طلب فلا يُرْزق، خلاف مبارك.

الذي لا يسأل، عن قتادة والزهري. وقيل: هو الذي لا سهم له في الغنيمة، عن إبراهيم النخعي. والأصل أن المحروم هو الممنوع الرزق بترك السؤال، أو ذهاب المال، أو خراب الضيعة، أو سقوط السهم من الغنيمة، لأن الإنسان يصير فقيراً بهذه الوجوه. ويريد سبحانه بقوله: ﴿حَقُّ﴾ ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات وغير ذلك، أو ما ألزموه أنفسهم من مكارم الأخلاق.

قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم! وفرق قوم بين الفقير والمحروم، بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء، وقد يحرم نفسه بترك السؤال، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال، وإنما حرمه الغير، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه ولم يحرمه الناس.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ أي: دلالات بينات وحجج نيرات ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتحققون توحيد الله. وإنما خص المؤمنين لأنهم ينظرون فيها فيحصل لهم العلم بموجيها، وآيات الأرض ما فيها من أنواع المخلوقات من الجبال والبحار والنبات والأشجار، كل ذلك دال على كمال قدرته وحكمته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنتَهُ وَاجِدُ

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم أيضاً آيات دلالات على وحدانيته ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون أنها مصرفة من حال إلى حال، ومتقلة من صفة إلى أخرى إذ كنتم نطفاً فصرتم أحياء، ثم كنتم أطفالاً فصرتم شباباً، ثم كهولاً، فهلا دلكم ذلك على أن لها صانعاً صنعها، ومُدَبِّرًا دبرها، ومُضَرِّفًا صرفها على مقتضى الحكمة. وقيل: إن المراد بذلك اختلاف الألسنة، والصور، والألوان، والطبائع، عن ابن عباس في رواية عطاء. وقيل: يريد سبيل الخلاء والبول، والأكل والشرب، من مدخل واحد، والمخرج من سبيلين. وتم الكلام عند قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾. ثم عنفهم فقال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وقيل: يعني أنه خلقك سمياً بصيراً، تغضب وترضى، وتجوع وتشبع، وذلك كله من آيات الله تعالى، عن الصادق عليه السلام. وقيل: إن المعنى: أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنه يرى الحق بعينه.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ ينزله الله بأن يرسل الغيث والمطر عليكم، فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنفعون به. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب والعقاب، عن عطاء. وقيل: من الجنة والنار، عن مجاهد والضحاك. وقيل معناه: وفي السماء تقدير رزقكم، أي: ما قسمه لكم مكتوب في أم الكتاب، وجميع ما توعدون في السماء أيضاً، لأن الملائكة تنزل من السماء لقبض الأرواح، ولاستنساخ الأعمال، وإنزال العذاب. ويوم القيامة للجزاء والحساب، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالسَّحابِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً﴾. ثم قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أقسم سبحانه بنفسه أن ما ذكر من أمر الرزق والآيات حق لا شك فيه، عن الزجاج. وقيل: يعني أن ما قضى في الكتاب كائن، عن الكلبي. ﴿يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ أي: مثل نطقكم الذي تنطقون به، فكما لا تشكون فيما تنطقون، فكذلك لا تشكون في حصول ما وعدتم به. شبه الله تعالى تحقق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، فأراد أنه لحق كما أن الآدمي

ناطق. وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك هاهنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم. والمعنى: إنه في صدقه وتحقق وجوده كالذي تعرفه ضرورة.



قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ .

● **اللغة:** الروغ: الذهاب إلى الشيء في خفية، يقال: راغ يروغ رَوغاً ورَوُغاناً، وهو أزوغ من ثعلب. والصرة: شدة الصياح، وهو من صرير الباب. ويقال للجماعة: صرة أيضاً، قال امرؤ القيس:

فَأَلْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ، وَدُونَهُ جَوَّاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تُزَيَّلْ^(١)

والصك: الضرب باعتماد شديد، وهو أن تصتك ركبتي الرجل. والعقيم: العاقر، وأصل العقم: الشد، وجاء في الحديث: «تعقم أصلاب المشركين فلا يستطيعون السجود» أي: تشد، وداء عقام: إذا اشتد حتى يش منه أن يبرأ، ومعاقم الفرس: مفاصله يشد بعضها ببعض، والعقيم: ثياب معلمة، أي: شدت بها الأعلام، وعقمت المرأة فهي معقومة، وعقيم: من نساء عقم وعقمت أيضاً. ورجل عقيم من قوم عقمى. قال الشاعر:

عَقُمَ النِّسَاءُ فَمَا يُلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنْ النِّسَاءُ بِمِثْلِهِ عَقُمَ

والريح العقيم: التي لا تنشئ السحاب الممطر. والملك عقيم: يقطع الولادة، لأن الأب يقتل الابن على الملك. والخطاب: الأمر الجليل، ومنه الخطبة، لأنها كلام بليغ لعقد أمر جليل، يستفتح بالتحميد والتمجيد، والخطاب أجل من الإبلاغ.

● **المعنى:** لما قدّم سبحانه الوعد والوعيد، عَقَّب ذلك بذكر بشارة إبراهيم، ومهلك قوم لوط، تخويفاً للكفار أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد، وهذا اللفظ يستعمل إذا أخبر الإنسان بخبر ماضٍ، فيقال: هل أتاك خبر كذا؟ إن علم أنه لم يأت،

(١) الهاديات: المتقدّمات. والجواهر: المتخلفات. ولم تزيل: لم تتفرّق.

﴿حَدِيثٌ ضَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ الْكَرِيمِ﴾ عند الله، وذلك أنهم كانوا ملائكة كراماً. ونظيره قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. وقيل: أكرمهم إبراهيم فرفع مجالسهم، وخدمهم بنفسه، عن مجاهد^(١). لأن أضياف الكرام مُكْرَمُونَ. وكان إبراهيم أكرم الناس وأظهرهم فتوة، وسماهم ضيفاً من غير أن يأكلوا من طعامه، لأنهم دخلوا مدخل الأضياف. واختلف في عددهم، فقيل: كانوا اثني عشر ملكاً، عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: كان جبرائيل ومعه سبعة أملاك، عن محمد بن كعب. وقيل: كانوا ثلاثة: جبرائيل وميكائيل ومَلَكٌ آخر. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: حين دخلوا على إبراهيم فقالوا له على وجه التحية: سلاماً، أي: أسلم سلاماً، فقال لهم جواباً عن ذلك: سلام ﴿سَلَامٌ﴾. وقرئ: «سَلِيمٌ»، وهذا مفسر في سورة هود ﴿قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ﴾ أي: قال في نفسه: هؤلاء قوم لا نعرفهم، وذلك أنه ظنهم من الإنس ولم يعرفهم، عن ابن عباس. والإنكار: نفي صحة الأمر، ونقيضه: الإقرار والاعتراف. ﴿فَرَاغَ إِلَيْتِ أَهْلِيَّ﴾ أي: ذهب إليهم خفياً، وإنما راغ مخافة أن يمنعه من تكلف مأكول كعادة الظرفاء، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَابِقٍ﴾ وكان مشرباً، لقوله في آية أخرى: ﴿حَنِيزٍ﴾. قال قتادة: وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر. ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وفي الكلام حذف كما ترى. ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: فلما امتنعوا من الأكل أوجس منهم خيفة، والمعنى: خاف منهم، وظن أنهم يريدون به سوءاً ﴿قَالُوا﴾ أي: قالت الملائكة ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم ﴿وَيَسِّرُوا لَكُمْ عِلْمَ﴾ أن يكون عالماً إذا كبر وبلغ، والغلام المبشر به هو إسماعيل، عن مجاهد. وقيل: هو إسحاق لأنه من سارة، وهذه القصة لها عن أكثر المفسرين، وهذا كله مفسر فيما مضى. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْثَهَا فِي صَرْفٍ﴾ أي: فلما سمعت البشارة امرأته سارة أقبلت في ضجة، عن ابن عباس ومجاهد وقاتدة. وقيل: في جماعة، عن الصادق عليه السلام. وقيل: في رفقة^(٢)، عن سفيان. والمعنى: أخذت تصيح وتولول كما قالت: يا ويلتي. ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ أي همعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً، عن مقاتل والكلبي. وقيل: لطمت وجهها، عن ابن عباس. والصك: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: كما قلنا لك قال ربك أنك ستلدين غلاماً فلا تشكي فيه، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ بخفايا الأمور.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم؟ ولأي أمر جئتم؟ ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ وكأنه قال: قد جئتم لأمر عظيم فما هو؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: عاصين لله كافرين لنعمه، استحقوا العذاب والهلاك. وأصل الجرم: القطع، فالمجرم القاطع للواجب بالباطل، فهؤلاء أجرموا بأن قطعوا الإيمان بالكفر. ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴿هَذَا مَفْسَّرٌ فِي سُوْرَةِ هُوْدٍ﴾ ﴿لِلْمُتَسْرِفِينَ﴾ أي: للمكثرين من المعاصي المتجاوزين الحد فيها. وقيل: أُرْسِلَتِ الحجارة على الغائبين، وقلبت القرية بالحاضرين. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قوم لوط ﴿مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وذلك قوله: ﴿فَأَنشَرِ بِأَهْلِكَ﴾ الآية. وذلك أن الله تعالى

أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين لثلاثي يصبهم العذاب. ﴿فَمَا وَهَدَنَا فِيهَا بَئِتَ مِنْ الْمُتْلِينَ﴾ أي: غير أهل بيت من المسلمين، يعني لوطاً وبنتيه، وصفهم الله بالإيمان والإسلام جميعاً، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. والإيمان: هو التصديق بجميع ما أوجب الله التصديق به، والإسلام: هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الذي أوجبه الله وألزمه، ووجدان الضالة: هو إدراكها بعد طلبها. ﴿وَرَكَّابًا فِيهَا﴾ أي: وأبقينا في مدينة قوم لوط ﴿بَئِتَ﴾ أي: علامة ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: تدلهم على أن الله أهلهم فيخافون مثل عذابهم، والترك في الأصل ضد الفعل، ينافي الأخذ في محل القدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على الأخذ، وعلى هذا فالترك غير داخل في أفعال الله تعالى. فالمعنى هنا: إنا أبقينا فيها عبرة، ومثله قوله: ﴿وَرَكَّابًا فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وقيل: إنه الانقلاب، لأن اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلا الله تعالى.



قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّىٰ مُرْكِبُهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذْتَهُ يَحْشُدُهُ فَبَدَّاهُمْ فِي آلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَهَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي: «والصغقة»، والباقون «الصاعقة» بالألف. وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير عاصم: «وقوم نوح» بالجر، والباقون: «قوم نوح» بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو زيد: الصاعقة التي تقع من السماء، والصاعقة التي تصقع الرؤوس. وقال الأصمعي: الصاعقة والصاعقة سواء، وأنشد الأصمعي:

يَخْكُونُ بِالْمَضْقُولَةِ الْقَوَاطِعِ تَشْقُقُ الْبَرْقِ مِنَ الصَّوَاغِعِ

وأما الصعقة ففيل: إنها مثل الزجرة، وهو الصوت الذي يكون عن الصاعقة، قال بعض الرجاز:

لَا حَ سَحَابَ فَرَأَيْنَا بَرْقَهُ ثُمَّ تَذَانَى فَسَمِعْنَا صَغَقَهُ

ومن جر «قوم نوح» حملة على قوله: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي قوم نوح، وقوله: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ عطف على أحد شيئين: إما أن يكون على ﴿وَرَكَّابًا فِيهَا بَئِتَ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾، أو على قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي إرسال موسى آيات واضحة، وفي قوم نوح آية. ومن نصب فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ جاز في نصبه أيضاً أمران كلاهما حمل على المعنى.

أحدهما: إن قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةَ﴾ يدل على أهلكناهم، فكأنه قال: وأهلكنا قوم نوح. والآخر: إن قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ يدل على أغرقناهم، فكأنه قال: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح.

● **اللغة:** الركن: الجانب الذي يعتمد عليه، يقال: ركن يركن، وركن يزكن أيضاً، مثل نصر ينصر. والمُليم: الذي أتى بما يلام عليه، والملوم: الذي وقع به اللوم، وفي المثل: «رب لائم مليم، ورب ملوم لا ذنب له». والعتو والتجبر والتكبر واحد. وجمع الريح: أرواح ورياح، ومنه: راح الرجل إلى منزله، أي: رجع كالريح. والريميم: الذي انتفى زمه بانتفاء ملائمة بعضه لبعض، وأما رمه يرمه رماً والشيء مرموم، أي: مصلح بملاءمة بعضه لبعض، وأصل الريميم: السحيق البالي من العظم.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما نزل بالأُمم، فقال: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي: وفي موسى أيضاً آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة وهي العصا، ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُودًا﴾ أي: فأعرض فرعون عن قبول الحق بما كان يتقوى به من جنده وقومه، كالركن الذي يقوى به البنيان. والباء في قوله: ﴿رُكُودًا﴾ للتعدية، أي: جعلهم يتولون. ﴿وَقَالَ لِمُوسَىٰ﴾ أي: هو ساحر أو مجنون. وفي ذلك دلالة على جهل فرعون، لأن الساحر هو اللطيف الحيلة، وذلك ينافي صفة المجنون المختلط العقل، فكيف يرصف شخص واحد بهاتين الصفتين؟ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: فطرحناهم في البحر، كما يلقي الشيء في البر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتو.

﴿وَفِي عَادٍ﴾ عطف على ما تقدم، أي: وفي عاد أيضاً آية، أي: دلالة فيها عظة وعبرة. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ أي: حين أطلقنا عليهم ﴿الرَّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وهي التي عقلت عن أن تأتي بخير من تنشئة سحاب، أو تلقيح شجر، أو تذية طعام، أو نفع حيوان، فهي كالمرأة الممنوعة عن الولادة، إذ هي ريح الإهلاك. ثم وصفها فقال: ﴿مَا تَذُرُّ مِن شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ﴾ أي: لم تترك هذه الريح شيئاً تمر عليه ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس. وقيل: الريميم العظم البالي السحيق.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أيضاً آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَنْعَمُوا﴾ وذلك أنهم لما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام، وهو قوله: ﴿تَنْعَمُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، ﴿فَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فخرجوا عن أمر ربهم ترفعاً عنه واستكباراً. ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْقَةَ﴾ بعد مضي الأيام الثلاثة، وهو الموت، عن ابن عباس. وقيل: هو العذاب، والصاعقة: كل عذاب مهلك، عن مقاتل ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها جهاراً لا يقدرون على دفعها ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَارٍ﴾ أي: من نهوض. والمعنى: إنهم لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب. وقيل معناه: ما كانوا طالبين ناصراً يمنعونهم من عذاب الله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من ﴿بَلٍ﴾ أي: من قبل عاد وثمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى معاصيه، وعن الإيمان إلى الكفر، فاستحقوا لذلك الإهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (٥٢) ﴿اتَّوَاصُوا بِهٖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) ﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠).

● **القراءة:** في الشواذ قراءة يحيى والأعمش: «ذو القوة المتين» بالخفض.

● **الحجة:** قال ابن جني: هذا يحتمل امرين:

أحدهما: أن يكون وصفاً للقوة، وذكره على معنى الحبل، يريد قوي الحبل كقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

والآخر: أن يكون المراد الرفع وصفاً للرزاق، إلا أنه جاء على لفظ القوة لجوارها إياه على قولهم: «هذا جحر ضب خرب» فهذا ضعيف.

● **اللغة:** الأيد: القوة، يقال: آد الرجل يشد أيداً: إذا اشتد وقوي، والمؤيد: الأمر العظيم. والإيساع: الإكثار من إذهاب الشيء في الجهات. والماهد: هو الموطىء للشيء وهو المهيء لما يصلح الاستقرار عليه. يقال: مهّد مهّداً ومهّداً تمهيداً، مثل وطأً وتوطئة. والتواصي: أن يوصي القوم بعضهم إلى بعض، والوصية: التقدمة في الأمر بالأشياء المهمة مع النهي عن المخالفة. وأصل الذنوب: الدلو الممتلىء ماء، يؤنث ويذكر، قال:

لنا ذنوبٌ، ولكم ذنوبٌ، فإن أبينُّم فلنا القليلُ^(١)

وقال علقمة:

وفي كل حيٍّ قد خَبَطَتْ بنعمةٍ فَحَقُّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ^(٢)

● **المعنى:** ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ تقديره: وبينا السماء بنيناها بقوة، عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة، أي: خلقناها ورفعناها على حسن نظامها. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قادرون على خلق ما هو أعظم منها، عن ابن عباس. وقيل معناه: وإنا لموسعون الرزق على الخلق بالمطر، عن الحسن. وقيل معناه: وإنا لذو سعة لخلقنا، أي: قادرون على رزقهم لا نعجز عنه،

(١) يقسم الماء ويقول: لنا دلو منه، ولكم دلو، فإن لم ترضوا بالقسمة، فتقهركم نملك الماء نحن فقط.

(٢) خبط زيد عمراً بخير: أعطاه من غير معرفة بينهما. وشاس: أخو الشاعر.

فالموسع: ذو الوسع والسعة، أي: الغنى والجدة. ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْتَهَا﴾ أي: وفرشنا الأرض فرشناها، أي: بسطانها، ﴿فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ﴾ نحن إذ فعلنا ذلك للمنافع ومصالح العباد، لا لجر نفع ولا لدفع ضرر. ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: وخلقنا من كل شيء صنفين، مثل الليل والنهار، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والجن والإنس، والبر والبحر، والنور والظلمة، عن الحسن ومجاهد. وقيل: الزوجين، الذكر والأنثى، عن ابن زيد. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تعلموا أن خالق الأزواج واحد فرد لا يشبهه شيء. ﴿فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: فاهربوا من عقاب الله إلى رحمته وثوابه بإخلاص العبادة له. وقيل: ففروا إلى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته، ويقطعكم عما أمركم به. وقيل معناه: حجوا، عن الصادق عليه السلام. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَيْتُهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ مَخَوْفٌ من عقابه ﴿شُيْنٌ﴾ لكم ما أرسلت به. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا تعبدوا معه معبوداً آخر من الأصنام والأوثان، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَيْتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والوجه في تكريره أن الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأول، إذ تقديره: إني لكم منه نذير في الامتناع من جعل إله آخر معه، وتقدير الأول: إني لكم منه نذير في ترك الفرار إليه بطاعته، فهو كقولك: أُنذرك أن تكفر بالله، أُنذرك أن تتعرض لسخط الله. والنذير: المخبر بما يحذر منه، وهو يقتضي المبالغة، والمنذر صفة جارية على الفعل، والمبين الذي يأتي ببيان الحق من الباطل.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك وهو أنه ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ أي: لم يأت الذين من قبلهم - يعني كفار مكة من الأمم - رسول، إلا قالوا: ساحر محتال بالحيل اللطيفة، أو مجنون به جنون فهو مغطى على عقله، بما لا يتوجه للإدراك به. ثم قال سبحانه: ﴿أَتَوَصَّوُا بِهِمْ﴾ أي: أوصى أولهم آخرهم بالكذب، والاستفهام للتوبيخ. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ معناه: لم يتواصوا بذلك، لكنهم طاغون طغوا في معصية الله، وحملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيب أنبيائي. ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، فقد بلغت وأُنذرت، وهو قوله: ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٍ﴾ أي: في كفرهم وجحودهم، بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم إليه. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حل، حتى نزلت الآية الثانية. وروي بالإسناد عن مجاهد قال: خرج علي بن أبي طالب عليه السلام مغتماً مشتماً في قميصه، فقال: لما نزلت ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٍ﴾ لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾. فلما نزل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ طابت نفوسنا، ومعناه: عَظْ بالقرآن من آمن من قومك، فإن الذكرى تنفعهم، عن الكلبي. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ أي: لم أخلق الجن والإنس إلا لعبادتي، والمعنى: لعبادتهم إياي، عن الربيع. فإذا عبدوني استحقوا الثواب. وقيل: إلا لآمرهم وأنهاهم وأطلب منهم العبادة، عن مجاهد. واللام لام الغرض، والمراد: إن الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلا بأداء العبادات، فصار كأنه سبحانه خلقهم للعبادة. ثم إنه إذا لم يعبدوه قوم لم يبطل الغرض، ويكون كمن هياً طعاماً لقوم ودعاهم ليأكلوه، فحضرُوا ولم يأكله بعضهم، فإنه لا ينسب إلى السفه ويصح غرضه، فإن الأكل موقوف على اختيار الغير، وكذلك المسألة، فإن الله

سورة الذاريات

إذا أراح علل المُكَلِّفِينَ من القدرة، والآلة، والألطاف، وأمرهم بعبادته، فمن خالف فقد أُتِيَ من قبل نفسه، لا من قبله سبحانه. وقيل معناه: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً، عن ابن عباس ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ هذا نفي الإبهام عن خلقهم لعبادته أن يكون ذلك لعائدة نفع يعود عليه تعالى، فبين أنه لعائدة النفع على الخلق دونه تعالى، لاستحالة النفع عليه، لأنه غني لنفسه فلا يحتاج إلى غيره، وكل الخلق يحتاج إليه. وقيل معناه: ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، وما أريد أن يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق كلهم عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ لعباده وللخلائق كلهم، فلا يحتاج إلى معين، ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي: ذو القدرة ﴿الْعَلِيِّنَ﴾ أي: القوي الذي يستحيل عليه العجز والضعف، إذ هو القادر لنفسه. يقال: مَثْنٌ مِثْلُهُ فهو متين: إذا قوى ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا، نحو قوم نوح وعاد وثمود، ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ بإنزال العذاب عليهم، فإنهم لا يفوتون. ﴿قَوْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ هذا يدل على أنهم أُخْرُوا إلى يوم القيامة، والويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في الهلكة.

● **النظم:** وجه اتصال قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ بما قبله هو أنه في قوم نوح آية، وفي السماء آية، فهو متصل به في المعنى.

سُورَةُ الطُّورِ

مكية/آياتها (٢٩)

- عدد آياتها: تسع وأربعون آية كوفي شامي، وثمان بصري، وسبع حجازي.
- اختلافها: آيتان: ﴿وَالطُّورِ﴾ عراقي شامي ﴿دَعَا﴾ كوفي شامي.
- فضلها: أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن قرأ سورة والطور^(١)، كان حقاً على الله أن يأمنه من عذابه، وأن ينعمه في جنته». وعن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. وروى محمد بن هشام عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الطور، جمع الله له خير الدنيا والآخرة.
- تفسيرها: لما ختم الله سورة الذاريات بالوعيد، افتتح هذه السورة بوقوع الوعيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤
وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَكَ مِنْ دَافِعٍ ٨
يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ
فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾.

- اللغة: قال المبرد: يقال لكل جبل: طور، فإذا دخلت الألف واللام للمعرفة، فهو شيء بعينه. والرق: جلد يكتب فيه، وأصله من اللمعان، يقال: ترقق الشيء إذا لمع، والرقراق: ترقق السراب. والمسجور: المملوء، يقال: سَجَزَتِ التَّنُورُ. أي: ملأته ناراً، وعين سَجَرَاء: ممتلئة فيها حمرة كأنها احمرت مما هو حولها، كالسجار للتنور، قال لبيد:

فتوسَّطَا عرضَ السَّريِّ فصَدَّعَا مَسْجُورَةً متجاوراً قُلَامُهَا^(٢)

(١) وفي بعض النسخ: سورة الطور.

(٢) مر البيت في ج٦.

سورة الطور

والمور: تردد الشيء بالذهاب والمجيء، كما يتردد الدخان ثم يضمحل، مار ممور موراً فهو مائر، وروي بيت الأعشى:

كَأَن مِشْيَتِهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

وقيل: مرُّ السحابة. والخوض: الدخول في الماء بالقدم، وشبه به الدخول في القول. والدع: الدفع، يقال: دَعَّه يدعُّه دعاً، وصكَّه صكاً مثله.

● **الإعراب:** ﴿وَالطُّورِ﴾ الواو للقسمة، وما بعده عطف عليه، والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾. قوله: ﴿وَأَفْعُ﴾ أي: يقع في ذلك اليوم، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾. هاهنا على تقدير: إذا، ويكون العامل فيه جوابه، وهو الفاء وما بعده من قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، كما جاء ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَتُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾، وإن شئت كان التقدير فيه: يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً، يقال لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، فيعمل فيه يُقال ﴿أَفْسِحْ هَذَا﴾ مبتدأ وخبر ﴿أَمْ أَنْتَ﴾ أي: بل أنتم لا تبصرون.

● **المعنى:** ﴿وَالطُّورِ﴾ أقسم الله سبحانه بالجبل الذي كلم عليه موسى ﷺ بالأرض المقدسة، عن الجبائي وجماعة من المفسرين. وقيل: هو الجبل أقسم به لما أودع فيه من أنواع نعمه، عن مجاهد والكلبي. ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب وهو الكتاب الذي كتبه الله لملائكته في السماء، يقرأون فيه ما كان وما يكون، وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وهو الرق المنشور. وقيل: صحائف الأعمال التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة، فمنهم آخذ كتابه بيمينه وآخذ بشماله، وهذا كقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ عن الفراء، وقيل: هو التوراة كتبها الله لموسى فخص الطور بالذكر لبركتها، وكثرة منافعها في الدنيا، وذكر الكتاب لعظم موقعها من الدين، عن الكلبي. وقيل: إنه القرآن يكتبه المؤمنون ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أي: وينشرونه لقراءته، والرق: ما يكتب فيه، وقيل: الرق هو الورق، عن أبي عبيدة. وقيل: إنما ذكر الرق لأنه من أحسن ما يكتب فيه، وإذا كتبت الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبهى، والمنشور: المبسوط. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو بيت في السماء الرابعة بحال الكعبة، تعمده الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة، عن ابن عباس ومجاهد. وروي أيضاً عن أمير المؤمنين ﷺ قال: ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبداً. وروي عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «البيت المعمور في السماء الدنيا، وفي السماء الرابعة نهر يقال له: الحيران، يدخل فيه جبريل كل يوم طلعت فيه الشمس، وإذا خرج انتفض انتفاضة جرت منه^(١) سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه، فيفعلون، ثم لا يعودون إليه أبداً». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي في السماء الدنيا يقال له: الضراح، وهو بقاء

(١) وفي المخطوطة: عنه.

البيت الحرام لو سقط سقط عليه، يدخله كل يوم ألف^(١) مَلَك لا يعودون إليه^(٢) أبداً. وقيل: البيت المعمور: هو الكعبة البيت الحرام، معمور بالحج والعمرة، عن الحسن، وهو أول مسجد وضع للعبادة في الأرض. ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ هو السماء، عن علي عليه السلام ومجاهد وقتادة وابن زيد، قالوا: هي كالسقف للأرض رفعها الله. ﴿وَالْبَحْرَ الْمُسْجُورَ﴾ أي: المملوء، عن قتادة، وقيل: هو الموقد المحمي بمنزلة التنور، عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد. ثم قيل: إنه تحمي البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً. ثم تفجر بعضها في بعض، ثم تفجر إلى النار، ورد به الحديث. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أقسم الله بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم القدرة على أن تعذيب المشركين حق واقع لا محالة. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفع عنهم ذلك العذاب.

ثم بين سبحانه أنه متى يقع فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي: تدور دوراناً وتضطرب وتموج وتتحرك وتستدير كل هذه من عبارات المفسرين، ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ أي: تسير الجبال وتزول من أماكنها حتى تستوي بالأرض؛ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة، والتقدير: إذا كان هذا فويل لمن يكذب الله ورسوله، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ﴾ أي: في حديث باطل يخوضون، وهو الحديث الذي كان يخوض فيه الكفار، من إنكار البعث وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: يلهون بذكره ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ أي: يدفعون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ أي: دفعاً بعنف وجفوة. قال مقاتل: هو أن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم، حتى إذا دنوا قال لهم خزنتها: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، ثم ويخوهم^(٣) لما عاينوا بما كانوا يكذبون به، وهو قوله: ﴿أَنسِخْ هَٰذَا﴾ الذي ترون أنتم ﴿أَمْ أَنْتَ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً صلى الله عليه وسلم إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فلما شاهدوا ما وعدوا به من العذاب وبخوا بهذا. ثم قال لهم: ﴿أَصْلَوْهَا﴾ أي: قاسوا شدتها ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ على العذاب ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ عليه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر والجزع، ﴿إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي بكفركم، وتكذيبكم الرسول.



قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمُ وَلَحْمٍ

(٣) وفي بعض النسخ: وبخهم.

(١) في نسخة: سبعون ألف ملك.

(٢) في بعض النسخ: فيه.

سورة الطور

مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٣﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زِلْزَالُهَا لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مُّكُونٌ ﴿٢٥﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْهِمْ وَعَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٨﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾.

القراءة: قرأ أبو عمرو: «وأَتبعناهم» بالنون والالف وقطع الهمزة، «ذرياتهم» بالالف وكسر التاء و«أَلحقنا بهم ذرياتهم» كذلك. وقرأ أهل المدينة: «وأَتبعتهم» بالتاء ووصل الهمزة، «ذرياتهم» بالرفع «أَلحقنا بهم ذرياتهم» على الجمع. وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة: «وأَتبعتهم ذرياتهم» «أَلحقنا بهم ذرياتهم» كذلك، وقرأ ابن عامر ويعقوب وسهل: «اتبعتهم ذرياتهم» جمع^(١)، «أَلحقنا بهم ذرياتهم» أيضاً. وقرأ ابن كثير: «وما أَلتئاهم» بكسر اللام، والباقون «وأَلتئاهم» بفتح اللام. وقرأ أهل المدينة والكسائي: «أنه هو البر الرحيم» بالفتح، والباقون «إنه» بالكسر. وفي الشواذ قراءة عبد الله وإبراهيم: «وزوجناهم بعيس عين». وقراءة الأعرج «وما أَلتئاهم» على أفعلناهم.

● الحجة: قال أبو علي: الذرية: تقع على الصغير والكبير، فالأول نحو قوله ﴿ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ﴾، والثاني نحو قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ فإن حملت الذرية في الآية على الصغار، كان قوله: ﴿يَا بَنِي﴾ في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي: اتبعتهم بإيمان من الآباء ذرياتهم أَلحقنا الذرية بهم في أحكام الإسلام، فجعلناهم في حكمهم في أنهم يرثون ويورثون، ويدفنون في مقابر المسلمين، وحكمهم حكم الآباء في أحكامهم، إلا فيما كان موضوعاً عن الصغير لصغره.

وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله ﴿يَا بَنِي﴾ حالاً من الفاعلين الذين هم ذرياتهم، أي: أَلحقنا بهم ذرياتهم في أحكام الدنيا، والثواب في الآخرة. ﴿وَمَا أَلتَّئَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ أي: من جزاء عملهم من شيء، كما قال: ﴿فَلَا نُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ وكما قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

ومن قرأ «ذرياتهم» فأفرد؛ فلأن الذرية تقع على الكثرة، فاستغنى بذلك عن جمعه، وكذا القول في ﴿يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ في أنه أفرد: «ذُرِّيَّتِهِمْ»، وألحق التاء في «وَأَتَبَعْتَهُمْ» لتأنيث الاسم. ومن جَمَعَهُ فلأن المجموع قد يجمع، نحو: أقوام، وطرقات، وفي الحديث: «إِنَّكَ صَوَاحِبَاتِ يَوْسُفَ».

ومن قرأ «أَلتئاهم» بكسر اللام، فيشبه أن يكون فعلنا لغة، كما قالوا: نَقَمَ يَنْقُمُ نَقْمَ يَنْقُمُ. ومن قرأ «ندعوه أنه» بالفتح، فالمعنى: لأنه هو البر الرحيم. ومن كسر قطع الكلام عما قبله واستأنف. قال ابن جني: المرأة العيساء البيضاء، ومثله جمل أعيس، وناقعة عيساء. قال: كأنها

(١) ليس في بعضها لفظة جمع.

البكرة العيساء. ويقال: أَلْتِه يَأْلْتِه أَلْتَا، وآلْتِه يَوْلْتِه إِيْلَاتَا، ولَاتِه يِلِيْتِه لِيْتَا وولْتِه يِلْتِه وَلْتَا، أي: نقصه. قال الحطيطي:

أبلغ لديك بني سَعْدٍ مُغْلَقَةً جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا أَلْتَا وَلَا كَذِبَا

● **المعنى:** لما تقدم وعيد الكفار، عقبه سبحانه بالوعد للمؤمنين. فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله خوفاً من عقابه ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: في بساتين تجتثها الأشجار، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أي: وفي نعيم ﴿فَنَكِهِينَ يَمَّا أَتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: منعمين بما أعطاهم ربهم من أنواع النعيم. وقيل: فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، عن الزجاج والفراء. ﴿وَوَفَّاهُمْ﴾ أي: وصرف عنهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً، مأمون العاقبة من التهمة والسقم. ثم ذكر حالهم في الأكل والشرب فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ والسُرر: جمع سرير، والمصفوفة: المصطفة الموصول بعضها ببعض. وقيل: إن في الكلام حذفاً تقديره: متكئين على نمارق موضوعة على سرر، لكنه حذف لأن اللفظ يدل عليه، من حيث أن الاتكاء جلسة راحة ودعة، ولا يكون ذلك إلا على الوسائد والنمارق. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ فالحور: البيض النقيات في حسن وكمال، والعين: الواسعات الأعين في صفار وبهاء، ومعناه قرناً هؤلاء المتقين بحور عين على وجه التمتع لهم والتنعيم. وعن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا قاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون، فقال: والذي نفسي بيده إن الرجل منهم ليؤتى قوة مائة رجل على الأكل، والشرب، والجماع. قال: فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال: عرق فيفيض مثل ريح المسك، فإذا كان ذلك ضمير بطنه».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني بالذرية أولادهم الصغار والكبار، لأن الكبار يتبعون الآباء بإيمان منهم، والصغار يتبعون الآباء بإيمان من الآباء. فالولد يحكم له بالإسلام تبعاً لوالده، واتباع: بمعنى تبع. ومن قرأ «وأتبعناهم» فهو منقول من تبع، ويتعدى إلى المفعولين.

وقيل: الإتياع إلحاق الثاني بالأول في معنى يكون الأول عليه، لأنه لو ألحق به من غير أن يكون في معنى هو عليه، لم يكن اتباعاً وكان إلحاقاً. والمعنى: إنا نلحق الأولاد بالآباء في الجنة والدرجة من أجل إيمان الآباء، لتقر أعين الآباء باجتماعهم معهم في الجنة كما كانت تقر بهم في الدنيا، عن ابن عباس والضحاك وابن زيد. وفي رواية أخرى، عن ابن عباس: إنهم البالغون ألحقوا بدرجات آبائهم وإن قصرت أعمالهم تكرمة لآبائهم، فإن قيل: كيف يلحقون بهم في الثواب ولم يستحقوه؟ فالجواب: إنهم يلحقون بهم في الجمع لا في الثواب والمربة.

وروي زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن الصادق قال: أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة. ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقنا بهم ذرياتهم، عن ابن عباس ومجاهد، وتم الكلام.

سورة الطور

ثم ذكر سبحانه أهل النار فقال ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: كل امرئ كافر مرتبه في النار بما كسب، أي: عمل من الشرك، عن مقاتل. والمؤمن من لا يكون^(١) مرتبه لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ * إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ، فاستثنى المؤمنين. وقيل: معناه كل إنسان مُعَامِل بما يستحقه، ويجازى بحسب ما عمله، إن عمل طاعة أثيب وإن عمل معصية عوقب، ولا يؤخذ أحد بذنب غيره.

ثم ذكر سبحانه ما يزيدهم من الخير والنعمة فقال: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَةٍ﴾ أي: أعطيناهم حالاً بعد حال، فإن الإمداد هو الإتيان بالشيء، والفاكهة: جنس الثمار، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وأعطيناهم وأمددناهم بلحم من الجنس الذي يشتهونه. ﴿يَشْتَرُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون كأس الخمر، ثم وصف الكأس فقال: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْيِيذٌ﴾ أي: لا يجزي بينهم باطل لأن اللغو ما يلغى، ولا ما فيه إثم، كما يجري في الدنيا بين شرب الخمر. والتأْيِيذ: تفعيل من الإثم، يقال: أَثَمُهُ إذا جعله ذا إثم، يعني أن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين. وقيل: معناه لا يتساقبون عليها، ولا يؤثم بعضهم بعضاً، عن مجاهد. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ في الحسن، والصباحة، والصفاء، والبياض، والمكنون: المصون المخزون. وقيل: إنه ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنة، بل لهم في ذلك اللذة والسرور، إذ ليست تلك الدار دار محنة. وذكر عن الحسن أنه قال: قيل: يا رسول الله، الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يتذكرون ما كانوا فيه من التعب، والخوف في الدنيا، عن ابن عباس. وهو قوله ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ أي: خائفين في دار الدنيا من العذاب ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ أي: عذاب جهنم، والسموم: من أسماء جهنم، عن الحسن. وقيل: إن المعنى يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه في الدنيا فاستحقوا به المصير إلى الثواب، والكون في الجنان، فيقولون: إنا كنا في دار التكليف مشفقين، أي: خائفين رقيقين القلب. فإن الإشفاق: رقة القلب عما يكون من الخوف على الشيء، والشفقة: نقيض الغلظة، وأصله: الضعف من قولهم ثوب شقيق، أي: ضعيف النسيج. ومنه الشفق للحمرة عند غروب الشمس، لأنها حمرة ضعيفة. وقوله: ﴿فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ يريد فيمن يختص به ممن هو أولى بنا، والأهل: هو المختص بغيره من جهة ما هو أولى به، والسموم: الحر الذي يدخل في مسام البدن يتألم به، وأصله من السَّم الذي هو مخرج النفس. فكل خرق سَم، أو من السم الذي يقتل. قال الزجاج: يريد عذاب سموم جهنم، وهو ما يوجد من لفحها وحرها. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: ندعو الله تعالى ونوحده ونعبده. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ أي: اللطيف، وأصله اللطف مع عظم الشأن، ومنه البرة للطفها مع عظم النفع بها. وقيل: البر الصادق فيما وعده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.



قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) **أَمْ يَقُولُونَ** شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ ﴿٣٠﴾ **قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** ﴿٣١﴾ **أَمْ تَأْمُرُهُمْ** أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا **أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴿٣٢﴾ **أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿٣٣﴾ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ** إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴿٣٥﴾ **أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْبِطُونَ** ﴿٣٧﴾ **أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَعِصُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِصِمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴿٣٨﴾ **أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ** ﴿٣٩﴾ **أَمْ نَسْتُلْهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَثْقَلُونَ** ﴿٤٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «المسيطرون» بالسين، وفي الغاشية «بمصيطر» بالصاد. وقرأ ابن عامر كليهما بالسين. وقرأ بإشمام الرائ^(١) فيهما حمزة إلا العجلي فإنه قرأ بالصاد فيهما. وقرأ الباقون بالصاد فيهما.

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: المسيطرون: الأرباب، يقال: تسيطر عليّ: اتخذتني خولاً. والأصل السين، وكل سين بعده طاء، يجوز أن تقلب صاداً، تقول: صطر واطر. وقد مر بيانه في سورة الفاتحة.

● **اللغة:** الكاهن: الذي يذكر أنه يخبر عن الحق على طريق العزائم، والكهانة: صنعة الكاهن. والمنون: المنية، وريبها: الحوادث التي تريب عند مجيئها. قال:

تربص بها ريبَ المُنُونِ لعلها سَيَهْلِكُ عنها بَعْلُها، أو سَيَجْنَحُ^(٢)

والتربص: انتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها، والأحلام: جمع الحُلُم، وهو الإمهال الذي يدعو إليها العقل والحكمة. والمسيطر: الملمزم غيره أمراً من الأمور قهراً، مأخوذ من السطر. والمثقل: المحمول عليه ما يشق حمله.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد أي: فعظ هؤلاء المُكَلِّفِينَ، ولا تترك دعوتهم وإن أساءوا قولهم فيك ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعام ربك عليك بالنبوة وهذا قسم، ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب بطريق خدمة الجن. ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو المؤوف بما يغطي على عقله، وقد علم الكفار أنه ﷺ ليس بكاهن ولا مجنون، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه، ليستريحوا إلى ذلك، كما يستريح السفهاء إلى التكذيب على أعدائهم. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل يقولون هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ أي: ننتظر به

(١) وفي نسخة: الزاء.

(٢) أي: انتظر بها حوادث الدهر، فإما يهلك بعلاها، أو ينصرف عنها، ويتركها فتزوجها.

سورة الطور

حدثان الموت، وحوادث الدهر، فيهلك كما هلك من تقدم من الشعراء. والمنون يكون بمعنى الدهر، ويكون بمعنى المنية. وأم هذه^(١) المنقطعة بمعنى الترك والتحول، كقول علقمة^(٢):

هل ما عَلِمْتُ، وما اسْتَوْدَعْتُ، مَكْتُومٌ أَمْ حَبْلُهَا، إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ، مَصْرُومٌ
فكأنه قال^(٣): حبلها مصروم، لأن بعده قوله:

أَمْ هَلْ كَبِيرٌ بِكِي، لَمْ يَفْضِ عَبْرَتُهُ إِثْرَ الْأَجْبَةِ، يَوْمَ الْبَيْنِ مَشْكُومٌ^(٤)

ثم قال سبحانه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَاصِينَ﴾ أي: إنكم إن تربصتم في حوادث الدهر، فإني منتظر مثل ذلك بكم، وتربص الكفار بالنبي ﷺ والمؤمنين قبيح، وتربص النبي ﷺ والمؤمنين بالكفار وتوقعهم لهلاكهم حسن. وقوله: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وإن كان بصيغة الأمر فالمراد به التهديد ﴿أَمْ نَأْمُرُهُمْ أَخْلَقَهُمْ بِذَٰلِكَ﴾ أي: بل أنأمرهم عقولهم بما يقولونه لك وتربصونه بك، قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول، فأزرى الله سبحانه بعقولهم، حيث لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل. ثم أخبر سبحانه عن طغيانهم فقال: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ وقرأ مجاهد: «بل هم قوم طاغون»، وبل في المعنى قريبة من أم هنا، إلا أن ما بعد بل متيقن، وما بعد أم مشكوك فيه. والمعنى: إن عقولهم لم تأمرهم بهذا، ولم تدعهم إليه، بل حملهم الطغيان على تكذيبك. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ أي: افتعل القرآن وتكذبه من تلقاء نفسه، والتقول: تكلف القول، ولا يقال ذلك إلا في الكذب ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل ثبت أنه من عند الله ولكنهم لا يصدقون بذلك عناداً، وحسداً واستكباراً.

ثم ألزهم سبحانه الحجة وتحداهم فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل القرآن وما يقاربه في نظمته، وفصاحته وحسن بيانه وبراعته. ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنه تقول محمد ﷺ، فإذا لم يقدرُوا على الإتيان بمثله فليعلموا أن محمداً ﷺ لم يتقوله من تلقاء نفسه، بل هو من عند الله تعالى. ثم احتج عليهم بابتداء الخلق فقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: أم خلقوا لغير شيء، أي: أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ونحو هذا، عن الزجاج. وقيل: معناه أم خلقوا عبثاً وتركوا سدى، عن ابن كيسان. وهذا في المعنى مثل الأول. وقيل: معناه أخلقوا من غير خالق ومدبر دبرهم ﴿أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ أنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر، عن ابن عباس. ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ واخترعوهما فلذلك لا يقرون بالله وبأنه خالقهم، ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأن لهم إلهاً يستحق العبادة وحده، وأنك نبي من جهة الله. ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاءوا، عن مقاتل

(١) وفي المخطوطة: هذه هي المنقطعة.

(٢) وفي نسختين: علقمة بن عبدة.

(٣) وفيهما: بل أحملها.

(٤) قوله: «لم يفض عبْرته» حال من الضمير في «بكي» الراجع إلى الكبير. وبكى: وصف لكبير. «وإثر الأجابة» متعلق ببكى. والبين: الفراق. ومشكوم: مأخوذ من الشكيمة وهي حديدة معترضة في فم الفرس أي: مسدود فوه.

وعكرمة. وقيل: أراد خزائن المطر والرزق، عن الكلبي وابن عباس. وقيل: خزائنه مقدوراته فلا يأتيهم إلا ما يحبون، عن الجبائي^(١). ﴿أَمْ هُمُ الْمُهْطِرُونَ﴾ أي: الأرباب المُسلِّطون على الناس، فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوم. وقيل: معناه أم هم المالكون الناس القاهرون لهم، عن الجبائي. ﴿أَمْ لَمْ سُلِّمْ﴾ أي: مرقى ومصعد إلى السماء ﴿يَسْتَعُونَ فِيهِ﴾ الوحي من السماء، فقد وثقوا بما هم عليه، وردوا ما سواه. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِيهِمْ بَسْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة إن ادعى ذلك، والتقدير: يستمعون عليه فهو كقوله، ولأصلبئكم في جذوع النخل، وإنما قيل لهم ذلك لأن كل من يدعي ما لا يعلم ببداية^(٢) العقول، فعليه إقامة البيِّنة والحجة. ﴿أَمْ لَهُ الْآبَتْ وَلَكُمُ الْآبُونَ﴾ وهذا تسفيه لأحلامهم، إذ أضافوا إلى الله سبحانه ما أنفوا منه، وهذا غاية في جهلهم، إذ جَوَّزُوا عليه سبحانه الولد، ثم ادعوا أنه اختار الأدون على الأعلى. ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُخْرَىٰ﴾ أي: ثواباً على أداء الرسالة، وعلى ما جتتهم به من الدين والشرعة ﴿فَهُمْ يَنْتَفِرُونَ﴾ أقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك عن الإيمان بك.



قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٤١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (٤٤) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٤٥) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩).

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وعاصم: «يُصْعَقُونَ» بضم الياء، والباقون بفتحها. وقرأ زيد عن يعقوب: «وأدبار» النجوم بفتح الألف، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** يقال: صعق الرجل يصعق. ومن قرأ «يُصْعَقُونَ» بضم الياء، فإنه على نقل الفعل بالهمزة، صعقهم^(٣) وأصعقهم غيرهم. وحكى أبو الحسن: ضُعِقَ، فعلى هذا يجوز أن يكون يصعقون منه. ومن قرأ: «وأدبار النجوم» فإنه يكون كقولهم: أعقاب النجوم. قال: فأصبح من ليلى الغداة كناظرٍ مع الصُّبْحِ في أعقاب نَجْمٍ مُّغْرَبٍ^(٤)

(١) وفي نسخة: بدل «الجبائي»: «ابن عباس».

(٢) وفي نسخة: «بداية العقول».

(٣) في سائر النسخ: صعقهم.

(٤) يشبه حاله في وصال ليلى وهجرانها، ويأسه من الوصال، بمن ينظر في أعقاب النجم عند الصباح، وهو آيس منه، لأنه في حال الغروب.

● **اللغة:** الكيد: هو المكر، وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية. والكسف: جمع كسفة فهو مثل سدره وسدر، والكسفة: القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس. والمركوم: هو الموضوع بعضه على بعض.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً ﷺ يموت قبلهم، وهذا جواب لقولهم: ﴿نَرْصُدْ بِهِ رَبِّ السَّمَاءِ﴾، عن قتادة. وقيل: أعندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ويخبرون به الناس، عن ابن عباس. وقيل: هو جواب لقولهم: إن كان أمر الآخرة حقاً كما تدعون، فلنا الجنة. ومثله: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّ لِيَ عِنْدَهُ لَلْحُسْبَى﴾ عن الحسن. والغيب الذي لا يعلمه إلا الله، هو ما لا يعلمه العاقل ضرورة ولا عليه دلالة، فالله عالم به لأنه يعلمه لنفسه، والعالم لنفسه يعلم جميع المعلومات فلا يخفى عليه شيء منها. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا بك وتدبير سوء في بابك سرًا على ما دبروه في دار الندوة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم المجزيون بكيدهم، فإن ضرر ذلك يعود عليهم ويحقيق بهم مكروهم، كما جزى الله سبحانه أهل دار الندوة بكيدهم أن قتلهم بيدر. ﴿أَمْ لَمْ يَلَهُ عِزُّ اللَّهِ﴾ يرزقهم ويحفظهم وينصرهم، يعني: إن الذين اتخذوهم آلهة لا تنفعهم ولا تدفع عنهم. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الآلهة.

ثم ذكر سبحانه عنادهم وقسوة قلوبهم فقال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ يعني: إن عذابناهم بسقوط بعض من السماء عليهم، لن ينتهوا عن كفرهم، وقالوا: هو قطعة من السحاب وهو قوله: ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ بعضه على بعض. وكل هذه الأمور المذكورة بعد أم في هذه السورة إلزامات لعبدة الأوثان على مخالفة القرآن. ثم قال سبحانه يخاطب النبي ﷺ: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ يا محمد أي: اتركهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: يهلكون بوقوع الصاعقة عليهم. وقيل: الصعقة النفخة الأولى التي يهلك عندها جميع الخلائق. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا تنفعهم حيلتهم، ولا تدفع عنهم شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني كفار مكة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دون عذاب الآخرة، يعني القتل يوم بدر، عن ابن عباس. وقيل: يريد عذاب القبر، عن ابن عباس أيضاً والبراء بن عازب. وقيل: هو الجوع في الدنيا، والفحط سبع سنين، عن مجاهد. وقيل: هو مصائب الدنيا، عن ابن زيد. وقيل هو عام جميع ذلك. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما هو نازل بهم.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الذي حكم به، وألزمك التسليم له إلى أن يقع عليهم العذاب الذي حكمنا عليهم. وقيل: واصبر على أذاهم حتى يرد أمر الله عليك بتخليصك: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ندرتك، ولا يخفى علينا شيء من أمرك، ونحفظك لثلاث يصلوا إلى شيء من مكروهك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من تومك، عن أبي الأحوص. وقيل: حين تقوم إلى الصلاة المفروضة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك، عن الضحاك. وقيل معناه: وصل بأمر ربك حين تقوم من مقامك، عن ابن زيد. وقيل: الركعتان قبل صلاة الفجر، عن ابن

عباس والحسن. وقيل: حين تقوم من نوم القائلة، وهي صلاة الظهر، عن زيد بن أسلم. وقيل: حين تقوم من المجلس فقل: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت اغفر لي وتب عليّ، عن عطاء وسعيد بن جبير. وقد روي مرفوعاً: إنه كفارة المجلس. وقيل: معناه اذكر الله بلسانك حين تقوم إلى الصلاة إلى أن تدخل في الصلاة، عن الكلبي. فهذه سبعة أقوال.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة الليل، روى زرارة، وحمران، ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قالوا: إن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل ثلاث مرات، فينظر في آفاق السماء ويقرأ الخمس من آل عمران إلى آخرها ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلُقُ إِلَّيْعَادَ﴾، ثم يفتتح صلاة الليل، الخبر بتمامه. وقيل: معناه صل المغرب والعشاء الآخرة، عن مقاتل وإدبّر النجوم يعني الركعتين قبل صلاة الفجر، عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وذلك حين تدبر النجوم، أي: تغيب بضوء الصباح، يعني صلاة الفجر المفروضة، عن الضحاك. وقيل: إن المعنى لا تغفل عن ذكر ربك صباحاً ومساءً، ونزّهه في جميع أحوالك ليلاً ونهاراً، فإنه لا يغفل عنك وعن حفظك. وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه قد ضمن حفظه وكلاءته حتى يبلغ رسالته.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية/آياتها (٦٢)

المعدل عن ابن عباس وقتادة، غير آية منها نزلت بالمدينة ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرَهُ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ الآية. وعن الحسن قال: هي مدينة.

● عدد آياتها: اثنتان وستون آية كوفي، وآية في الباقيين.

● اختلافها: ثلاث آيات ﴿مِنَ الْهَوَىٰ شَيْئًا﴾ كوفي، ﴿عَن مَّن تَوَلَّى﴾ شامي، ﴿الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ غير شامي.

● فضلها: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ جَحَدَ بِهِ». يَزِيدُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع: قَالَ: مَنْ كَانَ يَدْمَنُ قِرَاءَةَ النَّجْمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، عَاشَ مَحْمُودًا بَيْنَ النَّاسِ، وَكَانَ مَفْقُودًا، وَكَانَ مُحِبًّا بَيْنَ النَّاسِ.

● تفسيرها: افتتح الله سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ، كما ختم بذكره سورة الطور، حتى اتصلت بها اتصال النظير فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَكَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠)﴾.

● القراءة: آمال حمزة والكسائي وخلف أواخر آيات هذه السورة كلها وجميع أشباهها. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب، وكذلك كل سورة آياتها على الياء، مثل سورة طه، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والضحى، وأشباهها. وكل ما كان على وزن فَعْلَى أَوْ فَعْلَى فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ أَبَا عَمْرُو يَقْرَأُهَا بَيْنَ الْفَتْحِ وَالْكَسْرِ أَيْضًا فِي رِوَايَةِ شُجَاعٍ. وَأَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ، عَنْ الْيَزِيدِيِّ. وَالْبَاقُونَ يَفْتَحُونَ وَيَفْخَمُونَ، وَابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ أَشَدَّ تَفْخِيمًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ.

● الحجة: أما ترك الإمالة والتفخيم للألف فهو قول كثير من الناس، والإمالة أيضاً قول كثير منهم، فمن ترك كان مصيباً، ومن أخذ بها كان مصيباً.

● **اللغة:** الهَوِيّ والنزول والسقوط نظائر، هوى يهوى هَوياً. أو هَوياً قال الهذلي:

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفَجَاجَ، رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا، هَوِيّ الْأَجْدَلِ^(١)
ومنه سميت الهاوية، لأنها تهوي بأهلها من أعلاها إلى أسفلها. والغي: الخيبة ومنه الغواية. والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، إلا أنه صار كالعلم فيما يلقيه الملك إلى النبي من البشر^(٢) عن الله تعالى. ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْأَقْلَ﴾ أي: ألهمها مرادها. والقوة: القدرة، وأصله: الشدة. وأصل المرة: شدة الفتل ثم تجري المرة على القدرة، فالمرة والقوة والشدة نظائر. والأفق: ناحية السماء، وجمعه آفاق. وقد سمي نواحي الأرض آفاقاً على التشبيه. قال الشاعر في المعنى الأول:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنَّجُومُ الطُّوَالُغُ
وقال امرؤ القيس في المعنى الثاني:

لَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
والتدلي: الامتداد إلى جهة السفلى، يقال: دلاه صاحبه فتدلى. والقاب والقيب، والقاد وال قيد: عبارة عن مقدار الشيء.

● **الإعراب:** ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقال الفراء: هو معطوف على الضمير في ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي: استوى جبرائيل والنبي ﷺ بالأفق الأعلى، والتقدير: استوى هو وهو، قال: وحسن ذلك ثلثا يتكرر «هو». وأنشد:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَضْلُبُ عَوْدُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرُوعُ الْمُتَقَصِّفُ^(٣)
قال الزجاج: وهذا لا يجوز إلا في الشعر، لأنهم يستقبحون استويت وزيد. وإنما المعنى فاستوى جبرائيل وهو بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يتمثل للنبي ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، فأحب رسول الله ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية، فاستوى في أفق المشرق فملاً الأفق.

● **المعنى:** ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: إن الله أقسم بالقرآن إذ أنزل نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ، في ثلاث وعشرين سنة، عن الضحاك ومجاهد والكلبي. فسمي القرآن نجماً لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفروق منجماً.

(١) المخارم: أفواه الفجاج. والفجاج: جمع الفج، وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين. والأجدل: الصقر. يشبه فرساً بالصقر أي: إذا سرت به في فجاج الأرض، رأيته يهوى من أفواه الفجاج، هَوِيّ الصقر.

(٢) وفي نسخة: السر.

(٣) النبع: شجر ينبت في قلة الجبل، تتخذ منه القسي، ومن أغصانه السهام. والخروج: نبت يعظم قرب المياه، ومن ثمره المسهل المعروف بزيت الخروع. والمتقصف: المزدهم بعضه على بعض، مقصوده عدم تساويهما في الشدة واللين.

سورة النجم

وثانيها: إنه أراد بالنجم الثريا، أقسم بها إذا سقطت وغابت مع الفجر، عن ابن عباس ومجاهد. والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة. قال أبو ذؤيب:

فَوَرَدَنُ وَالْعَيْشُوقُ مَقْعَدَ رَبِيبِ الضُّرْبَاءِ فَوْقَ النِّجْمِ لَا يَتَنَلَّعُ^(١)

قال ابن دريد: والثريا سبعة أنجم ستة ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم.

وثالثها: إن المراد به جماعة النجوم إذا هوت، أي: سقطت وغابت وخفيت، عن الحسن، وأراد به الجنس، كما قال الراعي:

وَبَاتَ يَعْدُ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعَ بَأْيَدِي الْآكِلِينَ جُمُودُهَا^(٢)

ثم^(٣) قيل: أشار بأفول النجم إلى طلوعه، لأن ما يأفل يطلع، فاستدل بأفوله، وطلوعه على وحدانية الله تعالى، وحركات النجم توصف بالهوي، عن الجبائي. وقيل: إن هوية سقوطه يوم القيامة، فيكون كقوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾، عن الحسن.

ورابعها: إنه يعني به الرجوم من النجوم، وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع، عن ابن عباس. وروى العامة عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: محمد رسول الله ﷺ^(٤)، نزل من السماء السابعة ليلة المعراج، ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب، فجاء إلى النبي ﷺ وطلق ابنته، وتفل في وجهه، وقال: كفرت بالنجم برب النجم، فدعا ﷺ عليه، وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق، وألقى الله عليه الرعب، فقال لأصحابه: أنيمني بينكم ليلاً^(٥)، ففعلوا. فجاء أسد فافترسه من بين الناس، وفي ذلك يقول حسان:

سائل بني الأصفر إن جئتْهم: ما كان أنباء بني واسع
لا وسَّعَ اللهُ لَهُ قَبْرَهُ بل ضَيَّقَ اللهُ عَلَى الْقَاطِعِ
رَمَى رَسُولَ اللهِ مِنْ بَيْنِهِمْ دُونَ قَرِيشٍ رَمِيَةَ الْقَاضِعِ^(٦)
وَاسْتَوْجَبَ الدَّعْوَةَ مِنْهُ بِمَا بَيَّنَّ لِلنَّازِرِ وَالسَّامِعِ
فَسَلَّطَ اللهُ بِهِ كَلْبَهُ يَمْشِي الْهُوَيْنَا مِشْيَةَ الْخَادِعِ^(٧)
وَالْتَقَمَ الرَّأْسَ بِإِفْوَحِهِ وَالتَّخَرَّ مِنْهُ قَفْرَةُ الْجَائِعِ

(١) رباهم ورباهم أي: صار ريثة لهم أي: راقبهم. والضرباء: جمع الضريبة بمعنى الضارب، ولا يتلغ أي: لا يشخص للأمر، ولا يرفع رأسه للنهوض. وعن ابن بري صوابه: خلف النجم، وكذا في رواية سيويه.

(٢) المستحيرة: الجفنة الدسمة الكبيرة.

(٣) وفي نسخة: وقيل.

(٤) وفي المخطوطة ليس لفظه «رسول الله».

(٥) وليس فيها أيضاً.

(٦) قذعه: رماه بالفحش، وسوء القول.

(٧) وفي المخطوطة بعد هذا: حتى أتاه وسط أصحابه، وقد علاهم سنة الهاجع.

مَنْ كَانَ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَمَا أَكْبَلُ السَّبْعَ بِالرَّاجِعِ
قَدْ كَانَ هَذَا لَكُمْ عِبْرَةً لِلْسَّيِّدِ الْمَتَّبِعِ وَالتَّابِعِ

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ يعني النبي، أي: ما عدل عن الحق، وما فارق الهدى إلى الضلال، وما غوى فيما يؤديه إليكم. ومعنى غوى: ضل، وإنما أعاده تأكيداً. وقيل معناه: عن إصابة الرشd. وقيل: ما خاب سعيه، بل ينال ثواب الله وكرامته. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: وليس ينطق بالهوى، وهكذا كما يقال: رميت بالقوس، وعن القوس. وقيل معناه: يتكلم بالقرآن وما يؤديه إليكم عن الهوى، الذي هو ميل الطبع. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: ما القرآن وما ينطق به من الأحكام إلا وحي من الله يوحى إليه، أي: يأتيه به جبرائيل، وهو قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، أي: القوي في نفسه وخلقه، عن ابن عباس والربيع وقتادة. والقوى جمع القوة. ﴿ذُرِّ مَرَوْ﴾ أي: ذو قوة وشدة في خلقه، عن الكلبي. قال: ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود فرفعها إلى السماء ثم قلبها، ومن شدته صبحته لقوم ثمود حتى هلكوا. وقيل معناه: ذو صحة وخلق حسن، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: شديد القوى في ذات الله، ذو مرة، أي صحة في الجسم، سليم من الآفات والعيوب. وقيل: ذو مرة، أي: ذو مرور في الهواء ذاهباً وجائياً ونازلاً وصاعداً، عن الجبائي. ﴿فَاسْتَوَى﴾ جبرائيل على صورته التي خلق عليها بعد انحداره إلى محمد ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ كناية عن جبرائيل عليه السلام أيضاً ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ يعني أفق المشرق، والمراد بالأعلى جانب المشرق، وهو فرق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء.

قالوا: إن جبرائيل كان يأتي النبي ﷺ في صورة آدميين، فسأله النبي ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فأراه نفسه مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى وذلك أن محمداً ﷺ كان بحراء، فطلع له جبرائيل عليه السلام من المشرق، فسد الأفق إلى المغرب، فخر النبي ﷺ مغشياً عليه، فنزل جبرائيل عليه السلام في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ وتقديره: ثم تدلى، أي: قرب بعد بُعْدِهِ وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ.

قال الحسن وقتادة: ثم دنا جبرائيل عليه السلام بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل إلى محمد ﷺ.

وقال الزجاج: معنى دنا وتدلى واحد، لأن معنى دنا: قرب، وتدلى: زاد في القرب، كما تقول: قد دنا مني فلان وقرب، ولو قلت: قرب مني ودنا، جاز.

وقيل: إن المعنى استوى جبرائيل عليه السلام، أي: ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علم محمداً ﷺ، عن سعيد بن المسيب.

وقيل: استوى، أي: اعتدل واقفاً في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النبي ﷺ، عن الجبائي.

سورة النجم

وقيل معناه: استوى جبرائيل عليه السلام ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، يعني السماء الدنيا ليلة المعراج، عن الفراء.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: كان ما بين جبرائيل ورسول الله قاب قوسين، والقوس: ما يرمى به، عن مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس. وخصت بالذكر على عادتهم، يقال: قاب قوس، وقب قوس، وقيد قوس، وقاد قوس، وهو اختيار الزجاج.

وقيل معناه: وكان قدر ذراعين، عن عبد الله بن مسعود، وسعيد بن جبیر، وشقيق بن سلمة. وروي مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: «قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين». فعلى هذا يكون معنى القوس: ما يقاس به الشيء، والذراع يقاس به. قال ابن السكيت: قاس الشيء يقوسه قوساً لغة في قاسه يقيسه: إذا قدره. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قال الزجاج: إن العباد قد خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم. وقيل: لهم في هذا ما يقال للذي يحدد، فالمعنى: فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك، وهو كقوله: ﴿أَوْ زَبِيدُونَ﴾ وقد مر القول فيه. وقال عبد الله بن مسعود: إن رسول الله ﷺ رأى جبرائيل عليه السلام وله ستمائة جناح. أورده البخاري ومسلم في «الصحيح».

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾ أي: فأوحى الله على لسان جبرائيل إلى محمد ﷺ ما أوحى، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي. وقيل معناه: فأوحى جبرائيل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى الله تعالى إليه، عن الحسن والربيع وابن زيد، وهو رواية عطاء عن ابن عباس. قال سعيد بن جبیر: أوحى إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّيْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. وقيل: أوحى الله إليه سرّاً بسر. وفي ذلك يقول الفائل:

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سُرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيهِ
سُرٌّ يَمَازُجُهُ أَنْسٌ يُقَابِلُهُ نَوْزٌ تَحْيِرُ فِي بَحْرِ مِنَ التَّيِّهِ



قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَى (١٩) وَمَنُوءَ النَّارِكَ الْأُخْرَى (٢٠) .

● القراءة: قرأ أبو جعفر وهشام: «ما كَذَبَ» بالتشديد، والباقون: بالتخفيف. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: «أفتمرونه» بغير ألف، والباقون: «أفتمارونه». وقرأ ابن كثير والشموني، عن الأعمش وأبي بكر: «ومنأة» بالمد والهمزة، والباقون: «ومنأة» بغير همزة ولا

مد. وروي عن علي عليه السلام وأبي هريرة وأبي الدرداء وزر بن حبيش: «جنة المأوى» بالهاء، وعن ابن عباس ومجاهد: «اللات» بتشديد التاء.

● **الحجة:** من قرأ: «كذب» بتشديد الذال، فمعناه: ما كذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه. ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: ما كذب فؤاده فيما رأى، وقال أبو علي: كذب فعل يتعدى إلى مفعول، بدلالة قوله:

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامُ مِنَ الرِّبَابِ خِيَالَا

ومعنى كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ: أَرَتِكَ ما لا حقيقة له. فعلى هذا يكون المعنى: لم يكذب فؤاده ما أدركه بصره، أي: كانت رؤيته صحيحة غير كاذبة وإدراكاً على الحقيقة. ويشبه أن يكون الذي شدد أراد هذا المعنى وأكده.

«أفتمارونه على ما يرى» أي: أترمونه إزالته عن حقيقة ما أدركه وعلمه بمجادلتكم؟ أو أتجحدونه ما قد علمه ولم يعترض عليه فيه شك؟ فإن معنى قوله: ﴿أَفْتَمَرُوهُ﴾: أتجادلونه جداً تريدون به دفعه عما علمه وشاهده من الآيات الكبرى؟ ومن قرأ: «أفتمرونه» معناه: أفجحدونه؟ «ومناة» صنم من حجارة، واللات والعزى كانتا من حجارة أيضاً، ولعل «مناة» بالمد لغة. ومن قرأ: «جنة المأوى» يعني فعله، يريد: جن عليه فأجنته الله، و«المأوى» هو الفاعل، والمعنى: ستره، وقال الأخفش: أدركه.

وعن ابن عباس قال: كان رجل بسوق عكاظ يلبث السوق والسمن عند صخرة، فإذا باع السوق والسمن صب على الصخرة ثم يلبث، فلما مات ذلك الرجل عبت ثقيف تلك الصخرة، إعظاماً لذلك الرجل.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وحقق رؤيته، فقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي: لم يكذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بعينه، فقوله: ﴿مَا رَأَى﴾ مصدر في موضع نصب، لأنه مفعول ﴿كَذَبَ﴾. والمعنى: إنه ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يره، بل صدقه الفؤاد رؤيته. قال المبرد: معنى الآية: إنه رأى شيئاً فصدق فيه. قال ابن عباس: رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه بفؤاده. وروي ذلك عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام، وهذا يكون بمعنى العلم، أي: علمه علماً يقيناً بما رآه من الآيات الباهرات، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإن كان عالماً قبل ذلك. وقيل: إن الذي رآه هو جبرائيل على صورته التي خلقه الله عليها، عن ابن مسعود وعائشة وقتادة. وقيل: إن الذي رآه هو ما رآه من ملكوت الله تعالى وأجناس مقدوراته، عن الحسن قال: وعرج بروح محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء وجسده في الأرض. وقال الأثرون وهو الظاهر من مذهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم: إن الله تعالى صعد بجسمه إلى السماء حياً سليماً، حتى رأى ما رأى من ملكوت السموات بعينه، ولم يكن ذلك في المنام. وهذا المعنى ذكرناه في سورة بني إسرائيل.

والفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام: إن رؤية الشيء في اليقظة هو إدراكه بالبصر على الحقيقة، ورؤيته في المنام تصوّره بالقلب على توهم الإدراك بحاسة البصر من غير

سورة النجم

أن يكون كذلك. وعن أبي العالية قال: سئل رسول الله ﷺ: هلى رأيت ربك ليلة المعراج؟ قال: «رأيت نهراً، ورأيت وراء النهر حجاباً، ورأيت وراء الحجاب نوراً، لم أر غير ذلك». وروي عن أبي ذر وأبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ سئل عن قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: «رأيت نوراً». وروي ذلك عن مجاهد وعكرمة.

وذكر الشعبي عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس أنه قال: إن محمداً ﷺ رأى ربه. قال الشعبي: وأخبرني مسروق قال: سألت عائشة عن ذلك فقالت: إنك لتقول قولاً إنه ليقف شعري منه! قال مسروق: قلت: رويداً يا أم المؤمنين، وقرأت عليها ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ حتى انتهت إلى قوله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فقالت: رويداً، أتى يذهب بك، إنما رأى جبرائيل في صورته، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، ومن حدثك أن محمداً ﷺ يعلم الشيء من الغيب فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخره، ومن حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، ولقد بين الله سبحانه ما رآه النبي ﷺ بياناً شافياً فقال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

﴿أَفْتَمْرُؤُهُ﴾ أي: أفتجدلونه ﴿عَلَىٰ مَا بَرَأَ﴾ وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن غيرنا في طريق الشام، وغير ذلك مما جادلوه به. ومن قرأ: «أفتمرونه» فالمعنى: أفتجدونه، يقال: مريت الرجل حقه: إذا جحدته. وقيل معناه: أفندفونه عما يرى، و﴿عَلَىٰ﴾ في موضع «عن»، عن المبرد. والمعنيان متقاربان، لأن كل مجادل جاحد.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي: رأى جبرائيل في صورته التي خُلِقَ عليها، نازلاً من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه مرتين في صورته على ما ذكره. ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ أي: رآه محمد ﷺ وهو عند سدرة المنتهى، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة انتهى إليها علم كل ملك، عن الكلبي ومقاتل. وقيل: إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء، وما يهبط من فوقها من أمر الله، عن ابن مسعود والضحاك. وقيل: إليها تنتهي أرواح الشهداء. وقيل: إليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ويقبض منها، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرواح ويقبض منها. والمنتهى: موضع الانتهاء، وهذه الشجرة حيث انتهى إليه الملائكة فاضيفت إليه. وقيل: هي شجرة طوبى، عن مقاتل. والسدرة: هي شجرة النبوة.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي: عند سدرة المنتهى جنة المقام، وهي جنة الخلد، وهي في السماء السابعة. وقيل: في السماء السادسة. وقيل: هي الجنة التي كان آوى إليها آدم، وتصير إليها أرواح الشهداء، عن الجبائي وقتادة. وقيل: هي التي يصير إليها أهل الجنة، عن الحسن. وقيل: هي التي يأوي إليها جبرائيل والملائكة، عن عطاء عن ابن عباس.

﴿إِذْ يَغْشَى السَّيِّدَةَ مَا يَغْشَى﴾ قيل: يغشاها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجر، عن الحسن ومقاتل. وروي أن النبي ﷺ قال: «رأيت على كل ورقة من أوراقها ملكاً قائماً

يسبح الله تعالى». وقيل: يغشاها من النور والبهاء والحسن والصفاء، الذي يروق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى، عن الحسن. وقيل: يغشاها فراش من ذهب، عن ابن عباس ومجاهد. وكأنها ملائكة على صورة الفراش يعبدون الله تعالى، والمعنى: إنه رأى جبرائيل عليه السلام على ما صورته في الحال التي يغشى فيها السدرة من أمر الله، ومن العجائب المنبهة على كمال قدرة الله تعالى ما يغشاها. وإنما أبهم الأمر فيما يغشى لتعظيم ذلك وتفخيمه، كما قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وقوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ أبلغ لفظ في هذا المعنى.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما زاغ بصر محمد ﷺ، ولم يمل يميناً ولا شمالاً وما طغى، أي: ما جاوز القصد ولا الحد الذي حد له، وهذا وصف أدبه، صلوات الله عليه وآله في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمل بصره ولم يمد أمامه إلى حيث ينتهي. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ وهي الآيات العظام التي رآها تلك الليلة، مثل: سدرة المنتهى، وصورة جبرائيل عليه السلام ورؤيته وله ستمائة جناح قد سد الأفق بأجنحته، عن مقاتل وابن زيد والجبائي. و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي: رأى بعض آيات ربه. وقيل: إنه رأى رفراً أخضر من رفار الجنة قد سد الأفق، عن ابن مسعود. وقيل: إنه قد رأى ربه بقلبه، عن ابن عباس. فعلى هذا فيمكن أن يكون المراد أنه رأى من الآيات ما ازداد به يقيناً إلى يقينه، و﴿الْكُبْرَىٰ﴾ تأنيث الأكبر، وهو الذي يصغر مقدار غيره عنده في معنى صفته.

ولما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص، عقبها سبحانه بأن خاطب المشركين فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وتعبدون معها الملائكة وتزعمون أن الملائكة بنات الله. وقيل معناه: أفرأيت أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله، لأنه كان منهم من يقول: إنما نعبد هؤلاء لأنهم بنات الله، عن الجبائي. وقيل: إنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وصوروا أصنامهم على صورهم وعبدوها من دون الله، واشتقوا لها أسماء الله، فقالوا: اللات من الله، والعزى من العزيز. وكان الكسائي يختار الوقف على «اللات» بالتاء لإتباع المصحف، لأنها كتبت بالتاء. والعزى: تأنيث الأعز، وهي بمعنى العزيز. وقيل: إن اللات صنم كانت تكيف تعبده، والعزى صنم أيضاً، عن الحسن وقتادة. وقيل: إنها كانت شجرة سمرة عظيمة لغطفان يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، وقال:

يَا عُزُّ كُفْرَائِكَ، لَا سُبْحَانَكَ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَأَنَّكَ

عن مجاهد. وقال قتادة: كانت مناة صنماً بقديد بين مكة والمدينة. وقال الضحاك والكلبي: كانت لهذيل وخزاعة يعبدوها أهل مكة. وقيل: إن اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة، كانت في الكعبة يعبدونها. و﴿الْأُخْرَىٰ﴾ نعت لمناة و﴿الْأُخْرَىٰ﴾ نعت لها أيضاً. ومعنى الآية: أخبروني عن هذه الأصنام هل ضرت أو نفعت أو فعلت ما يوجب أن تعدل بالله؟ فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿الْكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضِرَازِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرَّمْنَا مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَتَّبِعِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُ الَّلَّيْكَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ .

● القراءة: قرأ ابن كثير غير ابن فليح^(١): «ضزى» بالهمز، والباقون: بغير همز.

● الحجة: قال أبو علي: قوله: ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضِرَازِ﴾ أي: ما نسبتموه إلى الله سبحانه من اتخاذ البنات قسمة جائزة. وقولهم: قسمة ضيزى ومشية جيكي، حملة النحويون على أنه في الأصل فُعْلَى بالضم، وإن كان اللفظ على فعلى، كما أن القسي والعصي في الأصل فُعول وإن كانت الفاء مكسورة، وإنما حملوها على أنها فعلى، لأنهم لم يجدوا شيئاً من الصفات على فعلى كما وجدوا الفُعلى والفُعلى. وقال أبو عبيدة: ضِرْزُهُ حَقُّهُ وَضِرْزُهُ أَضْوَرُهُ، أي: نقضته ومنعته، فمن جعل العين منه واواً فالقياس أن تقول: ضُوزَى. وقد حكى ذلك. فأما من جعله ياء من قولك: ضِرْزته، فكان القياس أيضاً أن يقول: ضُوزى، ولا يحفل بانقلاب الياء إلى الواو، لأن ذلك إنما ذكر في بيض وعين، جمع بيضاء وعيناء، لقربه من الطرف. وقد بعد من الطرف هاهنا بحرف التانيث، وليست هذه العلامة في تقدير الانفصال كالتاء، فكان القياس أن لا يحفل بانقلابها إلى الواو.

● المعنى: ثم قال سبحانه منكرأ على كفار قريش قولهم: الملائكة بنات الله، والأصنام كذلك: ﴿الْكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ أي: كيف يكون ذلك كذلك؟ وأنتم لو خيّرتم لاخترتم الذكر على الأنثى، فكيف أضفتم إليه تعالى ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ ضِرَازِ﴾ أي: جائزة غير معتدلة، بمعنى أن القسمة التي قسمتم من نسبة الإناث إلى الله تعالى، وإيثاركهم بالبنين قسمة غير عادلة. ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ أي: ليس تسميتكم لهذه الأصنام بأنها آلهة وأنها بنات الله إلا أسامي لا معاني تحتها، لأنه لا ضرعنها ولا نفع، فهي تسميات ألقيت على جمادات. ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: لم ينزل الله كتاباً لكم فيه حجة بما تقولونه، عن مقاتل. ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد المخاطبة فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي ليس يعلم ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: وما تميل إليهم نفوسهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ أي: البيان

والرشاد بالكتاب والرسول، عجب سبحانه من حالهم حيث لم يتركوا عبادتها مع وضوح البيان.

ثم أنكر عليهم تمنيههم شفاعاة الأوثان فقال لهم: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ أَی: للكافر﴾ مَا تَعْنَى ﴿مَا تَعْنَى﴾ من شفاعاة الأصنام ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ فلا يملك فيهما أحد شيئاً إلا بإذنه. وقيل: معناه بل للإنسان ما تمنى من غير جزاء، لا ليس الأمر كذلك، لأن الله الآخرة والأولى، يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء. وقيل: معناه ليس للإنسان ما تمنى من نعيم الدنيا والآخرة بل يفعله الله تعالى بحسب المصلحة، ويعطي الآخرة للمؤمنين دون الكافرين، عن الجبائي. وهذا هو الوجه الأوجه، لأنه أعم فيدخل تحته الجميع. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَكَمْ يَنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ جمع الكناية لأن المراد بقوله: ﴿وَكَمْ يَنْ مَلِكٍ﴾ الكثرة، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم في الشفاعاة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ لهم أن يشفعوا فيه، أي: من أهل الإيمان والتوحيد. قال ابن عباس: يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى﴾. ثم ذم سبحانه مقاتلهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب ﴿لَيْسُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ شَيْئاً﴾ حين زعموا أنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي: بذلك التسمية ﴿بِئْسَ عِلَلٌ﴾ أي: ما يستيقنون أنهم إناث وليسوا عالمين^(١) ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي يجوز أن يخطيء ويصيب في قولهم ذلك. ﴿وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ الحق هنا معناه العلم، أي: الظن لا يغني عن العلم شيئاً، ولا يقوم مقام العلم.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿فَاعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ولم يقر بتوحيدنا ﴿وَلَوْ يُدْرِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فمال إلى الدنيا ومنافعها، أي: لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم، ولا تدع مع هذا وعظمتهم ودعائهم إلى الحق؛ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الإعراض عن التدبر في أمور الآخرة وصرف الهمة إلى التمتع باللذات العاجلة، منتهى علمهم، وهو مبلغ خسيس لا يرضى به لنفسه عاقل، لأنه من طباع البهائم أن يأكل في الحال ولا ينظر العواقب. وفي الدعاء: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا». ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: بمن جار وعدل عن سبيل الحق الذي هو سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ إليها فيجازي كلا منهم على حسب أعمالهم.



قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَكَذَّبَ (٣٤)

(١) وفي نسخة: عالمين بذلك.

أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِنزِيلِهِ الَّذِي
وَفَىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَزَرَةٌ وَزَرَ أَخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ
سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿٤١﴾ .

● **اللغة:** قال الفراء: اللمم: أن يفعل الإنسان الشيء في الحين ولا يكون له عادة، ومنه
إمام الخيال. والإلمام: الزيارة التي لا تمتد، وكذلك اللمام: قال أمية:

إِنْ تُغْفِرِ اللَّهُمَّ، تُغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عُنْبِدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

وقد روي أن النبي ﷺ كان ينشدهما ويقولهما، أي: لم يلم بمعصيته، وقال أعشى
باهلة:

تَكْفِيهِ خُزَّةٌ فَلَذَانِ أَلَمَ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيَزْوِي شُرْبُهُ الْغُمْرُ^(١)

أجنة: جمع جنين، قال رؤبة:

أَجْنَةٌ فِي مُسْتَكِنَاتِ الْحَلْقِ^(٢)

وقال عمرو بن كلثوم:

وَلَا شَمِطَاءَ لَمْ يَشْرُكْ شَقَاهَا لَهَا مِنْ تِسْعَةٍ إِلَّا جَنِينَا^(٣)

أي: دفينا في قبره. وأكدى: أي: قطع العطاء كما تقطع البئر الماء، واشتقاقه من كدية
الركية وهي صلابة تمنع الماء، إذا بلغ الحافر إليها يشس من الماء. فيقال: أكدى إذا بلغ الكدية.
ويقال: كديت أصابعه: إذا كلت فلم تعمل شيئاً، وكديت أظافره: إذا غلظت، وكدى النبت: إذا
قل ريعه. والأصل واحد فيها.

● **الإعراب:** ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ منصوبة على الاستثناء من ﴿الْإِنِيرَ وَالْفَوْحِشَ﴾ لأن ﴿اللَّهُمَّ﴾
دونهما إلا أنه منهما. و﴿إِذْ أَشْأَكْرُ﴾ العامل في «إذ» قوله: ﴿أَقْلَرُ يَكْرُ﴾ ﴿فِي بَطُونِ أَهْلَتِكُمْ﴾ يجوز
أن يتعلق بنفس ﴿أَنْتَ أَجَنَّةٌ﴾ وتقديره: إذ أنتم مستترون في بطون أمهاتكم. ويجوز أن يتعلق
بمحذوف فيكون صفة لأجنة. وقوله: ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَةٌ وَزَرَ أَخْرَىٰ﴾ تقديره: إنه لا تزر، وهو في
موضع جر بدلاً من قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ﴾ و﴿مَا﴾ اسم موصول.

النزول: نزلت الآيات السبع ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي قَوْلُ﴾ في عثمان بن عفان، كان يتصدق وينفق
ماله، فقال أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألا
يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنباً، وإنني أطلب بما أصنع رضى الله، وأرجو عفوه.
فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه

(١) الحُزَّة: القطعة من اللحم. والفَلَذَان جمع الفلذة: وهي قطعة الكبد. والغمر: القدح الصغير.

(٢) مستكنات الحلق أي: بواطن الرحم.

(٣) الشمطاء: التي خالط بياض رأسها سواد.

وأمسك عن الصدقة، فنزلت ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أي: يوم أخذ حين ترك المركز ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ ثم قطع نفقته إلى قوله ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾؛ فعاد عثمان إلى ما كان عليه، عن ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فَعَيَّرَهُ بعض المشركين، وقالوا: تركت الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار، قال: إني خشيت عذاب الله. فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، ففعل فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه تمام ما ضمن له، فنزلت ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ عن الإيمان، ﴿وَأَعْطَى﴾ صاحبه الضامن ﴿قَلِيلًا وَكَذَّبَ﴾ أي: بخل بالباقي، عن مجاهد وابن زيد.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه ربما كان يوافق رسول الله ﷺ في بعض الأمور، عن السدي. وقيل: نزلت في رجل قال لأهله: جهزوني حتى أنطلق إلى هذا الرجل، يريد النبي ﷺ، فتجهز وخرج فلقية رجل من الكفار فقال له: أين تريد؟ فقال: محمداً، لعلني أصيب من خيره، قال له الرجل: أعطني جهازك وأحمل عنك إثمك، عن عطاء بن يسار. وقيل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَكَذَّبَ﴾ أي: لم يؤمن به، عن محمد بن كعب القرظي.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته وسعة ملكه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا اعتراض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ واللام في ﴿يَجْزِي﴾ تتعلق بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلأ منهم بما يستحقه، وذلك معنى لام العاقبة، وذلك أن علمه بالفريقين أدى إلى جزائهم باستحقاقهم، وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك، ولذلك أخبر به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾، أي: أشركوا بما عملوا من الشرك. ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: وحدوا ربهم ﴿بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالجنة. وقيل: إن اللام في ﴿يَجْزِي﴾ يتعلق بما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأن المعنى في ذلك أنه خلقهم ليتعبد لهم^(١)، فمنهم المحسن ومنهم المسيء، وإنما كلّفهم ليجزي كلأ منهم بعلمه^(٢) وعمله. فتكون اللام للغرض.

ثم وصف سبحانه الذين أحسنوا فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي: عظام الذنوب ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي أفتح الذنوب وأفحشها، وقد بيّنا اختلاف الناس في الكبائر في سورة النساء. وقد قيل: إن الكبيرة كل ذنب ختم بالنار، والفاحشة كل ذنب فيه الحد. ومن قرأ «كبير الإثم» فلأنه يضاف إلى واحد في اللفظ وإن كان يراد به الكثرة. ﴿إِلَّا اللَّعْمَ﴾ اختلف في معناه، فقيل: هو صغار الذنوب كالنظر والقبلة وما كان دون الزنا، عن ابن مسعود وأبي هريرة

(١) وفي نسخة: ليستعبدهم.

(٢) ليس في النسخ لفظه «بعلمه».

سورة النجم

والشعبي. وقيل: هو ما ألموا به في الجاهلية من الإثم فهو معفو عنه في الإسلام، عن زيد بن ثابت. وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعاً. وقيل: هو أن يلم بالذنب مرة ثم يتوب ولا يعود، عن الحسن والسدي وهو اختيار الزجاج، لأنه قال: اللثم هو أن يكون الإنسان قد ألم بالمعصية ولم يقم على ذلك. ويدل على ذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾. قال ابن عباس: لمن فعل ذلك وتاب، ومعناه أن رحمته تسع^(١) جميع الذنوب لا تضيق عنه، وتم الكلام هنا.

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعني قبل أن خلقكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد به جميع الخلق، أي: خلقكم من الأرض عند تناول الأغذية المخصوصة التي خلقها من الأرض، وأجرى العادة بخلق الأشياء عند ضرب من تركيبها، وكأنه سبحانه أنشأهم منها. ﴿وَإِذْ أَنْشَأَ آجَةَ فِي بَطْنِ أُمِّهِنَّكُمْ﴾ أي: في وقت كونكم أجنة في الأرحام، أي: علم من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، عن الحسن. وقيل: معناه أنه سبحانه علم ضعفكم وميل طباعكم إلى اللثم، وعلم حين كنتم في الأرحام ما تفعلون إذا خرجتم، وإذا علم ذلك منكم قبل وجوده، فكيف لا يعلم ما حصل منكم؟ ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها، فإني أعلم بها. وقيل معناه: لا تزكوها بما فيها من الخير ليكون أقرب إلى النسك والخشوع وأبعد من الرياء. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: اتقى الشرك والكبائر. وقيل: هو أعلم بمن برّ وأطاع وأخلص العمل.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ أي: أدبر عن الحق ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي: أمسك عن العطية وقطع، عن الفراء. وقيل: منع منعاً شديداً، عن المبرد. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب عنه من أمر العذاب ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ أي: يعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ يَمَّا فِي صُحُفٍ مُّوسَى﴾ أي: بل لم يخبر ولم يحدث بما في أسفار التوراة. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وفي صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّى﴾ أي: تم وأكمل ما أمر به. وقيل: بلغ قومه وأدى ما أمر به إليهم. وقيل: أكمل ما أوجب الله عليه من كل ما أمر وامتنح به.

ثم بيّن ما في صحفها فقال: ﴿أَلَا نَزَرُ نَزْرَةً وَنَزَرُ نَزْرَةً﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، والمعنى: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها. ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَا نَزَرُ﴾، وهذا أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى، أي: ليس له من الجزاء إلا جزاء ما عمله، دون ما عمله غيره، ومتى دعا غيره إلى الإيمان فأجابه إليه فهو محمود على ذلك على طريق التبع، وكأنه من أجل عمله صار له الحمد على هذا، ولو لم يعمل شيئاً لما استحق جزاء، لا ثواباً ولا عقاباً^(٢).

عن ابن عباس في رواية الوالبي قال: إن هذا منسوخ الحكم في شريعتنا، لأنه سبحانه يقول: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ رفع درجة الذرية، وإن لم يستحقوها بأعمالهم، ونحو هذا قال

(١) وفي المخطوطة: واسعة تسع.

(٢) وفي نسخة: وعن ابن عباس.

عكرمة: إن ذلك لقوم إبراهيم وموسى. فأما هذه الأمة فلهم ما سعى غيرهم نيابة عنهم. ومن قال: إنه غير منسوخ الحكم قال: الآية تدل على منع النيابة في الطاعات، إلا ما قام عليه الدليل كالحج، وهو أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أبي لم يحج، قال: فحجي عنه. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يعني أن ما يفعله الإنسان ويسعى فيه لا بد أن يرى فيما بعد، بمعنى أنه يجازى عليه. وبين ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى﴾ أي: يجازى على الطاعات بأوفى ما يستحقه من الثواب الدائم. والهاء في ﴿يُجْزَاهُ﴾ عائدة إلى السعي، والمعنى أنه يرى العبد سعيه يوم القيامة ثم يجزى سعيه أوفى الجزاء.



قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٤١) وَأَنََّّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٢) وَأَنََّّهُ هُوَ آمَاتٌ وَاحِياً (٤٣) وَأَنََّّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٤) مِنْ تُفْعَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٥) وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْآخَرَىٰ (٤٦) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٤٩) وَثَمُودًا مَّا أَقْنَىٰ (٥٠) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ (٥١) وَالْمُؤَنَّفَكَ آهَوَىٰ (٥٢) فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ (٥٣) فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ نَتَارَىٰ (٥٤) هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ (٥٥) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٦) لَنَلْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٧) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٨) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٥٩) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (٦٠) فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦١) ﴿٦٢﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والبصرة غير سهل: «عاد لولى» مدغمة غير منونة ولا مهموزة إلا في رواية قالون عن نافع، فإنه روي عنه «عاد لولى» مهموزة ساكنة. وقرأ الباقر: «عاداً الأولى» منونة مهموزة غير مدغمة. وقرأ عاصم وحزمة ويعقوب: «وتمود فما أبقي» غير تنوين، والباقر: «وتموداً» بالتنوين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عثمان: أساء عندي أبو عمرو في قراءته، لأنه أدغم النون في لام المعرفة، واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليست بحركة لازمة. والدليل على ذلك أنك تقول: الخمر، فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام، لم يحذف ألف الوصل، لأنها ليست بحركة لازمة. قال أبو عثمان: ولكن كان أبو الحسن روى عن بعض العرب أنه كان يقول: هذا لخمّر قد جاء. فيحذف ألف الوصل لحركة اللام.

وقال أبو علي: القول في ﴿عَادًا الْأُولَى﴾ أن من حقق الهمزة في ﴿الْأُولَى﴾ سكن لام المعرفة، وإذا سكنت لام المعرفة، والتنوين من قولك ﴿عَادًا﴾ المنصوب ساكن، التقى ساكنان، النون في ﴿عَادًا﴾ ولام المعرفة، فحركت التنوين بالكسر لالتقاء الساكنين، وهذا وجه قول من لم يدغم. وقياس قول من قال: «أحد الله» فحذف التنوين لالتقاء الساكنين أن يحذفه هنا أيضاً كما حذفه في «أحد الله»، وكما حذفه في قوله: ولا ذاكراً لله: إلا أن ذا لا يدخل في القراءة وإن كان قياساً، وجاء في الشعر كثيراً، وجاء في بعض القراءة.

سورة النجم

ويجوز في قول من خفف الهمزة من ﴿الْأُولَى﴾ على قول من قال: الْخَمَر فلم يحذف الهمزة للوصل، أن يحرك التنوين فيقول: «عادن لولى»^(١)، كما يقول في ذلك إذا حقق الهمزة، لأن اللام على هذا في تقدير السكون، فكما تكسر التنوين لالتقاء الساكنين كذا تكسره في هذا القول، لأن التنوين في تقدير الالتقاء مع الساكن.

ومن حرك لام المعرفة وحذف همزة الوصل، فقياسه أن يسكن النون من عادن فيقول: «عادن لولى» لأن اللام^(٢) ليس في تقدير السكون، كما كان في الوجه الأول كذلك. ألا ترى أنه حذف همزة الوصل، فإذا كان كذلك ترك النون على سكونها، كما تتركه في نحو: عاد ذاهب. فأما قول أبي عمرو: «عاد لولى» فإنه لما خفف الهمزة - التي هي منقلبة عن الفاء لاجتماع الواوين أولاً - ألقي حركتها على اللام الساكنة وقبل اللام نون ساكنة، فأدغمها في اللام، كما يدغمها في الراء في نحو: من زاهد، وذلك بعد أن يقلبها لاماً أو راءً فإذا أدغمها فيها صار «عاد لولى».

وخرج عن الإساءة التي نسبها إليه أبو عثمان من وجهين:

أحدهما: أن يكون خفيف الهمزة من قوله: ﴿الْأُولَى﴾ على قول من قال: لَخَمَر كأنه يقول في التخفيف للهمزة قبل الإدغام: لولى، فخرجت اللام من حكم السكون بدلالة حذف همزة الوصل معه، فحسن الإدغام فيه.

والوجه الآخر: أن يكون أدغم على قول من قال: ألولى الْخَمَر، فلم يحذف الهمزة التي للوصل مع إلقاء الحركة على لام المعرفة، لأنه في تقدير السكون فلا يمتنع أن يدغم فيه، كما لا يمتنع أن يدغم في نحو: رد وفر وعض. وإن كانت لاماتها سواكن للإدغام كما تحركت السواكن التي ذكرنا للإدغام.

وأما ما روي عن نافع من أنه همز فقال: «عاد لولى»، فإنه كما روى عن ابن كثير من قوله: «على سؤقه»، فوجهه أن الضمة لقربها من الواو وأنه لم يحجز بينهما شيء، صارت كأنها عليها، فهمزها كما تهمز الواوات إذا كانت مضمومة، نحو: أدور والغور، وهذه لغة قد رويت وحكيته وإن لم تكن بتلك الفاشية.

● اللغة: المَنَى. التقدير، يقال: منى يَمْنِي فهو مانٍ، قال الشاعر:

حتى تبين ما يمني لك الماني

ومنه المنية لأنها المقدرة. والنشأة: الصنعة المخترعة خلاف المشيئة. وأقنى من القنية وهي أصل المال، وما يقتنى، والاقنتاء: جعل الشيء للنفس على الدوام، ومنه القنائة لأنها مما تقتنى. والشعري: النجم الذي خلف الجوزاء، وهو أحد كوكبي ذراع الأسد، وقسم^(٣) البرزم، وكانوا

(٣) في سائر النسخ: «فم المرزم».

(١) وفي نسختين: «عادن لولى».

(٢) وفيهما: «لأن اللام الآن».

يعبدونها في الجاهلية. والمؤتفكة: المنقلبة، وهي التي صار أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، انتفكت بهم تأتفك انتفاكاً، ومنه الإفك؛ الكذب، لأنه قلب المعنى على جهته. وأهوى أي: أنزل بها في الهواء، ومنه: أهوى بيده ليأخذ كذا وهوى يهوي: نزل في الهوى^(١)، فأما إذا نزل في سلم أو درج فلا يقال أهوى ولا هوى. وأزفت الآزفة أي: دنت الدانية. قال النابغة:

أَرِفَ التَّرْجُلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا لَمَّا نَزَلْ بِرِجَالِنَا، وَكَأَنَّ قَدِ

وقال كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا وَلَا أَرَى لَشَبَابٍ ذَاهِبٍ خَلْفَا

والسمود: اللهو، والسامد: اللاهي، يقال سمد يَسْمُد. قال:

رَمَى الْحَدَثَانُ نِسْوَةَ آلِ حِزْبٍ بِمَقْدَارِ سَمَدَنْ لَهُ سُمُودَا

فَرَدَّ شَعُورَهُنَّ الشُّوَدَ بِيضًا، وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سَوْدَا

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ يعني: وأن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر. والمنتهى والآخر واحد، وهو المصير إلى حيث ينقطع العمل عنده. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: فعل سبب الضحك والبكاء، من السرور والحزن كما يقال: أضحكني فلان وأبكاني، عن عطاء والجبائي. وقيل: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، عن مجاهد. والضحك والبكاء من فعل الإنسان، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ وقال: ﴿تَعْبُونَ ۖ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ فنسب الضحك إليهم. وقال الحسن: إن الله سبحانه هو الخالق للضحك والبكاء.

والضحك: تفتح أسرار الوجه عن سرور وعجب في القلب، فإذا هجم على الإنسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله.

والبكاء: جريان الدمع على الخد عن غم في القلب، وربما كان عن فرح يمازجه تذكر حزن، فكأنه عن رقة في القلب. وقيل: معنى الآية أضحك الأشجار بالأنوار، وأبكى السحاب بالأمطار. وقيل: أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخط.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ أي: خلق الموت فأمات به الأحياء، لا يقدر على ذلك غيره، لأنه لو قدر على الموت لقدر على الحياة، فإن القادر على الشيء قادر على ضده، ولا يقدر أحد على الحياة إلا الله تعالى. وخلق الحياة التي يحيي بها الحيوان فأمات الخلق في الدنيا وأحياهم في العقبى للجزاء. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من كل حيوان ﴿مِنْ تَلْفَؤٍ إِذَا تَشَنَّى﴾ أي: إذا خرجت منهما وتنصب في الرحم. والنطفة: ماء الرجل والمرأة التي يخلق منها الولد، عن عطاء والضحاك والجبائي. وقيل: تمنى أي: تقدر وهو أصله، فالمعنى: تلقى على

(١) وفي نسخين «الهواء».

سورة النجم

تقدير في رحم الأنثى. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَى﴾ أي: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة، يعني عليه أن يبعث الناس أحياء للجزاء.

فإن قيل: إن لفظة «على» كلمة إيجاب، فكيف يجب على الله سبحانه ذلك؟ فالجواب: أنه سبحانه إذا كلف الخلق فقد ضمن الثواب، فإذا فعل فيهم الآلام فقد ضمن العوض، فإذا لم يعوض في الدنيا وخلق بين المظلوم والظالم، فلا بد من دار أخرى يقع فيها الجزاء والإنصاف والانتصاف، وقد وعد سبحانه بذلك فيجب الوفاء به.

﴿وَأَنْتَ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أغنى الناس بالأموال وإعطاء الفنية وأصول المال، وما يدخرونه بعد الكفاية، عن أبي صالح. وقيل: أفتى أي: أخدم، عن الحسن ومجاهد وقتادة. وقيل: أغنى مؤل، وأقنى أَرْضَى بما أعطى، عن ابن عباس. وقيل: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضى، عن سفيان. وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بالزيادة. وقيل: أغنى من شاء، وأقنى أي: أفقر، وحرَم من شاء، عن ابن زيد.

﴿وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى﴾ أي: خالق الشعرى ومخترعها ومالكها، أي: فلا تتخذوا المربوب المملوك إلهاً. وقيل: إن خزاعة كانت تعبدوها، وأول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، وكان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة، لمخالفته إياهم في الدين، كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى.

﴿وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهو عاد بن إرم، وهم قوم هود، أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى. قال ابن إسحاق: أهلكوا ببغي بعضهم على بعض فتفانوا بالقتل. ﴿وَتَمُودَ﴾ أي: وأهلك ثمود ﴿فَمَا أَتَى﴾ ولا يجوز أن يكون منصوباً بأبقى، لأن «ما» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا يقال: زيدا ما ضربت، لأنها تجري مجرى الاستفهام في أن لها صدر الكلام. وإنما فتحت «أن» في هذه المواضع كلها لأن جميعها في صحف إبراهيم وموسى، فكانه قال: أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى، بأنه ﴿أَلَّا زُرَّ وَزَرَّةٌ وَزَّرَ أُخْرَى﴾، وبأنه كذا وكذا. ﴿وَقَوْمٌ كُوجٌ مِّنْ قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وحمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ من غيرهم لطول دعوة نوح، وعتوهم على الله في الكفر والتكذيب. ﴿وَالْمُؤَيَّكَةَ﴾ يعني قرى قوم لوط المخسوفة ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقط، أهواها جبرائيل بعد أن رفعها وأتبعهم الله بالحجارة، وذلك قوله: ﴿فَنَسْنَأَ مَا عَشَىٰ﴾ أي: ألبسها من العذاب ما ألبس، يعني الحجارة المسومة التي رُموا بها من السماء، عن قتادة وابن زيد. وقيل: إنه تفخيم لشأن العذاب الذي نالها من جهة إبهامه في قوله: ﴿فَنَسْنَأَ مَا عَشَىٰ﴾ فكانه قال: قد حلَّ بهم من العذاب والتكيل ما يجلب عن البيان والتفصيل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: بأي نعم ربك ترتاب وتشك أيها الإنسان فيما أولاك أو فيما كفاك، عن قتادة. وقيل: لما عد الله سبحانه ما فعله مما يدل على وحدانيته، قال: فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تشكك. وإنما ذكره بالنعم بعد تعديد النقم، لأن النقم التي عدت هي نعم علينا لما لنا فيها من اللطف في الانزجار عن القبيح، إذ نالهم تلك النقم بكفرانهم

النعم. ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أشار إلى رسول الله ﷺ، عن قتادة. و ﴿النَّذْرُ الْأُولَى﴾ الرسل قبله. وقيل: هو إشارة إلى القرآن، والنذر الأولى: صحف إبراهيم وموسى، عن أبي مالك. وقيل معناه: هذه الأخبار التي أخبر بها عن إهلاك الأمم الأولى نذير لكم، عن الجبائي.

﴿أَزِفَتِ الْأَزِيفَةُ﴾ أي: دنت القيامة واقتربت الساعة، وإنما سميت القيامة أزفة أي: دانية، لأن كل ما هو آت قريب. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: إذا غشيت الخلق شدائدها وأهوالها لم يكشف عنهم أحد ولم يردّها، عن عطاء والضحاك وقتادة. وتأنيث «كاشفة» على تقدير: نفس كاشفة أو جماعة كاشفة، ويجوز أن يكون مصدر: كالعافية، والعاقبة، والواقية، والخاتمة، فيكون المعنى: ليس لها من دون الله كشف، أي: لا يكشف عنها غيره، ولا يظهرها سواء. كقوله: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ﴾. ﴿أَفَمَن هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني بالحديث ما قدم من الأخبار، عن الصادق عليه السلام. وقيل معناه: أفمن هذا القرآن ونزوله من عند الله على محمد ﷺ وكونه معجزاً ﴿تَعْبُجُونَ﴾ أيها المشركون، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزعاجاً لما فيه من الوعيد؟ ﴿وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ﴾ أي: غافلون لاهون معرضون، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو الغناء، كانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه، عن عكرمة. ﴿فَأَسْبُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أمرهم سبحانه بالسجود له، والعبادة خالصاً مخلصاً. وفي الآية دلالة على أن السجود هاهنا واجب على ما ذهب إليه أصحابنا، لأن ظاهر الأمر يقتضي الوجوب.

سُورَةُ الْقَمَرِ

مكية / آياتها (٥٥)

وهي خمس وخمسون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي كُلِّ غَيْبٍ، بَعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَهُ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ كَانَ أَفْضَلَ، وَجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَهُ مَسْفَرٌ عَلَى وَجْهِ الْخَلَائِقِ». وروى يزيد بن خليفة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة اقتربت الساعة، أخرجه الله من قبره على ناقة، من نوق الجنة.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر أزوف الآزفة، وافتتح هذه السورة بمثله،

فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ١ ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ ٢ ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ ٣ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ٤ ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْدُرُ﴾ ٥ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ٦ ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ٧ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ ٨ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾ ٩ ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ١٠ ﴿

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «وكل أمر مستقر» بالجر، والباقون: بالرفع. وقرأ ابن كثير ونافع: «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ» بغير ياء، و«مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» بياء في الوصل. وروي عن ورش «يوم يدع الداع» بياء في الوصل. وقرأهما أبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل، والباقون: بغير ياء في وصل ولا وقف. وقد تقدم القول في هذا النحو. وقرأ ابن كثير: «إلى شيء نُكْرٍ» بالتحفيف، والباقون: «نُكْرٍ» بضم نين. وقرأ أهل العراق غير عاصم: «خاشعاً أبصارهم»، والباقون: «خشعاً». وفي الشواذ قراءة حذيفة: «وقد انشق القمر»، وقراءة مجاهد والجحدري وأبي قلابة: «إلى شيء نُكْرٍ».

● **الحجة:** من قرأ: «مستقر» بالجر، جعله صفة لـ «أمر». ومن قرأ بالرفع جعله خبر لـ «كل أمر». وأما قراءة «نُكْرٍ» فإنه على فُعل، وهو أحد الحروف التي جاءت صفة على هذه الزنة، ومثله: ناقة أجَد، ومِشْيَة سُجِحِ صفة، قال حسان:

دعوا التَّحَاجَزَ وَاَمْشُوا مَشْيَةً سُجْحًا، إِنَّ الرِّجَالَ ذَوُو عَظْبٍ، وتذكير^(١)

ومن قرأ: «نَكَرَ» خففه، مثل: رسل وكتب، والضمّة في تقدير الثبات. ومن قرأ: «خاشعاً أبصارهم» فإنه كما لم يلحق علامة التأنيث لم يجمع، وحسن ألا يؤنث، لأن التأنيث ليس بحقيقي. ومن قال: «خُشِعاً» فقد أثبت ما يدل على الجمع، وهو على لفظ الأفراد، ودل لفظ الجمع على لفظ ما يدل عليه التأنيث الذي ثبت في نحو قوله في الآية الأخرى: ﴿خَشَعَتِ الْأَبْصَارُ لِلرِّحْمَانِ﴾. قال الزجاج: ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو قوله: «خاشعاً أبصارهم». ولك التوحيد والتأنيث نحو: ﴿خَشَعَتِ الْأَبْصَارُ لِلرِّحْمَانِ﴾ ولك الجمع نحو: ﴿خُشِعَ أَبْصَارُهُمْ﴾. تقول: مررت بشباب حسن أوجههم، وحسان وجوههم، وحسنة أوجههم، قال:

وشباب حسن أوجههم من إباد بن نزار بن معد

قال ابن جني: قراءة حذيفة: «وقد انشق القمر» يجري مجرى الموافقة على إسقاط العذر ورفع التشكك، أي: قد كان انشقاق القمر متوقعاً، دلالة على قرب الساعة، فإذا كان قد انشق وانشاقه من أشراطها، وقد يوكد الأمر في قرب وقوعها، وذلك أن «قد» إنما هو جواب وقوع أمر كان متوقعاً.

● **اللغة:** في «اقتربت» زيادة مبالغة على قرب، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على قدر، لأن أصل افتعل إعداد المعنى بالمبالغة، نحو: اشتوى إذا اتخذ شواء بالمبالغة في إعداده. والأهواء: جمع الهوى، وهو رقة القلب بميل الطباع كركة هواء الجو. يقال: هوى يهوي هوى فهو هوى، إذا مال طبعه إلى الشيء. والمزدرجر: المتعظ، مفتعل من الزجر، إلا أن التاء أبدلت ذالاً لتوافق الزاي بالجهر. ويقال: أنكرت الشيء فهو منكّر، ونكرته فهو منكور. وقد جمع الأعشى بين اللغتين فقال:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصَّلَا^(٢)

والنكر والمنكر: الشيء الذي تاباه النفس، ولا تقبله من جهة نفور الطبع عنه، وأصله من الإنكار الذي هو نقيض الإقرار. والأحداث: القبور، جمع جدث، والجدف بالفاء لغة فيه. والإهطاع: الإسراع في المشي.

● **الإعراب:** ﴿فَمَا تَعْنِ الْنَذْرُ﴾ يجوز أن يكون «ما» للجدح فيكون حرفاً، ويجوز أن يكون استفهاماً فيكون اسماً، والتقدير في الأول: فلا تغني النذر، وفي الثاني: فأني شيء تغني النذر. قال الزجاج: قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ وقف التمام: ﴿فَتَوَلَّ

(١) التحاجز: التمانع. والسَّحَج: اللين السهل. والعصب: السيف القاطع. وذكر الفأس، وغيره: جعل على رأسه القطعة من الفولاذ.

(٢) الصَّلَع: انحسار شعر مقدم الرأس.

سورة القمر

عَنَّهُمْ. ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾. وأما حذف الواو من «يدعو» في الكتاب، فلأنها تحذف في اللفظ لالتقاء الساكنين، فأجريت في الكتاب على ما يلفظ بها. وأما «الداعي» فإثبات الياء فيه أجود، ويجوز حذفها لأن الكسرة تدل عليها. وقوله: ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ منصوب على الحال من الواو في ﴿يَخْرُجُونَ﴾، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: يخرجون خشعاً أبصارهم من الأجداث. وإن شئت كان حالاً من الضمير في قوله: ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ﴾. و﴿مُطَهِّينَ﴾ أيضاً منصوب على الحال، و﴿أَنَّى مَغْلُوبٌ﴾ تقديره: دعا ربه بأني مغلوب. وقرأ عيسى بن عمر «إني» بالكسر على إرادة القول، أي: فدعا ربه قال: إني مغلوب، ومثله: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا﴾ التقدير: ما نعبدهم إلا ليقربونا.

● المعنى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ أي: قربت الساعة التي تموت فيها الخلائق وتكون القيامة، والمراد: فاستعدوا لها قبل هجومها، ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال ابن عباس: «اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم: وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا فلان، يا فلان، اشهدوا». وقال ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا اشهدوا». وروي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: والذي نفسي بيده لقد رأيت حراء بين فلقي القمر. وعن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين، على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال ناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم. وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، منهم عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وابن عباس، وجبیر بن مطعم، وعبد الله بن عمر، وعليه جماعة المفسرين، إلا ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: معناه: وسينشق القمر. وروي ذلك عن الحسن، وأنكره أيضاً البلخي، وهذا لا يصح، لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه، ولأن اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه. ومن طعن في ذلك بأنه لو وقع انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار، فقله باطل، لأنه يجوز أن يكون الله تعالى قد حجه عن أكثرهم بغيم وما يجري مجراه، ولأنه قد وقع ذلك ليلاً، فيجوز أن يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا بذلك، على أن الناس ليس كلهم يتأملون ما يحدث في السماء وفي الجو من آية وعلامة، فيكون مثل انقضا الكواكب وغيره مما يغفل الناس عنه. وإنما ذكر سبحانه اقتراب الساعة مع انشقاق القمر لأن انشقاقه من علامة نبوة نبينا ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراف اقتراب الساعة.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عن عناد كفار قريش، وأنهم إذا رأوا آية معجزة أعرضوا عن تأملها والانقياد لصحتها عناداً وحسداً. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ﴾ أي: قوي شديد يعلو كل سحر، عن الضحاك وأبي العالية وقتادة. وهو من إمرار الحبل وهو من شدة قتله. واستمر الشيء: إذا قوي واستحكم. وقيل: معناه سحر ذاهب مضمحل لا يبقى، عن مجاهد، وهو من المرور. وقال المفسرون: لما انشق القمر قال مشركو قريش: سحرنا محمد، فقال الله

سبحانه: ﴿وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُونَ﴾ عن التصديق والإيمان بها. قال الزجاج: وفي هذا دلالة على أن ذلك قد كان وقع. وأقول: ولأنه تعالى قد بين أنه يكون آية على وجه الإعجاز، وإنما يحتاج إلى الآية المعجزة في الدنيا ليستدل الناس بها على صحة النبوة. ويعرف صدق الصادق، لا في حال انقطاع التكليف والوقت الذي يكون الناس فيه ملجئين إلى المعرفة، ولأنه سبحانه قال: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ وفي وقت الإلجاء لا يقولون عن المعجز أنه سحر. ﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي: بالآية التي شاهدوها ﴿وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في التكذيب وما زين لهم الشيطان من الباطل الذي هم عليه. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ فالخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، عن قتادة. والمعنى: إن كل أمر خير وشر مستقر ثابت حتى يجازى به صاحبه إما في الجنة أو في النار. وقيل: معناه لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فيظهر، وما كان منه في الآخرة فيسعر، عن الكلبي.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي: ولقد جاء هؤلاء الكفار ﴿مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ يعني الأخبار العظيمة في القرآن بكفر من تقدم من الأمم وإهلاكنا إياهم ﴿مَا فِيهِ مِزْجٌ﴾ أي: متعظ وهو بمعنى المصدر، أي: ازدجار عن الكفر وتكذيب الرسل، ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً﴾ يعني القرآن حكمة^(١) تامة قد بلغت الغاية والنهاية. ﴿فَمَا تَنْتَظِرُونَ﴾ أي: أي شيء تنفع النذر مع تكذيب هؤلاء وإعراضهم، وهو جمع النذير. وقيل: معناه فلا تغني النذر شيئاً، أي: إن الأنبياء الذين بعثوا إليهم لا يغنون عنهم شيئاً من عذاب الله الذي استحقوه بكفرهم، لأنهم خالفوه ولم يقبلوا منهم، عن الجبائي. وقيل: النذر هي الزواجر المخوفة وآيات الوعيد.

ثم أمره سبحانه بالإعراض عنهم فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم ولا تقابلهم على سفههم. وهامنا وقف تام. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ أي: منكر غير معتاد ولا معروف، بل أمر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً. واختلف في الداعي فقيل: هو إسرافيل يدعو الناس إلى الحشر قائماً على صخرة بيت المقدس، عن مقاتل: وقيل: بل الداعي يدعوهم إلى النار و﴿يَوْمَ﴾ ظرف ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: في هذا اليوم يخرجون من الأبدان، ويجوز أن يكون التقدير: في هذا اليوم يقول الكافرون: وقوله: ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ يعني خاشعة أبصارهم، أي: ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب، وإنما وصف الأبصار بالخشوع، لأن ذلة الدليل، أو عزة العزيز تتبين في نظره وتظهر في عينه. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ﴾ والمعنى أنهم يخرجون فزعين يدخل بعضهم في بعض، ويختلط بعضهم ببعض، لا جهة لأحد منهم فيقصدها، كما أن الجراد لا جهة لها، فتكون أبداً متفرقة في كل جهة. قال الحسن: الجراد يتلبّد حتى إذا طلعت عليها الشمس انتشرت. فالمعنى أنهم يكونوا ساكنين في قبورهم، فإذا دعوا خرجوا وانتشروا. وقيل: إنما شبههم بالجراد لكثرتهم. وفي هذه الآية دلالة على أن البعث إنما يكون لهذه البنية، لأنها الكائنة في الأبدان، خلافاً لمن زعم أن البعث يكون للأرواح. ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مقبلين إلى الصوت الداعي، عن قتادة. وقيل: مسرعين إلى

سورة القمر

إجابة الداعي، عن أبي عبيدة. وقيل: ناظرين قبل الداعي قائلين: هذا يوم عسر، عن الفراء وأبي علي الجبائي. وهو قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرٍ﴾ أي: صعب شديد، وقد قيل أيضاً في قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ أقوال آخر:

أحدها: إن المعنى فأعرض عنهم إذا تعرضوا لشفاعتك يوم يدع الداعي، وهو يوم القيامة، فلا تشفع لهم ذلك اليوم كما لم يقبلوا منك اليوم.

وثانيها: إن معناه فتول عنهم، فإنهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدع الداعي وهو يوم القيامة، فحذف الفاء من جواب الأمر.

وثالثها: إن معناه فتولى عنهم فإنهم يوم يدعو الداعي صفتهم كذا وكذا، وهي ما بيئه إلى قوله ﴿يَوْمٌ عَرٍ﴾.

ورابعها: فتول عنهم واذكر يوم يدع الداع إلى آخره، عن الحسن.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل كفار مكة ﴿قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً كما كذبت يا محمد هؤلاء الكفار وجحدوا نبوتك، ﴿وَقَالُوا بَحْثُونُ﴾ أي: هو مجنون قد غطى على عقله ﴿وَأَزْدُجِرَ﴾ أي: زُجِرَ بالشتم والرمي بالقبيح، عن ابن زيد. وقيل: معناه زُجِرَ بالوعيد وتوعد بالقتل فهو مثل قوله: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ أي: فقال: يا رب، قد غلبني الكفار بالقهر لا بالحجة، فانتصر، أي: فانتقم لي منهم بالإهلاك والدمار نصرة لدينك ونبيك. وفي هذا دلالة على وجوب الانقطاع إلى الله تعالى عند سماع الكلام القبيح من أهل الباطل.



قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قَدِيرٍ ۝ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ۝ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ۝ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ۝ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ لَأَنفُسِهِمْ أَعْجَازَ نَخْلٍ مَنقَعِرٍ ۝ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ۝ (٢١)﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «فَفَتَحْنَا» بالتشديد، والباقون بالتخفيف.

● **الحجة:** وجه التخفيف أن فعلنا بالتخفيف يدل على القليل والكثير، ووجه التثقيل أنه يخص الكثير^(١)، ويقويه قوله: ﴿مَفْتَحَةً لِّمَنْ الْأَبْوَابُ﴾.

(١) وفي نسختين: «الكثير بالكثير». وفي نسخة: «الكثير بالكثير».

● **اللغة:** الهمر: صب الدمع والماء بشدة، والانهمار: الانصباب، قال امرؤ القيس:

راح تَمْرِيه الصَّبَا، ثُمَّ انتحى فيه شُؤْبُوبٌ جُئُوبٌ مُثْمَرٌ^(١)

والتفجير: تشقيق الأرض عن الماء. والعيون: جمع عين الماء. وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان، فالعين مشتركة بين عين الحيوان، وعين الماء، وعين الذهب^(٢)، وعين السحاب، وعين الركبة. والدرسر: المسامير التي تشد بها السفينة، واحدها دسار ودسير، ودسرت السفينة أدرها دسراً: إذا شدتها. وقيل: إن أصل الباب الدفع، يقال: دسره بالرمح: إذا دفعه بشدة، والدرسر: صدر السفينة لأنه يدرس به الماء أي: يدفع. ومنه الحديث في العنبر: «هو شيء دسره البحر». ومُذَكَّرٌ: أصله مذكرة، فقلبت التاء دالاً لتواخي الدال بالجهر، ثم أدغمت الدال فيها. والنذر: اسم من الإنذار يقوم مقام المصدر، يقال: أنذره نذراً بمعنى إنذاراً، ومثله أنزله نزالاً بمعنى إنزالاً، ويجوز أن يكون جمع نذير. والصرصر: الريح الشديدة الهبوب التي يسمع صوتها، وهو مضاعف صر، يقال: صرّ وصرصر وكبّ وككبك ونهه. والمستمر: الجاري على طريقة واحدة. وأعجاز النخل: أسافله، والنخل يذكر ويؤنث. والمنقعر: المنقلع عن أصله، لأن قعر الشيء قراره، وتقرع في كلامه تقرعاً: إذا تعمق.

● **الإعراب:** ﴿عُيُونًا﴾ نصب على التمييز أو الحال، والأصل: وفجرنا عيون الأرض، والمعنى: وفجرنا جميع الأرض عيوناً. ويجوز أن يكون تقديره: بعيون، فحذف الجار. ويجوز أن يكون التقدير: وفجرنا من الأرض عيوناً. وقوله: ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾^(٣) في موضع نصب على الحال، وقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ في موضع نصب بأنه ظرف مكان. ﴿جَزَاءً﴾ منصوب بأنه مفعول له، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، والمعنى: فعلنا ذلك مجازين جزاء. و﴿ءَايَةً﴾ منصوبة على الحال من الهاء في ﴿تَرَكْنَاهَا﴾.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه إجابته لدعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ هاهنا حذف معناه: فاستجبنا لنوح دعاءه ففتحنا أبواب السماء، أي: أجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له، وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه. وجاز ذلك على طريق البلاغة ﴿بِمَاءٍ مُّثْمَرٍ﴾ أي: منصب انصباباً شديداً لا ينقطع. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض بالماء عيوناً حتى جرى الماء على وجه الأرض، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض. وإنما لم يُشْنْ لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير. ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ فيه هلاك القوم، أي: على أمر قد قدره الله تعالى وهو هلاكهم. وقيل: على أمر قدره الله تعالى وعرف مقداره، فلا زيادة فيه ولا نقصان. وقيل: معناه أنه كان قد قدر ماء السماء، مثل^(٤) قدر ماء

(١) مرتب الريح السحاب: استدره واستخرج ما فيها من الماء. وانتحى البعير: اعتمد في سيره على أسيره. والشؤبوب: الدفعة من المطر وشدة دفع الشيء. والجنوب: يحتمل ريح الجنوب، أو نقطة الجنوب.

(٢) وفي نسخة: «عين الذهب، وعين الميزان» وفي نسخة «الميزاب».

(٣) في المخطوطة: «على أمر قد قدر».

(٤) ليس في سائر النسخ لفظة «ما».

الأرض، عن مقاتل. وقيل: معناه على أمر قدر عليهم في اللوح المحفوظ. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح مركبة^(١) بعضها إلى بعض، وألواحها خشباتها التي منها جمعت ﴿وَدُسِّرَ﴾ أي: مسامير شدت بها السفينة، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد. وقيل: هو صدر السفينة يدرس بها الماء، عن الحسن وجماعة. وقيل: هي أضلاع السفينة، عن مجاهد. وقيل: طرفاها وأصلها، والألواح: جانبها، عن الضحاك ﴿تَجْرِي﴾ السفينة في الماء ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وحراستنا وبمرأى منا، ومنه قولهم: عين الله عليك. وقيل: معناه بأعين أوليائنا ومن وكلناهم بها من الملائكة. وقيل: معناه تجري بأعين الماء التي أنبعناها ﴿جَرَاءَ لَيْنٍ كَانَتْ كِفْرًا﴾ أي: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كان قد كفر به ووجد أمره وهو نوح عليه السلام، والتقدير: لمن جحد نبوته وأنكر حقه بالله فيه.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي: تركنا هذه الفعلة التي فعلناها ﴿ءَايَةً﴾ علامة يُعْتَبَرُ بها. وقيل: معناه تركنا السفينة ونجاة من فيها وإهلاك الباقيين، دلالة باهرة على وحدانية الله تعالى. وعبرة لمن اتعظ بها، وكانت السفينة باقية حتى رآها أوائل هذه الأمة، عن قتادة. وقيل في كونها آية: إنها كانت تجري بين ماء السماء وماء الأرض، وقد كان غطاها على ما أمر الله تعالى. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن ذلك حق فيعتبر به ويخاف. وقيل: معناه فهل من طالب علم فيعان عليه، عن قتادة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ هذا استفهام عن تلك الحالة ومعناه التعظيم لذلك العذاب، أي: كيف رأيتم انتقامي منهم وإنذاري إياهم. وقال الحسن: النذر: جمع نذير.

وإنما كرر سبحانه هذا القول في هذه السورة، لأنه سبحانه لما ذكر أنواع الإنذار والعذاب، عقد التذكير بشيء منه على التفصيل.

﴿وَلَقَدْ يَنْشَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلناه للحفظ والقراءة حتى يقرأ كله ظاهراً، وليس من كتب الله المنزلة كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن، عن سعيد بن جبير. والتيسير للشيء هو تسهيله بما ليس فيه كثير مشقة على النفس، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بأخذ الحظ الجزيل منه، لأن التسهيل أكبر داع إليه، وتسهيل القرآن للذكر هو خفة ذلك على النفس، بحسن البيان وظهور البرهان، في الحكيم السنية والمعاني الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من قبل الله تعالى. وإنما صار الذكر من أجل ما يدعى إليه ويحث عليه، لأنه طريق العلم، لأن الساهي عن الشيء أو عن دليله لا يجوز أن يعلمه في حال سهوه، فإذا تذكر الدلائل عليه والطرق المؤدية إليه تعرض لعلمه من الوجه الذي ينبغي له. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: مُتَعَبِّرٌ مُعْتَبِرٌ به ناظر فيه.

ثم قال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: بالرسول الذي بعثه الله إليهم، وهو هود عليه السلام فاستحقوا الهلاك فأهلكهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذْرِي﴾ أي: وإنذاري إياهم. ثم بين كيفية إهلاكهم فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة الهبوب، عن ابن زيد. وقيل: باردة، عن ابن عباس وقتادة. من الصر وهو البرد. ﴿فِي يَوْمٍ نَخْتِمُ﴾ أي: في يوم شؤم ﴿مُتَسَمِّرِينَ﴾ أي: دائم

الشؤم استمر عليهم بنحوه سبع ليال وثمانية أيام حتى أتت عليهم، ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ من صفة اليوم أي: يوم مستمر ضرره، عام هلاكه. وقيل: هو نعت للنحس، أي: استمر بهم العذاب والنحس في الدنيا حتى اتصل بالعقبى. قال ^(١) الزجاج: وقيل: إنه كان في يوم الأربعاء في آخر الشهر لا يدور، رواه العياشي بالإسناد عن أبي جعفر عليه السلام. ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ أي: تقتلع هذه الريح الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم، فيصيرون ﴿كَأَنَّهُمْ أَصْبَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أي: أسافل نخل منقلع، لأن رؤوسهم سقطت عن أبدانهم، عن مجاهد. وقيل: معناه تنزع الناس من حفر حفروها ليستروا بها عن الريح. وقيل: معناه تنزع أرواح الناس، عن الحسن. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ وهو تعظيم للعذاب النازل بهم، وتخويف لكفار مكة.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ (٧٢) ﴿كَذَبَتْ نَعْمُوذُ بِالْأُنْذَرِ﴾ (٧٣) ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٧٤) ﴿أَلَمْ يَلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ (٧٥) ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنفُثُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (٧٧) ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ (٧٨) ﴿فَادَاوَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٧٩) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٨٠) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ﴾ (٨١).

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحزمة: «ستعلمون» بالياء، والباقون بالياء. وفي الشواذ قراءة ابن السماك: «أبشر منا» بالرفع، «واحدًا نتبعه» بالنصب. وقراءة أبي قلابه: «الكذاب الأشر» بالتشديد. وقراءة مجاهد: «الأشر» بضم الشين خفيفة. وقراءة الحسن: «كهشيم المحتظر» بفتح الظاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الباء أن قبله غيبة، وهو قوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا﴾ ^(٢) ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾. ووجه التاء على أنه قيل لهم: «ستعلمون». وقال ابن جني، قوله: «أبشر» عندي مرفوع بفعل يدل عليه قوله: ﴿أَلَمْ يَلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾، فكانه قال: قال: أبيعث بشر منا. فأما انتصاب ﴿وَاحِدَةً﴾ فإن شئت جعلته حالاً من الضمير في قوله: ﴿مِّنَّا﴾ أي: ينبأ بشر كائن منا، والناصب لهذه الحال الظرف، كقولك: زيد في الدار جالساً. وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في قوله: ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ أي: نتبعه واحداً، أي: منفرداً لا ناصر له.

وقوله: ﴿الْأَشْرُ﴾ بتشديد الراء هو الأصل المرفوض، لأن أصل قولهم: هذا خير منه ^(٣) وشر منه، هذا أخير منه وهذا أشر منه، فكثر استعمال هاتين الكلمتين فحذفت الهمزة منهما.

سورة القمر

وأما «الأشُر» فإنه مما جاء في فِعْل وفَعْل من الصفات كحذر وحذر، ويقظ ويقظ، ووطف ووطف، وعجز وعجز.

وأما «المحتظر» فإنه مصدر، أي: كهشيم الاحتظار، كقولك أجر البناء، وخشب النجارة، ويجوز أن يكون «المحتظر» الشجر أي: كهشيم الشجر المتخذة منه الحظيرة، أي: كما تتهافت من الشجر المَجْعول حظيرة. والهشيم: ما تهشم منه وانتثر.

● **اللغة:** السعير: جمع سَعِير وهو النار المسعرة، والسعر: الجنون، يقال: ناقة مسعورة، إذا كانت كأن بها جنوناً. وسَعِر^(١) فلان جنوناً، وأصله: التهاب الشيء. والتعاطي: التناول. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة على بستانه أو غنمه^(٢): وهو المنع من الفعل.

● **الإعراب:** ﴿أَشْرًا﴾ منصوب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، وتقديره، أنتبِع بشراً منا. وقوله: ﴿يَتَّخِذُ صَفَةً، أي: أبشراً كائناً منا. و﴿وَجَدًا﴾ صفة بعد صفة. والبشر: يقع على الواحد والجمع. وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ في محل نصب على الظرف، و﴿فَنَنَّا﴾ منصوب بأنه مفعول له، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، أي: فانتين لهم.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ قد فسّرناه. وقيل: إنه سبحانه إنما أعاد ذكر التيسير لينبئ أنه يسره على كل حال، وكل وجه من وجوه التيسير، فمن الوجوه التي يَسِّرُ الله تعالى بها القرآن هو أن أبان عن الحكم الذي يعمل عليه، والمواعظ التي يرتدع بها، والمعاني التي تحتاج إلى التنبيه عليها، والحجج التي يميز بها بين الحق والباطل، عن علي بن عيسى.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي: بالإنذار الذي جاءهم به صالح. وقد قال: إن النذر جمع نذير، قال معناه: إنهم كذبوا الرسل بتكذيبهم صالحاً، لأن التكذيب واحد من الرسل كتكذيب الجميع، لأنهم متفقون في الدعاء إلى التوحيد وإن اختلفوا في الشرائع. ﴿فَقَالُوا أَشْرًا يَتَخَذُ النَّعْمَةُ﴾ أي: أنتبِع آدمياً مثلنا وهو واحد؟ ﴿إِنَّا إِذَا لَقِيَ صَٰلِحٌ﴾ أي: نحن إن فعلنا ذلك في خطأ وذهاب عن الحق، ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: وفي عناء وشدة عذاب فيما يلزمنا من طاعته، عن قتادة. وقيل: في جنون، عن ابن عباس في رواية عطاء.

والفائدة في الآية بيان شبهتهم الركيكة التي حملوا أنفسهم على تكذيب الأنبياء من أجلها، وهي أن الأنبياء ينبغي أن يكونوا جماعة. وذهب عنهم أن الواحد من الخلق يصلح لتحمل أعباء الرسالة، وإن لم يصلح لها غيره من جهة معرفته بربه، وسلامة ظاهره وباطنه، وقيامه بما كُلف من الرسالة.

﴿أَلْقَى الدُّكْرُ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هذا استفهام إنكار وجحود، أي: فكيف ألقى الوحي عليه وخُصَّ بالنبوة من بيننا وهو واحد منا؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ فيما يقول، ﴿أَيُّرُ﴾ أي: بطل مُتَكَبِّر يريد أن يتعظم علينا بالنبوة. ثم قال سبحانه: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآثِرُ﴾ وهذا وعيد لهم، أي:

سيعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب، أهو الكذاب أم هم في تكذيبه؟ وهو الأشر البطر أم هم؟ فذكر مثل لفظهم مبالغة في توبيخهم وتهديدهم، وإنما قال: ﴿عَذَابٌ﴾ على وجه التقريب على عادة الناس في ذكرهم الغد، والمراد به العاقبة. قالوا: إن مع اليوم غداً.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: نحن باعثو الناقة بإنشائها على ما طلبوها معجزة لصالح، وقطعاً لعذرهم، وامتحاناً واختباراً لهم، وها هنا حذف وهو: إنهم تعنتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء تضع، ثم ترد ماءهم فتشربه، ثم تعود عليهم بمثله لبناً، فقال سبحانه: إنا باعثوها كما سألوها فتنة لهم، عن ابن عباس. ﴿فَارْتَبَتْنَهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون. ﴿وَأَضَلَّتْهُمُ﴾ على ما يصيبك من الأذى حتى يأتي أمر الله فيهم، ﴿وَيَبِّتْنَهُمْ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ فِتْنَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ يوم للناقة ويوم لهم، ﴿كُلُّ شَيْءٍ مُحْضَرٌّ﴾ أي: كل نصيب من الماء يحضره أهله، لا يحضر آخر معه، ففي يوم الناقة تحضره الناقة، وفي يومهم يحضره هم. وحضر واحتضر بمعنى واحد، وإنما قال: ﴿فِتْنَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ تغليبا لمن يعقل. والمعنى: يوم لهم ويوم لها. وقيل: إنهم كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة ويشربونه، وإذا حضرت حضروا اللبن وتركوا الماء لها، عن مجاهد. ﴿فَادَّارُوا مَصَاجِمَ﴾ أي: دبّروا في أمر الناقة بالقتل، فدعوا واحداً من أشرارهم، وهو قدار بن سالف، عاقر الناقة، ﴿فَنَعَاظَنِي فَعَقَرْتُ﴾ أي: تناول الناقة بالعقر فعقرها. وقيل: إنه كَمَنَ لها في أصل صخرة، فرماها بسهم فانظم^(١) به عضلة ساقها، ثم شد عليها السيف فكشف عرقوبها. وكان يقال له: أحمر ثمود وأخير ثمود. قال الزجاج: والعرب تغلط فتجعله أحمر عاد، فتضرب به المثل في الشؤم. قال زهير:

وَتُشْتِجَ لَكُمْ غُلْمَانُ أَشْأَمَ، كُلُّهُنَّ، كَأَخْمَرِ عَادٍ، ثُمَّ تُزْضِغُ فُتْفُطِمْ

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: فانظر كيف أهلكتهم؟ وكيف كان عذابي لهم وإنذاري إياهم؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يريد جبرائيل عليه السلام، عن عطاء. وقيل: الصيحة: العذاب. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ﴾ أي: فصاروا كهشيم، وهو حطام الشجر المنقطع بالكسر والرض الذي يجمعه صاحب الحظيرة، الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها من برد الريح. والمعنى: إنهم بادوا وهلكوا فصاروا كبيس الشجر المفتت^(٢) إذا تحطم، عن ابن عباس. وقيل معناه، صاروا كالتراب الذي يتناثر من الحائط، فتصيبه الرياح فيتحظر مستديراً، عن سعيد بن جبير.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ (٣٢) كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالْأُنْذَرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَهُمْ بِسِحْرِ (٣٤) نَعْمَةً مِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالْأُنْذَرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا

(٢) وفي نسخة: «المتفتت».

(١) انتظم الصيد: طعنه، أو رماه حتى ينفذه.

أَعْيَنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقَدِّرٍ ﴿٤٢﴾ .

● الإعراب: «سحر» إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار. يقال: رأيت زيدا سحراً من الأسحار، فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيت به سحر وأتيت سحر. وقوله: ﴿يَقَمَّةٌ﴾ مفعول له. وقوله: ﴿بُكْرَةً﴾ ظرف زمان، فإذا كان معرفة بأن تريد بكرة يومك، تقول: أتيت بكرة وغدوة، لم تصرفهما، فبكرة هنا نكرة.

● المعنى: ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ قال قتادة: أي: فهل من طالب علم يتعلم؟ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذِيرِ﴾ أي: بالإنذار، وقيل: بالرسول على ما فسرناه. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً حصبتهم أي: رمتهم بالحجارة والحصباء. قال ابن عباس: يريد ما حصبوا به من السماء من الحجارة في الريح، قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالِ الشَّامِ، تَضْرِبُنَا بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورٍ^(١)

ثم استثنى آل لوط فقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ جَنَّتُمْ﴾ أي: خلصناهم ﴿بِإِسْحَارٍ﴾ من ذلك العذاب الذي أصاب قومه. ﴿يَقَمَّةٌ مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي: إنعاماً، فيكون مفعولاً له، ويجوز أن يكون مصدرأً، وتقديره: أنعمنا عليهم بذلك نعمة. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أنعمنا عليهم ﴿بِجَزَىٍّ مِّنْ شُكْرٍ﴾. قال مقاتل: يريد من وحده الله تعالى لم يُعَذَّبْ مع المشركين. ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط ﴿بَطُنَّتَانِ﴾ أي: أخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذِيرِ﴾ أي: تدافعوا بالإنذار على وجه الجدال بالباطل. وقيل: معناه فشكوا ولم يصدقوه، وقالوا: كيف يهلكنا وهو واحد منا؟ وهو تفاعلوا من المرية. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي: طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: محوناها. والمعنى: عميت أبصارهم، عن الحسن وفتادة. وقيل: معناه أزلنا تخطيط وجوههم حتى صارت ممسوحة لا يرى أثر عين، وذلك أن جبرائيل عليه السلام صفق أعينهم بجناحه صفقة فأذهبها. والقصة المذكورة فيما مضى وتم الكلام.

ثم قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ﴾ أي: فقلنا لقوم لوط لما أرسلنا عليهم العذاب ذوقوا عذابي ونذري. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: أتاهم صباحاً عذاب نازل بهم حتى هلكوا جميعاً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ﴾ ووجه التكرار أن الأول عند الطمس، والثاني عند الاتفك^(٢). فكلما تجدد العذاب تجدد التقرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ مر معناه. ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ أي: متابعي فرعون بالقرابة والدين ﴿النَّذِيرُ﴾ أي: الإنذار.

(١) الضمير في «تضربنا» راجع إلى الشمال، والمراد: ريح الشمال أي: كانت ريح الشمال تضربنا بالحصباء مثورة فيها كالقطن المندوف. ومر البيت في ج ٦.

(٢) اتفكت البلدة بأهلها: انقلبت.

وقيل: هو جمع نذير، يعني الآيات التي أُنذِرهم بها موسى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: وهي الآيات التسع التي جاءهم بها موسى، وقيل: بجميع الآيات لأن التكذيب بالبعض تكذيب بالكل. ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر لا يمتنع عليه شيء فيما يريد، ﴿مُقَدِّرٌ﴾ على ما يشاء.



قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ (٥٥).

● **القراءة:** قرأ يعقوب عن^(١) رويس: «سَهْزِمُ الجمع»، والباقون: «سَيَهْزِمُ الجمع». وفي الشواذ قراءة أبي السماك: «إنا كل شيء» بالرفع. وقراءة زهير^(٢) والقرقني والأعمش: «ونُهر» بضمين.

● **الحجة:** قال ابن جني: الرفع في قوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ أقوى من النصب، وإن كانت الجماعة على النصب، وذلك أنه من مواضع الابتداء، فهو كقولك: زيد ضربته، فهو مذهب صاحب الكتاب، لأنها جملة وقعت في الأصل خبراً عن المبتدأ في قولك: نحن كل شيء خلقناه بقدر، فهو كقولك: زيد هند ضربها. ثم دخلت «إن» فنصبت الاسم وبقي الخبر على تركيبه الذي كان عليه، واختيار محمد بن يزيد النصب، لأن تقديره: إنا فعلنا كذا، قال: والفعل منتظر بعد «إنا»، فلما دل عليه ما قبله حسن إضماره. قال ابن جني: وهذا ليس بشيء، لأن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون اسماً لا فعلاً جزاء^(٣) منفرداً، فما معنى توقع الفعل هنا؟ وخبر إن وأخواتها كأخبار المبتدأ. وقوله: «نُهر» جمع «نَهر» فيكون كَأَسَدٍ وَأَسَدٌ، وَوُثْنٌ وَوُثْنٌ، ويجوز أن يكون جمع نهر كَسُفٍّ وَسُفٍّ وَرُهْنٌ وَرُهْنٌ.

● **المعنى:** ثم خَوْفٌ سبحانه كفار مكة فقال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ﴾ وأشد وأقوى ﴿مِنْ أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرناهم وقد أهلكناهم. وهذا استفهام إنكار، أي: لستم أفضل من قوم نوح وعاد وثمود،

(١) وفي نسختين: «غير رويس»، بدل «عن رويس».

(٢) وفي نسختين: «زهير الفرقني» وفي نسخة: «والقرقني».

(٣) وفي نسخة: «خبراً منفرداً». وفي أخرى: «لا خبراً منفرداً».

سورة القمر

لا في القوة، ولا في الثروة، ولا في كثرة العدد والعدة، والمراد بالخير ما يتعلق بأسباب الدنيا لا أسباب الدين. والمعنى: إنه إذا هلك أولئك الكفار فما الذي يؤمنكم أن ينزل بكم ما نزل بهم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: ألكم براءة من العذاب في الكتب السالفة أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ أي: أم يقول هؤلاء الكفار نحن جميع أمرنا نتنصر من أعدائنا، عن الكلبي. والمعنى: إنهم يقولون: نحن يد واحدة على من خالفنا نتنصر ممن عادانا، فيدلون بقوتهم واجتماعهم ووحد ﴿مُنْتَصِرُونَ﴾ للفظ الجميع، فإنه واحد في اللفظ وإن كان اسماً للجماعة كالرھط، والجيش، أي: كما أنهم ليسوا بخير من أولئك ولا هم براءة، فكذلك لا جمع لهم يمنع عنهم عذاب الله وينصرهم، وإن قالوا: نحن مجتمعون متناصرون فلا نرام، ولا نقصد، ولا يطمع أحد في غلبتنا. ثم قال سبحانه ﴿سَيَبْرَزُونَ لِلْجَمْعِ﴾ أي: جمع كفار مكة ﴿وَيَقُولُونَ الدُّبُرُ﴾ أي: ينهزمون فيولونكم أدبارهم في الهزيمة.

ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه سيظهره عليهم ويهزمهم، فكانت هذه الهزيمة يوم بدر، فكان موافقة الخبر للمخبر من معجزاته.

ثم قال سبحانه ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: إن موعد الجميع للعذاب يوم القيامة ﴿وَالسَّاعَةُ أَهْوَى وَأَمْرٌ﴾ فالأدهى الأعظم في الدهاء، والدهاء: عظم سبب الضرر مع شدة انزعاج النفس، وهو من الداهية، أي: البلية التي ليس في إزالتها حيلة. والمعنى: إن ما يجري عليهم من القتل والأسر يوم بدر وغيره لا يخلصهم من عقاب الآخرة، بل عذاب الآخرة أعظم من الضرر وأقطع وأمر، أي: أشد مرارة من القتل والأسر في الدنيا. وقيل: الأمر الأشد في استمرار البلاء، لأن أصل المر النفوذ. ثم بين سبحانه حال القيامة فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: في ذهاب عن وجه النجاة، وطريق الجنة في نار مسعرة، عن الجبائي. وقيل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في هلاك وذهاب عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: عناء وعذاب ﴿يَوْمَ يُسْحَرُونَ﴾ أي: يجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني أن هذا العذاب يكون لهم، في يوم يجرمهم الملائكة فيه على وجوههم في النار، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ يعني إصابتهم إياهم بعذابها وحرها، وهو كقولهم: وجدت مس الحمى. و﴿سَقَرَ﴾: جهنم، وقيل: هي باب من أبوابها، وأصل السقر: التلويح، يقال: سقرته الشمس وصقرته إذا لوحته، وإنما لم ينصرف للتعريف والتأنيث.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: خلقنا كل شيء، خلقناه مقدراً بمقدار توجبه الحكمة، لم نخلقه جزافاً ولا تخبيثاً^(١)، فخلقنا العذاب أيضاً على قدر الاستحقاق، وكذلك كل شيء في الدنيا والآخرة، خلقناه مقدراً بمقدار معلوم، عن الجبائي. وقيل: معناه خلقنا كل شيء على قدر معلوم، فخلقنا اللسان للكلام، واليد للبطش، والرجل للمشي، والعين للنظر، والأذن للسمع، والمعدة للطعام، ولو زاد أو نقص عما قدرناه لما تم الغرض، عن الحسن. وقيل: معناه جعلنا لكل شيء شكلاً يوافقه ويصلح له، كالمرأة للرجل، والأتان للحمار، وثياب الرجال

(١) وفي نسخة: تنحيثاً، ولا معنى لهما. وفي نسخة: تعبثاً ولعله يناسب المورد.

للرجال، وثياب النساء للنساء، عن ابن عباس. وقيل: خلقنا كل شيء بقدر مقدر، وقضاء محتوم في اللوح المحفوظ. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي: وما أمرنا بمجيء الساعة السرعة إلا كطرف البصر، عن ابن عباس والكلبي. ومعنى اللمح: النظر بالعجلة، وهو خطف البصر. والمعنى: إذا أردنا قيام الساعة أعدنا الخلق وجميع المخلوقات^(١) في قدر لمح البصر في السرعة. وقيل: معناه وما أمرنا إذا أردنا أن نُكوِّن شيئاً إلا مرة واحدة لم نحتج فيه إلى ثانية. إنما نقول له: كن فيكون كلمح البصر في سرعته من غير إبطاء ولا تأخير، عن الجبائي.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم ونظائركم في الكفر من الأمم الماضية، عن الحسن. وسماهم: أشياهم لما وافقوهم في الكفر وتكذيب الأنبياء. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعد من الانزجار، في مثل ما سلف من أعمال الكفار، لثلا يقع به ما وقع بهم من الإهلاك؟ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب التي كتبها الحفظة، وهذا إشارة إلى أنهم غير مغفول عنهم، عن الجبائي. وقيل: معناه أن جميع ذلك مكتوب عليهم في الكتاب المحفوظ، لأنه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ أي: وما قدموه من أعمالهم من صغير وكبير مكتوب عليهم، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وقيل: معناه كل صغير وكبير من الأرزاق والآجال والموت والحياة ونحوها مكتوب في اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ الْلُتْفَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ أي: أنهار، يعني أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل^(٢)، وضع «نهر» في موضع أنهار، لأنه اسم جنس يقع على الكثير والقليل. والأولى أن يكون إنما وُحِدَ لوفاق الفواصل. والنهر: هو المجرى الواسع من مجاري الماء. ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي: في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم. وقيل: وصفه بالصدق لكونه رفيعاً مرضياً. وقيل: لدوام النعيم به. وقيل: لأن الله صدق وعد أوليائه فيه. ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ أي: عند الله سبحانه، فهو المالك القادر الذي لا يعجزه شيء، وليس المراد قرب المكان - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - بل المراد أنهم في كنفه وجواره وكفايته، حتى تنالهم غواشي رحمته وفضله.

(١) وفي المخطوطة: الحيوانات.

(٢) في المخطوطة: الخمر، واللين، والعسل.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مدنية/آياتها (٧٨)

مكية، وقيل: مكية غير آية نزلت بالمدينة ﴿يَسْتَلُومُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، عن عطاء وقتادة وعكرمة. وإحدى الروایتين عن ابن عباس. وقيل: مدنية، عن الحسن وهمام عن قتادة وأبي حاتم.

- عدد آياتها: ثمان وسبعون آية كوفي شامي، سبع حجازي، ست بصري.
- اختلافها: خمس آيات ﴿الْكَذِبُ﴾ كوفي شامي، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الأول غير المدني، ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ غير المكي، ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ غير البصري، ﴿شَوَاطِئُ مِنْ نَارٍ﴾ حجازي.
- فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرحمن رَجِمَ الله ضعفه، وأدى شكر ما أنعم الله عليه». وروي عن موسى بن جعفر عن آبائه ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره».

أبو بصير، عن أبي عبد الله ﷺ قال: لا تدعوا قراءة الرحمن والقيام بها، فإنها لا تَقْرُؤُ في قلوب المنافقين، وتأتي ربها يوم القيامة في صورة آدمي، في أحسن صورة وأطيب ريح، حتى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله سبحانه منها، فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويُدمن قراءتك؟ فتقول: يا رب فلان وفلان وفلان، فتبيض وجوههم، فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتهم، فيشفعون حتى لا يبقى لهم غايه ولا أحد يشفعون له، فيقول لهم: ادخلوا الجنة واسكنوا فيها حيث شئتم.

حماد بن عثمان قال: قال الصادق ﷺ: يجب أن يقرأ الرجل سورة الرحمن يوم الجمعة، فكلما قرأ ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال: لا بشيء من آلائك يا رب (١) أكذب. وعنه ﷺ قال: من قرأ سورة الرحمن ليلاً يقول عند كل ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا بشيء من آلائك يا رب أكذب، وكل الله به ملكاً، إن قرأها في أول الليل يحفظه حتى يصبح، وإن قرأها حين يصبح وكل الله به ملكاً يحفظه حتى يمسي.

- تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة القمر باسمه، وافتتح هذه السورة أيضاً باسمه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْكَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ
﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو
الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ *

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «والحبُّ ذو العصفِ والريحانُ» بالنصب فيهما جميعاً. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «والحبُّ ذو العصف» بالرفع، «والريحانُ» بالجر، والباقون: بالرفع في الجميع. وفي الشواذ قراءة أبي السماك: «والسمااء رفعها» بالرفع. وقرأ بلال بن أبي بردة: «ولا تخسروا» بفتح التاء والسين، وبكسر السين أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عبيدة: العصف: الذي يعصف فيؤكل من الزرع، وهي العصيفة. قال علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قَد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا حُدُودُهَا مِنْ أَتَى الْمَاءِ مَطْمُومٌ^(١)

والريحان: الحب الذي يؤكل. يقال: سبحانك وريحانك، أي: ورزقك. قال النمر بن تغلب^(٢):

سَلامُ الْإِلَهِ وَرِيحَانُهُ وَرَحْمَتُهُ، وَسَمَاءُ دَرِّ

وقيل: العصف والعصيفة: ورق الزرع. وعن قتادة: العصف: التبن. ومن قرأ: «والحبُّ ذو العصف» حملة على: وخلق الحب وخلق الريحان، وهو الرزق. ويقوي ذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِذِهِ زُؤَانًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍّ﴾.

ومن رفع «الريحان» فالتقدير: فيها فاكهة والريحان والحبُّ ذو العصف.

ومن جر فالتقدير: والحب ذو العصف، وذو الريحان، أي: من الحب الرزق. فإن قلت: فإن العصف والعصيفة رزق أيضاً، فكأنه قال: ذو الرزق وذو الرزق. قيل: هذا لا يمتنع، لأن العصيفة رزق غير الرزق الذي أوقع الريحان عليه، وكأن الريحان أريد به الحب إذا خلص من لفائفه، فأوقع عليه الرزق لعموم المنفعة به، وأنه رزق للناس وغيرهم، ويبعد أن يكون الريحان المسموم في هذا الموضع، إنما هو قوت الناس والأنعام، كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِذِهِ زُؤَانًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍّ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾.

وقوله: «والسمااء رفعها» قال ابن جني: الرفع هنا أظهر من قراءة الجماعة، وذلك أنه صرفه إلى الابتداء، لأنه عطفه على الجملة المركبة من المبتدأ والخبر، وهي قوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. فأما قراءة العامة بالنصب فإنها معطوفة على «يسجدان» وحدها، وهي جملة من فعل

(١) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض. ومسيل في الحضيض إذا لم يكن واسعاً. وطَمَّ الماء: غمر. وطَمَّ فلان الإناء:

ملأه والأتى: السيل الغريب وبضم الألف مصدر «أتى» يصف عبرته، وكثرة بكائه.

(٢) وفي نسخة: التولب.

سورة الرحمن

وفاعل. والعطف يقتضي بالتماثل في تركيب الجمل، فيصير تقديره: يسجدان ورَفَعَ السماء، فلما أضمر: رفع، فسره بقوله: «رفعها» كقولك: قام زيد وعمراً ضربته، أي: وضربت عمراً، لتعطف جملة من فعل وفاعل على أخرى مثلاً.

وأما قوله: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء، فإنه على حذف حرف الجر، أي: لا تخسروا في الميزان. فلما حذف حرف الجر أفضى إليه الفعل فنصبه، كقوله: «وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» أي: في كل مرصد، أو على كل مرصد. وأما «تَخْسَرُوا» بفتح التاء وكسر السين، فعلى: خَسِرْتَ الميزان، وإنما المشهور: أخسرت، تقول: خسر الميزان وأخسرت. ويشبه أن يكون خَسِرْتَه لغة في أخسرت، نحو: أجبرت الرجلَ وجَبِرْتَه وأهلكته وهلكته.

● **اللغة: الرحمن:** هو الذي وسعت رحمته كل شيء، فلذلك لا يوصف به إلا الله تعالى. وأما راحم ورحيم فيجوز أن يوصف بهما العباد. والبيان: هو الأدلة الموصلة إلى العلم، وقيل: البيان: إظهار المعنى للنفس بما يتميز به من غيره، كتمييز معنى رجل من معنى فرس. ومعنى قادر من معنى عاجز، ومعنى عام من معنى خاص. والحسبان: مصدر حسبته أحسبه حساباً وحسباناً، نحو الشكران والكفران، وقيل: هو جمع حساب كشهاب وشهبان. والنجم: من النبات ما لم يرقم على ساق، نحو العشب والبقل، والشجر: ما قام على ساق وأصله الطلوع، يقال: نجم القرن والنبات: إذا طلعا، وبه سمي نجم السماء لطلوعه. والأكام: جمع كم، وهو وعاء ثمرة النخل تكتم في وعائه إذا اشتمل عليه. والآلاء: النعم واحداها إلى، على وزن معى، وإلى على وزن قفا، عن أبي عبيدة.

الإعراب: «الرَّحْمَنُ» آية مع أنه ليس بجملة، لأنه في تقدير: الله الرحمن، حتى تصح الفاصلة، فهو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله: «سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا» أي: هذه سورة. «أَلَّا تَقْلُتُوا» تقديره: لئلا تظنوا، فهو في محل نصب بأنه مفعول له، ولفظه نفى ومعناه نهى، ولذلك عطف عليه بقوله: «وَأَقِيمُوا الزَّكَاةَ». وقوله: «فِيهَا فَكِكُهَا» مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** «الرَّحْمَنُ»: افتتح سبحانه هذه السورة بهذا الاسم، ليعلم العباد أن جميع ما وصفه يعد من أفعاله الحسنی إنما صدرت من الرحمة التي تشتمل جميع خلقه، وكأنه جواب لقولهم: «وما الرحمن» في قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ». وقد روى أنه لما نزل قوله: «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» قالوا: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، فقيل لهم: الرحمن «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علم محمداً ﷺ القرآن، وعلمه محمد ﷺ أمته، عن الكلبي. وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، فبين سبحانه أن الذي علمه القرآن هو الرحمن. والتعليم: هو تبين ما به يصير من لم يعلم عالماً، والإعلام: إيجاد ما به يصير عالماً. ذكر سبحانه النعمة فيما علم من الحكمة بالقرآن الذي احتاج إليه الناس في دينهم، ليؤدوا ما يجب عليهم، ويستوجبوا الثواب بطاعة ربهم. قال الزجاج: معنى علم القرآن يسره لأن يذكر. «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» أي: أخرجه من العدم إلى الوجود. والمراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام، عن ابن عباس وقتادة. «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» أي: أسماه كل شيء واللغات كلها. قال الصادق عليه السلام: البيان الاسم الأعظم الذي به علم كل شيء. وقيل: الإنسان اسم الجنس.

وقيل^(١): معناه الناس جميعاً. علّمه البيان أي: النطق والكتابة والخط والفهم والإفهام، حتى يعرف ما يقول وما يقال له، عن الحسن وأبي العالية وأبي زيد والسدي، وهذا هو الأظهر الأعم. وقيل: البيان هو الكلام الذي يبين به عن مراده، وبه يتميز من سائر الحيوانات، عن الجبائي. وقيل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني محمداً ﷺ، علّمه البيان يعني ما كان وما يكون، عن ابن كيسان، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحسبان ومنازل لا يعدوانها، وهما يدلان على عدد الشهور والسنين والأوقات، عن ابن عباس وقتادة. فأضمر يجريان وحذفه لدلالة الكلام عليه، وتحقيق معناه أنهما يجريان على وتيرة واحدة، وحساب متفق على الدوام، لا يقع فيه تفاوت. فالشمس تقطع بروج الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وشيء، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، فيجريان أبداً على هذا الوجه، وإنما خصهما بالذكر لما فيهما من المنافع الكبيرة للناس، من النور والضياء، ومعرفة الليل والنهار، ونضج الثمار إلى غير ذلك، فذكرهما لبيان النعمة بهما على الخلق. ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ يعني بالنجم: نبت الأرض الذي ليس له ساق، وبالشجر: ما كان له ساق يبقى في الشتاء، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وسفيان الثوري. وقيل: أراد بالنجم نجم السماء، وهو موحد والمراد به جميع النجوم، والشجر، يسجدان لله بكرة وعشياً، كما قال في موضع آخر: ﴿وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾، عن مجاهد وقتادة. وقال أهل التحقيق: إن المعنى في سجودهما هو ما فيهما من الآية الدالة على حدوثهما، وعلى أن لهما صانعاً أنشأهما، وما فيهما من الصنعة والقدرة التي توجب السجود. وقيل: سجودهما سجود ظلالهما كقوله: ﴿يَنْفَتِحُونَ ظِلَّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾، عن الضحاك وسعيد بن جبير. والمعنى فيه: إن كل جسم له ظل فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث، وإثبات المحدث المدبّر. وقيل: معنى سجودهما: إنه سبحانه يصرفهما على ما يريد من غير امتناع، فجعل ذلك خضوعاً. ومعنى السجود: الخضوع كما في قوله: «ترى الأكم فيها سجداً للحوافز»، عن الجبائي ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: ورفع السماء رفعها فوق الأرض، دل سبحانه بذلك على كمال قدرته، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعني آلة الوزن للتوصل إلى الإنصاف والانتصاف، عن الحسن وقتادة. قال قتادة: هو الميزان المعهود ذو اللسانين. وقيل: المراد بالميزان العدل، والمعنى أنه أمرنا بالعدل، عن الزجاج. ويدل عليه قوله: ﴿أَلَّا تَقْوُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تتجاوزوا فيه العدل والحق، إلى البخس والباطل. تقديره: فعلت ذلك لئلا تطغوا. ويحتمل أيضاً أن يكون: لا تطغوا، نهياً منفرداً، وتكون «أن» مفسرة بمعنى أي. وقيل: إن المراد بالميزان القرآن الذي هو أصل الدين، فكأنه تعالى بيّن أدلة العقل وأدلة السمع. وإنما أعاد سبحانه ذكر الميزان من غير إضمار ليكون الثاني قائماً بنفسه في النهي عنه، إذا قيل لهم: لا تطغوا في الميزان. ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الأخذ والإعطاء، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه بالبخس والجور، بل سووه بالإنصاف والعدل. قال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب.

(١) ليس في المخطوطة لفظة «قيل».

سورة الرحمن

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ لما ذكر السماء ذكر الأرض في مقابقتها أي: وبسط الأرض ووطأها للناس. وقيل: الأنام كل شيء فيه روح، عن ابن عباس. وقيل: الأنام الجن والإنس، عن الحسن. وقيل: جميع الخلق من كل ذي روح، عن مجاهد. وعبر عن الأرض بالوضع لما عبر عن السماء بالرفع، وفي ذلك بيان النعمة على الخلق، وبيان وحدانية الله تعالى كما في رفع السماء. ﴿فِيهَا فَكَّهَةٌ﴾ أي: في الأرض ما يَتَفَكَّهُ به من ألوان الثمار المأخوذة من الأشجار ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: الأوعية والغلف وثمر النخل يكون في غلف ما لم ينشق. وقيل: الأكمام: ليف النخل الذي تكم فيه، عن الحسن. وقيل: معناه ذات الطلع لأنه الذي يغطي بالأكمام، عن ابن زيد. ﴿وَالْعَصْفُ﴾ يريد جميع الحبوب مما يحترث في الأرض، من الحنطة والشعير وغيرهما ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ذو الورق، فإذا يبس صار تبناً، عن مجاهد والجبائي. وقيل: العصف التبن لأن الريح تعصفه أي: تطيره، عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: هو بقل الزرع وهو أول ما ينبت منه، عن السدي والفراء. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني الرزق في قول الأكثرين، وقال الحسن وابن زيد: هو ريحانكم الذي يشم. وقال الضحاك: والريحان الحب المأكول، والعصف: الورق الذي لا يؤكل، فهو رزق الدواب، والريحان رزق الناس. فذكر سبحانه قوت الناس والأنعام، ثم خاطب الإنسان والجن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ نِعَمٍ رَبِّكُمَا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ تَكْذِبَانِ؟﴾ لأنها كلها منعم عليكم بها، والمعنى أنه لا يمكن جحد شيء من هذه النعم. فأما الوجه لتكرار هذه الآية في هذه السورة، فإنما هو التقرير بالنعم المعدودة، والتأكيد في التذكير بها كلها. فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها قرر عليها، ووبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: أما أحسنت إليك حين أطلقت لك مالا؟ أما أحسنت إليك حين ملكتك عقاراً؟ أما أحسنت إليك حين بنيت لك داراً؟ فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرره به. ومثله كثير في كلام العرب وأشعارهم. قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كلياً:

على أن ليس عدلاً من كليب	إذا طرد اليتيم عن الجُزور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما ضيم جيران المُجير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا رُجف العِصاة من الدُّبور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا خرجت مُحَبَّأَةً الخُذور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما أعلنت نجوى الصدور

وقالت ليلي الأخيلية ترثي توبة بن الحمير:

لِنِعْمِ الْفَتَى يَاتُوبَ كُنْتُ، وَلَمْ تَكُنْ	لِئُسْبَقَ يَوْمًا كُنْتُ فِيهِ تُجَاوِلُ
وَنِعْمِ الْفَتَى يَاتُوبَ كُنْتُ إِذَا التَّقْتُ	صَدُورُ الْعَوَالِي وَاسْتَشَالُ ^(١) الْأَسَافِلُ
وَنِعْمِ الْفَتَى يَاتُوبَ كُنْتُ لِخَائِفِ	أَتَاكَ لِكُنِّي تَحْمِي وَنِعْمِ الْمُجَامِلُ

(١) استشال: ارتفع.

وَنِعْمَ الْفَتَى يَاتُوبَ جَاراً وَصَاحِباً
لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْكِي لِفَقْدِهِ
لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْكِي لِفَقْدِهِ
أَبَى لَكَ ذَمُّ النَّاسِ يَاتُوبُ كَلِمَا
أَبَى لَكَ ذَمُّ النَّاسِ يَاتُوبُ كَلِمَا
فَلَا يُبْعِدُنْكَ اللَّهُ يَاتُوبُ إِنَّمَا
وَلَا يُبْعِدُنْكَ اللَّهُ يَاتُوبُ إِنَّمَا

فخرجت في هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار، لاختلاف المعاني التي عدّدها. وقال الحارث بن عباد:

قرباً مربط النعماء مني لِقِحْثِ حَرْبٍ وَائِلٍ عَنِ حِيَالٍ^(٢)

وكرر هذه اللفظة: قرباً مربط النعماء مني، في أبيات كثيرة، ومن أمثال هذا كثرة، وهذا هو الجواب بعينه عن التكرار لقوله: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في المرسلات.



قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۖ﴾ ١٥ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ١٦ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۚ﴾ ١٧ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ١٨ ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۚ﴾ ١٩ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۚ﴾ ٢٠ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ٢١ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۚ﴾ ٢٢ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ٢٣ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۚ﴾ ٢٤ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ٢٥ ﴿كُلُّ مَنَ عَلَيْهِمَا فَاِنٍ ۚ﴾ ٢٦ ﴿وَبَنَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۚ﴾ ٢٧ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ٢٨ ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۚ﴾ ٢٩ ﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾ ٣٠.

● القراءة: قرأ أهل المدينة والبصرة: «يخرج منهما» بضم الياء وفتح الراء، والباقون: «يخرج» بفتح الياء وضم الراء. وقرأ حمزة ويحيى عن أبي بكر: «المنشآت» بكسر الشين، والباقون بفتح الشين.

● الحجة: قال أبو علي من قرأ: «يُخْرِجُ» كان قوله بيناً، لأن ذلك إنما يُخرج ولا يُخرج بنفسه. ومن قرأ: «يَخْرُجُ» جعل الفعل للؤلؤ والمرجان وهو اتساع، لأنه إذا أخرج ذلك فقد خرج، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ ولم يقل من أحدهما، على حذف المضاف، كما قال:

(١) التلاط: الشدائد.

(٢) النعماء: اسم فرسه. ولقحت الناقة عن حيال أي: بعد أن لم تكن تلقح.

سورة الرحمن

﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْأَقْرَبِينَ عَظِيمٍ﴾ على ذلك. وقال أبو الحسن: زعم قوم أنه يخرج من العذاب^(١) أيضاً. والمرجان: صغار اللؤلؤ، واحدها مرجانة، قال ذو الرمة:

كَأَنَّ عُرَى الْمَرْجَانِ مِنْهَا تَعَلَّقَتْ عَلَى أُمِّ خَشْفٍ مِنْ ظُبَاءِ الْمَشَاقِرِ^(٢)

المنشآت: المجريات المرفوعات، فمن فتح الشين فلأنها أنشئت وأجريت ولم تفعل ذلك أنفسها. ومن قرأ «المنشآت» نسب الفعل إليها على الاتساع، كما يقال: مات زيد، ومرض عمرو، ونحو ذلك مما يضاف الفعل إليه إذا وجد فيه، وهو في الحقيقة لغيره. وكان المعنى المنشآت السير، فحذف المفعول للعلم به، وإضافة السير إليها اتساع أيضاً، لأن سيرها إنما يكون في الحقيقة بهبوب الريح أو دفع الصراري^(٣).

● **اللغة:** الصلصال: الطين اليابس الذي يسمع منه صلصلة. والفخار: الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفاً. والمارج: المضطرب المتحرك، وقيل: المختلط، يقال: مرج الأمر أي اختلط، ومرجت عهود القوم وأماناتهم، قال الشاعر:

مَرْجَ الدَّيْنِ فَأَغْدَذْتُ لَهُ مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَخْبُوكَ الْكَتَدِ^(٤)

ومرج الدابة في المرعى: إذا خلاها لترعى. والبرزخ: الحاجز بين الشيئين. والجواري: السفن لأنها تجري في الماء، واحدها: جارية، ومنه الجارية: المرأة الشابة لأنها يجري فيها ماء الشباب. والأعلام: الجبال، واحدها علم. قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَّتَأْتُمُ الْهَدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

وقال جرير:

إِذَا قَطَعْنَا عِلْمًا بَدَأَ^(٥) عِلْمًا

والفناء: انتفاء الأجسام، والصحيح أنه معنى يضاد الجواهر^(٦) باق: فلا يتنفي إلا بضد، أو ما يجري مجرى الضد، وضده الفناء.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه عاطفاً على ما تقدم من الأدلة على وحدانيته، والإبانة عن نعمه على خلقه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يعني به آدم، وقيل: جميع البشر لأن أصلهم آدم عليه السلام.

(١) وفي نسخة: «العذب».

(٢) يصف امرأة. وعُرَى المرجان أي: أطواقها. والخشف: ولد الظباء. المشافر من الرمل: المنسوب في الأرض. واسم موضع.

(٣) الصراري: الملاح.

(٤) الحارك: أعلى الكاهل. والمحبوك: المحكم الخلق والصنع. والكتد والكتد مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس.

(٥) وفي المخطوطة: أبداً علم. وفي أخرى: علم بدا علم.

(٦) [لأن الجوهر].

مَلَصَدِي ﴿١﴾: أي: طين يابس، وقيل: حمأ متتن ويحتمل الوجهين جميعاً، لأنه كان حمأ مسنوناً ثم صار يابساً. ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ أي: كالآجر الخزف ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أي: أبا الجن، قال الحسن: هو إبليس أبو الجن وهو مخلوق من لهب النار، كما أن آدم عليه السلام مخلوق من طين، ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من نار مختلط أحمر وأسود وأبيض، عن مجاهد. وقيل: المارج الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه. ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ فبأي نعمة تكذبان أيها الثقلان؟ أي: أبأن خلقكما من نفس واحدة، ونقلكما من التراب والنار، إلى الصورة التي أنتم عليها تكذبان؟ ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ﴾ يعني: مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ومغرب الصيف ومغرب الشتاء. وقيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر، وبالمغربين مغرب الشمس والقمر. بيّن سبحانه قدرته على تصريف الشمس والقمر، ومن قدر على ذلك قدر على كل شيء.

﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿يَبْتَغِيَانِ﴾: ذكر سبحانه عظيم قدرته، حيث خلق البحرين العذب والمالح يلتقيان، ثم لا يختلط أحدهما بالآخر، وهو قوله: ﴿يَبْتَغِيَانِ﴾ أي: حاجز من قدرة الله فلا يبغي المالح على العذب فيفسده، ولا العذب على المالح فيفسده ويختلط به. ومعنى مرج: أرسل، عن ابن عباس. وقيل: المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض، فإن في السماء بحراً يمسه الله بقدرته ينزل منه المطر، فيلتقيان في كل سنة، وبينهما حاجز يمنع بحر السماء من النزول، وبحر الأرض من الصعود، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد.

وقيل: إنهما بحر فارس وبحر الروم، عن الحسن وقتادة. فإن آخر طرف هذا يتصل بآخر طرف ذلك، والبرزخ بينهما: الجزائر. وقيل: مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتهما، ﴿لَا يَبْتَغِيَانِ﴾ أي: لا يطلبان ألا يختلطا^(١).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ: كبار الدر، والمرجان: صغاره، عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك. وقيل: المرجان: خرز أحمر كالقضباني يخرج من البحر وهو البسذ، عن عطاء الخراساني، وأبي مالك، وبه قال ابن مسعود، لأنه قال: حجر. وإنما قال: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج من المالح دون العذب، لأن الله سبحانه ذكرهما وجمعهما وهما بحر واحد، فإذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، عن الزجاج. قال الكلبي: وهو مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ وإنما هو في واحدة منهن، وقوله: ﴿يَمَعَشَرُ اللَّيْلِ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والرسول من الإنس دون الجن. وقيل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من ماء السماء ومن ماء البحر، فإن القطر إذا جاء من السماء تفتحت الأصداف، فكان من ذلك القطر اللؤلؤ، عن ابن عباس. ولذلك حمل البحرين على بحر السماء وبحر الأرض. وقيل: إن العذب والمالح يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للمالح، ولا يخرج اللؤلؤ إلا من الموضع الذي يلتقي فيه المالح والعذب، وذلك معروف عند الغواصين.

(١) وفي نسختين: «أن يختلطا».

سورة الرحمن

وقد روي عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري: إن البحرين علي وفاطمة عليهما السلام، بينهما برزخ محمد عليه السلام، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين عليهما السلام، ولا غرو أن يكونا بحرين لسعة فضلهما، وكثرة خيرهما، فإن البحر إنما يسمى ببحراً لسعته، وقد قال النبي عليه السلام لفرس ركبه، وأجراه فأحمده: «وجدته ببحراً. أي: كثير المعاني الحميدة.

﴿وَلَهُ الْبُحَارُ﴾ أي: السفن الجارية في الماء تجري بأمر الله ﴿الْمُنشَأُ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: المرفوعات، وهي التي رفع خشبها بعضها على بعض، وركب حتى ارتفعت وطالت. وقيل: هي المبتدآت للسير مُرتفعة القلاع. قال مجاهد: ما رفع له القلاع فهو منشأ، وما لم ترفع قلاعه فليس بمنشأ. والقلاع: جمع قلع، وهو شراع السفينة. ﴿كَالْأَعْلَى﴾ أي: كالجبال. قال مقاتل: شبه السفن في البحر بالجبال في البر. وقيل: ﴿الْمُنشَأُ﴾ بكسر الشين: وهي أن ينشأ الموج بصدرها حيث تجري، فيكون الأمواج كالأعلام من الله سبحانه على عباده بأن علمهم اتخاذ السفن ليركبوها، وأن جعل الماء على صفة تجري السفن عليه لأجلها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: كل من على الأرض من حيوان فهو هالك، يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم. كنى عن الأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقول أهل المدينة: ما بين لابتيها، أي: لايتي المدينة، وإنما جاز ذلك لكونه معلوماً. ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى ربك الظاهر بأدلته ظهور الإنسان بوجهه، ﴿ذُرِّ الْمُنَلَّى﴾ أي: العظمة والكبرياء، واستحقاق الحمد والمدح، بإحسانه الذي هو في أعلى مراتب الإحسان، وإنعامه الذي هو أصل كل إنعام. ﴿وَالْأَكْرَامُ﴾ يكرم أنبياءه وأوليائه بألطافه وأفضاله مع عظمتهم وجلاله. وقيل معناه: إنه أهل أن يُعظم وينزه عما لا يليق بصفاته، كما يقول الإنسان لغيره: أنا أكرمك عن كذا وأجلك عنه، كقوله: ﴿أَهْلُ الْقُفُوءِ﴾ أي: أهل أن يتقي. وتقول العرب: هذا وجه الرأي، وهذا وجه التدبير، بمعنى أنه الرأي والتدبير، قال الأعشى:

وَأُولِ الْحُكْمِ عَلَى وَجْهِهِ لَيْسَ قَضَائِي بِالْهَوَى الْجَائِرِ

أي: قرر الحكم كما هو. وقيل: إن المراد بالوجه ما يتقرب به إلى الله تعالى، وأنشد:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُخَصِّصَهُ، رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ، وَالْعَمَلُ

ومتى قيل: وأي نعمة في الفناء؟ فالجواب: إن النعمة فيه التسوية بين الخلق فيه، وأيضاً فإنه وصلة إلى الثواب، وتنبيه على أن الدنيا لا تدوم، وأيضاً فإنه لطف للمُكَلَّف، لأنه لو عجل الثواب لصار ملجأ إلى العمل ولم يستحق الثواب، ففصل بين الثواب والعمل، ليفعل الطاعة لحسنها فيستحل الثواب.

﴿يَتَنَلَّوْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يستغني عنه أهل السماوات والأرض فيسألونه حوائجهم، عن قتادة، وقيل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسأل الملائكة لهم أيضاً الرزق والمغفرة، عن مقاتل. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ اختلف في معناه:

ف قيل: إن شأنه سبحانه إحياء قوم، وإماتة آخرين، وعافية قوم، ومرض آخرين، وغير ذلك من الإهلاك والإنجاء، والحرمان والإعطاء، والأمور الأخر التي لا تحصى. وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفَرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

وعن ابن عباس أنه قال: إن مما خلق الله تعالى لوحاً من درة بيضاء، دواته ياقوتة حمراء، قلمه نوره وكتابه نور، ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

وقيل: إن الدهر كله عند الله يومان. أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه في اليوم الذي هو مدة الدنيا، الاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإقامة، والإعطاء والمنع. وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب، عن سفيان بن عيينة.

وقيل: شأنه جل ذكره أن يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر: عسكراً من أصلاب الآباء إلى الأرحام، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبر، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى. وقيل: شأنه إيصال المنافع إليك ودفع المضار عنك، فلا تغفل عن طاعة من لا يغفل عن برك، عن أبي سليمان الداراني.



قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَمْعُرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَغُحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ (٣٥) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيسْمَتَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَإِنَّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سيفرغ» بالياء، والباقون بالنون. وقرأ ابن كثير:

«شواظ» بكسر الشين، والباقون بضمها. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة غير يعقوب: «ونحاس» بالجر، والباقون بالرفع. وفي الشواظ قراءة قتادة والأعمش: «سَنَفْرُغُ» بفتح النون والراء. وقراءة الأعرج: «سَيفْرُغُ» بفتح الياء والراء. ورواية أبي حاتم عن الأعمش: «سيفرغ»، وقراءة عيسى الثقفي: «سَنَفْرُغُ» بكسر النون وفتح الراء. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: «هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان، أصليها فلا تموتان فيها ولا تحيان».

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الباء في «سيفرغ» أن الغيبة قد تقدم في قوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ويقال: فَرَّغَ يَفْرُغُ، وفَرَّغَ يَفْرُغُ، وليس الفراغ هنا فراغاً عن شغل، ولكن تأويله القصد، كما قال جرير:

الآن فَقَدْ فَرَّغْتُ إِلَى نَمِيرٍ فْهَذَا حِينَ صِرْتُ لَهُمْ عَذَاباً
وقرأ ابن عامر: «أيه الثقلان» بضم الهاء، وقد مضى الوجه فيه. والشواظ والشواظ فيه لغتان. أبو عبيدة: هو اللهب لا دخان فيه. قال رؤبة:

إِنَّ لَهُمْ مِنْ حَزْبِنَا أَيْقَاطاً^(١) وَنَارَ حَرْبٍ تُسْعِرُ الشُّوَاطِ
والنحاس: الدخان. قال الجعدي:

نُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلَيطِ^(٢) لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاساً
قال أبو علي: إذا كان الشواظ اللهب لا دخان فيه، ضعفت قراءة من قرأ «ونحاس» بالجر، ولا يكون على تفسير أبي عبيدة إلا الرفع في «نحاس» على تقدير: يرسل عليكما شواظ ويرسل نحاس. أي: يرسل هذا مرة، وهذا أخرى. وقد يجوز من وجه آخر على أن تقديره: يرسل عليكما شواظ من نار وشيء من نحاس، فتحذف الموصوف وتقيم الصفة مقامه، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، فحذف الموصوف في ذلك كله فكذلك في الآية، فإن قلت: هذا فاعل والفاعل لا يحذف، فقد جاء:

فَمَا رَاعِنَا إِلَّا يَسِيرُ بِشَرْطَةٍ وَعَهْدِي بِهِ قِينَا يَفُشُّ بِكَبِيرِ^(٣)

على أن هذا الحذف قد جاء في المبتدأ في الآي التي تلتونا^(٤) أو بعضها، وقد قالوا:

تسمع بالمعيدي لا أن تراه

فإذا حذف الموصوف بقي بعده «من نحاس»، الذي هو صفة لشيء محذوف، وحذف «من» لأن ذكره قد تقدم في قوله: ﴿مِنْ نَارٍ﴾، فحسن لذلك حذفها، كما حسن حذف الجار من قولهم: على من تنزل أنزل (أي عليه). وكما أشده أبو زيد من قول الشاعر:

وأصبح من أسماء قَنِسٍ كَقَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ لَا يَدْرِي بِمَا هُوَ قَابِضٌ

أي: بما هو قابض عليه، فحذف لدلالة الكلام المتقدم عليه، وكما حذف الجار عند الخليل في قوله:

إن لم يجد يوماً على من يتكل

(١) وفي بعض النسخ: أَيْقَاطاً.

(٢) السليط: الزيت وكل دهن عصر من حب جيد.

(٣) فش الوطب: أخرج ما فيه من الريح، وذلك بأن يحل وكاؤه، ويفتح فاه، فتخرج منه الريح التي كان قد نفخها فيه.

(٤) في نسخة: تلوتهما.

يريد: من يتكل عليه، فحذف الجار لأنه جرى ذكره قبل، فيكون انجرار «نحاس» على هذا بمن المضمرة، لا بالإشراك في من التي جرت في قوله: ﴿مِنْ تَارٍ﴾، فإذا انجر بمن لم يكن للشواظ الذي هو اللهب قسط من الدخان.

● **اللغة:** الثقلان: أصله من الثقل، وكل شيء له وزن وقدر فهو ثقل، ومنه قيل: لبيض النعامة: ثقل قال:

فَتَذْكُرَانِ ثَقْلًا رَثِيدًا بَعْدَ مَا أَفْقَتْ ذُكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ^(١)

وإنما سميت الإنس والجن ثقلين لعظم خطرهما وجلالة شأنهما، بالإضافة إلى ما في الأرض من الحيوانات، ولثقل وزنها بالعقل والتمييز، ومنه قول النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». سماهما ثقلين لعظم خطرهما وجلالة قدرهما. وقيل: إن الجن والإنس سميا ثقلين لثقلهما على الأرض أحياء وأمواتاً، ومنه قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: أخرجت ما فيها من الموتى. والعرب تجعل السيد الشجاع ثَقْلًا على الأرض. قالت الخنساء:

أَبْغَدَ ابْنُ عَمْرٍو مِنْ آلِ الشَّرِيدِ حَلَّتْ بِهِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

والمعنى: إنه لما مات حل عنها ثقل بموته لسؤدده ومجده. وقيل: إن المعنى: زينت موتها به من التحلية. والأقطار: جمع القطر: وهو الناحية. يقال: طعنه فقطره إذا ألقاها على أحد قطريه، وهما جانباه. والسيماء: مشتق من السوم: وهو رفع الثمن عن مقداره، والعلامة ترفع بإظهارها لتقع المعرفة بها. والناصية: شعر مقدم الرأس، وأصله: الاتصال من قول الشاعر:

قِيَّ تَنَاصِيهَا بِلَادِ قِيَّ^(٢)

أي: تتصل بها، فالناصية متصلة بالرأس. والأقدام: جمع قدم: وهو العضو الذي يقدم صاحبه للوطء به على الأرض. والآني: الذي بلغ نهاية حره، أنى يأتي أنياً.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه الفناء والإعادة، عقب ذلك بذكر الوعيد والتهديد، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ أي: سنقصد لحسابكم أيها الجن والإنس، عن الزجاج: قال: والفراغ في اللغة على ضربين:

أحدهما: القصد للشيء يقال: سأفرغ لفلان، أي: سأجعله قصدي.

والآخر: الفراغ من شغل، والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن.

وقيل: معناه سنعمل عمل من يفرغ للعمل فيجوده من غير تضجيع فيه. وقيل: سنفرغ لكم من الوعيد بتقصي أيامكم المتوعد فيها، فشبّه ذلك بمن فرغ من شيء وأخذ في آخر. والشغل والفراغ من صفات الأجسام التي تحلها الأعراض، وتشغلها عن الأضداد في تلك الحال، ولذلك وجب أن يكون في صفة القديم تعالى مجازاً.

(١) فتذكروا أي الظلم والنعامة والرئيد ما رثد أي نضد ووضع بعضه فوق بعض.

(٢) القِيَّ بالكسر: قفر الأرض.

سورة الرحمن

ويدل على أن الثقلين المراد بهما الجن والإنس قوله: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ أي: تخرجوا هاربين من الموت. يقال: نفذ الشيء من الشيء إذا خلس منه، كالسهم ينفذ من الرمية. ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جوانبهما ونواحيهما، والمعنى: حيث ما كنتم أدرككم الموت، ﴿فَانْفُذُوا﴾ أي: فاخرجوا فإن تستطيعوا أن تهربوا منه. ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: حيث توجهتم فثُمَّ ملكي، ولا تخرجون من سلطاني، فأنا آخذكم بالموت، عن عطاء. ومعنى السلطان: القوة التي سلط^(١) بها على الأمر، ثم الملك، والقدرة، والحجة كلها سلطان.

وقيل: لا تنفذون إلا بسلطان أي: لا تخرجون إلا بقدرة من الله وقوة يعطيكموها، بأن يخلق لكم مكاناً آخر سوى السماوات والأرض، ويجعل لكم قوة تخرجون بها إليه. فبين سبحانه بذلك أنهم في حبسه وأنه مُقْتَدِرٌ عليهم لا يفوتونه، وجعل ذلك دلالة على توحيده وقدرته، وزجراً لهم عن معصيته ومخالفته.

وقيل: إن المعنى في الآية: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا، فإنه لا يمكنكم ذلك، لا تنفذون إلا بسلطان، أي: لا تعلمونه إلا بحجة وبيان، عن ابن عباس.

وقيل: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ معناه: حيثما شاهدتم حجة الله وسلطانه الذي يدل على توحيده، عن الزجاج. ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ أي: بأي نعمه تكذبان؟ أياخباره عن تحريكهم لتحالتوا له بعمل الطاعة واجتناب المعصية، أو بإخباره عنكم أنكم لا تنفذون إلا بحجة لتستعدوا لذلك اليوم؟

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وهو اللهب الأخضر المنقطع من النار، ﴿وَمُحَاسَنٌ﴾ وهو الصُفْرُ المذاب للعذاب، عن مجاهد وابن عباس وسفيان وقتادة. وقيل: النحاس الدخان، عن ابن عباس في رواية أخرى وسعيد بن جبير. وقيل: النحاس المُهْلُ، عن ابن مسعود والضحاك. والمعنى: لا تنفذون ولو جاز أن تنفذوا وقدرتم عليه لأرسل عليكم العذاب من النار المحرقة. وقيل: معناه أنه يقال لهم ذلك يوم القيامة، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ أي: يرسل على من أشرك منكما، وقد جاء في الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة بلسان^(٢) من نار، ثم ينادون ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ﴾، إلى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

وروى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فأنشأ يحدثنا فقال: إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أنه يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن^(٣) فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثل من في الأرض من الجن والإنس والملائكة، ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات،

(١) وفي المخطوطة: يتسلط.

(٢) في نسخة: «بما».

(٣) في نسخة: ولسان.

فيصير الجن والإنس في سبع سرادقات من الملائكة. ثم ينادي مناد: ﴿يَمَقْشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ﴾، الآية. فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبعة أطواق من الملائكة. وقوله: ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ أي: فلا تقدران على دفع ذلك عنكما وعن غيركما، وعلى هذا فيكون فائدة الآية: إن عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء، كعجزهم عن النفوذ من الأقطار، وفي ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه. ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بإخباره إياكم عن هذه الحالة لتتحرزوا عنها أم بغيره من النعم، فإن وجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين، هو ما في ذلك لهم من الزجر في دار التكليف عن مواجهة القبيح، وذلك نعمة جزيلة.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني يوم القيامة، إذا تصدعت السماء وانفك بعضها من بعض ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: فصارت حمراء كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة، فيكون في الشتاء أحمر وفي الربيع أصفر، وفي اشتداد البرد أغبر، سبحان خالقها والمصرف لها كيف يشاء. والوردة: واحدة الورد، فشبها السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها، بذلك. وقيل: أراد به وردة النبات وهي حمراء. وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب في ألوانها الحمرة، فتصير السماء كالورد في الاحمرار، ثم تجري ﴿كَالْإِهْكَانِ﴾ وهو جمع الدهن عند انقضاء الأمر وتناهي المدة. قال الحسن: هي كالدهان التي يصب بعضها على بعض بألوان مختلفة. قال الفراء: شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، وهو قول مجاهد والضحاك وقتادة. وقيل: الدهان: الأديم الأحمر: وجمعه أدهنة، عن الكلبي. وقيل: هو عكر الزيت يتلون ألواناً، عن عطاء بن أبي رباح. ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وجه النعمة في انشقاق السماء حتى وقع التقرير بها، هو ما في الإخبار به من الزجر والتخويف في دار الدنيا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ أي: لا يسأل المجرم عن جرمه في ذلك الموطن، لما يلحقه من الذهول الذي تحار له العقول، وإن وقعت المسألة في غير ذلك الوقت، بدلالة قوله: ﴿وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ وتقدير الآية: فيومئذ لا يسأل إنس عن ذنبه، ولا جان عن ذنبه. وقيل معناه: «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» سؤال استفهام، ليعرف ذلك بالمسألة من جهته، لأن الله تعالى قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد. وإنما يسألون سؤال تقييع وتوبيخ للمحاسبة. وقيل: إن أهل الجنة حسان الوجوه، وأهل النار سود الوجوه، فلا يسألون من أي الحزبين هم، ولكن يسألون عن أعمالهم سؤال تقييع. وروي عن الرضا (عليه السلام) أنه قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ﴾ منكم ﴿عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ والمعنى: إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البرزخ، ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه.

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ أي: بعلامتهم، وهي سواد الوجوه، وزرقة العيون، عن الحسن وقتادة. وقيل: بإمارات الخزي. ﴿فَيُؤْخَذُ بِالْأُيُوسِ وَالْأَنْدَامِ﴾ فتأخذهم الزبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغل، ثم يسحبون في النار، ويقذفون فيها، عن الحسن وقتادة. وقيل: تأخذهم الزبانية

بنواصيصهم وبأقدامهم، فتسوقهم إلى النار، والله أعلم. ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: ويقال لهم: هذه جهنم ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْكَافِرُونَ﴾ الكافرون في الدنيا، قد أظهره الله تعالى حتى زالت الشكوك فادخلوها. ويمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها، فليهن عليك أمرهم. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَا وَبَيْنَ حَيْبِ ٓإِن﴾ أي: يطوفوا مرة بين الجحيم، ومرة بين الحميم، فالجحيم النار، والحميم الشراب، عن قتادة. وقيل معناه: إنهم يعذبون بالنار مرة، ويتجرعون من الحميم يصب عليهم، ليس لهم من العذاب أبداً فرج، عن ابن عباس. والآني: الذي انتهت حرارته. وقيل: الآني: الحاضر. ﴿فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الوجه في ذلك أن التذكير بفعل العقاب والإنذار به من أكبر النعم، لأن في ذلك زجراً عما يستحق به العذاب، وحثاً وبعثاً على فعل ما يستحق به الثواب.



قوله تعالى: ﴿وَلَمَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ٤٦﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ رَّوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِن إِسْتَرْقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْفُرُفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ ٓإِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ٓءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

● **القراءة:** قرأ الكسائي وحده: «لم يطمئن» بكسر الميم في إحداهما، وضمها في الأخرى، والباقون بكسر الميم في الحرفين معاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: يطمئ ويطمئ لغتان، وقال أبو عبيدة: لم يطمئن أي: لم يمسهن. يقال: ما طمئ هذا البعير حبل قط، أي: ما مسه. قال رؤبة:

كالبيض لم يطمئ بهن طامث

● **اللغة:** الأفنان: جمع فنن وهو الغصن الغض الورق، ومنه قولهم: هذا فن آخر، أي: نوع آخر، ويجوز أن يكون جمع فن. والاتكاء: الاستناد للكرمة والامتناع، والتكأة: تطرح للإنسان في مجالس الملوك للإكرام والإجلال، وهو من وكأت السقاء: إذا شدته. ومنه قولهم: العين وكاء السنة. والفرش: جمع فراش، وهو الموطأ الممهّد للنوم عليه. والبطائن: جمع بطانة، وهو باطن الظهارة. والجنى: الثمرة التي قد أدركت على الشجرة، وهو صلح أن يجنى. ومنه قول عمرو بن عدي:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وتمثل به علي عليه السلام. وأصل الطمث: الدم، يقال: طمشت المرأة إذا حاضت. وطمشت: إذا دميت بالافتضاض، وبغير لم يطمث: إذا لم يمسه جبل ولا رحل. قال الفرزدق:

دُفِعْنَ إِلَيَّ لَمْ يُطْمَثَنَّ قَبْلِي وَهُنَّ أَصْحُ مِنْ بِنُضِّ النِّعَامِ

● **الإعراب:** ﴿مُتَكِينٍ﴾ حال من المجرور باللام، أي: لهم جنتان في هذه الحالة، وما بين قوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُتَكِينٍ﴾ صفات لجنتين. ﴿بَطَانَتَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ابتداء وخبر في موضع الجر وصف لفرش. وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافٍ دَانٍ﴾ اعتراض. وقوله: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْفَرْقِ﴾ صفة أخرى لفرش. وقوله: ﴿كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ حال ﴿قَصِيرَاتُ الْفَرْقِ﴾ أي: مشابهات للياقوت والمرجان. وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والتقدير: ولهم من دونهما جنتان.

● **المعنى:** ثم عُقب سبحانه الوعيد بالوعد فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية والشهوة. قال مجاهد: وهو الذي يهجم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها. وقيل: هذا لمن راقب الله تعالى في السر والعلانية جملة، فما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عرض له من خير عمله وأفضى به إلى الله تعالى، لا يطلع عليه أحد. قال الصادق عليه السلام: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول من خير وشر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فله ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: جنة عدن، وجنة النعيم، عن مقاتل. وقيل: بستانان من بساتين الجنة، إحدهما داخل القصر، والأخرى خارج القصر، كما يشتهي الإنسان في الدنيا. وقيل: إحدى الجنتين منزله، والأخرى منزل أزواجه وخدمه، عن الجبائي. وقيل: جنة من ذهب، وجنة من فضة. ثم وصف الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي: ذواتا ألوان من النعيم، عن ابن عباس. وقيل: ذواتا ألوان من الفواكه، عن الضحاك. وقيل: ذواتا أغصان، عن الأخفش والجبائي ومجاهد. أي: ذواتا أشجار لأن الأغصان لا تكون إلا من الشجر، فدل بكثرة أغصانها على كثرة أشجارها، وبكثرة أشجارها على تمام حالها وكثرة ثمارها، لأن البستان إنما يكمل بكثرة الأشجار، والأشجار لا تحسن إلا بكثرة الأغصان. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في الجنتين عينان من الماء تجريان بين أشجارهما. وقيل: عينان: إحدهما السلسيل، والأخرى التسنيم، عن الحسن. وقيل: إحدهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، عن عطية العوفي. ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في كلتا الجنتين من كل ثمرة نوعان، وضربان متشاكلان كتشاكل الذكر والأنثى، فلذلك سماهما زوجين، وذلك كالرطب واليابس من العنب والزبيب، والرطب واليابس من التين، وكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابس عن رطبه في الفضل والطيب. وقيل: معناه فيهما من كل نوع من الفاكهة ضربان، ضرب معروف وضرب من شكله غريب، لم يعرفه في الدنيا.

﴿مُتَكِينٍ﴾ حال ممن ذكروا في قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: قاعدين كالمملوك ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَانَتَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج غليظ. ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة؛ لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة، والبطانة دون الظهارة، فتدل على أن الظهارة فوق الإستبرق. وقيل: إن

سورة الرحمن

الظواهر من سندس وهو الديباج الرقيق، والبطانة من إستبراق. وقيل: الإستبرق الحرير الصيني، وهو بين الغليظ والدقيق. وروي عن ابن مسعود أنه قال: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟ وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. ﴿وَحَيِّ الْجَنَّةِ دَانٍ﴾ الجنى: الثمر المجتنى أي: تدنو الشجرة حتى يجتنيتها ولي الله، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، عن ابن عباس. وقيل: ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين. فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك، عن مجاهد.

﴿فِيهِمْ﴾ أي: في الفرش التي ذكرها، ويجوز أن يريد في الجنان، لأنها معلومة وإن لم تذكر ﴿فَصِرَتْ الظَّرْفُ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن لم يردن غيرهم، عن قتادة. قال أبو ذر^(١): إنها تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلني زوجتك، وجعلك زوجي. والطرف: جفن العين، لأنه طرف لها ينطبق عليها تارة، وينفتح تارة. ولم ﴿يَطْمِئِنَّ﴾ أي: لم يفتضهن، والافتضاض: النكاح بالتدمية، والمعنى: لم يطأهن ولم يغشهن ﴿إِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَاءَ﴾، فهن أبكار لأنهن خلقن في الجنة. فعلى هذا القول هؤلاء من حور الجنة. وقيل: هن من نساء الدنيا لم يمسهن منذ أنشئن خلق، عن الشعبي والكلبي، أي: لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان.

قال الزجاج: وفي هذه الآية دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي. وقال ضمرة بن حبيب: وفيها دليل على أن للجن ثواباً وأزواجاً من الحور، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن. قال البلخي: المعنى أن يهب الله لمؤمني الإنس من الحور لم يطمئن إنس، وما يهب الله لمؤمني الجن من الحور لم يطمئن جان.

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: هن على صفاء الياقوت في بياض المرجان، عن الحسن وقتادة. وقال الحسن: المرجان أشد اللؤلؤ بياضاً وهو صغاره، وفي الحديث: «إن المرأة من أهل الجنة يرى مخ ساقها»^(٢) من وراء سبعين حلة من حرير - عن ابن مسعود - كما يرى السلك من وراء الياقوت.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أي: ليس جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. وقيل: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة، عن ابن عباس. وجاءت الرواية عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: «هل تدرون ما يقول ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن ربكم يقول: هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة». وقيل: معناه هل جزاء من أحسن إليكم بهذه النعم إلا أن تحسنوا في شكره وعبادته. وروى العياشي بإسناده عن الحسين بن سعيد عن عثمان بن عيسى، عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في^(٣) كتاب الله مسجلة، قلت: ما

(٣) وفي نسخة: من.

(١) وفي نسخة: ابن زيد بدل أبو ذر.

(٢) وفي نسخة: ساقها.

هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ جرت في الكافر والمؤمن، والبر والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء.



قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ مُدْهَاتَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٤ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٥ فِيهِمَا فُكْكُهُ ۖ وَنُحْلٌ وَرَمَانٌ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ فِيهِنَّ خَيْرٌ حِسَانٌ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۝١٩ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٠ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قُلُوبُهُنَّ إِلَّا بِمَا جَاءُ ۝٢١ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٢ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حِسَانِ ۝٢٣ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٤ نَبْرَكٌ أَمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٥﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «ذو الجلال» بالرفع، والباقون بالجر. وفي الشواذ قراءة النبي ﷺ والجاحدري ومالك بن دينار وابن محيصن والحسن وزهير القرقي: «على رفارف خضر وعباقرى حسان». وقراءة الأعرج: «خُضِرَ» بضميتين.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «ذو الجلال» فجر، جعله صفة «لربك». وزعموا أن ابن مسعود قرأ «وبقي وجه ربك ذي الجلال والإكرام» بالياء في كليهما. وقال الأصمعي: لا يقال: الجلال إلا في الله تعالى، فهذا يقوي الجر إلا أن الجلال قد جاء في غير الله، قال: فلا ذا جلال هبته لجلاله ولا ذا ضياع هُنَّ يَنْتَرِكْنَ لِلْفَقْرِ

ومن رفع أجراه على الاسم. قال ابن جني: روى قطرب «عباقرى» بكسر القاف غير مصروف. ورويناه عن أبي حاتم: «عباقرى» بفتح القاف غير مصروف أيضاً. قال أبو حاتم: ولا يشبه إلا أن يكون عباقر بفتح^(١) القاف على ما تتكلم به العرب، قال: ولو قال: عباقرى بكسر القاف وصرفوا، لكان أشبه بكلام العرب، كالنسب إلى مداين مديني. والرفارف: رياض الجنة، عن سعيد بن جبير. وعبقر: موضع. قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تَشُدُّهُ صَلِيلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرَا^(٢)

(١) وفي نسختين: بكسر القاف.

(٢) الصليل: صوت وقع الحديد بعضه على بعض. والمرو: الحجارة الصلبة. والزيف: الدرهم الردي. وانتقد الدرهم: أخرج منه الزيف. يصف فرسه بأن وقع الحجارة بعضها على بعض حين شدة غدوه، بمنزلة وقع الدراهم الزائفة بعضها على بعض، حين ينتقدها النقاد في قرية بعقر.

وقال زهير:

بَخِيلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ^(١) جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا أَوْ يَسْتَغْلُوا

وأما ترك صرف «عباقرى» فشاذ في القياس، ولا يستنكر شذوذ في القياس مع استمراره في الاستعمال، كما جاء عن الجماعة: «واستحوذ عليهم الشيطان» فهو شاذ في القياس مطرد في الاستعمال. وليس لنا أن نتلقى قراءة رسول الله ﷺ إلا بقبولها. وأما «خُضِر» بضم الضاد فقليل، وهو من مواضع الشعر، كما قال طرفة:

وَرَادَ أَوْ شُقِرَ

● **اللغة:** الدهمة: السواد، وادهام الزرع: إذا علاه السواد ريثاً، ومنه: الدهماء، وتصغيره: الدهيماء للدهاية، سميت بذلك لظلامها، والدهماء: القدر. والنضخ بالخاء المعجمة، أكثر من النضخ بالحاء غير المعجمة، لأن النضخ: الرش، وبالخاء كاليزل، والنضخة: الفوارة التي ترمي بالماء صعداً. والرمان: مشتق من رَمَ يرم رماً. لأن من شأنه أن يرم الفؤاد بجلائه له. والخيرات: جمع خيرة، والرجل خير والرجال خيار وأخيار. قال:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرِّبَلَاتِ رِبَلَاتٍ هُنَّ خَيْرَةُ الْمَلَكَاتِ^(٢)

وقال الزجاج: أصل خيرات خيرات فخفف. والخيام: جمع خيمة وهي بيت من الثياب على الأعمدة والأوتاد مما يتخذ للإصحار. والرفرف: رياض الجنة، من قولهم: رف النبات يرف أي: صار غضاً نضراً، وقيل: الرفرف: المجالس، وقيل: الوسائد، وقيل: إن كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرِف. قال ابن مقبل:

وإِنَّا لَنَزَالُونَ تَغْشَى نِعَالَنَا سَوَاقِطٌ مِنْ أَصْنَافٍ زَنْطٍ وَرَفْرِفٍ^(٣)

والعبقري: عناق الزرابي، والطنافس المخملية الموشمة، وهو اسم الجنس، وحدثه عبقرية، قال أبو عبيدة: كل شيء من البُسُط عبقري، وكل ما بولغ في وصفه بالجودة نسب إلى عبقر، وهو بلد كان يوشى فيه البسط وغيرها.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون الجنتين اللتين ذكرناهما لمن خاف مقام ربه، جنتان أخريان دون الجنتين الأوليين، فإنهما أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره، ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة، على ما هو معروف من طبع البشر، من شهوة مثل ذلك. ومعنى «دون» هنا مكان قريب من الشيء بالإضافة إلى غيره مما ليس له مثل قريبه، وهو ظرف مكان. وإنما كان التنقل من جنة إلى جنة أخرى أنفع لأنه أبعد من الملل الذي

(١) المراد من عبقر في هذا البيت: هو الموضع الذي كانت العرب تزعم أنه كثير الجن.

(٢) الرِّبْلَةُ وَالرِّبْلَةُ: كل لحمة غليظة. وقيل: أصول الأفخاذ. والمراد من مجامع الربلات: الفرج. ومن الطعن: الجماع.

(٣) الربط: جمع الربطة، وهي كل ملاءة ليست ذات قطعتين متشامتين، بل كلها نسج واحد، وقطعة واحدة.

طبع عليه البشر. وقيل: إن المعنى أنهما دون الجنة الأوليين في الفضل، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما».

وروى العياشي بالإسناد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن الرجل المؤمن، تكون له امرأة مؤمنة، يدخلان الجنة، يتزوج أحدهما الآخر؟ فقال: يا أبا محمد، إن الله حكم عدل، إذا كان هو أفضل منها خَيْرُهُ، فإن اختارها كانت من أزواجه، وإن كانت هي خيراً منه خَيْرُهَا، فإن اختارته كان زوجاً لها.

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: لا تقولون الجنة واحدة، إن الله يقول: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، ولا تقولون درجة واحدة إن الله يقول: ﴿بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ إنما تفاضل القوم بالأعمال. قال: وقلت له: إن المؤمنين يدخلان الجنة، فيكون أحدهما أرفع مكاناً من الآخر، فيشتهي أن يلقي صاحبه، قال: من كان فوقه فله أن يهبط، ومن كان تحته لم يكن له أن يصعد، لأنه لا يبلغ ذلك المكان، ولكنهم إذا أحبوا ذلك واشتهوه التقوا على الأسرة.

وعن العلاء بن سبابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا: يخرج قوم من جهنم^(١) فيدخلون الجنة، فيقولون لنا: فيكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال: يا غلام، إن الله يقول: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لا والله لا يكونون مع أولياء الله، قلت: كانوا كافرين؟ قال عليه السلام: لا والله لو كانوا كافرين ما دخلوا الجنة، قلت: كانوا مؤمنين؟ قال: لا والله لو كانوا مؤمنين ما دخلوا النار، ولكن بين ذلك. وتأويل هذا لو صح الخبر أنهم لم يكونوا من أفاضل المؤمنين وأخيارهم.

ثم وصف الجنة فقال ﴿مُدَاهَاتَانِ﴾ أي: من خضرتهما قد اسودتا من الري. وكل نبت أخضر فتمام خضرت أن يضرب إلى السواد، وهو على أتم ما يكون من الحسن، وهذا على قول من قال: إن الجنات الأربع لمن خاف مقام ربه، وهو قول ابن عباس. وقيل: الأوليان للسابقين، والأخريان للتابعين، عن الحسن. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ فَضَّاحَتَانِ﴾ أي: فوارتان بالماء، ينبع من أصلهما ثم يجريان، عن الحسن. قال ابن عباس: ينضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور. وقيل: ينضخان بأنواع الخيرات.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يعني ألوان الفاكهة ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. وحكى الزجاج عن يونس النحوي وهو من قدماء النحويين، أن النخل والرمان من أفضل الفواكه، وإنما فصلا بالواو لفضلهما. قال الأزهري: ما علمت أن أحداً من العرب قال في النخل والكرم وثمارها: إنها ليست من الفاكهة، وإنما قال ذلك من قال، لقلة علمه بكلام العرب، وتأويل القرآن العربي المبين. والعرب تذكر الأشياء جملة، ثم تختص شيئاً منها بالتسمية، تنبيهاً على فضل فيه، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِإِتِّبَاعِهِ وَرُسُلِهِ وَحَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ يعني في الجنات الأربع ﴿خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ أي: نساء خيرات الأخلاق، حسان

سورة الرحمن

الوجوه، روته أم سلمة عن النبي ﷺ. وقيل: خيرات فاضلات في الصلاح والجمال، عن الحسن. حسان في المناظر والألوان. وقيل: إنهن نساء الدنيا ترد عليهم في الجنة وهن أجمل من الحور العين. وقيل: خيرات مختارات، عن جرير بن عبد الله. وقيل: لسن بذريات، ولا زفرات، ولا بَخِرَات، ولا متطلعات، ولا متسوفات^(١) ولا متسلطات، ولا طماخات ولا طوافات في الطرق، ولا يَغْرُن ولا يؤذين. وقال عقبة بن عبد الغفار: نساء أهل الجنة يأخذ بعضهن بأيدي بعض، ويتغنين بأصوات لم يسمع الخلاق مثلها: نحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، ونحن خيرات حسان، حبيبات لأزواج كرام. وقالت عائشة: الحور العين إذا قلن هذه المقالة، أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتين، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فغلبتهن والله.

﴿حُورٌ﴾ أي: بيض حسان البياض، عن ابن عباس ومجاهد. ومنه الدقيق الحواري لشدة بياضه. والعين الحوراء إذا كانت شديدة بياض البياض، شديدة سواد السواد، وبذلك يتم حسن العين. ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ أي: محبوسات في الحجال مستورات في القباب، عن ابن عباس وأبي العالية والحسن. والمعنى أنهن مصونات مخدرات لا يتدلن^(٢). وقيل: مقصورات أي: قصرن على أزواجهن، فلا يرون بدلاً منهم، عن مجاهد والربيع. وقيل: إن لكل زوجة خيمة طولها ستون ميلاً، عن ابن مسعود. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل للمؤمن، لا يراه الآخرون». وعن ابن عباس. قال: الخيمة درة مجوفة، فرسخ في فرسخ، فيها أربعة آلاف مصرع، عن وهب^(٣). وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «مرت ليلة أُسْرِي بي بنهر حافته قباب المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله، فقلت: يا جبرائيل، ومن هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوار^(٤) من الحور العين، استأذنَ ربهن عز وجل أن يسلمن عليك فأذنَ لهن، فقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نياس^(٥)، أزواج رجال كرام. ثم قرأ ﷻ: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾. ﴿لَمْ يَلْمِزْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ مر معناه، والوجه في التكرير الإبانة عن أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة القاصرات الطرف.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خَضِرٍ﴾ أي: على فرش مرتفعة، عن الجبائي. وقيل: الرفرف رياض الجنة، والواحد رفرفة، عن سعيد بن جبیر. وقيل: هي المجالس، عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: هي المرافق، يعني الوسائد، عن الحسن. ﴿وَعَبَقَرِيُّ جَسَانٍ﴾ أي: وزرابي

(١) وفي المخطوطة: المتشوقات. والمتشوق: من يظهر الشوق تكلفاً.

(٢) وفي المخطوطة: «لا يتدلن».

(٣) وفي سائر النسخ: «عن ذهب».

(٤) وفي نسخة: «حور».

(٥) وفي نسخة: «لا نيس» وفي أخرى: «لا نيس».

حسان، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة، وهي الطنافس. وقيل: العبقرى الديباج، عن مجاهد. وقيل: هي البُسْط، عن الحسن. قال القتيبي: كل ثوب موشى فهو عبقرى، وهو جمع، ولذلك قال ﴿حَسَانٍ﴾. ثم ختم السورة بما ينبغي أن يبجل به ويعظم، فقال: ﴿بَارِكْ أَسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: تعظم وتعالى اسم ربك، لأنه استحق أن يوصف بما لا يوصف به غيره، من كونه قديماً وإلهاً وقادراً لنفسه، وعالماً لنفسه، وحيّاً لنفسه، وغير ذلك. ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ أي: ذي العظمة والكبرياء ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ يكرم أهل دينه وولايته، عن الحسن. وقيل معناه: عظمة البركة في اسم ربك، فاطلبوا البركة في كل شيء بذكر اسمه. وقيل: إن اسم صلة لمعنى «تبارك ربك». قال لبيد:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْنِكما وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَرَ

وقيل: إن المعنى أن اسمه منزّه عن كل سوء، له الأسماء الحسنى. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنطقوا بيا ذا الجلال والإكرام». أي: داوموا عليه.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

مكية/آياتها (٩٦)

مكية، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقيل: إلا قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿أَفَهَذَا الْحَدِيثُ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ نزلت في سفره إلى المدينة.

● عدد آياتها: تسع وتسعون حجازي شامي، سبع بصري، ست كوفي.

● اختلافها: أربع عشرة آية ﴿فَأَصْحَبُ اللَّيْمَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَبُ الشَّقَةِ مَا﴾، ﴿وَأَصْحَبُ الشَّامِ﴾ ثلاثهن غير الكوفي. والمدني الأخير ﴿أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً﴾ غير البصري. ﴿فِي سَمُورٍ وَحِمِيرٍ﴾ غير المكي، ﴿وَكَاثِرًا يَقُولُونَ﴾ مكي، ﴿وَأَبَارِقٍ﴾ مكي. والمدني الأخير ﴿مَوْصُونٍ﴾ حجازي كوفي ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ كوفي والمدني الأول. ﴿تَأْتِيَانَا﴾ عراقي شامي، والمدني الأخير ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ غير شامي والمدني الأخير، ﴿لَمَجْبُوعُونَ﴾ شامي. والمدني الأخير ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ شامي.

● فضلها: أَبِي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة كتب ليس من الغافلين». وعن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين^(١) والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

وروي أن عثمان بن عفان، دخل على عبد الله بن مسعود، يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له: ما تشكي؟ قال: ذنوبي، قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر بعطائك؟ قال: منعته وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه، قال: يكون لبناتك، قال: لا حاجة لهن فيه فقد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً».

وروي العياشي بالإسناد عن زيد الشحام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الواقعة قبل أن ينام لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر. وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ في كل ليلة جمعة الواقعة أحبه الله، وحببه إلى الناس أجمعين، ولم ير في الدنيا بؤساً أبداً، ولا فقراً، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين. تمام الخبر.

● تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة الرحمن بصفة الجنة، وافتتح هذه السورة أيضاً بصفة القيامة والجنة، فاتصلت إحداهما بالأخرى اتصال النظر بالنظر، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ﴾ (١) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَبُ الِّمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِّمِئْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَبُ الْمَشْأَةِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْأَةِ ۚ وَالسَّيْفُونا السَّيْفُونا ۚ أُولَئِكَ الْمَقْرُونُونَ ۚ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۚ تِلْكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ۚ﴾ (١٦).

● القراءة: في الشواذ قراءة الحسن والثقفى وأبى حيوه: «خافضة رافعة» بالنصب.

● الحجة: هذا منصوب على الحال، قال ابن جنى: وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ حال أخرى قبلها، أي: إذا وقعت الواقعة صادقة الوقعة خافضة رافعة، فهذه ثلاثة أحوال. ومثله: مررت بزيد جالساً متكئاً ضاحكاً، وإن شئت أن تأتي بأضعاف ذلك جاز وحسن، كما أن لك أن تأتي للمبتدأ من الأخبار بما شئت، فتقول: زيد عالم فارس كوفي بزاز، ونحو ذلك. ألا ترى أن الحال زيادة في الخبر وضرب منه.

● اللغة: الكاذبة: مصدر مثل العافية والعاقبة. والرج: التحريك باضطراب واهتزاز، ومنه قولهم: ارتج السهم عند خروجه من القوس. والبس: الفت كذا يسس السوق، أي: يلت. قال الشاعر:

لا تخبزا خبزاً وبُستاً بسا

والبسس: السوق أو الدقيق يتخذ زاداً، وبُست أيضاً: سقت، عن الزجاج. قال الشاعر:

وانبس حبّات الكثيب الأفيل

والهباء: غبار كالشعاع في الرقة، وكثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة. والانبثا: افتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة. والأزواج: الأصناف التي بعضها مع بعض، كما يقال للخفين: زوجان. والثلاثة: الجماعة، وأصله القطعة من قولهم: ثل عرشه، إذا قطع ملكه بهدم سريره. والثلة: القطعة من الناس. والموضونة: المنسوجة المتداخلة، كصفة الدرع المتضاعفة. قال الأعشى:

وَمِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ تُسَاقُ إِلَى الْحَيِّ عِيناً فَعِيناً

ومنه: وضيع الناقة، وهو البطان من السيور^(١)، إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً.

● الإعراب: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ظرف من معنى ليس، لأن التقدير: لا يكون لوقعتها

(١) السيور: جمع السير، وهو قطعة مستطيلة من جلد غير مدبوغ، يخصف به النعل.

سورة الواقعة

كاذبة. و﴿لَيْسَ﴾ نفي الحال، فلا يكون ﴿إِذَا﴾ ظرفاً منه. ويجوز أن يكون العامل في ﴿إِذَا﴾ محذوفاً لدلالة الموضع عليه، كأنه قال: إذا وقعت الواقعة كذلك، فاز المؤمنون وخسر الكافرون.

وقال أبو علي: تقديره: فهي خافضة رافعة، فأضمر المبتدأ مع الفاء، وجعلها جواب «إذا»، أي: خففت قوماً ورفعت قوماً إذ ذاك، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ خبر المبتدأ المحذوف.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. ويجوز أن يكون ظرفاً من: يقع، أي: يقع في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون خبراً عن ﴿إِذَا﴾ الأولى. ونظيره: إذا تزروني، إذا أزور زيداً، أي: وقت زيارتك إياي، وقت زيارتي زيداً. قال ابن جني: ويجوز أن يفارق «إذا» الظرفية، كقول لبيد:

حتى إذا أَلْقَتْ بَدَأَ فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظِلَامُهَا

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ فإذا مجرورة عند أبي الحسن بـ«حتى»، وذلك يخرجها من الظرفية.

وأقول: فعلى هذا لا يكون قوله «إذا» ظرفاً في الموضعين، بل كل واحد منهما في موضع الرفع، لكونهما مبتدأ وخبراً، بخلاف ما ظنه بعض المجودين من محققي زماننا في النحو. فإنه قال: قال عثمان - يعني ابن جني - : العامل في ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾، وهذا خطأ فاحش.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ رفع بالابتداء، والتقدير: فأصحاب الميمنة ما هم أي: أي شيء هم. وأصحاب المشئمة؟ أي: أي شيء هم. وهذه اللفظة مجرورة مجرى التعجب. و﴿مُتَكَلِّمِينَ﴾ و﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ نصب على الحال.

● **المعنى:** ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة، عن ابن عباس. والواقعة: اسم القيامة كالآزفة وغيرها، والمعنى: إذا حدثت الحادثة، وهي الصيحة عند النفخة الأخيرة لقيام الساعة. وقيل: سميت بها لكثرة ما يقع فيها من الشدة أو لشدة وقعها، وتقديره: اذكروا إذا وقعت الواقعة، وهذا حث على الاستعداد لها. ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب، ومعناه: إنها تقع صدقاً وحققاً، فليس فيها ولا في الإخبار عنها ووقوعها كذب. وقيل: معناه ليس لوقوعها قضية كاذبة، أي: ثبت وقوعها بالسمع والعقل. ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي: تخفض ناساً وترفع آخرين، عن ابن عباس. وقيل: تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة، عن الحسن والجبائي. والمعنى الجامع للقولين: إنها تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين وتجعلهم أدلة بإدخالهم النار، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مهبطين وتجعلهم أعزة بإدخالهم الجنة. ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: حركت حركة شديدة. وقيل: زلزلت زلزلاً شديداً، عن ابن عباس وقاتدة ومجاهد، أي: رجفت بإماتة من على ظهرها من الأحياء. وقيل: معناه رجّت بما فيها كما يرج الغربال بما فيه، فيكون المراد: ترج بإخراج من في بطنها من الموتى. ﴿وُيَسَّاتُ الْجِبَالُ﴾

بَسَّ أَي: فُتَّت^(١) فتاً، عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل. وقيل: معناه كسرت كسراً، عن السدي^(٢) عن سعيد بن المسيب. وقيل: قلعت من أصلها، عن الحسن. وقيل: سيرت عن وجه الأرض تسييراً، عن الكلبي. وقيل: بسطت بسطاً كالرمل والتراب، عن ابن عطية. وقيل: جعلت كثيراً مهياً بعد أن كانت شامخة طويلة، عن ابن كيسان. ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثَاتٌ﴾ أَي: غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة.

ثم وصف سبحانه أحوال الناس بأن قال: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أَي: أصنافاً ثلاثة. ثم فسرها فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ يعني اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم، عن الضحاك والجبائي. وقيل: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة. وقيل: هم أصحاب اليمين والبركة على أنفسهم، والثواب من الله سبحانه بما سعوا من الطاعة، وهم التابعون بإحسان، عن الحسن والربيع. ثم عَجِبَ سبحانه رسوله من حالهم تفخيماً لشأنهم فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أَي: أي شيء هم؟ كما يقال: هم ما هم؟

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ وهم الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بشمالهم. وقيل: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. وقيل: هم المشائيم على أنفسهم بما عملوا من المعصية. ثم عَجِبَ سبحانه رسوله من حالهم تفخيماً لشأنهم في العذاب فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.

ثم بيّن سبحانه الصنف الثالث فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أَي: والسابقون إلى اتباع الأنبياء الذين صاروا أئمة الهدى، فهم السابقون إلى جزيل الثواب عند الله، عن الجبائي. وقيل: معناه السابقون إلى طاعة الله، وهم السابقون إلى رحمته، والسابق إلى الخير إنما كان أفضل لأنه يقتدى به في الخير، وسبق إلى أعلى المراتب قبل من يجيء بعده، فلهذا يميز^(٣) بين التابعين. فعلى هذا يكون السابقون الثاني خبراً عن الأول، ويجوز أن يكون الثاني تأكيداً للأول، والخبر: ﴿أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ﴾ أَي: والسابقون إلى الطاعات يقربون إلى رحمة الله في أعلى المراتب، وإلى جزيل ثواب الله في أعظم الكرامة.

ثم أخبر تعالى أين محلهم فقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ لثلاثتهم مُتَوَهِّمٌ أن التقريب يخرجهم إلى دار أخرى، فأعلم سبحانه أنهم مُقَرَّبُونَ من كرامة الله في الجنة، لأن الجنة درجات ومنازل بعضها أرفع من بعض.

وقد قيل في السابقين: إنهم السابقون إلى الإيمان، عن مقاتل وعكرمة. وقيل: السابقون إلى الهجرة، عن ابن عباس. وقيل: إلى الصلوات الخمس، عن علي عليه السلام. وقيل إلى الجهاد، عن الضحاك. وقيل: إلى التوبة وأعمال البر، عن سعيد بن جبير. وقيل: إلى كل ما دعا الله إليه، عن ابن كيسان. وهذا أولى لأنه يعم الجميع. وكان عروة بن الزبير يقول: تقدموا تقدموا.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق في^(٤) أمة

(٣) في المخطوطة: «من التابعين».

(١) فت الشيء: دقه وكسره.

(٤) فيها أيضاً سابق أمة... بدون لفظة «في».

(٢) في المخطوطة: وسعيد بن المسيب.

موسى ﷺ، وهو مؤمن آل فرعون، وسابق في أمة عيسى ﷺ وهو حبيب النجار، والسابق في أمة محمد ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هم ثلثة يعني جماعة كثيرة العدد من الأولين، من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من أمة محمد ﷺ، لأن من سبق إلى إجابة نبينا ﷺ قليل، بالإضافة إلى من سبق إلى إجابة النبيين قبله، عن جماعة من المفسرين. وقيل: معناه جماعة من أوائل هذه الأمة، وقليل من أواخرهم ممن قرب حالهم من حال أولئك. قال مقاتل: يعني سابقي الأمم، وقليل من الآخرين من هذه الأمة. ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة، كما يُوَضَّن حلق الدرع، فيدخل بعضها في بعض. قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدر والجواهر ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: مستندين جالسين جلوس الملوك. ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ أي: متحاذين، كل واحد منهم بإزاء الآخر، وذلك أعظم في باب السرور، والمعنى: إن بعضهم ينظر إلى وجه بعض، لا ينظر في قفاه لحسن معاشرتهم، وتهذب أخلاقهم.



قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٨﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿٩﴾ وَفَكَهَمَتِ مِمَّا يَتَخَبَّزُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحِمٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي: «وَحُورٌ عَيْنٌ» بالجحر، والباقون: بالرفع. وفي الشواذ قراءة ابن أبي إسحاق: «وَلَا يَنْزِفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي، وقراءة أُبَي بن كعب وابن مسعود: «وَحُوراً عِيناً».

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الرفع في «وَحُورٌ عَيْنٌ» أنه لما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ دل الكلام، وما ذكر بعد، على أن لهم فيها كذا وكذا، ولهم فيها حور عَيْن، وكذلك من نصب حمل على المعنى، لأن الكلام دل على يمنحون ويملكون، وهذا مذهب سيويه.

ويجوز أن يحمل الرفع على قوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾، التقدير: وعلى سرر موضونة حور عَيْن، أو وحور عَيْن على سرر موضونة، لأن الوصف قد جرى عليهن فاختصصن، فجاز أن يرفع بالابتداء، ولم يكن كالنكرة إذا لم يوصف نحو: «فيها عَيْن». وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ خبر لقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فكذاك يجوز أن يكون خبراً عنهم.

ويجوز في ارتفاع «وَحُورٌ عَيْنٌ» أن يكون عطفاً على الضمير في ﴿مُتَّكِئِينَ﴾، ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التأكيد. ويجوز أيضاً أن يعطفه على الضمير في ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ ولم يؤكد لطول الكلام أيضاً، وقد جاء: ﴿مَّا أَتْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا﴾ فهذا أجدر.

وقال الزجاج: الرفع أحسن الوجهين، لأن معنى: يطوف عليهم ولدان مخلدون بهذه الأشياء، أنه قد ثبت لهم ذلك، فكأنه قال: ولهم حور عين، ومثله مما حمل على هذا^(١) المعنى قول الشاعر:

بَادَتْ وَغَيْرَ أَيُّهِنَّ مَعَ الْبَلَى، إِلَّا رَوَاكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاءٌ
ثم قال بعده:

وَمُشَجَّجٌ أَمَّا سِوَاءُ قِذَالِهِ فَبِدَا، وَغَيْرَ سَارَةِ الْمَغْزَاءِ^(٢)

لأنه لما قال: إلا رواكد، كان المعنى: بها رواكد، فحمل: ومشجج، على المعنى. وقال غيره: تقديره: وهناك حور عين.

قال أبو علي: وجه الجر أن يكون يحمله على قوله: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٣) فِي جَنَّتِ التَّيْبِ، التقدير: أولئك المقربون في جنات النعيم، وفي حور عين، أي: وفي مقاربة حور عين، أو معاشرة حور عين، فحذف المضاف. فإن قلت: فَلِمَ لَا تَحْمِلُهُ عَلَى الْجَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بكذا، وبحور عين، فهذا يمكن أن يقال، إلا أن أبا الحسن قال: في ذا بعض الوحشة.

قال ابن جني^(٤): نرف البئر ينزفها نزفاً، إذا استقى ماءها، وأنزفت الشيء: إذا أفنيته. قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَيْشَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبْحَرَ^(٥)

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أنه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ أي: وُصفاء وغللمان للخدمة، ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون، عن مجاهد. وقيل: مقرطون. والخلد: القرط، يقال: خلد جاريته إذا حلاها بالقرطة، عن سعيد بن جبير والفراء. واختلف في هذه الولدان، فقيل: إنهم أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا^(٥)، فأنزلوا هذه المنزلة، عن علي عليه السلام والحسن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «هم خدم أهل الجنة». وقيل: بل هم من خدم الجنة على صورة الولدان، خلقوا لخدمة أهل الجنة.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي القداح الواسعة الرؤوس، لا خراطيم لها، عن قتادة، ﴿وَأَبَارِقٍ﴾ وهي التي

(١) ليس في المخطوطة لفظة هذا.

(٢) مر البيت ومعناه في هذا الجزء.

(٣) في المخطوطة: قال ابن جني يقال..

(٤) الندامي: جمع ندمان، وهو المنادم على الشرب أي: بش المصاحبون أنتم في حال السكر، والصحو.

(٥) في نسخة: فيعاقبوا عليها.

سورة الواقعة

لها خراطيم وعرى، وهو الذي يبرق من صفاء لونه. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: ويطوفون أيضاً عليهم بكأس من خمر معين، أي: ظاهر للعيون جار. ﴿لَّا يَصَدَّقُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: لا يأخذهم من شربها صداع. وقيل: لا يتفرون عنها ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم، بمعنى لا تذهب بالسكر، عن مجاهد وقتادة والضحاك. ومن قرأ «ينزفون» حملة على أنه لا تنفى خمرهم. ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَتَخَذُونَ﴾ أي: ويطوفون عليهم بفاكهة مما يختارونه ويشتهونه. يقال: تخيرت الشيء: أخذت خيره. ﴿وَلَحِيرٌ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أي: ويلحم طير مما يتمنون، فإن أهل الجنة إذا اشتهوا لحم الطير خلق الله سبحانه لهم الطير نضيجاً، حتى لا يحتاج إلى ذبح الطير وإيلامه. قال ابن عباس: يخطر على قلبه الطير، فيصير^(١) ممثلاً بين يديه على ما اشتهى. ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قد مرَّ بيانه. ﴿كَأَنَّمَلَ الْوَلُؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ﴾ أي: الدر المصون المخزون في الصدف، لم تمسه الأيدي. قال عمر بن أبي ربيعة:

وهي زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْعَوَا ص، مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ
﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: نفعل ذلك لجزاء أعمالهم وطاعاتهم التي عملوها في دار التكليف الدنيا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَعْنًا﴾ أي: ما لا فائدة فيه من الكلام، لأن كل ما يتكلمون به، فيه فائدة. ﴿وَلَا تَأْتِيهَا﴾ أي: لا يقول بعضهم لبعض: أثمت، لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم، عن ابن عباس. وقيل: معناه لا يتخالفون على شرب الخمر، كما يتخالفون في الدنيا، ولا يأتون بشرها كما يأتون في الدنيا. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا﴾ أي: لا يسمعون إلا قول بعضهم لبعض على وجه التحية: سلاماً سلاماً، والمعنى أنهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب، وكرم الأخلاق اللذين يوجبان التواد. ونصب ﴿سَلَكًا﴾ على تقدير: سلمك الله سلاماً بدوام النعمة وكمال الغبطة^(٢). ويجوز أن يعمل سلام في ﴿سَلَكًا﴾، لأنه يدل على عامله كما يدل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ على العامل في نبات، فإن المعنى: أنبتكم فنبت نباتاً. ويجوز أن يكون ﴿سَلَكًا﴾ نعتاً لقوله: ﴿قِيلًا﴾. ويجوز أن يكون مفعول قيل؛ فالوجوه الثلاثة تحتملها الآية.



قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٧٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٧٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٨١﴾ وَفَكَهْمٍ كَثِيرٍ ﴿٨٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٨٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٨٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٨٥﴾ فَعَلَّغْنَهُمْ أَجْكَارًا ﴿٨٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٨٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٩٠﴾.

● **القراءة:** قرأ إسماعيل وحمزة وحماد ويحيى، عن أبي بكر وخلف: «عزياً» ساكنة الراء، والباقون: «عرباً» بضميتين.

● **الحجة:** العروب: الحسنه التبعل، قال لبيد:
وفي الحُدُوج عَرُوبٌ، غير فاحشة، رِيا الروادف، يَعشَى دونها البصر^(١)
والفَعول يجمع على فَعْل وفُعْل، فمن الثقل قوله:
فاصبري إنك من قوم صُبر

والتخفيف في ذلك شائع مطرد.

● **اللغة:** السدر: شجر النبق. وأصل الخضد: عطف العود اللين. فمن هاهنا المنخضود: الذي لا شوك له، لأن الغالب أن الرطب اللين لا شوك له. والطلح: قال أبو عبيدة: هو كل شجر عظيم كثير الشوك، قال بعض الحداة:
بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَا: غَدَا تَرَيْنَ الطَّلَحَ، والجبالا

وقال الزجاج: الطلح: شجر أم غيلان، فقد يكون على أحسن حال. والمنخضود: من نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض. والبكر: التي لم يفترعها الرجل، فهي على خلققتها الأولى من حال الإنشاء، ومنه البكرة: لأول النهار، والباكورة: لأول الفاكهة، والبكر: الفتى من الإبل، وجمعه بكار وبكارة. وجاء القوم على بكرتهم وبكرة أبيهم، عن الأزهري. والأتراب: جمع ترب: وهو اللدة الذي ينشأ مع مثله في حال الصبا، وهو مأخوذ من لعب الصبي بالتراب، أي: هم كالصبيان الذين هم على سن واحده قال ابن^(٢) أبي ربيعة:

أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ، تُهَادِي بَيْنَ عَشِيرٍ، كَوَاعِبٍ، أَتْرَابٍ^(٣)

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيْنِ مَا أَحَبُّ إِلَيْنِ﴾ وهو مثل قوله: ﴿مَا أَحَبُّ إِلَيْنِ﴾ وقد مرَّ معناه. ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أي^(٤): منزوع الشوكه قد خضد شوكه، أي: قطع، عن ابن عباس وعكرمة وقتادة. وقيل: هو الذي خضد بكثرة حملة، وذهاب شوكه. وقيل: هو الموقر حملاً، عن الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان. وقال الضحاك: نظر المسلمون إلى وج، وهو واد مخصب بالطائف، فأعجبهم سدره،

(١) الحدج: مركب من مراكب النساء، نحو الهودج والمحفة. والرياء: مؤنث الريان، وهو الأخضر الناعم من الأغصان وغيرها. ووجه ريان: كثير اللحم. والروادف: الأعجاز، جمع ردف أو الرادفة.

(٢) في المخطوطة: عمر بن أبي ربيعة.

(٣) المهاة: الشمس... والبقرة الوحشية. وقيل: نوع من البقر الوحشي، وهي أشبه بالمعز الأهلية. وقرونها صلاب جداً تشبه بها المرأة في سمنها وجمالها، وحسن عينيها. وفلان يهادي بين اثنين أي: يتمايل، أو بالبناء للمفعول أي: يمشي بينهما معتمداً عليهما، لضعفه. والمراد: مشية المتختر.

(٤) وفي المخطوطة: (في سدر) أي: في نبق (منخضود) أي: منزوع.

سورة الواقعة

وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت الآية. ﴿وَطَلَحَ مَنُذُورٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو شجر الموز. وقيل: ليس بالموز، ولكنه شجر له ظل بارد ورطب، عن الحسن. وقيل: هو شجر يكون باليمن وبالحجاز، من أحسن الشجر منظراً. وإنما ذكر هاتين الشجرتين لأن العرب كانوا يعرفون ذلك، فإن عامة أشجارهم أم غيلان ذات أنوار، ورائحة طيبة. وروت العامة عن علي عليه السلام أنه قرأ عنده رجل ﴿وَطَلَحَ مَنُذُورٌ﴾ فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو «وطلع» كقوله: ﴿وَنَحْلٍ طَلَمَهَا هَظِيمٌ﴾، فقيل له: ألا تغيره؟ فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحرك. رواه عنه ابنه الحسن، وقيس بن سعد^(١)، ورواه أصحابنا عن يعقوب بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ﴿وَطَلَحَ مَنُذُورٌ﴾ قال: لا، وطلع منضود، والمنضود: الذي تضد بعضه على بعض، تضد بالحمل من أوله إلى آخره، فليست له سوق بارزة، فمن عروقه إلى أفنائه ثمر كله. ﴿وَطَلَّ مَنُذُورٌ﴾ أي: دائم لا تنسخه الشمس، فهو باق لا يزول. والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع: ممدود، قال ليبد:

غَلَبَ الْبَقَاءُ، وَكَانَ غَيْرَ مُغْلَبٍ، دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ، مَمْدُودٌ
وقد ورد في الخبر: أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿وَطَلَّ مَنُذُورٌ﴾. وروي أيضاً: إن أوقات الجنة كغدوات الصيف، لا يكون فيها حر ولا برد. ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ أي: مصبوب يجري الليل والنهار ولا ينقطع عنهم، فهو مسكوب بسكب الله إياه في مجاريه. وقيل: مسكوب مصبوب على الخمر ليشرب بالمزاج. وقيل: مسكوب يجري دائماً في غير أخذود، عن سفيان وجماعة. وقيل: ليشرب على ما يرى من حسنه وصفائه، لا يحتاجون إلى تعب في استقائه. ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ﴾ أي: وثمار مختلفة كثيرة غير قليلة، والوجه في تكرير ذكر الفاكهة: البيان عن اختلاف صفاتها، فذكرت أولاً بأنها متخيرة، وذكرنا هنا بأنها كثيرة، ثم وصفت بقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ أي: لا تنقطع كما تنقطع فواكه الدنيا في الشتاء، وفي أوقات مخصوصة، ولا تمتنع ببعد متناول أو شوك يؤذي اليد، كما يكون ذلك في الدنيا. وقيل: إنها غير مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان، لا يتوصل إليها إلا بالثمن.

﴿وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: بُسُطٌ عالية كما يقال: بناء مرفوع. وقيل: مرفوع بعضها فوق بعض، عن الحسن والفراء. وقيل: معناه نساء مرتفعات القدر في عقولهن وحسنهن وكمالهن، عن الجبائي قال: ولذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾. يقال لامرأة الرجل: فراشه، ومنه قول النبي ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أي: خلقناهن خلقاً جديداً. قال ابن عباس: يعني النساء الآدميات. والعجز: الشمط، يقول: خلقناهن بعد الكبر والهرم في الدنيا خلقاً آخر. وقيل: معناه أنشأنا الحور العين كما هن عليه على هيئاتهن، لم يتقلن من حال إلى حال، كما يكون في الدنيا. ﴿يَحْمِلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، عن الضحاك. وقيل: ولا يأتيهن أزواجهن إلا وجدوهن أبكاراً. ﴿عُرْيًا﴾ أي: متحننات على أزواجهن، متحبات إليهم. وقيل:

عاشقات لأزواجهن، عن ابن عباس. وقيل: العروب اللعوب مع زوجها أنساً به، كأنس العرب بكلام العربي. ﴿أَرْبَابًا﴾ أي: متشابهات مستويات في السن، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد. وقيل: أمثال أزواجهن في السن. ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه لأصحاب اليمين جزاءً وثواباً على طاعتهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعة من الأمم الماضية التي كانت قبل هذه الأمة، وجماعة من مؤمني هذه الأمة. قال الحسن: سابقو الأمم الماضية أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو الأمم الماضية مثل تابعي هذه الأمة، يعني: إن أصحاب اليمين منهم مثل أصحاب اليمين منا.

وإنما نكر سبحانه الثلة ليدل على أنه ليس لجميع الأولين والآخرين، وإنما هو لجماعة منهم، كما يقال: رجل من جملة الرجال. وهذا الذي ذكرناه قول مقاتل وعطاء وجماعة من المفسرين.

وذهب جماعة منهم أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة، وهو قول مجاهد والضحاك واختيار الزجاج. وروي ذلك مرفوعاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «جميع الثلثين من أمتي».

ومما يؤيد القول الأول، ويعضده من طريق الرواية، ما رواه نقلة الأخبار بالإسناد عن ابن مسعود قال: تحدثنا عند رسول الله ﷺ ليلة حتى أكثرنا الحديث، ثم رجعنا إلى أهلنا، فلما أصبحنا غدونا إلى رسول الله ﷺ، فقال: عرضت علي الأنبياء الليلة باتباعها من أممها، فكان النبي تجيء معه الثلة من أمته، والنبي معه العصاة من أمته، والنبي معه النفر من أمته، والنبي معه الرجل^(١) من أمته، والنبي ما معه من أمته أحد، حتى إذا أتى أخى موسى في كبكبة من بني إسرائيل. فلما رأيتهم أعجبوني، فقلت: أي رب! من هؤلاء؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران، ومن معه من بني إسرائيل. فقلت: رب، فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك، فإذا ظراب^(٢) مكة قد سدت بوجوه الرجال، فقلت^(٣): من هؤلاء؟ فقليل: هؤلاء أمتك، أرضيت؟ قلت: رب، رضيت. وقال^(٤): أنظر عن يسارك. فإذا الأفق قد انسدت^(٥) بوجوه الرجال. فقلت: رب من هؤلاء؟ قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: رب رضيت. فقليل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً من أمتك يدخلون الجنة لا حساب عليهم. قال: فأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد^(٦) من خزيمة، فقال: يا نبي الله، ادع ربك أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم. ثم أنشأ رجل آخر فقال: يا نبي الله ادع ربك أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة. فقال نبي الله: فداكم أبي وأمي، إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا، وإن عجزتم وقصرتم فكونوا

(١) وفي المخطوطة: رجل.

(٢) الظراب.

(٣) في المخطوطة: رب من...

(٤) فيها قيل.

(٥) فيها أيضاً: سد.

(٦) فيها أيضاً: ابن خزيمة.

من أهل الطراب، فإن عجزتم^(١) وقصرتم فكونوا من أهل الأفق. وإني قد رأيت ثم ناساً كثيراً يتهاوشون كثيراً، فقلت: هؤلاء السبعون ألفاً. فاتفق رأينا على أنهم ناس ولدوا في الإسلام، فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه. فانتهى^(٢) حديثهم إلى رسول الله ﷺ، فقال: ليس كذلك، ولكنهم الذين لا يسرفون ولا يتكبرون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. ثم قال: إني لأرجو أن يكون من تبني ربيع أهل الجنة، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن يكون ثلث من أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن يكون شطر أهل الجنة، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.



قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٤١) ﴿فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ﴾ (٤٢) ﴿وَوَلِيٍّ مِّنْ سَمُورٍ﴾ (٤٣) ﴿لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٤٧) ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٤٩) ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٥٠) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِيَّاهَا لَمُتَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) ﴿لَّا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفُورٍ﴾ (٥٢) ﴿فَالَّذِينَ فِيهَا أَلْبُتُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَبِيمِ﴾ (٥٤) ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٥).

● **القراءة:** قرأ ابن عامر. «إذا متنا» بهمزتين، «أئنا لمبعوثون» بهمزتين أيضاً، ولم يجمع بين استفهامين إلا في هذا الموضع من القرآن. وقد ذكرنا مذهب غيره من القراء فيما تقدم، ومذهبه أيضاً في أمثاله. وقرأ أهل المدينة وعاصم وحمة: «شرب الهيم» بضم الشين، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: إن الحق ألف الاستفهام في قوله: ﴿أئنا﴾ أو لم تلحق، كان «إذا» متعلقاً بشيء دل عليه قوله: ﴿أئنا لمبعوثون﴾. ألا ترى أن «إذا» ظرف من الزمان، فلا بد له من فعل أو معنى فعل يتعلق به، ولا يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ومتنا﴾ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وإذا لم يجز حمله على هذا الفعل، ولا على ما بعد «إن»، من حيث لم يعمل ما بعد «إن» فيما قبلها، كما لا يعمل ما بعد «لا» فيما قبلها، فكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله، علمت أنه يتعلق بشيء دل عليه قوله: ﴿أئنا لمبعوثون﴾، وذلك: نحشر أو نبعث ونحوهما، مما يدل عليه هذا الكلام.

وأما الشُّرب فهو نحو الأكل والضرب، والشُّرب كالشغل والنكر. وأما الشُّرب فالمشروب كالطحن ونحوه. وقد يكون الشُّرب جمع شارب، مثل راكب وركب وتاجر وتجر وراجل ورجل.

● **اللغة:** السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، ومسام البدن: خروقه، ومنه أُخِذَ السم الذي يدخل في المسام. واليحموم: الأسود الشديد السواد باحترق النار، وهو يفعل من الحم، وهو الشحم المسود باحترق النار. يقال: حممت الرجل: إذا سخمت وجهه بالفحم. والمترف: الممتنع من أداء الواجبات طلباً للترفة، وهي الرفاهية والنعمة. والحنث: نقض العهد المؤكد بالحلف. والهيم: الإبل العطاش التي لا تروى من الماء لداء يصيبها، والواحد أهيم، والأنثى: هيماء.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ وهم الذين يُؤَخِّذُ بهم ذات الشمال إلى جهنم، أو الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، أو الذين يلزمهم حال الشؤم والنكد. ﴿فِي سُورٍ وَحِيمٍ﴾ أي: في ريح حارة تدخل مسامهم وخروقهم، وفي ماء مغلي حار انتهت حرارته. ﴿وَزُلْزِلَ مَن يَحْتَرِي﴾ أي: دخان أسود شديد السواد، عن ابن عباس، وأبي مالك، ومجاهد، وقتادة. وقيل: اليحموم: جبل في جهنم يستغيث أهل النار إلى ظله. ثم نعت ذلك الظل فقال: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر، عن قتادة. وقيل: لا بارد يستراح إليه لأنه دخان جهنم، ولا كريم فيشتهى مثله. وقيل: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: ولا منفعة فيه بوجه من الوجوه. والعرب إذا أرادت نفي صفة الحمد عن شيء نفت عنه الكرم. وقال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو بسمين ولا كريم، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة.

ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي أوجبت لهم هذه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدنيا مُتَتَعِّمِينَ، عن ابن عباس. وذلك أن عذاب المترف أشد ألماً. ويَبَيِّنُ سبحانه أن الترف ألهاهم عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار، وكانوا^(١) يتركون الواجبات طلباً لراحة أبدانهم. ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم، عن مجاهد وقتادة. والإصرار: أن يقيم عليه فلا يقلع عنه، ولا يتوب منه. وقيل: الحنث العظيم: الشرك، أي: لا يتوبون عنه، عن الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقيل: كانوا يحلفون لا يبعث الله من يموت، وأن الأصنام أنداد الله، عن الشعبي والأصم. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكِبًا وَعِظَمًا إِنَّا لَبَعُوثُونَ﴾ أي: ينكرون البعث والنشور، والثواب والعقاب، فيقولون مستعدين لذلك منكرين له: إذا خرجنا من كوننا أحياء وصرنا تراباً أنبعث؟ ﴿أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي: أو يبعث آبائنا الذين ماتوا قبلنا ويحشرون؟! إن هذا لبعيد. ومن قرأ: ﴿أَوَءَابَاؤُنَا﴾ بفتح الواو فإنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام. ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمُ الْآلَوْنَ وَالْآخِرِينَ﴾ أي: الذين تَقَدَّمُوكُم من آبائكم وغير آبائكم، والذين يتأخرون عن زمانكم ﴿لَتَجُورُونَ إِلَيَّ يَوْمَ يُعْلَمُ﴾ يجمعهم الله وبيعثهم، ويحشرهم إلى وقت يوم معلوم عنده، وهو يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي أَلْصَّالُونَ﴾ الذين ضللتهم عن طريق الحق، وجزتم عن الهدى، ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، ونبوة نبيه.

(١) في بعض النسخ: فكانوا.

سورة الواقعة

﴿لَاكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ﴾ ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ مُفَسَّر في سورة الصافات. ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ لَحْمِهِ﴾: الشجر: يؤنث ويذكر، فلذلك قال ﴿مِنْهَا﴾ ثم قال ﴿عَلَيْهِ﴾ وكذلك: الشمر: يؤنث ويذكر. ﴿فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ أي: كشرب الهيم، وهي الإبل التي أصابها الهيام: وهو شدة العطش، فلا تزال تشرب الماء حتى تموت، عن ابن عباس، وعكرمة، وقتادة. وقيل: هي الأرض الرملية التي لا تروى بالماء، عن الضحاك، وابن عيينة. ﴿هَذَا نُزْلُهُ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾: النزول: الأمر الذي ينزل عليه صاحبه، والمعنى: هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء في جهنم.



قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٦٠) ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (٦٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ﴾ (٦٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧٢) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَلَعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤).

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «نحن قدرنا» بالتخفيف، والباقون: «قدرنا» بالتشديد. وقرأ أبو بكر: «إنا لمغرمون» بهزتين، والباقون بهمزة واحدة.

● **الحجة:** قال أبو علي: «قدرنا» في معنى «قدرنا»، ويدل عليه قوله:

وَمُفْرِهَةٌ، عَنَسٍ، قَدَرْتُ لِسَاقِهَا، فَحَرْتُ كَمَا تَتَّاعِجُ الرِّيحُ بِالْقَفْلِ^(١)

والمعنى: قدرت ضربي لساقها فضربتها فخرت. ومثله في المعنى:

فَإِنْ تَعْتَذِرَ بِالْمَحَلِّ مِنْ ذِي ضُرُوعِهَا عَلَى الضَّيْفِ، نَجْرُحُ فِي عَرَايِبِهَا نَضْلِي^(٢)

● **اللغة:** يقال أمني يمني، ومنى يمني، بمعنى. ومنه قراءة أبي السماك: «تمنون» بفتح التاء. والأصل من المني وهو التقدير. قال الشاعر:

(١) أفرهت الناقة: إذا كانت تنتج الفره أي: النوق الخفيفات في السير. والعنس: الناقة الصلبة القوية. واتاعج الريح بورق الشجر، فأذهبت به. والقفل: ما ييس من الشجر.

(٢) المحل: الجذب. الكيد. السعاية. العروق: عصب غليظ موتر فوق عقب الإنسان. ومن الدابة في رجلها. ومنزلة الركبة في يدها. والنصل: حديدة السهم، والسيف، والرمح، والسكين. يقول: إن تعذرت للضيف بأن ليس في ضروعها لبن نشق عراييبها بالنصل، ونجرحها.

لَا تَأْمَنُنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ حَتَّى تُتْلَىٰ مَا يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

ومنه: المنية لأنها مقدرة تأتي على مقدار. والحطام: الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، وأصل الحطم: الكسر، والحطم: السواق بعنف، يحطم بعضها على بعض. قال:

قَدْ لَقَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمَ

والنفكة: أصله تناول ضروب الفواكه للأكل، والفكاهة: المزاح، ومنه حديث زيد: كان من أفكه الناس مع أهله، ورجل فكه: طيب النفس. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، وأصل الباب: اللزوم، والغرام: العذاب اللازم. قال الأعشى:

إِنْ يِعَاقِبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطِ جَزِيلًا، فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي
وَالنَّارَ: مأخوذة من النور. قال الحارث:

فَتَنَوَّزْتُ نَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ، بِخَزَازِي، هَنِهَاتٍ مِثْلِكَ الصَّلَاةِ^(١)

والإبراء: إظهار النار بالقدح، يقال: أورى يورى، ووريت بك زنادي أي: أضاء بك أمري. ويقال: قدح فأورى إذا أظهر النار، فإذا لم يور قيل: قدح فأكبي. والمقوي: النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، وأقوت الدار: خلت من أهلها. قال النابغة:

أَقْوَى وَأَقْفَرَ مِنْ نَعْمٍ وَغَيْرِهَا هُوَجُ الرِّيحِ بِهَابِي الثَّرْبِ مَوَارٍ^(٢)
وقال عنترة:

حُيَيْتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَنْهُدُ أَقْوَى، وَأَقْفَرَ، بَعْدَ أُمِّ الْهَيْئِمِ^(٣)

● **المعنى:** ثم احتج سبحانه عليهم في البعث بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: نحن خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك، عن مقاتل. ﴿فَلَوْلَا تَصَدِّقُونَ﴾ أي: فهل لا تصدقون؟ ولم لا تصدقون بالبعث؟ لأن من قدر على الإنشاء والابتداء قدر على الإعادة. ثم تبهم سبحانه على وجه الاستدلال على صحة ما ذكره فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي: ما تقذفون وتصبون في أرحام النساء من النطف فيصير ولداً ﴿أَمْ أَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾، أي: أنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ فإذا لم تقدروا أنتم وأمثالكم على ذلك، فاعلموا أن الله سبحانه الخالق لذلك، وإذا ثبت أنه قادر على خلق الولد من النطفة، وجب أن يكون قادراً على إعادته بعد موته، لأنه ليس بأبعد منه.

(١) تنور النار من بعيد: تبصرها. وخزازی: جبل كانوا يوقدون عليه غداة الغارة. والصلاة: الشواء، والوقود، والعظيم من النار.

(٢) الهوج: جمع الهوجاء، وهي الريح التي لا تستوي في هبوبها، وتقلع البيوت. والهابي: من هب الغبار أي: سطع. وموضع هابي التراب أي: كأن ترابه هباء في الرقة. وتراب هاب أي: منتشر في الجو. وموار: مبالغة من مار الشيء أي: تحرك بسرعة، وجاء، وذهب.

(٣) مر البيت في ج ٣.

ثم بيّن سبحانه أنه كما بدأ الخلق فإنه يهلكهم فقال: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتَ﴾ التقدير: ترتيب الأمر على مقدار. أي: نحن أجرين الموت بين العباد على مقدار كما تقتضيه الحكمة، فمنهم من يموت صبيّاً، ومنهم من يموت شاباً، ومنهم من يموت كهلاً وشيخاً وهرماً، عن مقاتل. وقيل: معناه قدرناه بأن سونا فيه بين المطيع والعاصي، وبين أهل السماء والأرض، عن الضحاك. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قيل: إنه من تمام ما قبله، أي: لا يسبقنا أحد منكم على ما قدرناه من الموت حتى يزيد في مقدار حياته. وقيل: إنه ابتداء كلام يتصل به ما بعده، والمعنى: وما نحن بمغلوبين ﴿عَلَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم، وتقديره: نُبدِّلُكم بأمثالكم، فحذف المفعول الأول، والجار من المفعول الثاني. قال الزجاج: معناه إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا. ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصُّور، أي: إن أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير، لم نُسبق، ولا فاتنا ذلك وتقديره: كما لم نعجز عن تغيير أحوالكم بعد خلقكم، لا نعجز عن أحوالكم بعد موتكم. وقيل: أراد النشأة الثانية أي: ننشئكم فيما لا تعلمون من الهيئة المختلفة، فإن المؤمن يخلق على أحسن هيئة وأجمل صورة، والكافر على أقبح صورة. وقيل: إنما قال ذلك لأنهم علموا حال النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات، وليست الثانية كذلك لأنها تكون في وقت لا يعلمه العباد. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ أي: المرة الأولى من الإنشاء، وهو ابتداء الخلق حين خلقتكم^(١) من نقطة وعلقة ومضغة. ﴿فَلَوْلَا نَذَرُونَ﴾ أي: فهلا تعتبرون وتستدلون بالقدرة عليها، على الثانية؟

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أي: ما تعملون في الأرض، وتلقون فيها من البذر ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: أنتم تنتبونه وتجعلونه زرعاً أم نحن المنبتون؟ فإن من قدر على إنبات الزرع من الحبة الصغيرة، وأن يجعلها حبوباً كثيرة؛ قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقولن أحدكم زرع، وليقل حرث». ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: جعلنا ذلك الزرع ﴿حُطَلَاءً﴾ أي: هشيماً لا يُنتَفَعُ به في مطعم ولا غذاء. وقيل: تبناً لا قمح فيه، عن عطاء ﴿فَظَلَمْتُمْ فَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم، عن عطاء والكلبي ومقاتل. وقيل: معناه تدمون وتأسفون على ما أنفقتم فيه، عن عكرمة وقتادة والحسن. وأصله من التفكه بالحديث وهو التلهي به، فكأنه قال: فظلمتم تتروّحون إلى التندم، كما يتروّج الفكّه إلى الحديث بما يزيل الهم. وقيل: معناه يتلاومون، عن عكرمة، أي: يلوم بعضكم بعضاً على التفريط في طاعة الله. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: تقولون: إنا لمغرمون، والمعنى: إنا قد ذهب مالنا كله، ونفقتنا، وضاع وقتنا ولم نحصل على شيء. وقيل: معناه إنا لمعذبون مجدودون^(٢) عن الحظ، عن مجاهد. وفي رواية أخرى عنه: إنا لمولع بنا. وفي رواية أخرى: إنا لملقون في الشر. وقيل: محارفون، عن قتادة.

ومن قرأ: «إنا» على الاستفهام، حمّله على أنهم يقومون فيقولون منكرين لذلك.

(١) في بعض النسخ: خلقهم.

(٢) وفي سائر النسخ محدودون بالمهملة. وجدّ النخل بالجيم أي: صرّمه وقطعه. وحّد الله عنا الشر أي: كفّه وصرّفه.

ومن قر: «إنا» على الخبر، حملة على أنهم مُخْبِرُونَ بذلك عن أنفسهم. ثم يستدركون فيقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ أي: مبخوسو^(١) الحظ محارفون، ممنوعون من الرزق والخير.

ثم قال سبحانه مُنْبِّهاً على دلالة أخرى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ نعمة منا عليكم، ورحمة بكم، ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْحَا﴾ أي: مرأ شديد المرارة. وقيل: هو الذي اشتدت ملوحته. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون على هذه النعمة السنية التي لا يقدر عليها أحد غير الله.

ثم نبه سبحانه على دلالة أخرى فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تستخرجونها وتقذحونها بزنادكم من الشجر، ﴿ءَأَنْتُمْ أَشْأَأْتُمْ شَجَرَهَا﴾ التي تنقذح النار منها، أي: أنتم أنبتموها وابتدأتموها؟ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ لها؟ فلا يمكن لأحد أن يقول: إنه أنشأ تلك الشجرة غير الله تعالى. والعرب تقذح بالزند والزنده، وهو خشب يحك بعضه ببعض فتخرج منه النار، وفي المثل: في كل شجر نار واستمجد^(٢) المَرْخُ والغفار.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: نحن جعلنا هذه النار تذكرة للنار الأخرى الكبرى، فإذا رآها الرائي ذكر جهنم، واستعاذ بالله منها، عن عكرمة ومجاهد وقتادة. وقيل: معناه تذكرة يتذكر بها ويتفكر فيها، فيعلم أن من قدر عليها وعلى إخراجها من الشجر الرطب قدر على النشأة الثانية. ﴿وَمَتَّعًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجعلناها بلغة ومنفعة للمسافرين، عن ابن عباس والضحاك وقتادة. يعني الذين نزلوا الأرض البقي وهو القفر. وقيل: للمستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين، عن عكرمة ومجاهد. والمعنى أن جميعهم يستضيئون بها من الظلمة، ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز. وعلى هذا فيكون المقوي من الأضداد، فيكون المقوي الذي صار ذا قوة من المال والنعمة. والمقوي أيضاً الذاهب ماله، النازل بالقواء من الأرض، فالمعنى: ومتاعاً للأغنياء وللفقراء.

ولما ذكر سبحانه ما يدل على توحيده وإنعامه على عبده قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: فبرئ الله تعالى مما يقولونه في وصفه، ونزهه عما لا يليق بصفاته. وقيل: معناه: قل: سبحانه ربي العظيم، فقد صح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم».



قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (٨١) ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

(١) وفي نسخة: محبوسو الحظ.

(٢) أي: استكثرا من النار، ومعنى المثل: كأنهما أخذتا من النار ما هو حسبهما. يقال: شَبَّها بمن يكثر العطاء طلباً للمجد، يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

تَكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «بموقع النجوم» بغير ألف، والباقيون: «بمواقع النجوم» على الجمع. وروى بعضهم عن عاصم: «أنكم تكذبون» بالتخفيف، والقراءة المشهورة بالتشديد. وفي الشواذ قراءة الحسن والثقفى: «فلا قسم» بغير ألف. وقراءة علي عليه السلام وابن عباس، ورويت عن النبي ﷺ: «وتجعلون شكركم».

● **الحجة:** قال أبو عبيدة: «فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ» أي: فأقسم، ومواقعها: مساقطها حيث تغيب. وقال غيره: إنه مواقع القرآن حين نزل على النبي ﷺ نجوماً. فأما الجمع في ذلك وإن كان مصدراً، فلاختلاف ذلك، فإن المصادر وسائر أسماء الأجناس إذا اختلفت جاز جمعها. ومن قرأ «بموقع» فأفرد فلأنه اسم جنس، ومن قرأ «تَكْذِبُونَ» فالمعنى: تجعلون رزقكم الذي رزقكموه الله فيما قال: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا» إلى قوله: «رِزْقًا لِلْعِبَادِ». وقال: «وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ» إنكم تَكْذِبُونَ في أن تنسبوا هذا الرزق إلى غير الله تعالى، فتقولون: مطرنا بنوء كذا. فهذا وجه التخفيف.

ومن قرأ «تَكْذِبُونَ» فالمعنى: إنكم تكذبون بالقرآن؛ لأن الله تعالى هو الذي رزقكم ذلك على ما جاء في قوله تعالى: «رِزْقًا لِلْعِبَادِ» فتنسبونه أنتم إلى غيره، فهذا تكذيبكم بما جاء به التنزيل.

وأما ما روي من قوله: «وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» فالمعنى: تجعلون مكان الشكر الذي يجب عليكم التكذيب. وقد يكون المعنى: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف. وقال ابن جني: هو على وتجعلون بدل شكركم، ومثله قول العجاج:

رَبَّنِيئُهُ حَتَّى إِذَا تَمَغَّدَا^(١) كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلَدَا

أي: كان بدل جزائي الجلد بالعصا. وأما قوله: «فَلَا أَقْسِمُ» فالتقدير: لأننا أقسم، وهو فعل الحال يدل على ذلك أن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو حاضر الحال لا وعد الأقسام، كقوله: «وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ»، «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا» ولذلك حملت لا على الزيادة في قوله: «فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ» ونحوه: نعم. ولو أريد به الفعل المستقبل للزمت فيه النون، فقيل: لأقسمن.

● **اللغة:** القسم: جملة من الكلام يؤكد بها الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ. والعظيم: هو الذي يقصر مقدار ما يكون من غيره عما يكون منه، وهو ضربان: عظيم

(١) تَمَغَّدَ الغلام: شَبَّ وغلظ وذهبت عنه رطوبة الصبا.

الشخص، وعظيم الشأن. والكريم: هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير. فلما كان القرآن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بأدلتة المؤدية إلى الحق كان كريماً على حقيقة معنى الكريم، لا على التشبيه بطريق المجاز. والكريم في صفات الله تعالى، من الصفات النفسية التي يجوز أن يقال فيها: لم يزل كريماً، لأن حقيقته تقتضي ذلك، من جهة أن الكريم هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير، فلما كان القادر على الكرم، الذي لا يمنعه مانع، من شأنه أن يعطي الخير الكثير، صح أن يقال: إنه لم يزل كريماً. والمدهن: الذي يجري في الباطن على خلاف الظاهر، كالدهن في سهولة ذلك عليه، والإسراع فيه. يقال: أدهن يدهن، وداهن يداهن، مثل نافق. والدَّين: هو الجزاء، ومنه قولهم: كما تدين تُدان. أي: كما تجزي تجزي، والدَّين: العمل الذي يستحق الجزاء.

● **الإعراب:** ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُومَ﴾ العامل في «إذا» محذوف يدل عليه الفعل الواقع بعد «لولا»، وهو ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ في ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾. وجواب الشرط أيضاً هو مدلول قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ و﴿لَوْلَا﴾ هذه للتحضيض بمعنى: هلا، ولا يقع بعدها إلا الفعل، ويكون التقدير: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم، فلولا إِنْ كُنْتُمْ. فكرر لولا ثانياً لطول الكلام.

● **المعنى:** ثم أكد سبحانه ما تقدم ذكره بقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ و«لا» زائدة، والمعنى: فأقسم، عن سعيد بن جبير. ويجوز أن يكون «لا» رداً لما يقوله الكفار في القرآن، من أنه سحر وشعر وكهانة. ثم استأنف القسم فقال: أَقْسِمُ. وقيل: إِنْ «لا» تزداد في القسم، فيقال: لا والله لا أفعل. وقال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري، لا يدعي القوم أنني أفر

والمعنى: وأبيك. وقيل: إِنْ المعنى لا أقسم على هذه الأشياء، فإن أمرها أظهر وأكد من أن يحتاج فيه إلى اليمين، عن أبي مسلم.

واختلف في معنى مواقع النجوم، فقيل: هي مطالع النجوم ومساقطها، عن مجاهد وقتادة. وقيل: انكدارها وهو انتشارها يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، فيكون المعنى: فلا أقسم بها. وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: إِنْ مواقع النجوم رجومها للشياطين، وكان المشركون يقسمون بها، فقال سبحانه: فلا أقسم بها. وقيل: معناه أقسم بنزول القرآن، فإنه نزل متفرقاً قطعاً نجوماً، عن ابن عباس. ﴿وَلِئَلَّامُ لَقَسْمٌ لِّوَقْلٍ عَلِيمٍ﴾ قال الزجاج، والفراء: وهذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن. والضمير في «إنه» يعود إلى القسم، ودل عليه قوله: أقسم، والمعنى: إِنْ القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون، ففصل بين الصفة والموصوف بالجملة.

ثم ذكر المقسم به فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ معناه: إِنْ الذي تلوناه عليك لقرآن كريم، أي: عام المنافع كثير الخير، يُنال الأجر العظيم بتلاوته والعمل بما فيه. وقيل: كريم عند الله

سورة الواقعة

تعالى، أكرمه الله تعالى وأعزه، لأنه كلامه، عن مقاتل. وقيل: كريم لأنه كلام رب العزة، ولأنه محفوظ عن التغيير والتبديل، ولأنه معجز، ولأنه يشتمل على الأحكام والمواعظ، وكل جليل خطير وعزيز فهو كريم. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: مستور من خلقه عند الله، وهو اللوح المحفوظ، أثبت الله فيه القرآن - عن ابن عباس. وقيل: هو المصحف الذي في أيدينا، عن مجاهد.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ معناه في القول الأول: لا يمسّه إلا الملائكة، الذين وُصفوا بالطهارة من الذنوب، وفي القول الثاني: إلا المطهرون من الشرك، عن ابن عباس. وقيل: المطهرون من الأحداث والجنابات. وقالوا^(١): لا يجوز للجنب، والحائض، والمحدث، مس المصحف، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، وطاوس وعطاء وسالم وهو مذهب مالك والشافعي، فيكون خبراً بمعنى النهي. وعندنا أن الضمير يعود إلى القرآن، فلا يجوز لغير الطاهر مس كتابة القرآن. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ أي: هذا القرآن منزل من عند الله تعالى الذي خلق العباد، ودبرهم على ما أراد على نبيه محمد عليه السلام.

ثم خاطب سبحانه أهل مكة فقال: ﴿أَفَهِذَا آلُيَاسٍ﴾ الذي حدثناكم به، وأخبرناكم فيه عن حوادث الأمور، وهو القرآن، ﴿أَنْتُمْ مُكْذِبُونَ﴾، أي: مكذبون، عن ابن عباس. وقيل: مدهنون: ممالئون للكفار على الكفر به، عن مجاهد. وقيل: منافقون على التصديق به، أي: تقولون: آمنا به وتدهنون فيما بينكم وبين المشركين، إذا خلوتهم فقلتم: إنا معكم. قال مؤرج: هو الذي يلين جانبه ليخفي كفره، وأصله من الدهن. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: وتجعلون حظكم من الخير الذي هو كالرزق لكم أنكم تكذبون به. وقيل: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، عن ابن عباس قال: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره فدعا عليه السلام فسقوا، فسمع رجلاً يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآية. وقيل: معناه وتجعلون حظكم من القرآن الذي رزقكم الله التكذيب به، عن الحسن.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي: فهلاً إذا بلغت النفس الحلقوم عند الموت ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يا أهل الميت ﴿جَنِيذِرٌ نُنْظَرُونَ﴾ أي: ترون تلك الحال، وقد صار إلى أن تخرج نفسه. وقيل: معناه تنظرون لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً. ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ بالعلم والقدرة ﴿وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْكُمْ﴾ ذلك ولا تعلمونه. وقيل: معناه ورسلا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون رسلا القابضين روحه. ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: فهلاً ترجعونها، أي: فهلاً ترجعون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، وتردونها إلى موضعها إن كنتم غير مجزيين بثواب وعقاب، وغير محاسبين. وقيل: غير مدنيين معناه غير مملوكين. وقيل: غير مبعوثين، عن الحسن. والمراد أن الأمر إن كان كما تقولونه من أنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا إله يحاسب ويجازي، فهلاً رددتم الأرواح والنفوس من

خلوقكم إلى أبدانكم إن كنتم صادقين في قولكم، فإذا لم تقدروا على ذلك، فاعلموا أنه من تقدير مُقدِّر حكيم، وتدبير مُدَبِّر عليم.



قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفَرِّينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ۞

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فُروح» بضم الراء، وهو قراءة النبي ﷺ وابن عباس وأبي جعفر الباقر (عليه السلام)، وقتادة والحسن والضحاك وجماعة. والباقون: «فروح» بفتح الراء.

● **الحجة:** قال ابن جني: هو راجع إلى معنى الروح، فكأنه قال: فتمسك روح، وممسكها هو الروح، وكما تقول: هذا الهواء هو الحياة، وهذا السماع هو العيش، وهو الروح.

● **الإعراب:** ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ قال علي بن عيسى: دخلت كاف الخطاب كما تدخل في: ناهيك به شرفاً، وحسبك به كرمًا، أي: لا تطلب زيادة على جلالة حاله، فكذلك «سلام لك» منهم، أي: لا تطلب زيادة على سلامهم، جلالة وعظم منزلة.

قال ابن جني: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: مهما يكن من شيء فسلام لك من أصحاب اليمين، إن كان من أصحاب اليمين، ولا ينبغي أن يكون موضع ﴿إِنْ كَانَ﴾ إلا هذا الموضع، لأنه لو كان موضعه بعد الفاء يليها، لكان قوله: ﴿فَسَلَّمَ لَكَ﴾ جواباً في اللفظ لا في المعنى. ولو كان جواباً له في اللفظ لوجب إدخال الفاء عليه، لأنه لا يجوز في سعة الكلام: إن كان من أصحاب اليمين، سلام له. فلما وجد^(١) الفاء فيه، ثبت أنه ليس بجواب لقوله: ﴿إِنْ كَانَ﴾ في اللفظ، وإذا ثبت أنه ليس بجواب له في اللفظ، ثبت أن موقع ﴿إِنْ كَانَ﴾ بعده، لا قبله.

قال: فإن قيل: إنما بدل الفاء التي تكون جواباً لقوله: ﴿إِنْ كَانَ﴾ لأجل الفاء التي تدخل جواباً لأما، لأنه لا يدخل حرف معنى على مثله. قيل: إنما تدخل الفاء التي لأما عليه؛ لأنه ليس بجواب لقوله: ﴿إِنْ كَانَ﴾ فلو كان جواباً له، لما دخلت عليه هذه الفاء في قوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ﴾ على أن «فاء» أما قد يكون موقعه بعد الفاء لا يليها. وأما، لها موضعان من الكلام.

أحدهما: أن يكون لتفصيل الجمل، نحو قولك: جاءني القوم، فأما زيد فأكرمته، وأما عمرو فأهنته، ومنه ما في الآية.

(١) وفي نسخة هكذا: علما وجد (لم يوجد خ).

سورة الواقعة

والثاني: أن تكون مركبة من «أن» و«ما»، ويكون «ما» عوضاً من «كان»، وذلك قولك: أما أنت منطلقاً انطلقت معك. والمعنى: إن كنت منطلقاً انطلقت معك. فموضع «أن» نصب لأنه مفعول له، وأنشد سيبويه:

أبا خُرَاشَةَ أَمَا أَنتَ ذَا نَفَرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ
أي: من أجل أن كنت. والضبع: السنة الشديدة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه صفات الخلق عند الموت فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: فإن كان ذلك المحتضر الذي بلغت روحه الحلقوم من المقربين عند الله، وهم السابقون الذين ذكروا في أول السورة؛ ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله روح وهو الراحة والاستراحة، عن ابن عباس ومجاهد. يعني من تكاليف الدنيا ومشاقها. وقيل: الروح: الهواء الذي تستلذه النفس ويزيل عنها الهم. ﴿وَرِيحَانٌ﴾ يعني الرزق في الجنة. وقيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنة، يؤتى به عند الموت فيشمه، عن الحسن وأبي العالية وقتادة. وقيل: الروح: الرحمة، والريحان: كل نبأة وشرف. وقيل: الروح: النجاة من النار، والريحان: الدخول في دار القرار. وقيل: روح في القبر وريحان في الجنة. وقيل: روح في القبر، وريحان في القيامة. ﴿وَجَحَنَّتْ نَعِيرٌ﴾ يدخلونها.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: إن كان المتوفى من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: فترى فيهم ما تحب لهم من السلامة من المكاره والخوف. وقيل: معناه فسلام لك أيها الإنسان الذي هو من أصحاب اليمين من عذاب الله، وسلمت عليك ملائكة الله، عن قتادة. قال الفراء: فسلام لك إنك من أصحاب اليمين، فحذف إنك. وقيل: معناه فسلام لك منهم في الجنة لأنهم يكونون معك، ويكون لك بمعنى عليك.

سؤال: يقال: لِمَ يتبرك باليمين؟ والجواب: إن العمل مُيسَّرُ بها، لأن الشمال مُعَسَّرُ العمل بها من نحو الكتابة والأعمال الدقيقة.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والرسول وآيات الله ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى، الذاهبين عن الصواب والحق؛ ﴿فَتَزَلُّ مِنْ حِمِيمٍ﴾ أي: فنزلهم الذي أعد لهم من الطعام والشراب، من حميم جهنم. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال نار عظيمة، كما قال: «وَيُصَلَّى سَعِيرًا» في قراءة من شدد.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: أضاف الحق إلى اليقين وهما واحد للتأكيد. أي: هذا الذي أخبرتك به من منازل هؤلاء الأصناف الثلاثة، هو الحق الذي لا شك فيه، واليقين الذي لا شبهة معه. وقيل: تقديره: حق الأمر اليقين. ﴿سَتَجِدُ بَاسِرَ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزه الله سبحانه عن السوء والشرك وعظمه بحسن الثناء عليه. وقيل: معناه نزه اسمه عما لا يليق به، فلا تضاف إليه صفة نقص أو عملاً قبيحاً. وقيل: معناه قولوا: سبحانه ربي العظيم، العظيم في صفة الله تعالى معناه أن كل شيء سواه يقصر عنه، فإنه القادر العالم الغني، الذي لا يساويه شيء، ولا يخفى عليه شيء، جلَّتْ آلاؤُهُ وتقدَّستْ أسماؤُهُ.

سُورَةُ الْحَدِيدِ

مدنیہ / آیاتہا (۲۹)

- **عدد آيها:** تسع وعشرون آية عراقية، وثمان في الباقين.
- **اختلافها:** آيتان: ﴿مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ كوفي، و﴿أَلَا يُحِصُّ﴾ بصري.
- **فضلها:** أَبِي بِن كَعْب عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ، كَتَبَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ قَالَ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ الْمَسْبُوحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ وَيَقُولَ: «إِنْ فِيهِنَّ آيَةٌ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ». وَرَوَى عَمْرُو بْنُ شَمْرٍ، عَنْ جَابِرِ الْجَعْفِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ الْمَسْبُوحَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَدْرِكَ الْقَائِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنْ مَاتَ كَانَ فِي جِوَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. الْحُسَيْنُ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ وَالْمَجَادِلَةِ، فِي صَلَاةٍ فَرِيضَةٍ أَدْمَنَهَا، لَمْ يَعْذِّبْهُ اللَّهُ حَتَّى يَمُوتَ أَبَدًا، وَلَا يَرَى فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي أَهْلِهِ سُوءًا أَبَدًا، وَلَا خِصَاصَةً فِي بَدَنِهِ.
- **تفسيرها:** لَمَّا خَتَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ بِالتَّسْبِيحِ، افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ بِالتَّسْبِيحِ، وَعَقَّبَهُ بِالذَّلَائِلِ الْمَوْجِبَةِ لِلتَّسْبِيحِ، فَقَالَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَمْ تُمْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَمْ تُمْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُرْلِقُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِلِقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ .

- **المعنى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي: نزهه وأثنى عليه بما هو أهله، وبزأه من كل سوء ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: يعني كل شيء من ذي الروح وغيره، وكل خلق فيهما، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وتحقيقه أن العقلاء يسبحونه قولاً واعتقاداً ولفظاً ومعنى، وما ليس بعقل من سائر الحيوانات والجمادات فتسبيحه ما فيه من الأدلة الدالة على وحدانيته، وعلى الصفات التي باين بها جميع خلقه، وما فيه من الحجج على أنه لا يشبه خلقه، وأن خلقه لا يشبهه، فعبّر سبحانه عن ذلك بالتسبيح. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى «من» كما حكى أبو زيد عن

أهل الحجاز أنهم كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا: «سبحان ما سبحت له»، فيكون واقعاً على العقلاء من الملائكة والجن والإنس. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، الْمُخَيَّمُ لأفعاله، العليم بوجوه الصواب في التدبير ﴿لَكَ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف في جميع ما في السماوات والأرض من الموجودات، بما يشاء من التصرف، وليس لأحد منعه منه، وذلك هو الملك الأعظم، فإن كل ما يملكه من عداه فإنه سبحانه هو الذي ملكه إياه وله منعه منه. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الأموات للبعث، ويميت الأحياء في الدنيا. وقيل: يحيي الأموات بأن يجعل النطفة وهي جماد حيواناً، ويميت الأحياء إذا بلغوا آجالهم التي قدرها لهم. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على المعدومات بإيجادها وإنشائها، وعلى الموجودات بتغييرها وإفنائها، وعلى أفعال العباد ومقدراتهم بالإقدار عليها، وسلبهم القدرة عليها.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ أي: أول الموجودات، وتحقيقه أنه سابق لجميع الموجودات بما لا يتناهى من تقدير الأوقات، لأنه قديم وما عداه محدث. والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهى من تقدير الأوقات. ﴿وَالْآخِرُ﴾ بعد فناء كل شيء، لأنه يفني الأجسام كلها وما فيها من الأعراض ويبقى وحده، ففي هذا دلالة على فناء الأجسام. وقيل: الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، والآخر بعد كل شيء بلا انتهاء، فهو الكائن لم يزل، والباقي لا يزال. ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ وهو الغالب العالي على كل شيء، فكل شيء دونه. ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه، عن ابن عباس. وقيل: الظاهر بالأدلة والشواهد، والباطن الخبير العالم بكل شيء. وقيل: معنى الظاهر والباطن أنه العالم بما ظهر، والعالم بما بطن. وقيل: الظاهر بأدلتها، والباطن من إحساس خلقه.

وقيل: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول ببره إذ هداك، والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته، عن السدي. وقيل: الأول بالخلق والآخر بالرزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، عن ابن عمر. وقيل: هو الذي أول الأول، وآخر الآخر، وأظهر الظاهر، وأبطن الباطن، عن الضحاك. وقيل: الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية، والظاهر بالأحدية، والباطن بالصمدية، عن أبي بكر الوراق. وقيل: إن الواوات مقحمة، والمعنى هو: الأول الآخر الظاهر والباطن، لأن كل من كان منا أولاً، لا يكون آخراً، ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً، عن عبد العزيز بن يحيى. وقيل: هو الأول القديم، والآخر الرحيم، والظاهر الحكيم، والباطن العليم، عن يمان. وقال البلخي: وهو كقول القائل: فلان أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي: عليه يدور الأمر وبه يتم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنه عالم لذاته.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لما في ذلك من اعتبار الملائكة، بظهور شيء بعد شيء من جهته، ولما في الإخبار به من المصلحة للمكلفين، ولولا ذلك لكان يخلقهما في لحظة واحدة، لأنه القادر لذاته. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ المعروف في السماء، وقيل: استوى على الملك. فمن قال: بالأول قال: استواؤه عليه كونه قادراً على خلقه وإفنائها وتصريفه، قال البُيُت:

ثُمَّ اسْتَوَىٰ بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ، مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ، وَدَمٌ مُهْرَاقٍ

وبشر هذا هو بشر بن مروان، ولأه أخوه عبد الملك العراق. وقيل: معناه ثم عمد وقصد إلى خلق العرش، وقد مرَّ بيانه. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم ما يدخل في الأرض ويستقر فيها، ويعلم ما يخرج من الأرض، من سائر أنواع النبات والحيوان والجماد، لا يخفى عليه شيء منها، ﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فَيَهَا﴾ أي: ويعلم ما ينزل من السماء، من مطر وغير ذلك من أنواع ما ينزل منها، ويعلم ما يعرج في السماء من الملائكة، وما يُرْفَعُ إليها من أعمال الخلق. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم.

﴿لَكُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ يوم القيامة. يعني أن جميع من ملكه شيئاً في الدنيا يزول ملكه عنه، وينفرد سبحانه بالملك، كما كان كذلك قبل أن خلق الخلق. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل ما نقص من الليل في النهار، وما نقص من النهار في الليل، أي: حسب ما دبره فيه من مصالح عباده، عن عكرمة وإبراهيم. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: هو عالم بأسرار خلقه، وما يخفونه من الضمائر والاعتقادات، والإرادات والكرامات، والعزائم في قلوبهم، لا يخفى عليه شيء منها، وفي هذا تحذير من المعاصي.



قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْلُغُ بِهَا لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِزُتُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

● القراءة: قرأ أبو عمرو وحده: «وقد أخذ» بضم الهمزة، «ميثاقكم» بالرفع، والباقون: «أخذ» بفتح الهمزة، «ميثاقكم» بالنصب. وقرأ ابن عامر: «كل وعد الله الحسنى» بالرفع، والباقون: «كلًا» بالنصب.

● الحجة: قال أبو علي: حجة من قرأ «وقد أخذ» أنه قد تقدم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، والضمير يعود إلى اسم الله تعالى. وحجة من قرأ «وقد أخذ» أنه على هذا المعنى، وأنه قد عرف أخذ الميثاق، وأن الله قد أخذه. وحجة النصب في «كلًا وعد الله الحسنى» بين؛ لأنه

بمنزلة زيداً وعدت خيراً. وحجة ابن عامر أن الفعل إذا تقدم عليه مفعوله، لم يثو عمله في قوته إذا تأخر. ألا ترى أنهم قالوا في الشعر^(١): زيد ضربت. ولو تأخر المفعول فوق بعد الفاعل لم يجز ذلك فيه، ومما جاء من ذلك في الشعر قوله:

قَدْ أَضْبَحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدْعِي عَالِي ذَنْباً كُلَّهُ لَمْ أَضْنَعِ

فَرَوُّهُ بالرفع لتقدمه على الفعل، وإن لم يكن شيء يمنع من تسلط الفعل عليه، فكذاك قوله: «وكلُّ وعد الله الحسنی» يكون على إرادة الهاء وحذفها، كما يحذف من الصفات والصلات.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المكلفين فقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ معاشر العقلاء، أي: صدّقوا الله، وأقروا بوحانيته وإخلاص العبادة له ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وصدّقوا رسوله واعترفوا بنبوته، ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في طاعة الله والوجه التي أمركم بالإنفاق فيها. ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ أي: من المال الذي استخلفكم الله فيه، بوراثتكم إياه عن قبلكم، عن الحسن. وثبّه سبحانه بهذا على أن ما في أيدينا بصير لغيرنا، كما صار إلينا ممن قبلنا، وحثنا على استيفاء الحظ منه قبل أن يصير^(٢) لغيرنا. ثم بيّن سبحانه ما يكافيه على ذلك إذا فعلوه فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في سبيله ﴿هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: جزاء وثواب عظيم دائم، لا يشوبه كدر ولا تنغيص، ثم وبّخهم سبحانه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله مع وضوح الدلائل على وحدانيته، ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى ما ركب الله في عقولهم من معرفة الصانع وصفاته ﴿لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وقد أخذ مشفقكم بما أودع الله قلوبكم من دلالات العقل، الموصلة إلى الإيمان به، فإن الميثاق هو الأمر المؤكد الذي يجب العمل به. ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مُّصَدِّقِينَ بحق، فالآن فقد ظهرت أعلامه، ووضحت براهينه، والمعنى: أي: عذر لكم في ترك الإيمان، وقد ازاخت^(٣) العلل وارتفعت الشبه، ولزمتكم الحجج العقلية والسمعية. فالعقلية: ما في فطرة العقول، والسمعية: دعوة الرسول المؤيدة بالأدلة المؤدية إلى المدلول، والذي يبين هذا قوله:

﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ أي: حججاً منيرة وبراهين واضحة؛ ﴿لِيُخْرِجَكُمُ﴾ الله بالقرآن والأدلة. وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة. وقيل: ليخرجكم المنزل. والأول أوجه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان، وبالتوفيق والهداية والألطف والأدلة. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث بعث الرسول، ونصب الأدلة. والرأفة والرحمة واحد، وإنما جمع بينهما للتأكيد. وقيل: الرأفة: النعمة على المضرور، والرحمة: النعمة على المحتاج. وفي هذا دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر، فإنه يبيّن أن الغرض في إنزال القرآن الإيمان به.

(١) ليس في بعض النسخ لفظة: «في الشعر».

(٢) في نسختين: «وقد انزاخت».

(٣) في نسخة: «يصير الأمر لغيرنا».

ثم حثهم سبحانه على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يُقَرَّب إلى الله تعالى؟ ﴿وَاللَّهُ يَبْزُقُ الْمُنْفِقِينَ﴾ يعني: يفني الخلق ويبقى هو، والمعنى فيه: إن الدنيا وأموالها ترجع إلى الله، فلا يبقى لأحد فيها ملك ولا أمر، كما يرجع الميراث إلى مستحقه، فاستوفوا حظكم من أموالكم قبل أن تخرج من أيديكم.

ثم بيّن سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أُولَئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ﴾ بين سبحانه أن الإنفاق قبل فتح مكة، إذا انضم إليه الجهاد، أكثر ثواباً عند الله من النفقة والجهاد بعد ذلك. وذلك أن القتال قبل الفتح كان أشد، والحاجة إلى النفقة وإلى الجهاد كان أكثر وأمرس. وفي الكلام حذف تقديره: لا يستوي هؤلاء مع الذين أنفقوا بعد الفتح، فحذف لدلالة الكلام عليه. وقال الشعبي: أراد فتح الحديبية. ثم سَوَّى سبحانه بين الجميع في الوعد بالخير والثواب في الجنة، فقال: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: الجنة والثواب فيها، وإن تفاضلوا في مقادير ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من إنفاقكم وجهادكم، فيجازيكم بحسب نياتكم وبصائرهم، وإخلاصكم في سرائركم.



قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١)
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لَئِذَا رَأَيْنَا أَنْظَرُونَا نَقْلِسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) قَالُوا لَمْ يَأْخُذْ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسْ أَلْمِصِيرُ (١٥)

● **القراءة:** القراءة^(١) في: «فيضاعفه» والاختلاف فيه، قد مضى ذكره في سورة البقرة. وقرأ حمزة: «أنظرونا» بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء، والباقون: «انظرونا» بهمزة الوصل وضم الظاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «لا تؤخذ منكم» بالتاء، والباقون بالياء. وفي الشواذ قراءة سهل بن شعيب: «وبإيمانهم» بكسر الهمزة. وقراءة سماك بن حرب: «وغركم بالله الغرور» بضم الغين.

● **الحجة:** قال أبو علي: النظر: هو قلب العين إلى الجهة التي فيها المرئي، والمراد رؤيته^(١). ومما يدل على ذلك قوله:

فيا مَيَّ هل يُجْزَى بُكَايِي بِمِثْلِهِ مِرَاراً، وَأَنْفَاسِي إِلَيْكَ الزَّوْفَرُ
وَإِنِّي مَتَى أَشْرِفُ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي بِهِ أَنْتَ مِنْ بَيْنِ الْجَوَانِبِ نَاطِرُ
فلو كان النظر الرؤية، لم يطلب عليه الجزاء، لأن المحب لا يستثيب من النظر إلى محبوبه شيئاً، بل يريد ذلك ويتمناه، ويدل على ذلك قول الآخر:

وَنَظْرَةُ ذِي شَجَرٍ وَامِقٍ إِذَا مَا الرُّكَّابُ جَاوَزْنَ مِيلَا

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْكَمَةِ﴾ فالمعنى أنه سبحانه لا ينيلهم رحمته. وقد تقول: نظر إلي فلان إذا كان ينيلك شيئاً. ويقول القائل: انظر إليّ نظر الله إليك، يريد: أنلني خيراً أنالك الله. ونظرت فعل يستعمل وما تصرف منه على ضروب:

أحدها: أن تريد به: نظرت إلى الشيء، فتحذف الجار وتوصل الفعل، ومن ذلك ما أنشده أبو الحسن:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ، وَالْحُسْنِ، يَنْظُرُ نَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكُ الظُّبَاءُ

والمعنى: ينظرون إلى الأراك، فحذف الجار.

والآخر: أن تريد به: تأملت وتدبّرت، وهو فعل غير متعد، فمن ذلك قولهم: اذهب فانظر زيدا أبو من هو؟ فهذا يراد به التأمل. ومن ذلك قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرُبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ و﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. وقد يتعدى هذا بالجار كقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فهذا حضّ على التأمل، وقد يتعدى هذا بفي نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فأما قول امرئ القيس:

فَلَمَّا بَدَا حَوْرَانُ، وَالْأَلْ دَوْنَهُ^(٢)، نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بَعَيْنِكَ مَنْظَرًا

فيجوز أن يكون نظرت^(٣) فلم تر بعينك منظراً إلى الآل^(٤). وقد جوز أن يعني بالنظر الرؤية على الاتساع، لأن قلب البصر نحو المبصر تتبعه الرؤية. وقد يجري على الشيء لفظ ما يتبعه ويقترب به، كقولهم للمزادة راوية وللغناء: عُذْرَةٌ^(٥)، وقد يكون: نظرت فلم تنظر مثل تكلمت

(١) أي: مقصود الناظر رؤيته في تلك الجهة من بين الجوانب أي: يقلب الحدة.

(٢) حوران: موضع بالشام. والآل: هو الذي تراه في أول النهار وآخره، كأنه يرفع الشخص. وقيل: هو والسراب واحد.

(٣) في نسخة: بمعنى نظرت.

(٤) في نسخة منظراً تعرف به الآل، وفي أخرى تعرفه في الآل.

(٥) العذرة: فناء الدار سميت بذلك، لأن العذرة كانت تلقى في الأفنية. وفي أصل النسخة، (ط صيدا) للقناة غدرة والقناة: الجانب يفيء عليه الفيء. والغدرة: الليلة المظلمة، ولا يبعد صحته أيضاً.

ولم تتكلم، أي: لم تأت بكلام على حسب ما يراد، فكذلك نظرت فلم تنظر بعينك منظرًا كما تريد، أو لم تر منظرًا يروق.

وضرب آخر من نظرت هو أن تريد به انتظرت، من ذلك قوله: ﴿عَبْرَ نَظِيرَيْنِ إِنَّهُ﴾. ومثله قول الفرزدق:

نظرتُ كما انتظرتُ الله حتى كفاكَ الماحِلينَ لك المَحالاً^(١)
يريد انتظرتُ كما انتظرتُ.

وقد يكون انتظرتُ في معنى انتظرتُ، تطلب بقولك: أنظرني التنفيس الذي يطلب بالانتظار، فمن ذلك قوله:

أبا هِنْدٍ فلا تعجلْ علينا وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقِينا

ومن ذلك قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إنما هو طلب الإمهال والتسويق، فالمطلوب بقوله: «وأنظرنا نخبرك اليقين» تنفيس، وفي قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ تسويق وتأخير، وكذلك ما جاء في الحديث من إنظار المعسر، وكذلك قوله: ﴿أَنْظِرُونَا نَقْتَسِبَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: نفسونا نقتبس، وانتظروا علينا، وليس تسرع من تسرع إلى تخطئة من قال: «أنظرونا» بشيء، ولا ينبغي أن يقال فيما لطف إنه خطأ.

وقوله: «فاليوم لا تؤخذ منكم فدية» حسن التاء لتأنيث الفاعل، ويحسن الياء للفصل الواقع بين الفعل والفاعل، ولأن التأنيث غير حقيقي. وأما قوله: ﴿وَبِأَيْدِيهِمْ﴾ فقد قال ابن جني: هو معطوف على قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ويكون الظرف الذي هو ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه الحال، فيتعلق بمحذوف، أي: يسعى كائناً بين أيديهم. وإذا كان كذلك جاز أن يعطف عليه الباء وما جرته، أي: كائناً بأيامانهم كقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾. وقوله: ﴿الْعُرُورُ﴾ معناه الاغترار، وهو مقدر على حذف المضاف، أي: وغركم بالله سلامة الاغترار، أي: سلامتكم مع اغتراركم، وقال الزجاج: الغرور: كل ما غر من متاع الدنيا.

● **اللغة:** القرض: ما تعطيه غيرك ليقضيه، وأصله القطع، فهو قطعه عن مالكة بإذنه على ضمان رد مثله. والعرب تقول: لي عندك قرض صدق، وقرض سوء، إذا فعل به خيراً أو شراً، قال الشاعر:

ويقضي^(٢) سُلامانُ بنُ مفرجٍ قَرَضَها بما قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلْتُ

والمضاعفة: الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله. والاقتباس: أخذ النار، ويقال: قبسته ناراً، واقتبسته علماً. والتريص: الترقب والانتظار.

● **الإعراب:** ﴿مَنْ ذَا﴾ قال الفراء: ذا صلة لـ «مَنْ». قال: ورأيتها في مصحف عبد الله

(١) محل به إلى السلطان: كاده بسعاية إليه.

(٢) وفي ثلاث نسخ: ويجزي.

سورة الحديد

«منذ الذي» والنون موصولة بالذال، والذي^(١). قيل: إن المعنى: من هذا الذي؟ و«من» في موضع رفع بالابتداء، و«الَّذِي» خبره على القول الأول. وعلى القول الثاني يكون «ذَا» مبتدأ و«الَّذِي» خبره، والجملة خبر «من». كذا ذكره ابن فضال. وأقول: إن الصحيح أن يكون «ذَا» مبتدأ و«الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ»، صفته. و«من» خبر المبتدأ قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام. «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ» يتعلق بقوله: «وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ» و«يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ» يتعلق بقوله: «هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ويجوز أن يكون التقدير: واذكر يوم يقول، ويجوز أن يكون بدلاً من «يَوْمَ تَرَى». «لَمْ يَأْتِ» في موضع جر صفة لـ «سُور». «يَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ» صفة لـ «باب».

● **المعنى:** ثم حث سبحانه على الإنفاق فقال: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» أي: طيبة به نفسه، عن مقاتل. وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة. «يُضَاعَفُ لَهُ» أي: يضاعف له الجزء من بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة. وقال أهل التحقيق: القرض الحسن أن يجمع عشرة أوصاف، أن يكون من الحلال، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طِيبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ». وأن يكون من أكرم ما يملكه، دون أن يقصد الرديء بالإنفاق، لقوله: «وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ»، وأن يتصدق وهو يحب المال ويرجو الحياة، لقوله لما سئل عن^(٢) الصدقة: «أفضل الصدقة أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت النفس التراقي، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا». وأن يضعه في الأخل الأحوج الأولى بأخذه، ولذلك خصَّ الله أقواماً بأخذ الصدقات، وهم أهل السهمان. وأن يكتبه ما أمكن لقوله: «وَلَنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»، وألا يتبعه المن والأذى لقوله: «لَا تُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى»، وأن يقصد به وجه الله ولا يراني بذلك، لأن الرياء مذموم. وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر لأن متاع الدنيا قليل. وأن يكون من أحب ماله إليه لقوله: «أَنْ تَأْكُلُوا أَيْلًا حَتَّى تُفْنِقُوا مِمَّا حُبُّونَ». فهذه الأوصاف العشرة إذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضاً حسناً. «وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ» أي: جزاء خالص لا يشوبه صفة نقص، فالكريم: الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير، فلما كان ذلك الأجر يعطي النفع العظيم وصف بالكريم، والأجر الكريم هو الجنة.

«يَوْمَ تَرَى» يا محمد «الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ» على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة، ويريد بالنور الضياء الذي يروونه ويمرون فيه، عن قتادة. وقيل: نورهم: هديهم، عن الضحاك. وقال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه. وقال عبد الله بن مسعود: ويؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه، يطفأ مرة ويقد أخرى. وقال الضحاك: وبأيمانهم يعني: كتبهم التي أعطوها، ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: «يُسْرِكُمْ إِلَيْمَ جَنَّتْ» أي: الذي تبشرون به اليوم جنات «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» أي: مؤبدين دائمين لا تفنون. «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أي: الظفر المطلوب.

ثم ذكر حال المنافقين في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا﴾ ﴿أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. قال الكلبي: يستضيء المنافقون بنور المؤمنين، ولا يعطون النور. فإذا سبقهم المؤمنون قالوا: انظرونا نقتبس من نوركم، أي: نستضيء بنوركم ونبصر الطريق فتتخلص من هذه الظلمات. وقيل: إنهم إذا خرجوا من قبورهم اختلطوا، فيسعى المنافقون في نور المؤمنين، فإذا مُيزوا^(١) بقوا في الظلمة، فيستغيثون ويقولون هذا القول. ﴿قِيلَ﴾ أي: فيقال للمنافقين ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى المحشر حيث أعطينا النور ﴿فَالْتَسُوا نُورًا﴾. فيرجعون فلا يجدون نوراً، عن ابن عباس. وذلك أنه قال: تغشى الجميع ظلمة شديدة، ثم يقسم النور ويعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق. وقيل: معنى قوله: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ ارجعوا إلى الدنيا إن أمكنكم فاطلبوا النور منها، فإننا حملنا النور منها بالإيمان والطاعات، وعند ذلك يقول المؤمنون: «ربنا أتمم لنا نورنا».

﴿فَضَرَبَ لَهُمْ سُورًا﴾ أي: ضرب بين المؤمنين والمنافقين سور، والباء مزيدة، لأن المعنى. حيل بينهم وبينهم بسور، وهو حائط بين الجنة والنار، عن قتادة. وقيل: هو سور على الحقيقة ﴿لَمْ يَأْبَ﴾ أي: لذلك السور باب، ﴿بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ﴾ أي: من قبل ذلك الظاهر ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو النار. وقيل: باطنه، أي: باطن ذلك السور فيه الرحمة، أي: الجنة التي فيها المؤمنون، وظاهره، أي: وخارج السور من قبله يأتيهم العذاب. يعني أن المؤمنين يسبقونهم ويدخلون الجنة، والمنافقون يجعلون في النار والعذاب، وبينهم السور الذي ذكره الله.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نصوم ونصلي كما تصومون وتصلون، ونعمل كما تعملون؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي: يقول المؤمنون لهم: بلى كنتم معنا، وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الكفر والنفاق، وكلها فتنة. وقيل: معناه تعرضتم للفتنة بالكفر والرجوع عن الإسلام، وقيل معناه: أهلكتم أنفسكم بالنفاق. ﴿وَرَزَقْتُمْ﴾ بمحمد ﷺ الموت، وقتلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه، عن مقاتل. وقيل: تربصتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتهم في الدين ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأُمَاقُ﴾ التي تمنيتموها بأن تعود الدوائر من المؤمنين؛ ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الموت. وقيل: إلقاؤهم في النار، عن قتادة. وقيل: جاء أمر الله في نصرته دينه ونبيه وغلبته إياكم. ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ يعني: الشيطان غركم بحلم الله وإمهاله. وقيل: الغرور الدنيا. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُكُمْ فِتْنَةً﴾ أيها المنافقون، أي: بدل بأن تفدوا أنفسكم من العذاب ﴿وَلَا يَنْزِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ولا من سائر الكفار الذين أظهروا الكفر. ﴿مَأْوَانَكُمْ النَّارُ﴾ أي: مقركم وموضعكم الذين تأوون إليه النار ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب. والمعنى: إنها هي التي تلي عليكم، لأنها قد ملكت أمركم، فهي أولى بكم من كل شيء. ﴿وَيُشَرُّ الْمَصِيرَ﴾ أي: بشس المأوى والمرجع الذي تصيرون إليه.



قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وحفص «ما نزل من الحق» خفيفة الزاي، والباقون: «نزل» بالتشديد. وقرأ رويس: «ولا تكونوا» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر: «إن المصدقين والمصدقات» بتخفيف الصاد، والباقون بالتشديد.

● **الحجة:** قال أبو علي: من خَفَّفَ «ما نزل» ففي «نزل» ذكر مرفوع بأنه الفاعل يعود إلى الموصول. ويقوي التخفيف قوله: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾. ومن شَدَّدَ ففاعل الفعل الضمير العائد إلى اسم الله تعالى، والعائد إلى الموصول الضمير المحذوف من الصلة. ومن قرأ: «ولا تكونوا» فإنه على الخطاب والنهي. ومن قرأ: «ولا يكونوا» بالياء فإنه عطف على ﴿تَخْشَعُ﴾ وهو منصوب. ويجوز أن يكون مجزوماً على النهي للغائب.

ومن خفف «المصدقين والمصدقات» فإن معناه: إن المؤمنين والمؤمنات. وأما قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فهو في المعنى كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة. وحجة من خَفَّفَ أنه أعم من «المصدقين»، ألا ترى أن «المصدقين» مقصور على الصدقة، و«المصدقين» يعم التصديق والصدقة، فهو أذهب في باب المدح.

ومن حجة من ثَقَّلَ أنهم زعموا أن في قراءة أبي: «إن المتصدقين والمتصدقات» ومن حجتهم أن قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ اعتراض بين الخبر والمخبر عنه، والاعتراض بمنزلة الصفة، فهو للصدقة أشد ملازمة منه للتصديق، وليس التخفيف كذلك.

ومن حجة من خَفَّفَ أن يقول: لا تحمل قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ على الاعتراض، ولكننا نعطفه على المعنى، ألا ترى أن قوله: ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ معناه: إن الذين صدقوا. فكانه في المعنى: إن المصدقين وأقرضوا، فحمل وأقرضوا الله على المعنى لما كان من معنى المصدقين الذين صدقوا، فكانه قال: إن الذين صدقوا وأقرضوا.

● **اللغة:** يقال: أنى يأتي أنى: إذا حان. والخشوع: لين القلب للحق والانقياد له، ومثله الخضوع، والحق: ما دعا إليه العقل، وهو الذي من عمل به نجا، ومن عمل بخلافه هلك. والحق: مطلوب كل عاقل في نظره وإن أخطأ طريقه. والقسوة: غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحق. والأمد: الوقت الممتد، وهو والمدة واحد. والهيح: جفاف النبت.

● **النزول:** قيل إن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَمَنِ الْفَوَائِدُ﴾. فخبّرهم أن هذا القرآن أحسن القصص، وأنفع لهم من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزلت آية ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ كَذِبًا﴾. فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان، فنزلت هذه الآية، عن الكلبي ومقاتل.

وقيل: نزلت بالمؤمنين، قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً.

وقيل: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن بهذه الآية، عن ابن عباس.

وقيل: كانت الصحابة بمكة مجذبيين. فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، فتغيروا عما كانوا عليه فقس قلوبهم، والواجب أن يزدادوا الإيمان واليقين والإخلاص في طول صحبة الكتاب، عن محمد بن كعب.

● **المعنى:** ثم دعاهم سبحانه إلى الطاعة بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: أما حان للمؤمنين ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ؟﴾ أي: ترق وتلين قلوبهم ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لما يذكرهم الله به من مواعظه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن. ومن شدّد فالمراد: وما نزله الله من الحق ﴿يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: طال الزمان بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: طال عليهم الأمد للجزاء، أي: لم يعاجلوا بالجزاء فاغثروا بذلك. ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فغلظت قلوبهم، وزال خشوعها، ومرنوا على المعاصي واعتادوها، وقيل: طالت أعمارهم وساءت أعمالهم فقس قلوبهم. وينبغي أن يكون هذا متوجهاً إلى جماعة مخصوصة لم يوجد منهم الخشوع التام، فحثوا على الرقة والخشوع. فأما من وصفهم الله تعالى بالخشوع والرقة والرحمة فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء، عن الزجاج. ومن كلام عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد. والناس رجلان: مبتلى، ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقُوتُوا﴾ أي: خارجون عن طاعة الله تعالى إلى معصيته، أي: فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم.

ثم قال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحييها بالنبات بعد اليبس والجدوبة، أي: فكذاك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان، بعد موته بالضلال والكفر، بأن

يلطف له ما يؤمن عنده. وقيل: معناه^(١) أن الله يُلَيِّن القلوب بعد قسوتها بالالطاف والتوفيقات. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: الحجج الواضحات، والدلائل الباهرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فترجون إلى طاعتنا، وتعملون بما أمرناكم به.

﴿إِنَّ الْمَصْدَقِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ﴾ قد مضى الوجه في اختلاف القراءتين ومعناهما. ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأنفقوا في وجوه الخير ﴿يُضَعَّفُ لَهُمْ﴾ ذلك القرض الحسن، أي: يجازون أمثال ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرَّ معناه. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: صدَّقوا بتوحيد الله وأقروا بنبوة رسله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق شهيد. وقرأ هذه الآية. والصديق: الكثير الصدق المبالغ فيه، وهو اسم مدح وتعظيم. ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك الشهداء عند ربهم، والتقدير: أولئك الصديقون عند ربهم، والشهداء عند ربهم. ثم قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم ثواب طاعاتهم، ونور إيمانهم الذين يهتدون به إلى طريق الجنة. وهذا قول عبد الله بن مسعود، ورواه البراء بن عازب عن النبي ﷺ.

وروى العياشي بالإسناد عن منهال القصاب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: إن المؤمن شهيد، وقرأ هذه الآية. وعن الحرث بن المغيرة قال: كنا عند أبي جعفر عليه السلام فقال: العارف منكم هذا الأمر، المنتظر له، المحتسب فيه الخير، كمن جاهد^(٢) والله مع قائم آل محمد عليه السلام بسيفه، ثم قال: بل والله كمن جاهد مع رسول الله ﷺ بسيفه. ثم قال الثالثة: بل والله كمن استشهد مع رسول الله ﷺ في فسطاطه، وفيكم آية من كتاب الله. قلت: وأي آية جعلت فداك؟ قال: قول الله «عز وجل»: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. ثم قال: صرتم والله صادقين شهداء عند ربكم. وقيل: إن الشهداء منفصل مما قبله مستأنف، والمراد بالشهداء الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون للأمم وعليهم، وهو قول ابن عباس ومسروق ومقاتل بن حيان، واختاره الفراء والزجاج. وقيل: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، عن مقاتل بن سليمان وابن جرير.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يبقون فيها دائمين.

ثم زهد سبحانه المؤمنين في الدنيا والركون إلى لذاتها فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني أن الحياة في هذه الدار الدنيا ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: بمنزلة اللهو واللعب. إذ لا بقاء لذلك ولا دوام، ويزول عن وشيك كما يزول اللهو واللعب، قال مجاهد: كل لعب للهو. وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة. ﴿وَزِينَةٌ﴾ تزينون بها في الدنيا. وقيل: أراد بذلك أنها تتحلى في أعين أهلها، ثم تلاشى. ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفاخر الرجل بها قرينه وجاره، عن ابن عباس. ﴿وَتُكَاثِرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال: يجمع ما لا يحل له تكاثراً به، ويتناول على أولياء الله لماله، وولده، وخدمه، والمعنى: إنه يفني عمره في هذه الأشياء. ثم

يَبْنِ سَبْحَانَهُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ شَبْهًا فَقَالَ: ﴿كَثَلِيَ غَيْثٌ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ الْكَفَّارَ نَبَأُهُ﴾ أي: أعجب الزَّعَّاعُ ما يَنْبَتُ مِنْ ذَاكَ الْغَيْثِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْكَفَّارَ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِالدُّنْيَا مِنْ غَيْرِهِ. ﴿ثُمَّ يَهْجِجُ﴾ أي: يَبْسُ ﴿فَكَرَّهَتْهُ مُصَفَّرًا﴾ وَهُوَ إِذَا قَارَبَ الْيَسَّ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ يَتَحَطَّمُ وَيَتَكَسَّرُ بَعْدَ يَبْسِهِ. وَشَرَحَ هَذَا الْمَثَلُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ يُونُسَ. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ، عَنْ مِقَاتِلٍ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لِمَنْ اغْتَرَبَ بِهَا وَلَمْ يَعْمَلْ لِآخِرَتِهِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: مَتَاعُ الْغُرُورِ لِمَنْ لَمْ يَشْتَغَلْ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِهَا فَهِيَ لَهُ مَتَاعٌ بَلَاحٌ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: وَالْعَمَلُ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، وَأَنَّهُ كَهَذَا الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِثْلُهَا فِي الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ.



قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥).

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: «بما آتاكم» مقصوراً، والباقون بالمد. وقرأ أهل المدينة والشام: «فإن الله الغني الحميد» لأنهم وجدوا في مصاحفهم كذلك، والباقون: «فإن الله هو الغني» بإثبات «هو» وكذلك هو في مصاحفهم.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قصر «آتاكم» أنه معادل به «فاتكم»، فكما أن الفعل للفائت في قوله: «فاتكم» فكذلك^(١) للآتي في قوله: «بما آتاكم» قال الشاعر:

ولا فَرِحَ بِخَيْرٍ إِنْ أَتَاهُ، وَلَا جَزَعَ مِنَ الْحَدَثَانِ لَاعٍ^(٢)

وحجة من مدَّ أن الخير الذي يأتيهم هو من عند الله، وهو المعطي لذلك، وفاعل «آتاكم» هو الضمير العائد إلى اسم الله، والهاء محذوفة من الصلة، تقديره: بما آتاكموه. وقوله: «إن الله هو الغني الحميد» ينبغي أن يكون «هو» فصلاً، ولا يكون مبتدأ، لأن الفصل حذفه أسهل. ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب، وقد يحذف فلا يخلُ بالمعنى.

(٢) اللاعي: من يفزع من أدنى شيء.

(١) في نسخة: فكذلك يكون الفعل.

سورة الحديد

● **اللغة:** أعدت: مشتقة من العدد، والإعداد: وضع الشيء لما يكون في المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الذي له. الفضل والإفضال والتفضل واحد، وهو النفع الذي كان للقادِر أن يفعله بغيره، وله ألا يفعله. والأسى: الحزن، والتآسى: تخفيف الحزن بالمشاركة في حاله.

● **الإعراب:** ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يتعلق بمحذوف تقديره: إلا هي كائنة في كتاب، فهو في محل الرفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يتعلق بفعل محذوف تقديره: إلا قد كتبت في كتاب، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، أي: إلا مكتوبة. ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾: ﴿تَأْسَوْا﴾ منصوب بنفس كي، واللام هي اللام الجارة. ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ في موضع جر على البدل من ﴿مُخَالٍ فَخُورٍ﴾، فعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿فَخُورٍ﴾ ويجوز أن يكون محله رفعاً على الابتداء، ويكون خبره محذوفاً كما حذف جواب «لو» من قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾. ويكون التقدير: الذين يبخلون فإنهم يستحقون العذاب. ويجوز أن يكون محله رفعاً أو نصباً على الذم.

● **المعنى:** ثم رغب سبحانه في المسابقة لطلب الجنة، فقال: ﴿سَابِقُوا﴾ أي: بادروا العوارض القاطعة عن الأعمال الصالحة، وسارعوا إلى ما يوجب الفوز في الآخرة ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال الكلبي: إلى التوبة. وقيل: إلى الصف الأول. وقيل: إلى النبي ﷺ. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وسابقوا إلى استحقاق ثواب جنة هذه صفتها وذكر في ذكر العرض دون الطول وجوه:

أحدها: إن عظم العرض يدل على عظم الطول.

والآخر: إن الطول قد يكون بلا عرض، ولا يكون عرض بلا طول.

وثالثها: إن المراد به أن العرض مثل السماوات والأرض، وطولها لا يعلمه إلا الله تعالى. قال الحسن: إن الله يفني الجنة ثم يعيدها على ما وصفه، فلذلك صح وصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض. وقال غيره إن الله قال: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والجنة المخلوقة في السماء السابعة، فلا تنافي.

﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: أذخرت وهئيت للمؤمنين ﴿بِإِلَهِهِمْ وَرُسُلِهِمْ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ معناه أنه يجزي الدائم الباقي على القليل الفاني، ولو اقتصر على الجزاء على قدر ما يستحق بالأعمال، كان عدلاً منه، لكنه تفضل بالزيادة. وقيل: معناه أن أحداً لا ينال خيراً في الدنيا والآخرة إلا بفضل الله، فإنه سبحانه لو لم يدعنا إلى الطاعة، ولم يبين لنا الطريق، ولم يوفقنا للعمل الصالح، لما اهتدينا إليه، وذلك كله من فضل الله. وأيضاً فإنه سبحانه تفضل بالأسباب التي يفعل بها الطاعة، من التمكين والألطف وكمال العقل، وعرض المكلف للثواب. فالتكليف أيضاً تفضل وهو السبب الموصل إلى الثواب. وقال أبو القاسم البلخي والبغداديون من أهل العدل: إن الله سبحانه وتعالى، لو اقتصر لعباده في طاعتهم على مجرد إحساناته السالفة إليهم، لكان عدلاً، فلهذا جعل سبحانه الثواب والجنة فضلاً، وفي هذه الآية أعظم رجاء لأهل

الإيمان، لأنه ذكر أن الجنة معدة للمؤمنين، ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: ذو الإفضال العظيم، والإحسان الجسيم إلى عباده.

ثم قال ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ مثل قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمرات ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والشكل بالأولاد، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا وهو مثبت مذكور في اللوح المحفوظ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن يخلق الأنفس. المعنى: إنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الأنفس، ليستدل ملائكته به على أنه عالم لذاته، يعلم الأشياء بحقائقها. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هين على الله، يسير سهل غير عسير.

ثم بين سبحانه لم فعل ذلك فقال: ﴿لِيَكُنْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: فعلنا ذلك لئلا تحزنوا على ما يفوتكم من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: بما أعطاكم الله منها، والذي يوجب نفي الأسى والفرح من هذا، أن الإنسان إذا علم أن ما فات منها ضمن الله تعالى عليه العوض^(١) في الآخرة، فلا ينبغي أن يحزن لذلك، وإذا علم أن ما ناله منها كلف الشكر عليه، والحقوق الواجبة فيه، فلا ينبغي أن يفرح به. وأيضاً فإذا علم أن شيئاً منها لا يبقى فلا ينبغي أن يهتم له، بل يجب أن يهتم لأمر الآخرة التي تدوم ولا تبيد.

وفي هذه الآية إشارة إلى أربعة أشياء:

الأول: حسن الخلق، لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لا يحسد، ولا يعادي، ولا يشاح، فإن هذه من أسباب سوء الخلق، وهي من نتائج حب الدنيا.

وثانياً: استحقاق الدنيا وأهلها، إذا لم يفرح بوجودها، ولم يحزن لعدمها.

وثالثها: تعظيم الآخرة لما ينال فيها من الثواب الدائم، الخالص من الشوائب.

ورابعها: الافتخار بالله دون أسباب الدنيا. ويروى أن علي بن الحسين عليه السلام جاءه رجل فقال له: ما الزهد؟ فقال: الزهد عشرة أجزاء، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضى، وإن الزهد كله في آية من كتاب الله ﴿لِيَكُنْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. وقيل لبزر جمهر: ما لك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت؟ فقال: إن الفائت لا يتلافى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالخبرة. وعن عبد الله بن مسعود قال: لئن^(٢) جمرة الحسرة أحرقت وأبقت ما أبقت، أحب إلي من أن أقول لشيء كان: ليت لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليت كان.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر بما أوتي، فخور على الناس بالدنيا ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ بمنع الواجبات ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾. وفي الحديث أن النبي ﷺ سأل عن

(١) في المخطوطة بدل عليه العوض في الآخرة: العوض في غيره.

(٢) في نسخة لأن الحسن جمرة... وفي أخرى: لأن الحسن جمرات حرقت. وفي أخرى أيضاً: لأن الحسن جمرة أحرقت.

سورة الحديد

سَيِّدُ بَنِي عَوْفٍ، فَقَالُوا: جَدُّ بَنِي قَيْسٍ عَلَى أَنَّهُ يُزَنُّ^(١) بِالْبَخْلِ. فَقَالَ ﷺ: وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبَخْلِ؟ سَيِّدُكُمْ الْبِرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ. وَمَعْنَى يَزَنُ: يَتَمُومُ وَيَقْرَفُ. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَيُّ: يَعْرِضُ عَمَّا دَعَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْهُ وَعَنْ طَاعَتِهِ وَصَدَقَتِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ.

ثُمَّ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ: بِالْأَدْلَالِ وَالْمُعْجَزَاتِ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْمَكْتُوبَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْأَحْكَامَ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَالْتُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أَيُّ: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ مِنَ السَّمَاءِ الْمِيزَانَ ذَا الْكَفَتَيْنِ، الَّذِي يوزنُ بِهِ، عَنْ ابْنِ زَيْدٍ وَالْجَبَائِي، وَمُقَاتِلِ بْنِ سَلِيمَانَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْزَلْنَا صِفَةَ الْمِيزَانِ. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ: بِالْعَدْلِ، وَالْمُرَادُ: وَأَمَرْنَا بِالْعَدْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، عَنْ قَتَادَةَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حِيَانَ. ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ أَرْبَعَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ: أَنْزَلَ الْحَدِيدَ، وَالنَّارَ، وَالْمَاءَ، وَالْمَلْحَ». وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: مَعْنَى أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ: أَنْشَأْنَاهُ وَأَحْدَثْنَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَحَ﴾ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ مُقَاتِلٌ، فَقَالَ: مَعْنَاهُ بِأَمْرِنَا كَانَ الْحَدِيدُ. وَقَالَ قُطْرُبٌ: مَعْنَى «أَنْزَلْنَا» هُنَا هَيَأْنَا، وَخَلَقْنَا، مِنَ الثَّرَى: وَهُوَ مَا يَهْيَأُ لِلضَّيْفِ، أَيُّ: أَنْعَمْنَا بِالْحَدِيدِ وَهَيَأْنَاهُ لَكُمْ. وَقِيلَ: أَنْزَلَ مَعَ آدَمَ مِنَ الْحَدِيدِ الْعِلَاقَةُ وَهِيَ السِّنْدَانُ، وَالْكَلْبَتَانُ، وَالْمُطْرَقَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أَيُّ: يَمْتَنِعُ بِهِ وَيُحَارِبُ بِهِ، عَنْ الزَّجَّاجِ. وَالْمَعْنَى: إِنَّهُ يَتَّخِذُ مِنْهُ آتَانُ: آلَةٌ لِلدَّفْعِ، وَآلَةٌ لِلضَّرْبِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ. فِيهِ جَنَّةٌ وَسِلَاحٌ. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي مَعَاشِهِمْ، مِثْلُ السَّكِينِ، وَالْفَأْسِ، وَالْإِبْرَةِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَتَّخِذُ مِنَ الْحَدِيدِ مِنَ الْآلَاتِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ بَصُرَ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ: لِيَعَامِلُوا بِالْعَدْلِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ نَصْرَهُ مِنْ يَنْصُرُهُ مَوْجُودَةً، وَجِهَادٍ مِنْ جَاهِدٍ مَعَ رَسُولِهِ مَوْجُوداً، وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ: بِالْعِلْمِ الْوَاقِعِ بِالْإِسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ مِنْ غَيْرِ مُشَاهَدَةٍ بِالْبَصَرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيُّ: مُنِيعٌ مِنْ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ.

● **النظم:** وَجْهُ اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ الْآيَةُ بِمَا قَبْلُهَا، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا بَيَّنَّ الثَّوَابَ عَلَى الطَّاعَاتِ، عَقَّبَهُ بِبَيَانِ الْأَعْوَاضِ عَلَى مَقَاسَةِ الْمَصَائِبِ وَالْمَلَمَاتِ، فَقَالَ: لَا يَذْهَبُ عَلَيْنَا عَوْضٌ مِنْ أَصَابَتِهِ مُصِيبَةً مَا، فَإِنْ كَانَتْ مِنْ فَعَلْنَا نَعْوِضُهُ بِالْأَضْعَافِ مِنْ جَزَائِنَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ فَعَلْنَا عِبَادَتَنَا فَبِاسْتِيفَاتِنَا ذَلِكَ مِنْهُمْ. ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ الْآيَةُ؛ لِأَنَّ الْمَصِيبَةَ لَوْ كَانَتْ بِغَيْرِ عَوْضٍ فِي الْعَاقِبَةِ لَازِدَادُ الْأَسَى وَالْحُزَنِ، فَإِنَّ الْحُزْنَ كُلَّ الْحُزَنِ فِي الْخُسْرَانِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جِبْرَانٌ. ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْآيَةُ، فَبَيَّنَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَطْفُ عِبَادِهِ بِمَا يَدْعُو إِلَى الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَتَرْكِ الْخِيَلَاءِ.



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢٧) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

● **اللغة: التفقية:** جعل الشيء في أثر الشيء على الاستمرار فيه، ولهذا قيل لمقاطع الشعر: قواف، إذ كانت تتبع البيت على أثره، مستمرة في غيره على منهاجه. والرهابية: أصلها من الرهبة، وهي الخوف، إلا أنها عبادة مختصة بالنصارى، لقول النبي ﷺ: «لا رهابية في الإسلام». والابتداع: ابتداء أمر لم يحدث فيه على مثال، ومنه البدعة: إذ هي إحداث أمر على خلاف السنة. والكفل: الحظ، ومنه الكفل الذي يتكفل به الراكب، وهو كساء أو نحوه، يحويها على الإبل إذا أراد أن يرقد فيه، فيحفظه من السقوط، فيه حظ من التحرز من الوقوع.

● **الإعراب:** ﴿رَهَابِيَّةً﴾ منصوب بفعل مضمر، يفسره قوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾. التقدير: وابتدعوا رهابية ابتدعوها. وقوله: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ في محل نصب، لأنه صفة لرهابية. ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ نصب، لأنه بدل من «ها» في ﴿كَتَبْنَاهَا﴾. والتقدير: كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله، أي: اتباع أوامره، ولم نكتب عليهم الرهابية. و«لا» في ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ﴾ زائدة، و«أن» في ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمه محذوف، وتقديره: إنهم لا يقدرُونَ، و«لا» هنا يدل على الإضمار في أن مع تخفيف أن.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من ذكر الأنبياء، بقصة إبراهيم عليه السلام، ونوح عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ وإنما خصَّهما بالذكر لفضلهما، ولأنهما أبوا الأنبياء. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ يعني أن الأنبياء كلهم من نسلهما وذريتهما، وعليهم أنزل الكتاب. ثم أخبر عن حال ذريتهما، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ إلى طريق الحق، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله إلى معصيته. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ أي: ثم أتبعنا بالإرسال على آثار من ذكرناهم من الأنبياء، برسل آخرين إلى قوم آخرين، وأنفذناهم رسولاً بعد رسول. ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بعدهم فأرسلناه رسولاً ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ أي: وأعطينا عيسى بن مريم الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في دينه، يعني الحواريين وأتباعهم، اتبعوا عيسى ﴿رَأْفَةً﴾، وهي أشد الرقة^(١)، وإنما أضاف الرأفة

(١) في نسخة: أشد: الرقة والرحمة.

سورة الحديد

والرحمة إلى نفسه، لأنه سبحانه جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة، بالأمر والترغيب فيه، ووعد الثواب عليه. وقيل: لأنه خلق في قلوبهم الرأفة والرحمة، وإنما مدحهم على ذلك وإن كان من فعله، لأنهم تعرضوا لهما. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ وهي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة، إما في كنيسة أو انفراد عن الجماعة، أو غير ذلك من الأمور التي يظهر فيها نسك صاحبه، والمعنى: ابتدعوا رهبانية لم نكتبها عليهم. وقيل: إن الرهبانية التي ابتدعوها هي رفض النساء، واتخاذ الصوامع، عن قتادة قال^(١): وتقديره: ورهبانية ما كتبناها عليهم ﴿إِلَّا﴾ أنهم اتبعوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. وقيل: إن الرهبانية التي ابتدعوها لحاقهم بالبراري والجبال. في خبر مرفوع عن النبي ﷺ، فلما رعاها الذين بعدهم حق رعايتها، وذلك لتكذيبهم بمحمد ﷺ، عن ابن عباس. وقيل: إن الرهبانية هي الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة. ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أي: ما فرضناها عليهم. وقال الزجاج: إن تقديره: ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله أتباع ما أمر به، فهذا وجه. قال: وفيها وجه آخر جاء في التفسير: إنهم كانوا يرون من ملوكهم ما لا يصبرون عليه، فاتخذوا أسراباً، وصوامع، وابتدعوا ذلك. فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا عليه، لزمهم تمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يُفرض عليه لزمه أن يتمه. قال: وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ على ضربين:

أحدهما: أن يكونوا قصّروا فيما ألزموه أنفسهم.

والآخر: وهو الأجود أن يكونوا حين بُعث النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به، كانوا تاركين لطاعة الله، فما رعوها تلك الرهبانية حق رعايتها، ودليل ذلك قوله: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني: الذين آمنوا بالنبي ﷺ ﴿وَكَبُرَ مِنْهُمْ نُسُفُوتٌ﴾ أي: كافرون. انتهى كلام الزجاج.

ويعضد هذا ما جاءت به الرواية عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار، فقال: يا ابن أم عبد، هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان، فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، ففعالوا نفرق في الأرض، إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى ﷺ، يعنون محمداً ﷺ. ففارقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخرها. ثم قال: يا ابن أم عبد، أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة، والجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والعمرة.

وعن ابن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ، فقال: يا ابن مسعود، اختلف من كان

(١) ليس في أكثر النسخ لفظة قال.

قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها اثنتان، وهلك سائرهن. فرقة قاتلوا الملوك على دين عيسى عليه السلام فقتلوه، وفرقة لم تكن لهم طاقة لموازاة الملوك، ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم، يدعونهم إلى دين الله تعالى، ودين عيسى عليه السلام، فساحوا في البلاد وترهبوا، وهم الذين قال الله لهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من آمن بي، وصدقني، واتبعني، فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي، فأولئك هم الهالكون».

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: اعترفوا بتوحيد الله وصدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُلِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس. وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا ظاهراً، آمنوا باطناً ﴿يُؤْتِكُمْ كَفَالَيْنِ﴾ أي: يؤتكم نصيبين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. نصيباً لإيمانكم بمن تقدم من الأنبياء، ونصيباً لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: هدى تهتدون به، عن مجاهد. وقيل: النور القرآن، وفيه الأدلة على كل حق، والبيان لكل خير، وبه يستحق الضياء الذي يمشي به يوم القيامة، عن ابن عباس. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويستتر عليكم ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال سعيد بن جبيرة: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرأ في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه ودعاه فاستجاب له، وآمن به، فلما كان عند انصرافه، قال ناس ممن آمن به، من أهل مملكته، وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم^(١) به. فقدموا مع جعفر، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: يا نبي الله! إن لنا أموالاً، ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا، فواسينا المسلمين بها. فأذن فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله فيهم ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين. فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ فخروا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين، أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُلِهِ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور، والمغفرة. ثم قال: ﴿لَيْلًا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾.

وقال الكلبي: كان هؤلاء أربعة وعشرين رجلاً، فقدموا من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكانوا على دين الأنبياء، فأسلموا، فقال لهم أبو جهل: بشس القوم أنتم، والوفد لقومكم! فردوا عليه. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، فجعل الله لهم، ولمؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، أجرين اثنتين، فجعلوا يفخرون على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون: نحن أفضل منكم، لنا أجران، ولكم أجر واحد. فنزل ﴿لَيْلًا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إلى آخر السورة.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كانت له أمة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها

فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران». وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ﷺ، وآمن بمحمد ﷺ، فله أجران، وأيما مملوك أدى حق الله، وحق مواليه، فله أجران. وأورده البخاري ومسلم في «الصحيح».

﴿لَثَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: لأن يعلم، و«لا» مزيدة ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحسدوا المؤمنين منهم ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ و«أن» هذه هي المخففة من الثقيلة، والتقدير: إنهم لا يقدرُونَ، ومعناه: جعلنا الأجرَيْنَ لمن آمن بمحمد ﷺ، ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم، ولا نصيب لهم من فضل الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ فأتى المؤمنين منهم أجرين. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يتفضل على من يشاء من عباده المؤمنين. وقيل: إن المراد بفضل الله هنا النبوة، أي: لا يقدرُونَ على نبوة الأنبياء، ولا على صرفها عمن شاء الله أن يخضه بها، فيصرفونها عن محمد ﷺ إلى من يحبونه، بل هي بيد الله يعطيها من يشاء، ممن هو أهلها، ويعلم أنه يصلح لها. وقيل: إنما تدخل «لا» صلة في كل كلام دخل في أواخره أو أوائله، جحد وإن لم يكن مصرحاً به، نحو قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَحَكْرُمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، عن الفراء. وقيل: إن «لا» هنا في حكم الثبات، والمعنى: لأن لا يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ أن يؤمنوا، لأن من لا يعلم أنه لا يقدر، يعلم أنه يقدر. فعلى هذا يكون المراد: لكي يعلموا أنهم يقدرُونَ على أن يؤمنوا، فيحوزوا الفضل والثواب. وقيل: إن معناه: لثلا يعلم اليهود والنصارى أن النبي ﷺ والمؤمنين لا يقدرُونَ على ذلك، فقد علموا أنهم لا يقدرُونَ عليه، أي: إن آمنتم كما أمركم الله أتاكم الله من فضله، فعلم أهل الكتاب خلافه. وعلى هذا فالضمير في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ ليس لأهل. وقال أبو سعيد السيرافي: معناه: إن الله يفعل بكم هذه الأشياء، لثلا يعلم، أي: ليتبين جهل أهل الكتاب، وأنهم لا يعلمون أن ما يؤتيكم الله من فضله، لا يقدرُونَ على تغييره وإزالته عنكم. ففي هذه الوجوه لا يحتاج إلى زيادة «لا».

(١) في نسختين: يعلمها بدل فعلهما.

(٢) وفي نسختين: يقدرُونَ.

(٣) [ذلك ولم يعلموا].

(٤) [الكتاب].

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

مدنية/آياتها (٢٢)

- عدد آياتها: إحدى وعشرون آية مكي والمدني الأخير، وآيتان في الباقيين.
- اختلافها: آية ﴿فِي الْأَذْلَيْنِ﴾ غير المكي، والمدني الأخير.
- فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة، كتب من حزب الله يوم القيامة».
- تفسيرها: لما ختم الله سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده، افتتح هذه السورة بذكر بيان فضله في إجابة الدعوة، كما أجاب دعاء تلك المرأة، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ تَوْعُطُونَ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ وَكَانَ أَرْسَالُكُمْ إِلَيْكُمْ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٥﴾.

- القراءة: قرأ عاصم: «يُظَاهِرُونَ» بضم الياء وتخفيف الظاء، وقرأ أهل البصرة وابن كثير: «يُظَاهِرُونَ» بتشديد الظاء، والهاء، وفتح الياء، وقرأ الباقيون: «يُظَاهِرُونَ» بفتح الياء، وتشديد الظاء. وروي عن بعضهم: «ما هن أمهاتهن» برفع التاء.

● الحجة: قال أبو علي: ظاهر من امرأته، وظهر مثل ضاعف وضعف. وتدخل التاء على كل واحد منهما، فيصير تظاهر وتظهر، ويدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر. ثم تدغم الطاء في الظاء لمقاربتها لها، فتصير يظاهر ويظهر، بفتح الياء التي هي حرف المضارعة، لأنها للمطاوعة، كما تفتحها في يتدحرج، الذي هو مطاوع دحرجته فتدحرج. ووجه الرفع في قوله: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أنه لغة بني تميم. قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أن النفي

كالاستفهام، فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه في الواجب، ينبغي ألا يغير النفي عما كان عليه في الواجب. ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز، والأخذ بلغتهم في القرآن أولى، وعليها جاء ﴿ما هذا بشراً﴾.

● **اللغة:** الاشتكاء: إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية: إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه. والتحاور: التراجع، وهي المحاوراة، يقال: حاوره، أي: راجعه الكلام، وتحاورا، قال عنترة:

لو كان يدري ما المُحاورَةُ اشْتَكَى، ولكانَ، لَوْ عَلِمَ الكلامَ، مُكَلِّمِي

والمحادة: المخالفة، وأصله من الحد، وهو المنع، ومنه الحد: الحاجز بين الشيئين، قال النابغة:

إِلَّا سُلَيْمَانُ إِذْ قَالَ الْمَلِكُ لَهُ: قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْذُذْهَا عَنِ الْفَنْدِ

الكبت: مصدر كبت الله العدو، أي: أذله وأخزاه.

● **النزول:** نزلت الآيات في امرأة من الأنصار، ثم من الخزرج، واسمها خولة بنت خويلد، عن ابن عباس. وقيل: خولة بنت ثعلبة، عن قتادة، ومقاتل. وزوجها أوس بن الصامت، وذلك أنها كانت حسنة الجسم، فرأها زوجها ساجدة في صلاتها، فلما انصرفت أرادها فأبى عليه، فغضب عليها، وكان أمراً فيه سرعة ولمم، فقال لها: أنت علي كظهر أمي! ثم ندم على ما قال. وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت علي. فقالت: لا تقل ذلك، واثبت رسول الله ﷺ فأسأله، فقال: إني أجدني أستحي منه أن أسأله عن هذا، قالت: فدعني أسأله، فقال: سليه. فأتت النبي ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي أوس بن الصامت، تزوجني وأنا شابة غانية، ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سني، ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه فننعشني به؟ فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه. فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، ولم أؤمر في شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي، وحاجتي، وشدة حالي، اللهم فأنزل علي لسان نبيك. وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري - جعلني الله فداك - يا نبي الله. فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات. فلما قضى الوحي، قال: ادعي زوجك، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى تمام الآيات. قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتجادل رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضه، إذ أنزل الله ﷻ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾. فلما تلا عليه هذه الآيات، قال له: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟

قال: إذا يذهب مالي كله، والرقبة غالية، وإنني قليل المال، فقال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله يا رسول الله إنني إذا لم أكل ثلاث مرات، كلَّ بصري، وخشيت أن تعشى عيني، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله، فقال: إنني معينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داع لك بالبركة. فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودعا له بالبركة، فاجتمع لهما أمرهما.

● **المعنى:** ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تُرَاجِعُكَ في أمر زوجها، عن أبي العالية. ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وتظهر شكواها، وما بها من المكروه، فتقول: اللهم إنك تعلم حالي فارحمني، فإن لي صبية صغاراً، إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إليّ جاعوا. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تخاطبكما ومراجعتكما الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: يسمع المسموعات، ويرى المرئيات، والسميع البصير من هو على حالة يجب لأجلها أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات إذا وجدتا، وذلك إذا وجدنا، وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به. ثم قال سبحانه يذم الظهار: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ﴾ أي: يقولون لهن: أنتن كظهور أمهاتنا ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: ما اللواتي تجعلونهن من الزوجات كالأمهات بأمهات، أي: لسن بأمهاتهم. ﴿إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللّٰهُ وَلَدَتْهُنَّ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا الوالدات، ﴿وَأُمَّتُهُمْ﴾ يعني المظاهرين ﴿يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ لا يعرف في الشرع ﴿وَزُورًا﴾ أي كذباً لأن المظاهر إذا جعل ظهر امرأته كظهر أمه وليس كذلك، كان كاذباً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عفا عنهم وغفر لهم، وأمرهم بالكفارة.

ثم بيّن سبحانه حكم الظهار فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ﴾ يعني الذين يقولون القول الذي حكيناه ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف المفسرون والفقهاء في معنى العود هنا. فقيل: إنه العزم على وطئها، عن قتادة، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة. وقيل: العود هو أن يمسكها بالعقد، ولا يتبع الظهار بطلاق، وذلك أنه إذا ظاهر منها فقد قصد التحريم، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ولا كفارة، وإذا سكنت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه. فذلك الندم منه على ما ابتدأه، وهو عود إلى ما كان عليه، فحينئذ تجب الكفارة، وهو مذهب الشافعي. واستدل على ذلك بما روي، عن ابن عباس أنه فسر العود في الآية بالندم، فقال: يندمون ويرجعون إلى الإلفة. وقال الفراء: يعودون لما قالوا، وإلى ما قالوا وفيما قالوا، معناه: يرجعون عما قالوا. يقال: عاد لما فعل، أي: نقض ما فعل، ويجوز أن يقال: عاد لما فعل يريد فعله مرة أخرى. وقيل: إن العود هو أن يكرر لفظ الظهار، عن أبي العالية. وهو مذهب أهل الظاهر، واحتجوا بأن ظاهر لفظ العود يدل على تكرير القول. قال أبو علي الفارسي: ليس في هذا ظاهر كما ادعوا، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليه قبل، وقد سميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد، ثم صار إليها. وقال الأخفش: تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم، فتحرير رقبة لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم. أي: فعليهم تحرير رقبة لما نطقوا به من ذكر التحريم. والتقديم والتأخير كثير في التنزيل.

سورة المجادلة

وأما ما ذهب إليه أئمة الهدى من آل محمد ﷺ، فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء، ونقض القول الذي قاله، فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة، ولا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعلیهم تحرير رقبة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أي: من قبل أن يجامعها فیتماسا. والتحرير: هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرة بالعتق، بأن يقول المالك لمن يملكه: أنت حر. ﴿ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ أي: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به، أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار، قاله الزجاج. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالكم، فلا تدعوا ما وعظكم به من الكفارة قبل الوطء، فيعاقبكم عليه.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أي: فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين قبل الجماع. والتابع عند أكثر الفقهاء أن يوالي بين أيام الشهرين الهلاليين، أو يصوم ستين يوماً. وقال أصحابنا: إنه إذا صام شهراً، ومن الثاني شيئاً ولو يوماً واحداً، ثم أفطر لغير عذر فقد أخطأ، إلا أنه يني عليه، ولا يلزمه الاستئناف، وإن أفطر قبل ذلك استأنف. ومتى بدأ بالصوم وصام بعض ذلك، ثم وجد الرقبة، لا يلزمه الرجوع إليها، وإن رجع كان أفضل. وقال قوم: إنه يلزمه الرجوع إلى العتق.

وقله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: فمن لم يطق الصوم لعلّة أو كبر، فإطعام ستين مسكيناً، فعليه إطعام ستين فقيراً، لكل مسكين نصف صاع، عند أصحابنا، فإن لم يقدر فمّد. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: افترض ذلك الذي وصفناه ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لتصدقوا بما أتى به الرسول، وتصدقوا بأن الله أمر به. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني ما وصفه من الكفارات في الظهار، أي: هي شرائع الله وأحكامه. ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ أي: وللجاحدين المتعدين حدود الله عذاب مؤلم في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالفون أمر الله ويعادون رسوله ﴿كُفْرًا﴾ أي: أذلوا وأخزوا ﴿كَمَا كُفَّتِ أَلْدِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك. ﴿وَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حججاً واضحات من القرآن، وما فيه من الأدلة والبيان ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ﴾ الجاحدين لما أنزلناه ﴿عَذَابُ مُهِينٌ﴾ يهينهم ويخزيهم. فأما الكلام في مسائل الظهار وفروعها فموضعه كتب الفقه.



قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَخَصَّنَهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعَصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا

اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْيَرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النُّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وحده: «ما تكون» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ يعقوب وسهل: «ولا أكثر» بالرفع، والباقون بالنصب. وقرأ حمزة ورويس عن يعقوب: «ينتجون»، والباقون «يتناجون»، وقرأ رويس أيضاً: «فلا تتجوا».

● **الحجة:** قال ابن جني: التذكير في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نُّجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ هو الوجه، لما هناك من الشياخ، وعموم الجنسية، كقولك: ما جاءني من امرأة، وما حضرني من جارية. وأما «تكون» بالتاء فلاعتزام لفظ التأنيث، حتى كأنه قال: ما تكون نجوى ثلاثة. وقوله: «ولا أكثر» بالرفع معطوف على محل الكلام قبل دخول «من». فإن قوله: ﴿مِنْ نُّجْوَى﴾ في محل رفع بأنه فاعل ﴿يَكُونُ﴾. و«من» زائدة، والقراءة الظاهرة «أكثر» بالفتح في موضع الجر. وقوله: «ينتجون» يفتعلون من النجوى، والنجوى: مصدر كالدعوى، والعدوى، ومثل ذلك في أنه على فعلى: التقوى، إلا أن الواو فيها مبدلة، وليست بلام. ولما كان مصدراً، وقع للجمع على لفظ الواحد في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نُّجْوَى﴾ أي: هم ذوو نجوى، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نُّجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ قال أبو علي: ﴿ثَلَاثَةٍ﴾ يحتمل جره أمرين:

أحدهما: أن يكون مجروراً بإضافة «نجوى» إليه، كأنه ما يكون من إسرار ثلاثة إلا هو رابعهم، أي: لا يخفى عليه ذلك، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾.

ويجوز أن يكون «ثلاثة» جراً على الصفة على قياس قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نُّجْوَى﴾، فيكون المعنى: ما يكون من متناجين ثلاثة.

وأما النجى، فصفة على الكثرة كالصديق، والرفيق، والحميم، ومثله الغوي. وفي التنزيل ﴿خَلَصُوا بِحَيَاتِهِ﴾.

وأما قول حمزة «ينتجون»، وقول سائرهم «يتناجون»، فإن يفتعلون ويتفاعلون قد يجريان مجرى واحد. ومن ثم قالوا: ازدوجوا، واعتزروا، فصَحَّحُوا الواو، وإن كانت على صورة يجب فيها الاعتلال، لما كان بمعنى: تعاوروا، وتزاجوا، كما صح عور وحور لما كان بمعنى أفعال. ويشهد لقراءة حمزة قول النبي ﷺ في علي صلوات الرحمن عليه، لما قال له بعض أصحابه: أتناجيه دوناً؟ قال: «ما أنا انتجيت به بل الله انتجاء».

● **اللغة:** النجوى: هي إسرار ما يرفع كل واحد إلى آخر، وأصله من النجوة: الارتفاع من الأرض، والنجاء: الارتفاع في السير، والنجاة: الارتفاع من البلاء.

سورة المجادلة

● **الإعراب:** ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، في محل جر بأنه صفة ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، وتقول: فلان رابع أربعة: إذا كان واحد أربعة، ورابع ثلاثة: إذا جعل ثلاثة أربعة، بكونه معهم. ويجوز على هذا أن يقال: رابع ثلاثة ولا يجوز رابع أربعة، لأنه ليس فيه معنى الفعل. ﴿حَسَبَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿يَصَلُّونَهَا﴾ في موضع نصب على الحال.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾ الآية، في اليهود والمنافقين، إنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقرائنا، وإخواننا الذين خرجوا في السرايا، قتل أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم. فلما طال ذلك، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم ألا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت الآية.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه وقت ذلك العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يحشرهم إلى أرض المحشر، ويعيدهم أحياء ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم، ويعلمهم بما عملوه من المعاصي في دار الدنيا. ﴿أَخَصَّنَا اللَّهُ﴾ عليهم وأثبتته في كتاب أعمالهم ﴿وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ معناه: إنه يعلم الأشياء كلها، من جميع وجوها، لا يخفى عليه شيء منها. ومنه قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: علم الله. ثم بين سبحانه أنه يعلم ما يكون في العالم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني جميع المعلومات، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المكلفين، وهو استفهام معناه التقرير، أي: ألم تعلم؟ وقيل: ألم تر إلى الدلالات المرئية من صنعته الدالة على أنه عالم بجميع المعلومات؟ ﴿مَا يَكُونُ مِنَ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بالعلم، يعني أن نجواهم معلومة عنده، كما تكون معلومة عند الرابع الذي هو معهم. وقيل: السرار ما كان بين اثنين، والنجوى: ما كان بين ثلاثة. وقال بعضهم: النجوى كل حديث كان سراً أو علانية، وهو اسم للشيء الذي يتناجى به. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي: ولا يتناجى خمسة إلا وهو عالم بسره، كسادس معهم. ﴿وَلَا أَذَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ المعنى: إنه عالم بأحوالهم، وجميع متصرفاتهم، فرادى وعند الاجتماع، لا يخفى عليه شيء منها، فكأنما هو معهم ومشاهد لهم. وعلى هذا يقال: إن الله مع الإنسان حيثما كان، لأنه إذا كان عالماً به، لا يخفى عليه شيء من أمره، حسن هذا الإطلاق لما فيه من البيان. فأما أن يكون معهم على طريق المجاورة، فذلك محال، لأنه من صفات الأجسام. وقد دلت الأدلة على أنه ليس بصفات الأجسام. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يخبرهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى﴾ أي: ألم تعلم حال الذين نهوا عن المناجاة، وإسرار الكلام بينهم دون المسلمين، بما يغم المسلمين ويحزنهم، وهم اليهود والمنافقون. ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ﴾ يعني: إلى ما نهوا عنه، أي: يرجعون إلى المناجاة بعد النهي ﴿وَيَسْتَجِيرُوا بِالْأَنْدَادِ وَالْقَدُونَ﴾ في مخالفة الرسول، وهو قوله: ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ وذلك أنه نهاهم عن النجوى فعصوه. ويجوز أن يكون الإثم والعدوان: ذلك السر الذي يجري بينهم، لأنه شيء يسوء المسلمين، ويوصي بعضهم

بعضاً بترك أمر الرسول والمعصية له. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِيكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ، فيقولون: السَّامُ عليك، والسَّامُ: الموت. وهم يوهومونه أنهم يقولون: السلام عليك. وكان النبي ﷺ يرد على من قال ذلك، فيقول: وعليك. وقال الحسن: كان اليهودي يقول: السَّامُ عليك. إنكم ستسأمون دينكم هذا وتملونه فتدعون. ومن قال: السَّامُ: الموت، فهو سَامُ الحياة بذهابها. ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض. وقيل معناه: إنهم لو تكلموا لقالوا هذا الكلام، وإن لم يكن منهم قول ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون: لو كان نبياً كما يزعم فهلا يعذبنا الله، ولا يستجيب له فينا. قوله: وعليكم. يعني: السَّامُ، وهو الموت، فقال سبحانه: ﴿حَسَنُكُمْ﴾ أي: كافيهم ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ يوم القيامة ويحترقون فيها ﴿فَيْئَسَ الْمُعِصِرُ﴾ أي: فئس المرجع والمآل جهنم، لما فيها من أنواع العذاب والنكال.

ثم نهى المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَيْدِي وَالْعُذُنِ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: لا تفعلوا كفعل المنافقين واليهود. ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْيَدِ وَالْقَوَى﴾ أي: بأفعال الخير والطاعة، والخوف من عذاب الله، واتقاء معاصي الله. ﴿وَأَنصِتُوا لِلَّذِي ءَأْتَى إِلَى جِزَائِهِ﴾ أي: إلى جزائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني نجوى المنافقين والكفار بما يسوء المؤمنين، ويغهم، ومن وساوس الشيطان، وبدعائه، وإغوائه، يفعل ذلك النجوى. ﴿لِيُخْرِتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئاً﴾ أي: نجواهم لا يضرهم شيئاً. وقيل: إن الشيطان لا يضرهم شيئاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بعلم الله. وقيل: بأمر الله؛ لأن سببه بأمره، وهو الجهاد وخروجهم إليه. وقيل: بأمر الله لأنه لا يلحقهم الآلام والأمراض عقيب ذلك. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم دون غيره. وقيل: إن الآية المراد بها أحلام المنام التي يراها الإنسان في نومه فيحزنه. وورد في الخبر عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». وعن ابن عمر عنه قال: «لا يتناج اثنان دون الثالث».



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَحِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥).

سورة المجادلة

● **القراءة:** قرأ عاصم وحده: «في المجالس» على الجمع، والباقون: «في المجلس» على التوحيد. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم، غير يحيى مختلف عنه، ﴿قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ بالضم، والباقون بالكسر.

● **الحجة:** قال أبو علي: «في المجلس» زعموا أنه مجلس رسول الله ﷺ، وإذا كان كذلك فالوجه الأفراد. ويجوز أن يجمع على هذا، على أن يجعل لكل جالس مجلساً، أي: موضع جلوس، ويكون المجلس على إرادة العموم، مثل قولهم: كثر الدينار والدرهم، فيشتمل على هذا جميع المجالس. ومثله قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾. وقوله: ﴿أَنْشُرُوا﴾ أي: قوموا، والنشز: المرتفع من الأرض. قال:

ترى الثعلبَ الحوليَّ فيها كأَنَّهُ إذا ما علا نَشْرًا حِصَانًا مُجَلَّلًا^(١)

ومنه: نشوز المرأة على زوجها، وينشز وينشز مثل: يعكف ويعكف، ويعرش ويعرش.

● **اللغة:** التفسح: الاتساع في المكان، والتفسح والتوسع واحد. وفسح له في المجلس يفسح فسحاً، ومكان فسيح. وفي صفة النبي ﷺ، كان فسيح ما بين المنكبين، أي: بعيد ما بينهما، لسعة صلبه. والإشفاق: الخوف ورقة القلب. والنشوز: الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه.

● **النزول:** قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً، ضُئوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض. وقال المقاتلان: كان رسول الله ﷺ في الصفة، وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة. وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين، والأنصار. فجاء أناس من أهل بدر، وفيهم ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فرد عليهم النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا^(٢) عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين، والأنصار، من غير أهل بدر: قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على مَنْ أُقِيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء أن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم، فنزلت الآية.

وأما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجِئْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا﴾، فإنها نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ، فيكثرون مناجاته. فأمر الله سبحانه بالصدقة عند المناجاة. فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آية الرخصة، عن مقاتل بن حيان. وقال أمير المؤمنين

(١) الثعلب الحولي أي: في السنة الأولى من العمر. والحصان: من فحل الخيل. والمجلل: الملبس جلاً.

(٢) في نسختين: وما ردوا.

صلوات الرحمن عليه: إن في كتاب الله لآية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ الآية. كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً. فنسختها الآية الأخرى ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ﴾. فقال صلوات الله عليه: بي خفف الله عن هذه الأمة، ولم ينزل في أحد قبلي، ولم ينزل في أحد بعدي. وقال ابن عمر: وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام ثلاث، لو كانت لي واحدة منهن لكانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى. وقال مجاهد وقتادة: لما نهوا عن مناجاته صلوات الرحمن عليه حتى يتصدقوا، لم ينأه إلا علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات، قدم ديناراً فتصدق بها. ثم نزلت الرخصة.

● **المعنى:** لما قَدَّم سبحانه النهي عن النجوى، لما فيه من إيذاء المؤمنين، عَقَّبَهُ بالأمر بالتفسيح، لما في تركه من إيذائهم أيضاً فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي: اتسعوا فيه، وهو مجلس النبي ﷺ، عن قتادة ومجاهد. وقيل: المراد به مجالس الذكر كلها. ﴿فَاتَّسَحُّوا يَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فتوسعوا يوسع الله لكم مجالسكم في الجنة. ﴿وَإِذَا قِيلَ ائْتِزُّوا﴾ أي: ارتفعوا، وقوموا، ووسعوا على إخوانكم ﴿فَانْشُرُوا﴾ أي: فافعلوا ذلك. وقيل: معناه وإذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وعمل الخير، فانشروا، ولا تَقْصُرُوا، عن مجاهد. وقيل: معناه وإذا قيل لكم ارتفعوا في المجالس، وتوسعوا للداخل، فافعلوا، فإن رسول الله ﷺ لا يَقْرُبُ ولا يرفع إلا بإذن الله وأمره. وقيل: معناه وإذا نودي للصلاة فانهضوا، فإن رجالاً كانوا يتشاقلون عن الصلاة، عن عكرمة، والضحاك. وقيل: وردت في قوم كانوا يطيلون المكث عند رسول الله ﷺ، فيكون كل واحد منهم يحب أن يكون آخر خارج، فأمرهم الله أن ينشروا أي: يقوموا، إذا قيل لهم: انشروا. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال ابن عباس: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين، على الذين لم يؤتوا العلم درجات. وقيل: معناه لكي يرفع الله الذين آمنوا بطاعتهم لرسول الله ﷺ درجة، والذين أوتوا العلم بفضل علمهم وسابقتهم درجات في الجنة. وقيل: درجات في مجلس رسول الله ﷺ. فأمر الله سبحانه أن يقرب العلماء من نفسه فوق المؤمنين الذين لا يعلمون العلم، ليبين فضل العلماء على غيرهم.

وفي هذه الآية دلالة على فضل العلماء، وجلالة قدرهم. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه قال ﷺ: «فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبي على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم»، رواه جابر بن عبد الله. وقال علي عليه السلام: من جاءته منيته وهو يطلب العلم، فيبينه وبين الأنبياء درجة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين مرة أخرى وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَفَعِلُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ أي: إذا ساررتم الرسول فقدموا قبل أن تسأروه صدقة، وأراد بذلك تعظيم النبي ﷺ، وأن يكون ذلك سبباً لأن يتصدقوا فيؤجروا عنه، وتخفيفاً عنه ﷺ.

قال المفسرون: فلما نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا، ضنَّ كثير من الناس، فكفوا عن المسألة، فلم يناجِه أحد إلا علي بن أبي طالب، على ما مضى ذكره. قال مجاهد: وما كان إلا ساعة. وقال مقاتل بن حيان: كان ذلك ليالي عشرًا، ثم نسخت بما بعدها. وكانت الصدقة مفوضة إليهم غير مقدرة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك التصديق بين يدي مناجاة النبي ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن فيه أداء واجب وتحصيل ثواب. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: وأدعى لكم إلى مجانية المعاصي وتركها، وأزكى لكم، تتطهرون بذلك بمناجاته كما تقدم الطهارة على الصلاة. ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عليكم ترك ذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ يرحمكم وينعم عليكم.

ثم قال سبحانه ناسخاً لهذا الحكم: ﴿ءَأَشَقُّمُ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بِمَوَافِقٍ صَدَقْتُمْ﴾ يعني: أخفتم الفاقة يا أهل الميسرة، وبخلتم بالصدقة بين يدي نجواكم؟ وهذا توبيخ لهم على ترك الصدقة إشفاقاً من العيلة. ﴿فَإِذْ لَمْ تَقْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ لتقصيركم فيه ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿رَسُولَهُ﴾ أي: وأطيعوا رسوله أيضاً ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عالم بأعمالكم من طاعة ومعصية، وحسن وقبح، فيجازيكم بها.

ثم قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والمراد به قوم من المنافقين، كانوا يوالون اليهود ويفشون إليهم أسرار المؤمنين، ويجمعون معهم على ذكر مساءة النبي ﷺ والمؤمنين، عن قتادة وابن زيد. ﴿مَا هُمْ بِنِعْمِكُمْ وَلَا يَنْتَهُمُ﴾ يعني: إنهم ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية، ولا من اليهود. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ﴾ أي: ويحلفون أنهم لم ينافقوا ﴿وَهُمْ يَعْمَلُونَ﴾ أنهم منافقون ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بشس العمل عملهم، وهو النفاق، وموالاة أعداء الله.



قوله تعالى: ﴿أَتَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦) لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) أَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذَانِ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكُ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢).

● **القراءة:** قرأ محمد بن حبيب الشموني، عن الأعشى، عن أبي بكر: «أو عشيراتهم» على الجمع، والباقون: «أو عشيرتهم» على التوحيد. وفي الشواذ قراءة الحسن «اتخذوا إيمانهم» بكسر الهمزة. ورواية بعضهم عن عاصم: «كتب» بضم الكاف، «في قلوبهم الإيمان» بالرفع.

● **الحجة:** من قرأ: «إيمانهم» حذف المضاف، أي: اتخذوا إظهار إيمانهم جنة. ومن قرأ ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ فهو على حذف المضاف أيضاً، أي: كتب في قلوبهم علامة الإيمان. ومن أسند الفعل إلى الفاعل، فلتقدم ذكر الاسم على ذلك، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

● **اللغة:** الجنة: السترة التي تقي البلية، وأصله السترة، ومنه المجن: الترس. والاستحواذ: الاستيلاء على الشيء بالافتطاع له، وأصله من حاذه يحوزه حوذاً، مثل حازه يحوزه حوزاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه تمام الخبر عن المنافقين فقال: ﴿أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي يحلفون بها ﴿جُنَّةً﴾ أي: سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة، إذا ظهرت منهم الريبة. ﴿فَصَدُّوا﴾ نفوسهم وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الحق والهدى؛ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلهم ويخزيهم ﴿أَن تَنفُكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمُ﴾ التي جمعوها ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمُ﴾ الذين خلفوهم ﴿وَمِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر المعنى. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي: يقسمون لله ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ في دار الدنيا، بأنهم كانوا مؤمنين في الدنيا في اعتقادهم وظنهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق. ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: ويحسب المنافقون في الدنيا أنهم مهتدون، لأن في الآخرة تزول الشكوك. وقال الحسن: في القيامة مواطن، فموطن يعرفون فيه قبح الكذب وغير الكذب، وموطن يكونون فيه كالمدهوش فيتكلمون بكلام الصبيان، الكذب وغير الكذب، ويحسبون أنهم على شيء من ذلك الموضع الذي يحلفون فيه بالكذب. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ في أيمانهم وأقوالهم في الدنيا. وقيل: معناه أولئك هم الخائبون، كما يقال: كذب ظنه، أي: خاب أمله. ﴿أَسْتَعِذُّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: استولى عليهم وغلب عليهم، لشدة اتباعهم إياه ﴿فَأَنسَهُمُ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي: لا يخافون الله ولا يذكرونه ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: جنوده، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخسرون الجنة ويحصل لهم بدلها النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالفونه في حدوده ويشاققونه وهم المنافقون ﴿أُوْلَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ فلا أحد أذل منهم في الدنيا، ولا في الآخرة. قال عطاء: يريد الذل في الدنيا، والخزي في الآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: كتب الله في اللوح المحفوظ، وما كتبه فلا بد من أن يكون، أجرى قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ مجرى القسم، فأجابه بجواب القسم. قال الحسن: ما أمر الله نبياً قط بحرب إلا غلب، إما في الحال أو فيما بعد. وقال قتادة: كتب الله كتاباً فأمضاه ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. ويجوز أن يكون المعنى: قضى الله ووعده ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجج والبراهين، وإن جاز أن يغلب بعضهم في الحرب ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي:

سورة المجادلة

غالب قاهر لمن نازع أوليائه. ويروى أن المسلمين قالوا لما رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليفتحن الله علينا الروم وفارس، فقال المنافقون: أتظنون أن فارساً والروم كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية. ثم قال سبحانه:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يوالون من خالف الله ورسوله، والمعنى لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، والمراد به الموالاة في الدين. ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: وإن قربت قرابتهم منهم، فإنهم لا يوالونهم إذا خالفوهم في الدين.

وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى أهل مكة ينذرهم بمجيء رسول الله إليهم، وكان ﷺ أخفى ذلك. فلما عوتب على ذلك، قال: أهلي بمكة أحببت أن يحوطوهم بيد تكون لي عندهم.

وقيل: إنها نزلت في عبد الله بن أبي، وابنه عبيد الله بن عبد الله، وكان هذا الابن عند النبي ﷺ، فشرب النبي ﷺ، فقال: ابق فضلة من شرابك أسقها أبي لعل الله يطهر قلبه. فأعطاه فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ فقال: بقية شراب رسول الله ﷺ، جئت بها لتشربها لعل الله يطهر قلبك. فقال: هلا جئتني ببول أمك. فرجع إلى النبي ﷺ فقال: إنذن لي في قتله، فقال: بل ترفق به، عن السدي.

ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: ثبت في قلوبهم الإيمان بما فعل بهم من الألفاف فصار كالمكتوب، عن الحسن. وقيل: كتب في قلوبهم علامة الإيمان، ومعنى ذلك أنها سمة لمن يشاهدهم من الملائكة على أنهم مؤمنون، كما أن قوله في الكفار: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ علامة يعلم من شاهدها من الملائكة أنه مطبوع على قلبه، عن أبي علي الفارسي. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: قوَاهم بنور الإيمان، ويدل عليه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، عن الزجاج. وقيل: معناه وقوَاهم بنور الحجج والبراهين، حتى اهتدوا للحق وعملوا به. وقيل: قوَاهم بالقرآن الذي هو حياة القلوب من الجهل، عن الربيع. وقيل: أَيَّدَهُم بجبرائيل في كثير من المواطن، ينصرهم ويدفعهم عنهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بإخلاص الطاعة والعبادة منهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثواب الجنة. وقيل: رضوا عنه بقضائه عليهم في الدنيا فلم يكرهوه ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: جند الله وأنصار دينه، ودعاة خلقه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «ألا» كلمة تنبيه إن جنود الله وأوليائه هم المفلحون الناجون، الظافرون بالبيعة.

سُورَةُ الْحَشْرِ

مدنية/آياتها (٢٤)

● عدد آياتها: وهي أربع وعشرون آية، بالإجماع.

● فضلها: أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ سورة الحشر، لم يبق جنة، ولا نار، ولا عرش، ولا كرسي، ولا حجاب، ولا السماوات السبع، ولا الأرضون السبع، والهوام، والرياح، والطير، والشجر، والدواب، والشمس، والقمر، والملائكة، إلا صلُّوا عليه، واستغفروا له، وإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». وعن أبي سعيد المكاربي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ إذا أمسى الرحمن والحشر، وكُلَّ الله بداره ملكاً شاهراً سيفه حتى يصبح.

● تفسيرها: لما ختم الله سورة المجادلة بذكر حزب الشيطان، وحزب الله، افتتح هذه السورة بقره حزب الشيطان، وما نالهم بالجلاء من الخزي والهوان، ونصرة حزبه من أهل الإيمان، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ يُؤْتِيهِمْ بِأَيِّدِهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرُ ۝ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفُلْسَفِينَ ۝﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو: «يخربون» بالتشديد، والباقون: «يخربون» ساكنة الخاء وخفيفة الراء. وفي الشواذ: قراءة طلحة بن مصرف: «يشاقق الله» بقافين على الإظهار كالتي في الأنفال.

● الحجة: يقال: خرب الموضع وأخربته وخزبته، قال الأعشى:

وأخربت من أرض قوم دياراً

وحكي عن أبي عمرو أن الإخراب: أن يترك الموضع خرباً. والتخريب: الهدم.

سورة الحشر

● **اللغة:** الحشر: جمع الناس من كل ناحية، ومنه: الحاشر: الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج. والجلء: الانتقال عن الديار والأوطان لبلاء، يقال: جلا القوم عن منازلهم جلاء، وأجلبتهم إجلاء. واللىنة: النخلة، وأصله من اللون قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، وجمعها: ليان. قال امرؤ القيس:

وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها الغويي السُغر^(١)

وقال ذو الرمة:

طراق الخوافي واقع فوق لينة بذى لينة في ريشه يترقرق^(٢)

فكان اللينة نوع من النخل، أي: ضرب منه، وقيل: هو من اللين للين ثمرها.

● **الإعراب:** ﴿مَآئِنَهُمْ حُصُونُهُمْ﴾: ارتفع ﴿حُصُونُهُمْ﴾ بقوله: ﴿مَآئِنَهُمْ﴾؛ لأن اسم الفاعل جرى خبراً لـ«أَنْ»، فيرفع ما بعده.

● **النزول:** قيل: نزلت السورة في إجلء بني النضير من اليهود، فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من خرج إلى الشام، عن مجاهد وقادة. وذلك أن النبي ﷺ لما دخل المدينة، صالحه بنو النضير على ألا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم. فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ، وظهر على المشركين، قالوا: والله إنه النبي الذي وجدنا نعتة في التوراة، لا تُرد له راية. فلما غزا غزاة أحد، وهزم المسلمون، ارتابوا ونقضوا العهد. فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة، فأتوا قريشاً وحالفوهم، وعاهدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد. ثم دخل أبو سفيان في أربعين، وكعب في أربعين من اليهود المسجد، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة. ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبرائيل. فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلم^(٣) الأنصاري، وكان أخاه من الرضاعة.

قال محمد بن إسحاق: خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر، اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم النبي يستعينهم في الدية قالوا: نعم يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقال: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه، ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد، فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت يلقي عليه صخرة، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم.

(١) السالفة: ناحية مقدم العنق، والمراد هنا: العنق. والسحوق من النخل: الجرداء الطويلة. وأضرم النار: أوقدها وأشعلها. والغرض: تشبيه عنق فرسه بالنخلة الجرداء التي أشعل النار فيها بشدة.

(٢) ريش طراق: إذا كان بعضها فوق بعض. والخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت. ويترقرق أي: يتحرك.

(٣) في نسخة: مسلمة.

فقام وقال لأصحاب: لا تبرحوا، فخرج راجعاً إلى المدينة. ولما استبطأوا النبي ﷺ قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب النبي ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما أرادت اليهود من الغدر. وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف، فخرج ومعه سلكان بن سلامة، وثلاثة من بني الحرث، وخرج النبي ﷺ على أثرهم، وجلس في موضع ينتظر وجوههم^(١).

فذهب محمد بن مسلمة مع القوم إلى قرب قصره، وأجلس قومه عند جدار وناداه: يا كعب! فانتبه، وقال: من أنت؟ قال: أنا محمد بن مسلمة أخوك، جئتك أستقرض منك دراهم، فإن محمداً يسألنا الصدقة، وليس معنا الدراهم. فقال^(٢): لا أقرضك إلا بالرهن، قال: معي رهن، انزل فخذ. وكان له امرأة بنى بها تلك الليلة عروساً، فقالت: لا أدعك تنزل، لأنني أرى حمرة الدم في ذلك الصوت، فلم يلتفت إليها. فخرج فعانقه محمد بن مسلمة، وهما يتحادثان حتى تباعدا من القصر إلى الصحراء، ثم أخذ رأسه ودعا بقومه، وصاح كعب، فسمعت امرأته فصاحت، وسمع بنو النضير صوتها، فخرجوا نحوه فوجدوه قتيلاً، ورجع القوم سالمين إلى رسول الله ﷺ.

فلما أسفر الصبح، أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بقتل كعب، وفرحوا. وأمر رسول الله ﷺ بحربهم والسير إليهم، فسار بالناس حتى نزل بهم، فتحصنوا منه في الحصن، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوا^(٣): يا محمد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فأنزل الله ﷻ ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَهْتُمْ فَأَنْجَتْ عَنْ أَصُولِهَا﴾ الآية. وهي البويرة في قول حسان:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةٍ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُؤَيْرَةِ مُسْتَطِيرٌ
والبويرة: تصغير بؤرة، وهي إرة النار، أي: حفرتها.

وقال ابن عباس: كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقق لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم، وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات بالشام. وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء، فخرجوا إلى أذرعات بالشام وأريحا، إلا أهل بيتين منهم، آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة. وكان ابن عباس يسمي هذه السورة: سورة بني النضير.

وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال. وعن محمد بن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي ﷺ من أحد، وكان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان. وكان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أحد، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر.

(٣) في نسختين: فنادوه.

(١) في المخطوطة: رجوعهم.

(٢) فيها أيضاً: قال كعب.

سورة الحشر

● المعنى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مضى تفسيره. ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير من ديارهم، بأن سَلَطَ الله للمؤمنين عليهم، وأمر نبيه ﷺ بإخراجهم من منازلهم، وحصونهم، وأوطانهم. ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ اختلف في معناه، ف قيل: كان جلاؤهم ذلك أول حشر اليهود إلى الشام، ثم يحشر الناس يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً، وذلك الحشر الثاني، عن ابن عباس والزهري والجبائي. قال ابن عباس: قال لهم النبي ﷺ: اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. وقيل: معناه لأول الجلاء، عن البلخي؛ لأنهم كانوا أول مَنْ أُجْلِيَ من أهل الذمة من جزيرة العرب. ثم أُجْلِيَ إخوانهم من اليهود لثلاث يجتمع في بلاد العرب دينان. وقيل: إنما قال: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ لأن الله فتح على نبيه ﷺ في أول ما قاتلهم، عن يمان بن رباب. ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجَكُمْ﴾ أي: لم تظنوا أيها المؤمنون أنهم يخرجون من ديارهم، لشدتهم وشوكتهم، ﴿وَلَكِنَّا أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: فظن بنو النضير أن حصونهم لوثاقتها تمنعهم من سلطان الله، وإنزال العذاب بهم على يد رسول الله ﷺ، حيث حصَّنوها وهَيَّأُوا آلات الحرب فيها. ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ أي: أناههم أمر الله وعذابه ﴿مَنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: لم يتوهموا أن يأتيهم لما قدروا في أنفسهم من المنعة، جعل الله سبحانه امتناعهم من رسوله امتناعاً منه. ﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبُ﴾ وألقى سبحانه في قلوبهم الرعب بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا، إلا أنهم خربوا ما استحسنا منها، حتى لا يكون للمسلمين، ويخربها المؤمنون من خارج ليصلوا إليهم، عن الحسن. وقيل: إن معنى تخريبها بأيدي المؤمنين، أنهم عرضوها لذلك، عن الزجاج. وقيل: إنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بنقض المودعة، وبأيدي المؤمنين بالمقاتلة. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي: فاتعظوا يا أولي العقول والبصائر، وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم. ومعنى الاعتبار: النظر في الأمور، ليعرف بها شيء آخر من جنسها. والمراد: استدلووا بذلك على صدق الرسول، إذ كان وعد المؤمنين أن الله سبحانه سيورثهم ديارهم وأموالهم بغير قتال، فجاء المخبر على ما أخبر، فكان آية دالة على نبوته، ولا دليل في الآية على صحة القياس في الشريعة؛ لأن الاعتبار ليس من القياس في شيء لما ذكرناه، ولأنه لا سبيل لأهل القياس إلى العلم بالترجيح، ولا يعلم كل من الفريقين علة الأصل للآخر، فإن علة الربا عند أحدهما الكيل والوزن والجنس، وعند الآخر الطعم والجنس، وفي الدراهم والدنانير؛ لأنما جنس الأثمان. وقال آخرون: أشياء أُخِرَ، وليس هذا باعتبار، إذ لا سبيل إلى المعرفة به.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي: حكم عليهم أنهم يجلبون عن ديارهم^(١)، وينقلون عن أوطانهم ﴿لَقَدْ بَنَمُ فِي الدُّنْيَا﴾ بعذاب الاستئصال^(٢) أو القتل، أو السبي، كما فعل ببني قريظة، لأنه تعالى علم أن كلا الأمرين في المصلحة سواء، وقد سبق حكمه بالجلاء. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مع الجلاء عن الأوطان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأن أحداً منهم لم يؤمن. وقيل: إن ذلك

(٢) في المخطوطة ليست لفظة «أو».

(١) جملة «وينقلون عن أوطانهم» زائدة.

مشروط بالإصرار، وترك التوبة. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعلنا بهم ﴿يَأْتَهُمْ سَأَقُومُوا اللَّهَ﴾ أي: خالفوا الله ﴿وَرَسُولَهُ﴾. ثم توعد من هذا حذوهم وسلك سبيلهم في مشاقه الله ورسوله، فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ أي: يخالفه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعاقبهم على مشاققتهم أشد العقاب.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ﴾ أي: نخلة كريمة من أنواع النخيل، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: كل نخلة سوى العجوة، عن ابن عباس، وقتادة. ﴿أَوْ زَكَّيْتُمْهَا فَأَيُّمَةً عَلَىٰ أَسْوَاقِهَا﴾ فلم تقطعوها، ولم تقلعوها ﴿فَيَذَرُهَا اللَّهُ﴾ أي: بأمره، كل ذلك سائح لكم، علم الله سبحانه ذلك وأذن فيه ليدل به أعداءه، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ من اليهود ويهينهم به، لأنهم إذا رأوا عدوهم يتحكم في أموالهم كان ذلك خزيًا لهم.



قوله تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ الرُّسُولُ فَحُذُّوهٖ وَمَا نَهَنَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوٓا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُوهٗ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠).

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «كي لا تكون» بالياء، «دولة» بالرفع. الباقون: «يكون» بالياء، «دولة» بالنصب.

● **الحجة:** قال ابن جني: منهم من لا يفصل بين الدولة والدولة، ومنهم من يفصل بينهما، فقال: الدولة بالفتح: للملك، والدولة بالضم: في الملك. وتكون هنا هي التامة، أي: كيلا يقع دولة تحدث دولة. ﴿وَبَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾ إن شئت كانت صفة لـ «دولة»، وإن شئت كانت متعلقة بنفس «دولة» أي: تداولا بين الأغنياء. وإن شئت علقتها بنفس «تكون» أي: لا يحدث بين الأغنياء منكم، وإن شئت جعلتها كان الناقصة، وجعلت ﴿بَيْنَ﴾ خبراً عنها، والأول أوجه، ومعناه: كيلا تقع دولة فيه، أو عليه، يعني على المفاء من عند الله.

سورة الحشر

● **اللغة:** الفيء: رد ما كان للمشركين على المسلمين، بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه. يقال: فاء يفيء فيثاً إذا رجع، وأفأته أنا عليه أي: رددته عليه. والإيجاف: الإيضاع، وهو تسيير الخيل أو الركاب، من وجف يجف وجيفاً، وهو تحرك باضطراب. فالإيجاف: الإزعاج للسير. والركاب: الإبل، والخصاصة: الإملاق والحاجة، وأصله: الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فكأنه انفراد الإنسان عما يحتاج إليه. وقيل: أصله الفرجة. يقال للقمر: بدا من خصاص الغيم أي: فرجته، ومنه: الخص: البيت من القصب، لما فيه من الفرج، والشخّ والبخل واحد، وقيل: إن الشخّ بخل مع حرص.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الآية، في أموال كفار أهل القرى، وهم قريظة، وبني النضير، وهما بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال. وخيبر وقرى عرينة وبنيع، جعلها الله لرسوله، يحكم فيها ما أراد، وأخبر أنها كلها له، فقال أناس: فهلا قسمها، فنزلت الآية. وقيل: إن الآية الأولى بيان أموال بني النضير خاصة لقوله: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ الآية. والثانية بيان الأموال التي أصيبت بغير قتال. وقيل: إنها واحد، والآية الثانية بيان قسم المال الذي ذكره الله في الآية الأولى.

وقال أنس بن مالك: أهدى لبعض الصحابة رأس مشوي، وكان مجهوداً، فوجه به إلى جاره له، فتداولته تسعة أنفس ثم عاد إلى الأول، فنزل ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم، ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة». فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها. فنزلت: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

وقيل: نزلت في سبعة عطشوا في يوم أحد، فجيء بماء يكفي لأحدهم، فقال واحد منهم: ناول فلاناً، حتى طيف على سبعة، وماتوا، ولم يشرب أحد منهم، فأثنى الله سبحانه عليهم.

وقيل: نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أطعمني فإنني جائع. فبعث إلى أهله فلم يكن عندهم شيء، فقال: من يضيفه هذه الليلة؟ فأضافه رجل من الأنصار، وأتى به منزله، ولم يكن عنده إلا قوت صبية له، فأتوا بذلك إليه وأطفأوا السراج، وقامت المرأة إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا، وجعلا يمشغان ألسنتهما لضيف رسول الله ﷺ، فظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف، وباتا طاويين. فلما أصبحا، غدوا إلى رسول الله ﷺ، فنظر إليهما وتبسم، وتلا عليهما هذه الآية. وأما الذي روينا بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أن الذي أضافه، ونؤم الصبية، وأطفأ السراج علي ﷺ، وفاطمة عليها السلام.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال أموال بني النضير، فقال: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود الذين أجلاهم، وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفار الذين حكمهم حكمهم

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ والإيجاب: دون التقريب. وقيل: الإيجاب في الخيل، والإيضاع في الإبل. وقيل: هما مستعملان فيهما جميعاً، أي: فما أوجفتم عليه خيلاً ولا إبلًا. المعنى: لم تسيروا إليها على خيل ولا إبل، وإنما كانت ناحية من^(١) المدينة مشيتم إليها مشياً. وقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أفاء الله. والركاب: الإبل التي تحمل القوم، واحداً: راحلة. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يمكنهم من عدوهم من غير قتال، بأن يقذف الرعب في قلوبهم. جعل الله أموال بني النضير لرسوله خالصة، يفعل بها ما يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانه، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم ذكر سبحانه حكم الفيء فقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: من أموال كفار أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ﴾ يأمركم فيه بما أحب، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بتملك الله إياه ﴿وَلِأَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني أهل بيت رسول الله وقربائه، وهم بنو هاشم، ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم، لأن التقدير: ولذي قرياه، ويتامى أهل بيته، ومساكينهم، وابن السبيل منهم. وروى المنهال بن عمرو عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قلت: قوله: ﴿وَلِأَهْلِ الْقُرَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال: هم قربانا ومساكيننا، وأبناء سبيلنا. وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين، وأبناء السبيل. وقد روي أيضاً ذلك عنهم عليهم السلام، وروى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كان أبي يقول لنا: سهم رسول الله ﷺ، وسهم ذي القربى، ونحن شركاء فيما بقي. والظاهر يقتضي أن ذلك لهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وهو مذهب الشافعي. وقيل: إن مال الفيء للفقراء من قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب. وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال، يعني: ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ، من فريه الدواب، وحسان الجواري، والدرّة الثمينة، والشيء الذي لا نظير له.

ثم بيّن سبحانه أنه لم يفعل ذلك فقال: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ والدولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرة، ولهذا مرة، أي: لثلاث يكون الفيء متداولاً بين الرؤساء منكم، يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية. وهذا خطاب للمؤمنين دون الرسول وأهل بيته عليهم السلام. قال الكلبي: نزلت رؤساء المسلمين، قالوا له: يا رسول الله، خذ صفيك والربع، ودعنا والباقي، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية. وأنشدوا:

لَكَ الْمِزْبَاعُ مِنْهَا، وَالصَّفَايَا، وَحُكْمُكَ، وَالنَّشِيطَةُ، وَالْفُضُولُ^(٢)

فنزلت الآية، فقالت الصحابة: سمعاً وطاعة لأمر الله وأمر رسوله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا إِلَاكُمْ أَلَرَسُولٌ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ أي: ما أعطاكم

(١) في نسخة: من نواحي المدينة.

(٢) النشطة ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصده.

الرسول من الفيء فخذوه، وأرضوا به، وما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، فإنه لا يأمر ولا ينهى إلا عن أمر الله. وهذا عام في كل ما أمر به النبي ﷺ، ونهى عنه، وإن نزل في آية الفيء. وروى زيد الفحام عن أبي عبد الله ﷺ قال: ما أعطى الله نبياً من الأنبياء شيئاً إلا وقد أعطى محمداً ﷺ، قال لسليمان: ﴿فَأَمْنٌ أَوْ أَمِيكَ يَغْتَرِ حِسَابُ﴾، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ترك المعاصي وفعل الواجبات ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وترك أوامره. وفي هذه الآية إشارة إلى تدبير الأمة إلى النبي ﷺ، وإلى الأئمة القائمين مقامه. ولهذا قسم رسول الله ﷺ أموال خيبر، ومن عليهم في رقابهم، وأجلى بني النضير، وبني قينقاع، وأعطاهم شيئاً من المال، وقتل رجال بني قريظة، وسبي ذراريهم ونسائهم، وقسم أموالهم على المهاجرين، ومن على أهل مكة.

ثم قال سبحانه ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، ومن دار الحرب إلى دار السلام. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ التي كانت لهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ﴾ أي: وينصرون دين الله ﴿وَرِسَالَهُ أَتُوبُكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ في الحقيقة عند الله العظيم المنزل عنده. قال الزجاج: بيّن سبحانه من المساكين الذين لهم الحق، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ثم ثنى سبحانه بوصف الأنصار ومدحهم، حتى طابت أنفسهم عن الفيء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ يعني المدينة وهي دار الهجرة، تبوأها الأنصار قبل المهاجرين. وتقدير الآية: والذين تبوأوا الدار من قبلهم ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ لأن الأنصار لم يؤمنوا قبل المهاجرين، وعطف الإيمان على الدار في الظاهر لا في المعنى؛ لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ، والتقدير: وآثروا الإيمان. وقيل: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل قدوم المهاجرين عليهم. وقيل: معناه قبل إيمان المهاجرين، والمراد به أصحاب ليلة العقبة، وهم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأبيض والأحمر، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين، وأسكنوهم دورهم، وأشركوهم في أموالهم. ﴿وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجدون في قلوبهم حسداً، وحزاة، وغيظاً، مما أعطى المهاجرون دونهم من مال بني النضير. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ويؤثرون المهاجرين، ويقدمونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: فقر وحاجة. بيّن سبحانه أن إيثارهم لم يكن عن غنى عن المال، ولكن كان عن حاجة، فيكون ذلك أعظم لأجرهم وثوابهم عند الله. ويروى أن أنس بن مالك كان يحلف بالله تعالى ما في الأنصار بخيل، ويقرأ هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أي: ومن يدفع عنه، ويمنع عنه بخل نفسه. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المنجحون الفائزون بثواب الله ونعيم جنته. وقيل: من لم يأخذ شيئاً نهاء الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شح نفسه، عن ابن زيد. وقيل: شح النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة، عن سعيد بن جبير. وفي الحديث: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم».

وقيل في موضع قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ قولان:

أحدهما: إنه رفع على الابتداء، وخبره: ﴿يُحْيُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى آخره، لأن النبي ﷺ لم يقسم لهم شيئاً من الفيء إلا لرجلين أو لثلاثة، على اختلاف الرواية فيه.

والآخر: إنه في موضع جر عطفاً على الفقراء والمهاجرين، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يُحْيُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وما بعده في موضع نصب على الحال.

ثم ثلث سبحانه بوصف التابعين فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد المهاجرين والأنصار، وهم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هم كل من أسلم^(١) بعد انقطاع الهجرة، وبعد إيمان الأنصار، عن الأصم وأبي مسلم. والظاهر أن المراد: والذين خلفوهم، ويجوز أن يكون المراد: من بعدهم في الفضل. وقد يُعَبَّرُ بالقبل والبعد عن الفضل، كقول النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون» أي: الآخرون في الزمان، السابقون في الفضل. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَلَاخِرَتَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يدعون ويستغفرون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: حقدًا أو غشاً وعداوة، سألوا الله سبحانه أن يزيل ذلك بلطفه. وهاهنا احتراز لطيف، وهو أنهم أحسنوا الدعاء للمؤمنين، ولم يرسلوا القول إرسالاً، والمعنى: أعصمنا ربنا من إرادة السوء بالمؤمنين، ولا شك أن من أبغض مؤمناً، وأراد به السوء لأجل إيمانه، فهو كافر، وإذا كان لغير ذلك فهو فاسق. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: مُتَعَطِّفٌ على العباد مُنِيعٌ عليهم.



قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأُذُنُ شَرَّ لَمَّا دُبِّرَتْ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَخْلُتُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا دَفَأُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

● القراءة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «من وراء جدار» على التوحيد، والباقون «من وراء جُدُرٍ» على الجمع. وفي الشواذ قراءة أبي رجاء، وأبي حية: «جذر» بسكون الدال.

● الحجة: قال أبو علي: المعنى في الجمع أنهم لا يصحرون معكم للقتال، ولا يبرزون

سورة الحشر

لكم، ولا يقاتلونكم حتى يكون بينكم وبينهم حاجز من حصن أو سور. فإذا كان كذلك فالمعنى على الجمع، إذ ليس المعنى: يقاتلونهم من وراء جدار واحد، ولكن من وراء جدار، كما لا يقاتلونكم إلا في قرى محصنة. فكما أن القرى جماعة، كذلك الجدر ينبغي أن تكون جمعاً، فكان المراد في الأفراد الجمع، لأنه يعلم أنهم لا يقاتلونهم من وراء جدار واحد. قال ابن جني: ويجوز أن يكون «جدار» تكسير: جدار فتكون ألف جدار في الواحد كآلف كتاب، وفي الجمع كآلف ضرام وكرام، ومثله: وناق هجان، ونوق هجان، ودرع دلاص، وأدرع دلاص. قال: ومثله قوله سبحانه: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كون إماماً جمع إمام على ما شرحناه.

● الإعراب: ﴿لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من رهبتهم من الله، فحذف ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، فحذف المبتدأ، وكذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

● المعنى: لما وصف سبحانه المهاجرين الذين هاجروا الديار والأوطان، ثم مدح الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، ثم ذكر التابعين بإحسان، وما يستحقونه من النعيم في الجنان، عقب ذلك بذكر المنافقين وما أسروه من الكفر والعصيان، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ تَأَقَّصُوا﴾ فأبطنوا الكفر، وأظهروا الإيمان، ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الكفر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني يهود بني النضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ مِنْ دياركم وبلادكم لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ﴾ مساعدين لكم، ﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في قتالكم ومخاصمتكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه ووعدوهم النصر بقولهم: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لندفعن عنكم. ثم كذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولونه من الخروج معهم، والدفاع عنهم. ثم أخبر سبحانه أنهم يخلفونهم ما وعدوه من النصر والخروج بقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ أي: ولئن قدر وجود نصرهم؛ لأن ما نفاه الله تعالى لا يجوز وجوده. ﴿لَيُؤْتِيَنَّكَ الْآذِنُ﴾ أي: ينهزمون ويسلمونهم. وقيل: معناه ولئن نصرهم من يفي منهم لولوا الأدبار. فعلى هذا لا تنافي بين قوله: ﴿لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية عما لا يكون منهم أن لو كان، كيف كان يكون. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ولو كان لهم هذه القوة، وفعلوا، لم ينتفع أولئك بنصرتهم، فنزلت الآية قبل إخراج بني النضير، وأخرجوا بعد ذلك وقوتلوا، فلم يخرج معهم منافق، ولم ينصروهم، كما أخبر الله تعالى بذلك. وقيل: أراد بقوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ بني النضير وبني قريظة، فأخرج بنو النضير ولم يخرجوا معهم، وقوتل بنو قريظة فلم ينصروهم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي: خوفاً ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: في قلوب هؤلاء المنافقين ﴿مِنَ اللَّهِ﴾. المعنى: إن خوفهم منك أشد من خوفهم من الله، لأنهم يشاهدونكم ويعرفونكم ولا يعرفون الله، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق ولا يعلمون عظمة الله وشدة عقابه. ﴿لَا يُنَالُونَكُمْ﴾ معاصر المؤمنين ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ أي: ممتنعة حصينة، والمعنى أنهم لا يبرزون لحربكم، وإنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى، ﴿أَوْ مِنْ

وَرَأَوْا جُذُرًا ۖ أَي: يرمونكم من وراء الجدران بالنبل والحجر. ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوة بعضهم لبعض شديدة، يعني أنهم ليسوا بمتفقي القلوب. وقيل: معناه قوتهم فيما بينهم شديدة، فإذا لاقوكم جبنوا، ويفزعون^(١) منكم بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين في الظاهر ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: مختلفة متفرقة، خذلهم الله باختلاف كلمتهم. وقيل: إنه عنى بذلك قلوب المنافقين، وأهل الكتاب، عن مجاهد. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَتَّقُونَ﴾ ما فيه الرشد مما فيه الغي، وإنما كان في قلوب من يعمل بخلاف العقل شتى، لا اختلاف دواعيهم وأهوائهم، وداعي الحق واحد، وهو العقل الذي يدعو إلى طاعة الله، والإحسان في الفعل. ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي: مثلهم في اغترارهم بعددهم، وبقوتهم، وبقول المنافقين، كمثلي الذين من قبلهم، يعني المشركين الذين قتلوا بيد، وذلك قبل غزاة بني النضير بستة أشهر، عن الزهري وغيره. وقيل: إن الذين من قبلهم قريباً هم بني قينقاع، عن ابن عباس. وذلك أنهم نقضوا العهد مرجع رسول الله ﷺ من بدر، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا. وقال عبد الله بن أبي: لا تخرجوا فإني أتى النبي ﷺ فأكلمه فيكم، أو أدخل معكم الحصن. فكان هؤلاء أيضاً في إرسال عبد الله بن أبي إليهم، ثم ترك^(٢) نصرتهم كأولئك. ﴿ذَاقُوا وَبِآلِ أَمْرِهِمْ﴾ أي: عقوبة كفرهم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.



قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبُنَّهَا آتَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **اللغة:** أصل غد: غدو، إلا أنه لم يأت في القرآن إلا محذوف الواو، وجاء الشعر يحذف الواو، وإثباتها^(٣):

وما الناس إلا كالديار، وأهلها، بها يوم حلوها وغدوا بلاقُع
وقال آخر:

لا تَقْلُوها وأدْلُوها دَلُوا إن مع اليوم أخاها غَدُوا^(٤)

(١) في نسخة: تفرقوا، وفي أخرى: يفرقون بدل «يفزعون».

(٢) في المخطوطة: ثم تركه.

(٣) [قال الشاعر في إثباتها].

(٤) فلا الإبل: طردها، وساقها. ودلا الناقة: سيرها رويداً.

● **المعنى:** ثم ضرب سبحانه لليهود والمنافقين مثلاً فقال: ﴿كَتَلِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: مثل المنافقين في غرورهم لبني النضير وخذلانهم إياهم كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ وهو عابد بني إسرائيل، عن ابن عباس قال: إنه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصة، عبد الله زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم، ويعودهم فيبرأون على يده، وإنه أتى بامرأة في شرف قد جنت، وكان لها إخوة فأتوه بها، فكانت عنده. فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حملها قتلها ودفنها. فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتى لقي أحد إخوتها، فأخبره بالذي فعل الراهب، وأنه دفنها في مكان كذا، ثم أتى بقية إخوتها، رجلاً ورجلاً، فذكر ذلك له. فجعل الرجل يلقي أخاه فيقول: والله لقد أتاني آت، فذكر لي شيئاً يكبر عليّ ذكره. فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم، فسار الملك والناس فاستنزلوه^(١)، فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب. فلما وقع على خشبته تمثل له الشيطان. فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك أخلصك مما أنت فيه؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء. فأومى له بالسجود فكفر بالله، وقتل الرجل. فهو كقوله: ﴿كَتَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾. ضرب الله هذه القصة لبني النضير حين اغتروا بالمنافقين، ثم تبرأوا منهم عند الشدة وأسلموهم.

وقيل: أراد كمثل الشيطان يوم بدر، إذ دعا إلى حرب رسول الله ﷺ، فلما رأى الملائكة رجع القهقري، وقال: إني أخاف الله.

وقيل: أراد بالشيطان والإنسان اسم الجنس لا المعبود، فإن الشيطان أبداً يدعو الإنسان إلى الكفر، ثم يتبرأ منه وقت الحاجة، عن مجاهد. وإنما يقول الشيطان: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يوم القيامة.

ثم ذكر سبحانه أنهما صاراً إلى النار بقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: عاقبة الفريقين الداعي والمدعو، من الشيطان ومن أغواه، من المنافقين واليهود، أنهم معذبان في النار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وذلك جزاؤهم.

ثم رجع إلى موعظة المؤمنين فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني ليوم القيامة، والمعنى: لينظر كل امرئ ما الذي قدّمه لنفسه، أعمالاً صالحاً ينجي، أم سيئاً يوبقه ويرديه؟ فإنه وارد عليه. قال قتادة: إن ربكم قرب الساعة حتى جعلها كغد، وأمركم بالتدبر والتفكير فيما قدمتم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إنما كرر الأمر بالتقوى، لأن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب، والثانية لاتقاء المعاصي في المستقبل. وقيل: إن الثانية تأكيد للأولى. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوَّاهُ اللَّهُ﴾ أي: تركوا أداء حق الله ﴿فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن حرمهم حظوظهم من الخير والثواب. وقيل: نسوا الله بترك ذكره بالشكر والتعظيم،

فأنساهم أنفسهم بالعذاب الذي نسي به بعضهم بعضاً، كما قال ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ليسلم بعضكم على بعض، عن الجبائي. ويريد به: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، عن ابن عباس. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته. ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا يتساويان لأن هؤلاء يستحقون النار، وأولئك يستحقون الجنة، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بثواب الله الظافرون بطلبتهم.



قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

● **فضلهما:** عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». وعن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر الحشر، وكَلَّ الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قاله حين يمسي كان بتلك المنزلة». وعن أبي هريرة قال: سألت حبيبي رسول الله ﷺ، عن اسم الله الأعظم، فقال: «عليك بآخر سورة الحشر وأكثر قراءتها». فأعدت عليه فأعاد عليّ. وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ خواتيم الحشر، من ليل أو نهار، فقبض في ذلك اليوم أو الليلة، فقد أوجبت له الجنة» وعن أنس عن النبي ﷺ: «من قرأ لو أنزلنا هذا القرآن إلى آخرها، فمات من ليلته، مات شهيداً».

● **اللغة:** التصدع: التفرق بعد التلاؤم، ومثله التفطر. يقال: صدعه يصدعه صدعاً، ومنه الصداع في الرأس. والقدوس: المعظم بتطهير صفاته من أن تدخلها صفة نقص. قال ابن جني: ذكر سيبويه في الصفة السبوح والقدوس بالضم والفتح، وإنما باب الفُعُول للاسم، كشُبُوط وسمُور وتثُور وسقُود. والمهيمن: أصله: مئيم على مفعيل من الأمانة، فقلبت الهمزة هاء لتفخيم اللفظ بها.

● **المعنى:** ثم عظم سبحانه حال القرآن فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تقديره: لو كان الجبل مما ينزل عليه القرآن، ويشعر به مع غلظه، وجفاء طبعه، وكبر جسمه؛ لخشع لمنزله، وتصدع من خشية الله تعظيماً لشأنه، فالإنسان أحق بهذا لو عقل الأحكام التي فيه. وقيل: معناه لو كان الكلام ببلاغته، يصدع الجبل لكان

سورة الحشر

هذا القرآن يصدعه. وقيل: إن المراد ما يقتضيه الظاهر، بدلالة قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهذا وصف للكافر بالقسوة، حيث لم يَلِنْ قلبه لمواظف القرآن الذي لو نزل على جبل لتخشع. ويدل على أن هذا تمثيل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ليتفكروا ويعتبروا.

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المستحق للعباد، الذي لا تحق العبادة إلا له، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم بما يشاهده العباد، وعالم بما يغيب عنهم علمه. وقيل: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ معناه: عالم بما لا يقع عليه الحس، من المعدم والموجود الذي لا يدرك مما هو غائب عن الحواس، كأفعال القلوب وغيرها. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم بما يصح عليه الإدراك بالحواس. وقيل: معناه عالم السر والعلانية، عن الحسن. وفي هذا وصفه سبحانه بأنه عالم بجميع المعلومات، لأنها لا تعدو هذين القسمين. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: الغيب: ما لم يكن، والشهادة: ما كان. ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: المنعم على جميع خلقه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

ثم أعاد سبحانه قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ يعني: السيد المالك لجميع الأشياء، الذي له التصرف فيها، على وجه ليس لأحد منعه منه. وقيل: هو الواسع القدرة. ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي: الطاهر من كل عيب ونقص وآفة، المُنَزَّه عن القبائح. وقيل: هو الْمُطَهَّر عن الشريك والولد، لا يوصف بصفات الأجسام، ولا بالتجزئة والانقسام. وقيل: هو المبارك الذي تنزل البركات من عنده، عن الحسن.

﴿السَّلَامُ﴾ أي: الذي سلم عباده من ظلمه. وقيل: هو المسلم من كل عيب، ونقص، وآفة. وقيل: هو الذي من عنده ترجى السلامة، عن الجبائي. وهو اسم من السلامة، وأصله مصدر، فهو مثل الجلال والجلالة.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ الذي آمن خلقه من ظلمه لهم، إذ قال: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، عن ابن عباس. ^(١) وقيل: الذي آمن بنفسه قبل إيمان خلقه به، عن الحسن، وأشار إلى قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. والمعنى أنه بيّن لخلق توحيده، وإلهيته بما أقام لهم من الدلائل. وقيل: معناه الْمُصَدِّق لما وعد، الْمُحَقِّق له، كالمؤمن الذي يصدق قوله فعله. وقيل: هو الذي آمن أولياؤه عذابه. وقيل: هو الداعي إلى الإيمان الأمر به، الموجب لأهله اسمه، عن أبي مسلم.

﴿الْمُهَيِّئُ﴾ أي: الأمين حتى لا يضيع لأحد عنده حق، عن ابن عباس، والضحاك، والجبائي. وقيل: هو الشاهد، عن مجاهد، وقتادة. كأنه شهيد على إيمان من آمن به. وقيل:

هو المؤمن في المعنى، لأن أصله المؤيمن، إلا أنه أشد مبالغة في الصفة. وقيل: هو الرقيب على الشيء، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن: إذا كان رقيباً على الشيء.

﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يصح عليه القهر. وقيل: هو المنيع الذي لا يرام، ولا يمتنع عليه مرام.

﴿الْجَبَّارُ﴾ وهو العظيم الشأن في الملك والسلطان، ولا يستحق أن يوصف به على هذا الإطلاق إلا الله تعالى، فإن وصف به العباد فإنما يوضع اللفظ في غير موضعه، ويكون ذماً. وقيل: هو الذي يذل له من دونه، ولا تناله يد. وقيل: هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراد، عن السدي، ومقاتل، وهو اختيار الزجاج. فيكون من جبره على كذا إذا أكرهه. وقيل: هو الذي يجبر الفقير، من قولهم: جبر الكسير إذا أصلحه، عن واصل بن عطاء.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: المستحق لصفات التعظيم. وقيل: هو الذي يكبر عن كل سوء، عن قتادة. وقيل: هو المتعال عن صفات المحدثين، الْمُتَعَطَّمُ عما لا يليق به. ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً له عما يشرك به المشركون من الأصنام وغيرها.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ للأجسام والأعراض المخصوصة. وقيل: المُقَدِّرُ للأشياء بحكمته، المُخْدِثُ للأشياء على إرادته ﴿الْبَارِئُ﴾ المنشئ للخلق، الفاعل للأجسام والأعراض. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الذي صور الأجسام على اختلافها مثل الحيوان، والجماد. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ نحو: الله، الرحمن، الرحيم، القادر، العالم، الحي، وقد مرَّ بيانه في سورة الأعراف.

﴿يَسْجُدُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يُنَزَّهه جميع الأشياء، فالحي يصفه بالتنزيه، والجماد يدل على تنزيهه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم في ست آيات في آخر سورة الحشر».

سُورَةُ الْمُتَحِنَةِ

مدنية/آياتها (١٢)

وقيل: سورة الامتحان. وقيل: سورة المودة. مدنية، وهي ثلاث عشرة آية بالإجماع.

● **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُتَحِنَةِ، كَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ لَهُ شَفَعَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أبو حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه ونوافله، امتحن الله قلبه للإيمان، ونور له بصره، ولا يصيبه فقر أبداً، ولا جنون في ولده، ولا في بدنه.

● **تفسيرها:** وجه اتصالها بما قبلها، أنه لما ذكر سبحانه في سورة الحشر الكفار والمنافقين، افتتح هذه السورة بذكر تحريم موالاتهم، وإيجاب معاداتهم، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَى يُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنَنُ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَفْعَعْلَكُمْ أَزْوَاجَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ» بضم الياء وفتح الصاد على التخفيف. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يُفْصَلُ» بضم الياء وكسر الصاد مشدداً. وقرأ عاصم ويعقوب وسهل: «يُفْصَلُ» بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً، وقرأ ابن عامر: «يُفْصَلُ» بضم الياء وفتح الصاد مشدداً. وفي الشواذ قراءة عيسى بن عمرو «أنا براء منكم» على مثال فعال.

● **الحجة:** قال أبو علي: ذهب أبو الحسن في هذا النحو [إلى] أن الظرف أقيم مقام

الفاعل، وترك على الفتح الذي كان يجري عليه في الكلام، لجريه في أكثر الكلام منصوباً، وكذلك تقول في قوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ وكذلك يجيء قياس قوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾. فاللفظ على قوله مفتوح والموضع رفع، كما كان اللفظ في قوله: ﴿وَكُنْ بِاللهِ﴾، وما جاءني من رجل، مجزوراً، والموضع رفع. والقول في قراءة ابن عامر «يُفْصَل» مثل القول في «يُفْصَل». وقول عاصم «يُفْصَل» حسن، والضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ودل عليه قوله: ﴿وَأَنَا أَغْلَرُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ وكذلك قول من قرأ «يُفْصَل» و«بريء» في تكسيره أربعة أوجه: براء كالشريف والشرفاء، وهو قراءة الجماعة، وبراء نحو ظريف وظراف وأبرياء كصديق وأصدقاء، وبراء كقوام وزباب، وعليه بيت الحارث بن حلزة:

فإِنَّا مِنْ قَتْلِهِمْ لِبَرَاءٍ

قال الفراء: أراد براءً فحذف الهمزة التي هي لام تخفيفاً، وأخذ هذا الموضع من أبي الحسن في قوله: «إن أشياء أصله أشياء». وهذا المذهب يوجب ترك صرف بُرَاءٍ، لأنها همزة التأنيث.

● الإعراب: ذهب الزجاج إلى أن التقدير: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، ثم قال: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ﴾ على تقدير: أتلقون؟ فحذف الهمزة كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى﴾ وتقديره: أو تلك نعمة. وقيل: إن قوله: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ في موضع النصب على الحال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، والباء مزيدة، والتقدير: تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ المودة، كما قال الشاعر:

فلما رَجَتْ بالشُّربِ هَزَّ لها العصا شحيحٌ له عِنْدَ الإِزَاءِ نَهِيمٌ^(١)

أي: رجت الشرب. ويجوز أن يكون مفعول ﴿تَلْقَوْنَ﴾ محذوفاً، والياء تتعلق به، أي: تلقون إليهم ما تريدون بالمودة التي بينكم وبينهم. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ جملة في موضع نصب على الحال من «العدو» أو من «الهاء والميم» في قوله: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ﴾. ﴿وَأِيَّائَكُمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿الرَّسُولِ﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما تقدمه من الكلام عليه، أي: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. و﴿جِهَادًا﴾ مفعول له أي: للجهاد، ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال. ﴿وَأَيُّغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ معطوف عليه على الوجهين، والتقدير للحال: خرجتم مجاهدين في سبيلي مبتغيين مرضاتي. ﴿وَحَدَّوْهُ﴾ يجوز أن يكون مصدراً محذوف الزوائد، والتقدير: توحّدونه توحيداً، أو توحّدونه إichاداً، فيكون مصدراً وضع موضع الحال، ويجوز أن يكون مصدر فعل ثلاثي تقديره: يحدّ وحده، والتقدير: حتى تؤمنوا بالله واحداً. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب على الاستثناء، والمستثنى منه الضمير المستكن فيما يتعلق به اللام في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والتقدير: ثبتت لكم في إبراهيم إلا في قوله لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ.

(١) الإزاء: مصب الماء في الحوض. ونهم الأكل في الطعام: شره وحرص وإفراط الشهوة فيه. وكان لا تمتلئ عينه، ولا تشبع.

● **النزول:** نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، أتت رسول الله ﷺ، من مكة إلى المدينة بعد بدر بستين، فقال لها رسول الله ﷺ: أمسلمة جنت؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة جنت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالي واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني، وتكسوني، وتحملوني، قال: فأين أنت من شبان مكة؟ وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر. فحث رسول الله ﷺ عليها بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها نفقة، وكان رسول الله ﷺ يَتَجَهَّزُ لفتح مكة، فأثاها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاه عشرة دنانير، عن ابن عباس. وعشرة دراهم، عن مقاتل بن حيان. وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذرکم!» فخرجت سارة، ونزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، وعمر، والزبير، وطلحة، والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً، وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها. فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها، وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع. فقال علي ﷺ: والله ما كُذِّبنا، وسلَّ سيفه، وقال لها: أخرجي الكتاب، وإلا والله لأضربن عنقك. فلما رأت الجدة أخرجته من ذؤابتها، قد أخبأته في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فأثاها، فقال له: هل تعرف الكتاب، قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت عريراً فيهم، أي: غريباً. وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فغفر لهم. فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن عبد الله بن أبي رافع قال: سمعت علياً ﷺ يقول: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والمقداد، والزبير. وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب. فخرجنا، وذكر نحوه.

● **المعنى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ خاطب سبحانه المؤمنين، ونهاهم أن يتخذوا الكافرين أولياء، يوالونهم، ويستنصرونهم، وينصرونهم. ﴿وَتَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْوُدِّ﴾ أي: تلقون إليهم المودة، وتبذلون لهم النصيحة، يقال: ألقيت إليك بسري. وقيل: معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله ﷺ بالمودة التي بينكم وبينهم، عن الزجاج. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو القرآن والإسلام ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ﴿أَنْ تَقُولُوا بِإِلَهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لأن تؤمنوا وكراهة أن تؤمنوا، فكانه قال: يفعلون ذلك، لإيمانهم بالله ربكم الذي خلقكم

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَىٰ﴾ والمعنى: إن كان غرضكم في خروجكم وهجرتكم الجهاد، وطلب رضاي، فأوفوا خروجكم حقه من معاداتهم، ولا تلقوا إليهم بالمودة، ولا تتخذوهم أولياء. ﴿شُرُونُ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: تعلمونهم في السر أن بينكم وبينهم مودة. وقيل: الباء للتعليل، أي: تعلمونهم بأحوال الرسول في السر، بالمودة التي بينكم وبينهم، فعل من يظن أنه يخفى علي ما يفعله. ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ لا يخفى علي شيء من ذلك فأطلع رسولي عليه. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: ومن أسر إليهم بالمودة، وألقى إليهم أخبار رسولي منكم، يا جماعة المؤمنين بعد هذا البيان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: عدل عن طريق الحق، وجار عن سبيل الرشد. وفي هذه الآية دلالة على أن الكبيرة لا تخرج عن الإيمان، لأن أحد المسلمين لا يقول: إن حاطباً قد خرج من الإيمان بما فعله من الكبيرة الموبقة.

﴿إِنْ يَتَفَوَّكُم﴾ يعني أن هؤلاء الكفار إن يصادفوك مقهورين ويظفروا بكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِأَشْوَرٍ﴾ أي: يمدوا إليكم أيديهم بالضرب، والقتل، ويسطوا إليكم ألسنتهم بالشتم، والمعنى: إنهم يعادونكم، ولا ينفعكم ما تلقون إليهم، ولا يتركون غاية في إلحاق السوء بكم، باليد واللسان. ﴿وَوَدُّوا﴾ مع ذلك ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله كما كفروا، وترجعون عن دينكم ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ﴾ أي: ذوو أرحامكم، والمعنى: قرباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: لا يحملنكم قرباتكم، ولا أولادكم التي بمكة على خيانة النبي ﷺ والمؤمنين، فلن ينفعكم أولئك الذين عصيتهم الله لأجلهم. ﴿يَوْمَ الْآيَاتِ يَقُولُ﴾ الله ﴿يَتَنَبَّأُ﴾ فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة، وأهل الكفر والمعصية النار، ويميز بعضكم من بعض ذلك اليوم، فلا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار. وقيل: معناه يقضي بينكم من فصل القضاء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالكم. علم الله سبحانه بما عمله حاطب من مكاتبة أهل مكة حتى أخبر نبيه ﷺ بذلك.

ثم ضرب سبحانه لهم إبراهيم مثلاً في ترك موالاة الكفار فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: اقتداء حسن ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ خليل الله ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ممن آمن به واتبعوه. وقيل: الذين معه من الأنبياء، عن ابن زيد. ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُكُمْ﴾ فلا تواليكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وبراء من الأصنام التي تعبدونها. ويجوز أن يكون ما مصدرية، فيكون المعنى: ومن عبادتكم الأصنام. ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: يقولون لهم: جحدنا دينكم وأنكرنا معبودكم، ﴿وَبَدَا يَتَنَبَّأُ وَيُنَبِّئُكُمْ الْغَدَاةَ وَالْبَعْضَاءَ أَبَدًا﴾ فلا يكون بيننا موالاة في الدين ﴿حَتَّىٰ تَوَدُّوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: تصدقوا بوحداية الله، وإخلاص التوحيد والعبادة له. قال الفراء: يقول الله تعالى: أفلا تأتسي يا حاطب بإبراهيم وقومه، فتبرأ من أهلك كما تبرأوا منهم أي: من قومهم الكفار. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: اقتدوا بإبراهيم في كل أموره إلا في هذا القول، فلا تقتدوا به فيه، فإنه ﷺ إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه بالإيمان، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه. قال الحسن: وإنما تبين له ذلك عند موت أبيه، ولو لم يستثن ذلك لظن أنه يجوز الاستغفار للكفار مطلقاً، من غير موعدة بالإيمان منهم، فنهوا أن يقتدوا به في هذا خاصة، عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وقيل: كان آزر ينافق إبراهيم، ويريه أنه مسلم، ويعدده إظهار

الإسلام فيستغفر له، عن الحسن والجبائي. ثم قال: ﴿وَمَا أَمْلَأُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إذا أراد عقابك، ولا يمكنني دفع ذلك عنك. ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: وكانوا يقولون ذلك ﴿وَالْيَاكَ أَتَيْنَا﴾ أي: إلى طاعتك رجعنا ﴿وَالْيَاكَ أَلْمَصِينُ﴾ أي: إلى حكمك المرجع، وهذه حكاية لقول إبراهيم وقومه. ويحتمل أن يكون تعليماً لعباده أن يقولوا ذلك، فَيَقُوضُوا أمورهم إليه، ويرجعون إليه بالتوبة. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: لا تعذبنا بأيديهم، ولا ببلاء من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق لما أصابهم هذا البلاء، عن مجاهد. وقيل: معناه ولا تسلطهم علينا، فيفتنونا عن دينك. وقيل: معناه الطُفُّ بنا حتى نصبر على أذاهم ولا نتبعهم، فنصير فتنة لهم. وقيل: معناه اعصمنا من موالاة الكفار، فإننا إذا واليناهم ظنوا أننا صوبناهم. وقيل: معناه لا نخذلنا إذا حاربناهم، فلو خذلنا لقالوا: لو كان هؤلاء على الحق لما خذلوا. ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ ذنوبنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ﴾ الذي لا يغالب، و﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا الحكمة والصواب. وفي هذا تعليم للمسلمين أن يدعوا بهذا الدعاء.



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الْكَفِيُّ﴾ (١) عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم بينهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ (٧) لَا يَتَّبِعُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَتَّبِعُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩).

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُكُمُ اللَّهُ﴾ الآية في خزاعة، وبني مدلج، وكانوا صالحوا رسول الله على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً، عن ابن عباس.

● **المعنى:** ثم أعاد سبحانه في ذكر الأسوة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم ومن آمن معهم ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة حسنة. وإنما أعاد ذكر الأسوة لأن الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأول، فإن الثاني فيه بيان أن الأسوة فيهم كان لرجاء ثواب الله وحسن المنقلب، والأول فيه بيان أن الأسوة في المعادة للكفار. وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾، وهو بدل البعض من الكل، مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وفيه بيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله، ويخاف عقاب الآخرة، وهو قوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. وقيل: يرجو ثواب الله وما يعطيه من ذلك في اليوم الآخر. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن هذا الاقتداء بإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنين، والذين معه، فقد أخطأ حظ نفسه، وذهب عما يعود نفعه عليه، فحذفه لدلالة الكلام عليه وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الْكَفِيُّ﴾ أي: الغني عن ذلك، المحمود في جميع أفعاله، فلا يضره تولى، ولكنه ضر نفسه.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ﴾ أي: من كفار مكة ﴿مَوَدَّةً﴾ بالإسلام. قال مقاتل: لما أمر الله سبحانه المؤمنين بعداوة الكفار، عادوا أقباءهم، فنزلت هذه الآية. والمعنى: إن موالاة الكفار لا تنفع، والله سبحانه قادر على أن يوفقهم للإيمان، وتحصل المودة بينكم وبينهم، فكونوا على رجاء وطمع من الله أن يفعل ذلك، وقد فعل ذلك حين أسلموا عام الفتح، فحصلت المودة بينهم وبين المسلمين. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على نقل القلوب من العداوة إلى المودة، وعلى كل شيء يصح أن يكون مقدوراً له. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لذنوب عباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إذا تابوا وأسلموا.

﴿يَهَنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: ليس ينهاكم الله عن مخالطة أهل العهد، الذين عاهدوكم على ترك القتال، وبرهم، ومعاملتهم بالعدل. وهو قوله: ﴿أَن تَزُوهُمْ وَتُقْطِعُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: وتعزلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد، عن الزجاء. وقيل: إن المسلمين استأمروا النبي ﷺ في أن يبرؤا أقباءهم من المشركين، وذلك قبل أن يؤمروا بقتال جميع المشركين، فنزلت هذه الآية، وهي منسوخة بقوله: ﴿فَأَقْضُوا الصَّكُوفَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، عن ابن عباس، والحسن، وقادة. وقيل: إنه عني بالذين لم يقاتلوكم من آمن من مكة، ولم يهاجر، عن قتادة. وقيل: هي عامة في كل من كان بهذه الصفة، عن ابن الزبير. والذي عليه الإجماع أن: بر الرجل من يشاء من أهل الحرب، قرابة كان أو غير قرابة، ليس بمحرم، وإنما الخلاف في إعطائهم مال الزكاة، والفطرة، والكفارات، فلم يجوز أصحابنا، وفيه خلاف بين الفقهاء. وقوله: ﴿أَن تَزُوهُمْ﴾ في موضع جر بدل من ﴿الَّذِينَ﴾، وهو بدل الاشتمال، وتقديره: لا ينهاكم الله عن أن تبرؤ الذين لم يقاتلوكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: العادلين. وقيل: يحب الذين يجعلون لقراباتهم قسطاً مما في بيوتهم من المطعومات.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَهَنِكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: منازلكم وأماكنكم ﴿وَوَضَعُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا على ذلك، وعاضدوهم، وهم العوام والأنباع عاونوا رؤساءهم على الباطل ﴿أَن تُولَّوهُمْ﴾ أي: ينهاكم الله عن أن تولوهم وتوادوهم وتحبوهم، والمعنى: إن مكاتبكم بينهم ^(١) بإظهار سر المؤمنين، موالاة لهم ﴿وَمَنْ يُولَّهُمْ﴾ منكم، أي: يوالهم وينصرهم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يستحقون بذلك العذاب الأليم.



قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَءَاثُهُنَّ مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(١) في نسختين: مكاتبهم بدل مكاتبكم بينهم.

سورة الممتحنة

وَأَن فَاتَكُمُ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُم إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكُتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا
وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «ولا تمسكوا» بالتشديد، والباقون: «ولا تمسكوا» بالتخفيف. وفي الشواذ قراءة الأعرج: «فعقبتم» بالتشديد، وقراءة النخعي، والزهري، ويحيى بن يعمر بخلاف: «فعقبتم» خفيفة القاف من غير ألف. وقراءة مسروق: «فعقبتم» بكسر القاف من غير ألف، والقراءة المشهورة: «فعاقبتهم» وقرأ مجاهد «فأعقبتم».

● **الحجة:** حجة من قرأ: «لا تمسكوا» قوله: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُمْ ضِرَارًا﴾، ﴿أَمْسَاكُ عَلَيْكَ رَوْحُكَ﴾ وحجة من قال: «ولا تمسكوا» قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يقال: أمسكت بالشيء، ومسكت به، وتمسكت به. قال ابن جني: روي عن قطرب، قال: «فعاقبتهم» أصبتم عقبي منهن، يقال: عاقب الرجل شيئاً إذا أخذ شيئاً، وأنشد لطرفة:

فَعَقَبْتُمْ بِذُنُوبٍ غَيْرَ مَرٍّ

جمع مرّة، فسروه على ^(١) أعطيتهم وعدتم. وقال في قوله: ﴿وَلَمْ يَعْقَبْ﴾: لم يرجع، وحكي عن الأعمش أنه قال: عقيبتهم غنيمتهم، وقد يجوز أن يكون «عقبتم» بوزن غنمتم وبمعناه جميعاً. روي أيضاً بيت طرفة: فعقبتم بكسر القاف. وحكى أبو عوانة، عن المغيرة قال: قرأت على إبراهيم ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ فأخذها على «فعقبتم» خفيفة، ومعنى أعقبتم: صنعتهم بهم مثل ما صنعوا بكم.

● **النزول:** قال ابن عباس: صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة، على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم، ولم يردوه عليه. وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، والنبى ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، وقال مقاتل: هو صيفي ^(٢) بن الراهب، في طلبها، وكان كافراً. فقال يا محمد! اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله. فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضاً لزوجها، ولا عشقاً لرجل منا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك. فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردّها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب. فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن، ويعطي أزواجهن مهورهن.

قال الزهري: ولما نزلت هذه الآية وفيها قوله: ﴿وَلَا تُنْكِرُوا بِعَصِمِ الْكَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قرنية^(١) بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة^(٢)، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرويل الخزاعية، أم عبد الله بن عمر، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم، رجل من قومه، وهما على شركهما، وكانت عند طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب. ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر. وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة عند قومها كافرة، ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية. وكانت ممن فرت إلى رسول الله من نساء الكفار، فحبسها وزوجها خالداً، وأميمة بنت بشر، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرت منه وهو يومئذ كافر إلى رسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله سهل بن حنيف، فولدت عبد الله بن سهل.

قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع، فأسلمت ولحقت بالنبي ﷺ في المدينة، وكان أبو العاص مشركاً بمكة. ثم أتى المدينة فأمنته زينب، ثم أسلم فردها عليه رسول الله.

وقال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، ولم يجز للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، جاءت مسلمة مهاجرة من مكة، فجاء أخوها إلى المدينة، فسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء». فلم يردها عليهما. قال الجبائي: وإنما لم يجز هذا الشرط في النساء، لأن المرأة إذا أسلمت لم تحل لزوجها الكافر، فكيف ترد عليه، وقد وقعت الفرقة بينهما؟.

● المعنى: لما قطع سبحانه الموالاة بين المسلمين والكافرين، بيّن حكم النساء المهاجرات وأزواجهن، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ بالإيمان، أي: استوصفوهن الإيمان، وسماهن مؤمنات قبل أن يؤمن، لأنهن اعتقدن الإيمان. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَّبِعْنَ﴾ أي: كنتم تعلمون بالامتحان ظاهر إيمانهن، والله يعلم حقيقة إيمانهن في الباطن. ثم اختلفوا في الامتحان على وجوه:

أحدها: إن الامتحان أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عن ابن عباس.

وثانيها: ما روي عن ابن عباس أيضاً في رواية أخرى: إن امتحانهم أن يحلفن ما خرجن إلا للدين، والرغبة في الإسلام، ولحب الله ورسوله، ولم يخرجن لبغض زوج ولا لالتماس دين، وروي ذلك عن قتادة.

وثالثها: إن امتحانهم بما في الآية التي بعد وهو: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، عن عائشة.

(٢) ليس في بعضها لفظه: «بمكة».

(١) في المخطوطة: قريبة بدل قرنية.

سورة الممتحنة

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ يعني في الظاهر ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: لا تردوهن إليهم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وهذا يدل على وقوع الفقرة بينهما بخروجهما مسلمة، وإن لم يطلق المشرك ﴿وَأَنَّهُمْ مَّا أَنفَقُوا﴾ أي: وآتوا أزواجهن الكفار عليهن من المهر، عن ابن عباس، ومجاهد، وقطادة. قال الزهري: لولا الهدنة لم يُرد إلى المشركين الصداق كما كان يفعل قبل. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي: ولا جناح عليكم معاشر المسلمين أن تنكحوا المهاجرات، إذا أعطيتموهن مهورهن التي يستحل بها فروجهن، لأنهن بالإسلام قد بنَّ من أزواجهن. ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ أي: لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمي النكاح عصمة لأن المنكوحة تكون في حبال الزوج وعصمته. وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة، سواء كانت حربية أو ذمية، وعلى كل حال، لأنه عام في الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب.

﴿وَسَأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ﴾ أي: إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة، فاسألوهما ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ولم يدفعوها إليكم، كما يسألونكم مهور نسائهم إذا هاجرن إليكم، وهو قوله: ﴿وَلَسَأَلُوا مَّا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ﴾ يعني: ما ذكر الله في هذه الآية ﴿حَكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل ويأمر به. قال الحسن: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر، والكافرة تحت المسلم، فنسخته هذه الآية. قال الزهري: ولما نزلت هذه الآية آمن المؤمنون بحكم الله، وأدوا ما أمر به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرروا بحكم الله فيما أمرهم به، من أداء نفقات المسلمين، فنزل ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: أحد من أزواجكم ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾، فلحقن بهم مرتدات ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ معناه: فغزوتهم وأصبتهم من الكفار عقبى، وهي الغنيمة. فظفرتهم، وكانت العقابة لكم. وقيل: معناه فخلقتهم^(١) من بعدهم وصار الأمر إليكم، عن مؤرج. وقيل: إن عقب وعاقب مثل صغر وصاغر بمعنى، عن الفراء. وقيل: عاقبتهم بمصير أزواج الكفار إليكم، إما من جهة سبي، أو مجيئهن مؤمنات، عن علي بن عيسى. ﴿فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ أي: نساؤهم من المؤمنين ﴿يَتَلَّ مَّا أَنفَقُوا﴾ من المهور عليهن من رأس الغنيمة، وكذلك من ذهبت زوجته إلى من بينكم وبينه عهد، فنكث في إعطاء المهر، فالذي ذهبت زوجته يعطي المهر من الغنيمة، ولا ينقص شيئاً من حق، بل يعطي كاملاً، عن ابن عباس والجبائي.

وقيل: معناه إن فاتكم أحد من أزواجكم إلى الكفار الذين بينكم وبينهم عهد، فغنمتهم، فأعطوا زوجها صداقها الذي كان ساق إليها من الغنيمة. ثم نسخ هذا الحكم^(٢) في براءة، فنبت إلى كل عهد عهده، عن قتادة. وقال علي بن عيسى: معناه فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من المهور، كما عليهم أن يردوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم.

(٢) في المخطوطة سورة براءة.

(١) في نسخة فلحقتم بدل فخلقتهم.

﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: اجتنبوا معاصي الله الذي أنتم تصدقون به، ولا تجاوزوا أمره. وقال الزهري: فكان جميع من لحق المشركين من نساء المؤمنين المهاجرين، راجعات عن الإسلام، ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عياض بن شداد الفهري. وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة، أخت أم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب. فلما أراد عمر أن يهاجر، أبت وارتدت. وبروع^(١) بنت عقبة، كانت تحت شماس ابن عثمان. وعبدية بنت عبد العزى بن فضلة، وزوجها عمرو بن عبدود. وهند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل. وكلثوم بنت جرول، وكانت تحت عمر. فأعطاهم رسول الله ﷺ مهر نسايتهم من الغنيمة.



قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُوءُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣).

● **الإعراب:** ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: من بعث أصحاب القبور، فحذف المضاف. ويجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ تبييناً للكفار، والتقدير: كما يبس الكفار الذين هم من أصحاب القبور من الآخرة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه بيعة النساء، وكان ذلك يوم فتح مكة، لما فرغ النبي ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا، جاءته النساء يبايعنه، فنزلت هذه الآية. فشرط الله تعالى في مبايعتهن أن يأخذ عليهن هذه الشروط، وهو قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ﴾ على هذه الشرائط وهي ﴿لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ لا من أزواجهن ولا من غيرهم ﴿وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ على وجه من الوجوه لا بالوآد، ولا بالإسقاط، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ أي: بكذب يكذبه في مولود يوجد ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، عن ابن عباس. وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها. وليس المعنى على نهيهن من أن يأتين بولد من الزنا، فينسبونه إلى الأزواج، لأن الشرط بنهي الزنا قد تقدم. وقيل: البهتان الذين نهين عنه قذف المحصنات، والكذب على الناس، وإضافة الأولاد إلى الأزواج على البطلان، في الحاضر

والمستقبل من الزمان ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وهو جميع ما يأمرهن به، لأنه لا يأمر إلا بالمعروف، والمعروف نقيض المنكر، وهو كل ما دل العقل والسمع على وجوبه أو نديه. وسمي معروفاً لأن العقل يعترف به، من جهة عظم حسنه ووجوبه. وقيل: عنى بالمعروف النهي عن النوح وتمزيق الثياب، وجز الشعر، وشق الجيب، وخمش الوجه، والدعاء بالويل، عن المقاتلين والكلبي. والأصل أن المعروف كل بر، وتقوى، وأمر وافق طاعة الله تعالى ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ﴾ على ذلك ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ﴾ أي: اطلب من الله أن يغفر لهن ذنوبهن ويسترها عليهن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: صفوح عنهن ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهن.

وروي أن النبي ﷺ بايعهن، وكان على الصفا، وكان عمر أسفل منه، وهند بنت عتبة متنتبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﷺ، فقال: أبايعلن على ألا تشركن بالله شيئاً. فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأييناك أخذته على الرجال. وذلك أنه بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال ﷺ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل ممسك، وإنني أصبت من ماله هتات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر، فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال ﷺ: ولا تزنين، فقالت هند: أو تزني الحرة؟ فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية، فقال ﷺ: ولا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، وأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم النبي ﷺ، ولما قال: ولا تأتين ببهتان، فقالت هند: والله إن البهتان قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد، ومكارم الأخلاق. ولما قال: ولا يعصينك في معروف، فقالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

وروى الزهري عن عروة، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية ﴿لَا يَشْرِكُكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، إلا امرأة يملكها. رواه البخاري في «الصحيح».

وروي أنه ﷺ كان إذا بايع النساء، دعا بقدر ماء فغمس فيه يده، ثم غمسن أيديهن فيه. وقيل: إنه كان يبايعهن من وراء الثوب، عن الشعبي.

والوجه في بيعه النساء، مع أنهن لسن من أهل النصرة بالمحاربة، هو أخذ العهد عليهن بما يصلح من شأنهن في الدين، والأنفس، والأرواح، وكان ذلك في صدر الإسلام، ولثلاً يفتق بهن فتق، لما وضع من الأحكام، فبايعهن النبي ﷺ حسماً لذلك.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتولوا اليهود. وذلك أن جماعة من فقراء المسلمين، كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتواصلون إليهم بذلك، فيصيبون من ثمارهم، فنهى الله عن ذلك، عن المقاتلين. وقيل: أراد جميع الكفار، أي: لا تتخذوا كافراً من الكفار أولياء. ثم وصف الكفار فقال: ﴿قَدْ

يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْآخِرَةِ ۖ أَي: من ثواب الآخرة ﴿كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ يعني أن اليهود بتكذيبهم محمداً ﷺ ، وهم يعرفون صدقه، وأنه رسول، قد يئسوا من أن يكون لهم في الآخرة حظ وخير، كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور، من أن يكون لهم في الآخرة حظ، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله، عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وقيل: كما يئس كفار العرب من أن يحيا أهل القبور أبداً، عن الحسن. وقيل: كما يئس الكفار من أن ينالهم خير من أصحاب القبور. وقيل: يريد بالكفار هاهنا الذين يدفنون الموتى، أي: يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من الآخرة، كما يئس الذين دفنوا الموتى منهم.

● **النظم:** ختم الله سبحانه السورة بالأمر بقطع الموالاة من الكفار، كما افتتحها به.

jabir.abbas@yahoo.com

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية/آياتها (١٤)

وتسمى سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام، مدنية، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف.

● **فضلها:** أنبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة عيسى عليه السلام، كان عيسى مصلياً عليه، مستغفراً له، ما دام في الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقه». أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة الصف وأدمن قراءتها في فرائضه ونوافله، صفه الله مع ملائكته، وأنبيائه المرسلين.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه السورة بقطع موالاة الكفار، افتتح هذه السورة بإيجاب ذلك ظاهراً وباطناً، ثم بالأمر بالجهاد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ② ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ③ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُ مَرْصُوسٌ﴾ ④ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا لِمَ تَقُولُونَ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ⑤.

● **اللغة:** المقت: البغض. والرُّص: إحكام البناء، يقال: رصصت البناء، أي: أحكمته، وأصله من الرصاص، أي: جعلته، كأنه بُني من الرصاص لتلازمه، وشدة اتصاله.

● **الإعراب:** ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ حذف الألف من «ما» لشدة الاتصال، مع ضعف حرف الاعتلال آخر الكلام، لأنه حرف تغيير في موضع تغيير. ﴿مَقْتًا﴾ نصب على التمييز. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ﴿كَبُرَ﴾، والتقدير: كبر هذا القول مقْتًا عند الله. وقيل: إن الفاعل مضمَر فيه، والتقدير: كبر المقت مقْتًا عند الله، نحو: نعم رجلاً زيد، والمخصوص بالذم ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾. ﴿صَفًّا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: مصطفىين.

● **النزول:** نزل قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في المنافقين، عن الحسن. وقيل: نزل في قوم كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لم نفر، ولم نرجع عنهم، ثم لم يفوا بما قالوا وأنقلوا يوم أحد، حتى شجَّ وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، عن مقاتل والكلبي. وقيل: نزلت

في قوم قالوا: جاهدنا وأبلىنا وفعلنا، ولم يفعلوا وهم كذبة، عن قتادة^(١). وقيل: لما أخبر الله سبحانه رسوله بشواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعد قتالاً لثُفرغُن فيه وُسعنا. ثم فرُّوا يوم أحد، فعيرهم الله تعالى بذلك، عن محمد بن كعب. وقيل: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: ودنا لو أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به. فأخبرهم الله أن أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه، والجهاد، فكره ذلك ناس وشق عليهم، وتباطأوا عنه، فنزلت الآية، عن ابن عباس. وقيل: كان رجل يوم بدر قد أذى المسلمين، فقتله صهيب في القتال، فقال رجل: يا رسول الله، قتلت فلاناً، ففرح بذلك رسول الله ﷺ، فقال عمرو عبد الرحمن لصهيب: أخبر النبي ﷺ أنك قتلت، وأن فلاناً ينتحله، فقال صهيب: إنما قتلت الله ورسوله، فقال عمرو^(٢) عبد الرحمن: يا رسول الله، إنما قتله صهيب، فقال: كذلك يا أبا يحيى؟ قال: نعم يا رسول الله. فنزلت الآية، والآية الأخرى، عن سعيد بن المسيب.

● **المعنى:** ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرّ تفسيره. وإنما أعيد هاهنا، لأنه استفتاح السورة بتعظيم الله، من جهة ما سبّح له بالآية التي فيه، كما يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم. وإذا دخل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به. ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قيل: إن الخطاب للمنافقين، وهو تقرير لهم بأنهم يظهرون الإيمان ولا يبطنون. وقيل: إن الخطاب للمؤمنين، وتعبير لهم أن يقولوا شيئاً ولا يفعلونه. قال الجبائي: هذا على ضربين:

أحدهما: أن يقول: سأفعل، ومن عزمه ألا يفعله، فهذا قبيح مذموم.

والآخر: أن يقول: سأفعل، ومن عزمه أن يفعله، والمعلوم أنه لا يفعله، فهذا قبيح، لأنه لا يدري أيفعله أم لا. وينبغي في مثل هذا أن يقرن بلفظة: إن شاء الله.

﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: كبر هذا القول وعظم مقتاً عند الله وهو أن تقولوا ما لا تفعلون. وقيل معناه: كبر أن تقولوا ما لا تفعلونه، وتعدوا من أنفسكم ما لا تفون به مقتاً عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: يصفون أنفسهم عند القتال صفّاً. وقيل: يقاتلون في سبيله مصطفين. ﴿كَأَنَّهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ كأنه بني بالرصاص لتلاؤمه، وشدة اتصاله. وقيل: كأنه حائط ممدود، رُصّ على البناء في إحكامه واتصاله واستقامته. أعلم الله سبحانه أنه يحب من ثبت في القتال ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص، ومعنى محبة الله إياهم أنه يريد ثوابهم ومنافعهم.

ثم ذكر سبحانه حديث موسى في صدق نيته، وثبات عزيمته على الصبر في أذى قومه، تسلية للنبي ﷺ في تكذيبهم إياه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذا إنكار عليهم إيذائه، بعد ما علموا أنه رسول الله، والرسول

(٢) في نسخة عمرو بن عبد الرحمن في الموضعين.

(١) في نسخة: مقاتل بدل قتادة.

يُعْظَمُ وَيُجَلُّ وَلَا يُؤْذَى. وكان قوم آذوه بأنواع من الأذى، وهو قولهم: اجعل لنا إلهاً، واذهب أنت وربك فقاتلا، وما روي في قصة قارون أنه دس إليه امرأة وزعم أنه زنى بها، ورموه بقتل هارون. وقيل: إن ذلك حين رموه بالأدرة، وقد ذكرنا ذلك عند قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُوا مُوسَى﴾، الآية. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما مالوا عن الحق والاستقامة، خلاهم وسوء اختيارهم، ومنعهم الألفاف التي يهدي بها قلوب المؤمنين، كقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، عن أبي مسلم. وقيل: أزاع الله قلوبهم عما يحبون إلى ما يكرهون، ولا يجوز أن يكون المراد أزاع الله قلوبهم عن الإيمان، لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيغ أحداً عن الإيمان. وأيضاً فإنه يخرج الكلام عن الفائدة، لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد حصلوا كفاراً، فلا معنى لقوله: أزاعهم الله عن الإيمان. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهديهم الله إلى الثواب، والكرامة والجنة التي وعدها المؤمنين. وقيل: لا يفعل بهم الألفاف التي يفعلها بالمؤمنين، بل يخليهم واختيارهم، عن أبي مسلم.



قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

● **القراءة:** فتح أهل البصرة، والحجاز، وأبو بكر «الياء» من قوله: ﴿مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، ولم يفتحها الباقون. وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير أبي بكر: «مُتِمُّ نُورِهِ» مضافاً، والباقيون: «مُتِمُّ نُورَهُ» بالنصب والتنوين.

● **الحجة:** الإضافة ينوي بها الانفصال، كما في قوله: ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا أُنْأَقَةً﴾ و﴿ذَاقَةُ الْكُوتِ﴾، والنصب في ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ على أنه في حال الفعل وفيما يأتي.

● **الإعراب:** قوله: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ في موضع جر لكونه وصفاً للرسل، كما في قوله: ﴿يَأْتِي﴾ في موضع جر أيضاً. وتقديره: اسمه قول أحمد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وكذلك قوله: ﴿يُحْدِثُونَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: يجدون ذكره مكتوباً ألا ترى أن الشخص لا يكتب، كما أن «أحمد» عبارة عن الشخص، والاسم قول، والقول لا يكون الشخص. وخبر المبتدأ يكون المبتدأ في المعنى. ومفعول قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ محذوف، وتقديره: يريدون ذم الإسلام، أو يريدون هذا القول ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: لإطفاء نور الله. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه بقصة عيسى عليه السلام، على قصة موسى، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ آي: واذكر إذ قال عيسى بن مريم لقومه الذين بعث إليهم: ﴿يَكُنْ بِكُمْ مِصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّزُولِ﴾ المنزلة على موسى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ يعني نبينا محمداً ﷺ، كما قال الشاعر:

صَلَّى إِلَهِهَ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدٍ
ولهذا الاسم معنيان:

أحدهما: أن يجعل ﴿أَحْمَدُ﴾ مبالغة من الفاعل، أي: هو أكثر حمداً لله من غيره.
والآخر: أن يجعل مبالغة من المفعول، أي: يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يحمد غيره.

وصحت الراية عن الزهري، عن محمد بن جبير بن المطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء: أنا أحمد، وأنا محمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي». أوردته البخاري في «الصحيح».

وقد تضمنت الآية أن عيسى بشر قومه بمحمد ﷺ، وبنبوته، وأخبرهم برسالته. وفي هذه البشرية معجزة لعيسى عليه السلام عند ظهور محمد ﷺ، وأمر لأمته أن يؤمنوا به عند مجيئه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلالات الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: من أشد ظلماً ممن اختلق الكذب على الله، وقال لمعجزاته: سحر، وللرسول: إنه ساحر كذاب. ﴿وَهُوَ يَدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ الذي فيه نجاته. وقيل: يدعى إلى الاستسلام لأمره، والانقياد لطاعته. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بفعل الكفر والمعاصي. قال ابن جريج: هم الكفار والمنافقون، ويدل عليه قوله بعد: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: يريدون إذهاب نور الإيمان، والإسلام، بفاسد الكلام الجاري مجرى تراكم الظلام، فمثلهم فيه كمثل من حاول إطفاء نور الشمس بفيه. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي: مظهر كلمته ومؤيد نبيه، ومعلن دينه وشريعته ومبلغ ذلك غايته. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَى﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة له، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو دين الإسلام وما تعبد به الخلق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بالحجة والتأييد والنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وفي هذه دلالة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ، لأنه سبحانه قد أظهر دينه على جميع الأديان، بالاستعلاء والقهر، وإعلاء الشأن، كما وعده ذلك في حال الضعف، وقلة الأعوان. وأراد بالدين جنس الأديان، فلذلك أدخل الألف واللام. وروى العياشي بالإسناد عن عمران بن ميثم، عن عباية، أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أظهر بعد ذلك؟ قالوا: نعم، قال: كلا، فالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشياً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَحْزَقٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّعُّونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتِكُمْ طَبِيعَةٌ فِي جَنَّتِ عَذْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «تنجيكم» بالتشديد، والباقون: «تنجيكم» بالتخفيف. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «أنصاراً» بالتنوين، «الله» بغير ألف، والباقون: «أنصارُ الله» بالإضافة إلى الله.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «تنجيكم» بالتشديد قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وحجة التخفيف ﴿فَأَجْنَحَهُ اللَّهُ مِنْ بَنِي النَّارِ﴾.

● **اللغة:** التجارة: طلب الربح في شراء المتاع، واستعير هنا لطلب الربح في أعمال الطاعة. والجهاد: مقاتلة العدو.

● **الإعراب:** إنما جاز ﴿تَوَّعُّونَ بِاللَّهِ﴾ مع أنه محمول على ﴿يَجْعَلُهُ﴾ وخبر عنها، ولا يصح أن يقال للتجارة: تؤمنون، وإنما يقال^(١): وأن تؤمنوا بالله، لأنه جاء على طريق ما يدل على خبر التجارة لا على نفس الخبر. إذ الفعل يدل على مصدره، وإنما انعقاده بالتجارة في المعنى لا في اللفظ. وفي ذلك توطئة لما يبنى على المعنى في الإيجاز^(٢)، والعرب تقول: هل لك في خير تقوم إلى فلان فتعوده، وأن تقوم إليه. وقوله: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في كونه مجزوماً وجهان:

أحدهما: إنه جواب «هل أدلكم» وهو قول الفراء، وأنكره أصحابنا البصريون، وقالوا: إن الدلالة على التجارة لا توجب المغفرة.

والآخر: إنه محمول على المعنى، لأن قوله: ﴿تَوَّعُّونَ بِاللَّهِ﴾ معناه: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله، وهو أمر جاء على لفظ الخبر. ويدل على ذلك قراءة عبد الله بن مسعود «آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا» ولا يمتنع أن يأتي الأمر بلفظ الخبر، كما أتى بلفظ الأمر في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ المعنى: فمد له الرحمن مداً، لأن القديم تعالى لا يأمر نفسه، ومثل نفسه. ﴿أَتَسْتَعْجِلُ بِهِمْ وَأَبْصُرُ﴾ لفظه أمر ومعناه خبر.

(١) كذا في النسخ والظاهر زيادة الواو.

(٢) في المخطوطة: «الإتجار» بدل «الإيجاز».

ويجوز أن يكون قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ مرفوعاً بسقوط أن. والموصول والصلة في موضع جر على البدل من ﴿يَحْزَنُ﴾، وتقديره: هل أدلكم على تجارة إيمان بالله. وقوله: ﴿وَأُخْرَى﴾ في موضع جر بأنها صفة لموصوف محذوف، مجرور بالعطف على تجارة، تقديره: على تجارة أخرى محبوبة.

وقال الزجاج: تقديره: لكم تجارة أخرى، فعلى هذا يكون ﴿وَأُخْرَى﴾ صفة موصوف محذوف مرفوع بالابتداء. ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ صفة بعد صفة. ﴿نَصْرٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي نصر من الله. ﴿مَنْ أَصْكَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: ﴿إِلَى﴾ هاهنا بمعنى: مع، أي: مع الله.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الرسول، عقبه سبحانه بذكر الدعاء إلى قبول قوله ونصرتة، والعمل بشريعته، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهو خطاب للمؤمنين على العموم. وقيل: هو خطاب لمن تقدم ذكرهم في أول السورة. ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى يَحْزَنُ شَيْكُرٌ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ صورته صورة العرض، والمراد به الأمر على سبيل التلطف في الاستدعاء إلى الإخلاص من الطاعة. والمعنى: هل ترغبون في تجارة منجية من العذاب الأليم، وهو الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وذلك قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. وإنما أنزل هذا لما قالوا: لو نعلم أي الأعمال أفضل وأحب إلى الله لعملنا؟ فجعل الله سبحانه ذلك العمل بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيها رضى الله، والفوز بالثواب، والنجاة من العقاب. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما وصفته وذكرته لكم أنفع لكم، وخير عاقبة لو علمتم ذلك واعترفتم بصحته. وقيل أن معناه: إن التجارة التي دللتكم عليها خير لكم من التجارة التي أنتم مشتغلون بها، لأنها تؤدي إلى ربح لا يزول ولا يبيد، وهذه تؤدي إلى ربح يزول ويبيد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضار الأشياء ومنافعها. ﴿يَقِفَرُ لَكُمْ دُونُكُمْ﴾ أي: فإنكم إلى عملتم بذلك ﴿يَقِفَرُ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيَذْخَلُكُمْ حَتَّى تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾ أي: مواضع تسكنونها مستلذة مستطابة ﴿فِي حَتَّى عَيْنٍ﴾ أي: إقامة لا تبغون عنها حولاً، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لا ما يعده الناس فوزاً من طول البقاء، وولاية الدنيا.

وسأل الحسن عمران بن الحصين وأبا هريرة عن تفسير قوله: ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي حَتَّى عَيْنٍ﴾ فقالا: على الخبر سقطت، سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «قصر من لؤلؤ في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة. قال: ويعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله».

ثم قال سبحانه: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وتجارة أخرى، أو خصلة أخرى تحبونها عاجلاً مع ثواب الآجل. وهذا من الله تعالى زيادة ترغيب، إذ علم سبحانه أن فيهم من يحاول عاجل النصر، إما رغبة في الدنيا، وإما تأييداً للدين، فوعدهم ذلك بأن قال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

أي: تلك الخصلة أو تلك التجارة، نصر من الله لكم على أعدائكم، وفتح قريب لبلادهم، يعني النصر على قريش، وفتح مكة، عن الكلبي. وقيل: يريد فتح فارس والروم، وسائر فتوح الإسلام على العموم، عن عطاء. و﴿قَرِيبٌ﴾ معناه: قريب كونه. وقيل: قريب منكم يقرب الرجوع إلى أوطانكم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بَشِّرْهُمْ بهذين الثوابين عاجلاً وأجلاً على الجهاد، وهو النصر في الدنيا، والجنة في العقبى.

ثم حضَّ سبحانه المؤمنين على نصره دينه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه وأعداء نبيه، وإنما أضاف إلى نفسه، كما يقال للكعبة: بيت الله. وقيل لحمزة بن عبد المطلب: أسد الله. المعنى: دوموا على ما أنتم عليه من النصرة. ﴿كَأَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: مثل قول عيسى بن مريم للحواريين، وهم خاصة الأنبياء، وسموا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب، عن الزجاج. وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم. وقيل: لأنهم كانوا قصارين. ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ والمعنى: قل يا محمد: إني أدعوكم إلى هذا الأمر، كما دعا عيسى قومه، فقال: من أنصاري مع الله، بنصرني مع نصرة الله إياي وقيل: إلى الله، أي: فيما يقرب إلى الله، كما يقال: اللهم منك وإليك. ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: أنصار دين الله وأولياء الله. وقيل: إنهم إنما سموا نصارى، لقولهم: نحن أنصار الله. ﴿فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: صدقت بعيسى ﴿وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ﴾ به. قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام، وذلك أنه لما رُفِعَ تفرق قومه ثلاث فرق، فرقة قالت: كان الله فارفع، وفرقة قالت: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المؤمنون. واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين، حتى بعث محمد ﷺ؛ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرين. وذلك قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: عالين غالبين. وقيل معناه: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة، بتصديق محمد ﷺ، بأن عيسى كلمة الله وروحه، عن إبراهيم. وقيل: بل أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى، عن مجاهد. وقيل معناه: فأمنت طائفة من بني إسرائيل بمحمد ﷺ، وكفرت طائفة به، فأصبحوا قاهرين لعدوهم بالحجة والقهر والغلبة. وبالله التوفيق.

تم المجلد التاسع من كتاب مجمع البيان

ويليه المجلد العاشر والأخير

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة فصلت	٥
سورة الشورى	٢٨
سورة الزخرف	٥١
سورة الدخان	٧٨
سورة الجاثية	٩١
سورة الأحقاف	١٠٥
سورة محمد	١٢٢
سورة الفتح	١٣٩
سورة الحجرات	١٦٤
سورة ق	١٧٨
سورة الذاريات	١٩٣
سورة الطور	٢٠٧
سورة النجم	٢١٨
سورة القمر	٢٣٦
سورة الرحمن	٢٥٠
سورة الواقعة	٢٧٢
سورة الحديد	٢٩٣
سورة المجادلة	٣١٣
سورة الحشر	٣٢٥
سورة الممتحنة	٣٤٠
سورة الصف	٣٥٢

